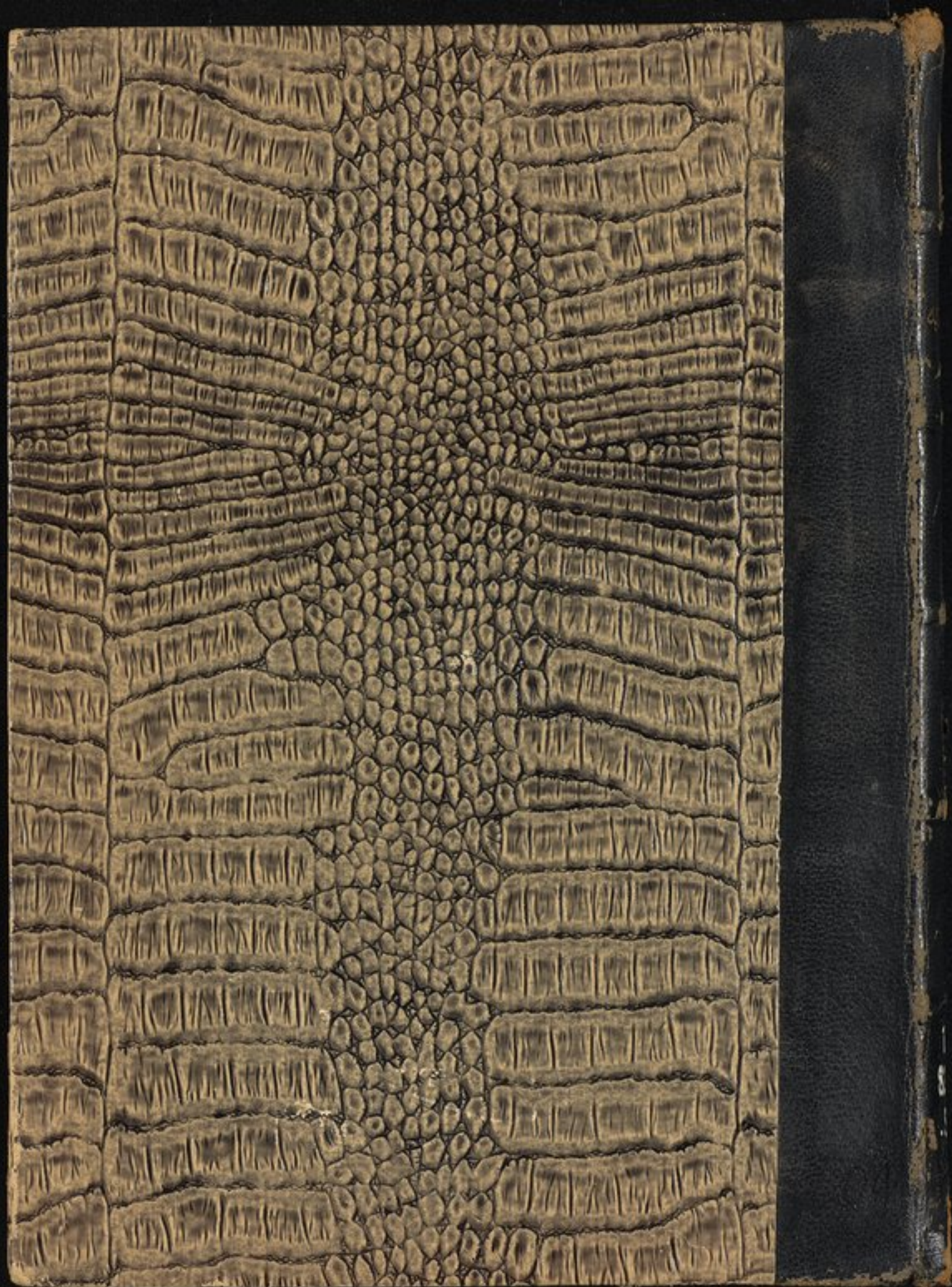
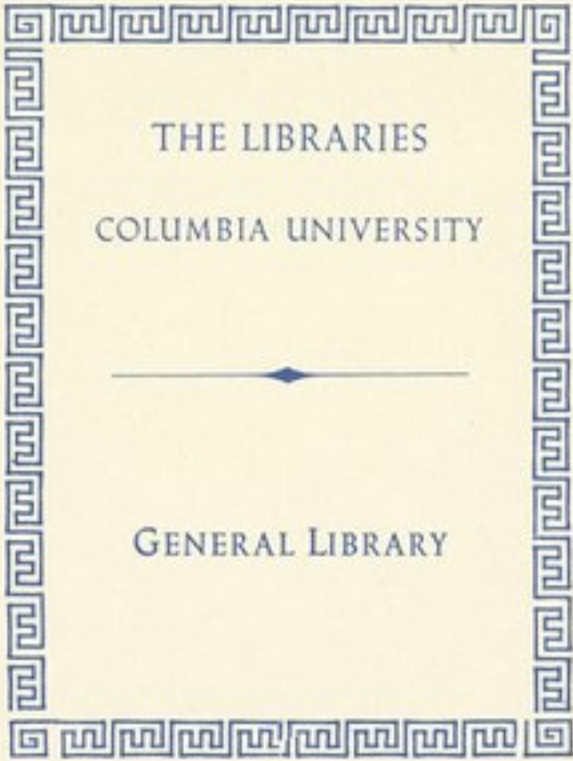
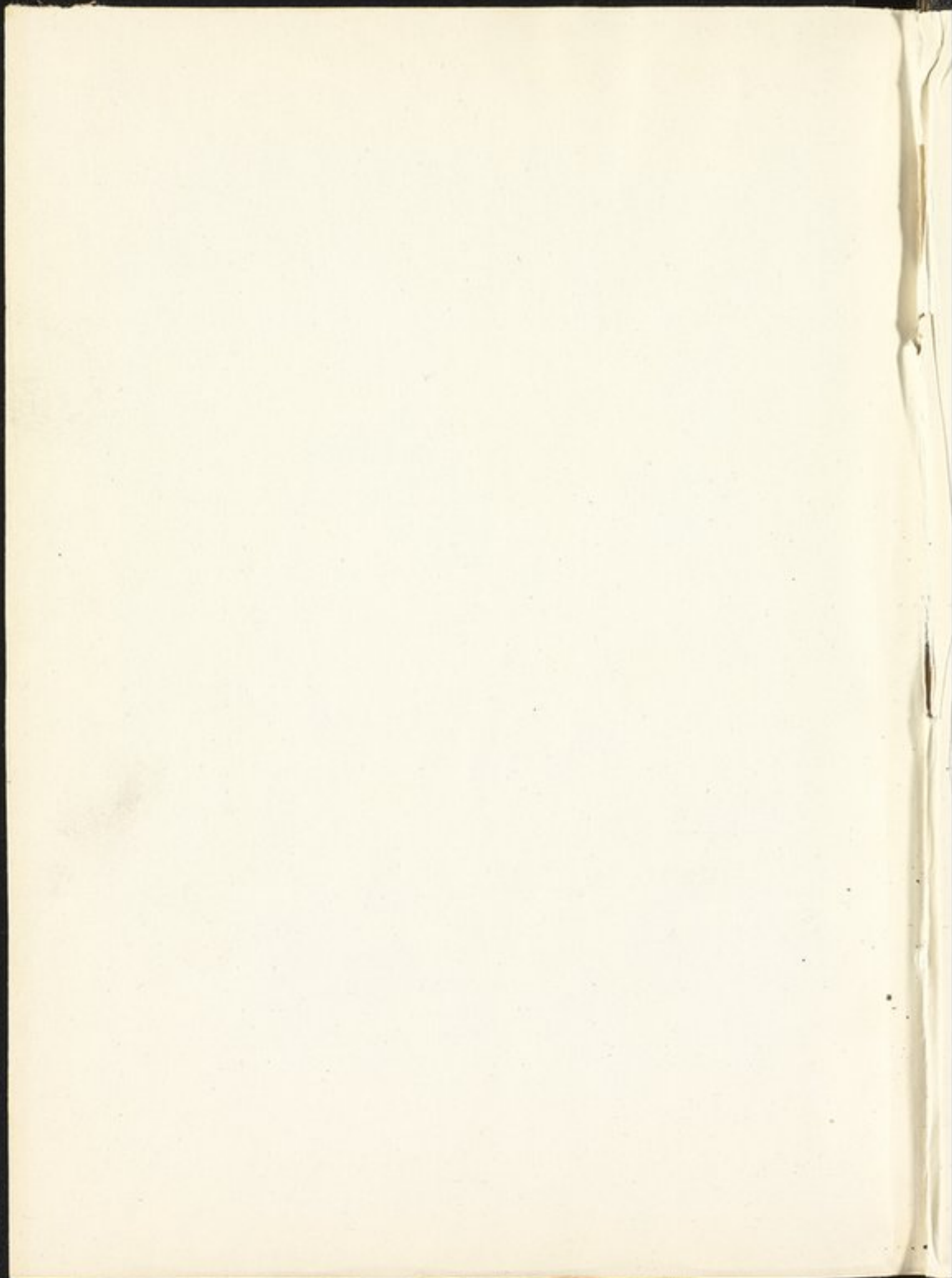






THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY



UAR. 609

vol. 3

عصر لا طين بها ليك

ونشأه
العلمي والأدبي

تأليف

محمود زوا سليم

المدرس بكلية اللغة العربية

المجلد الثالث

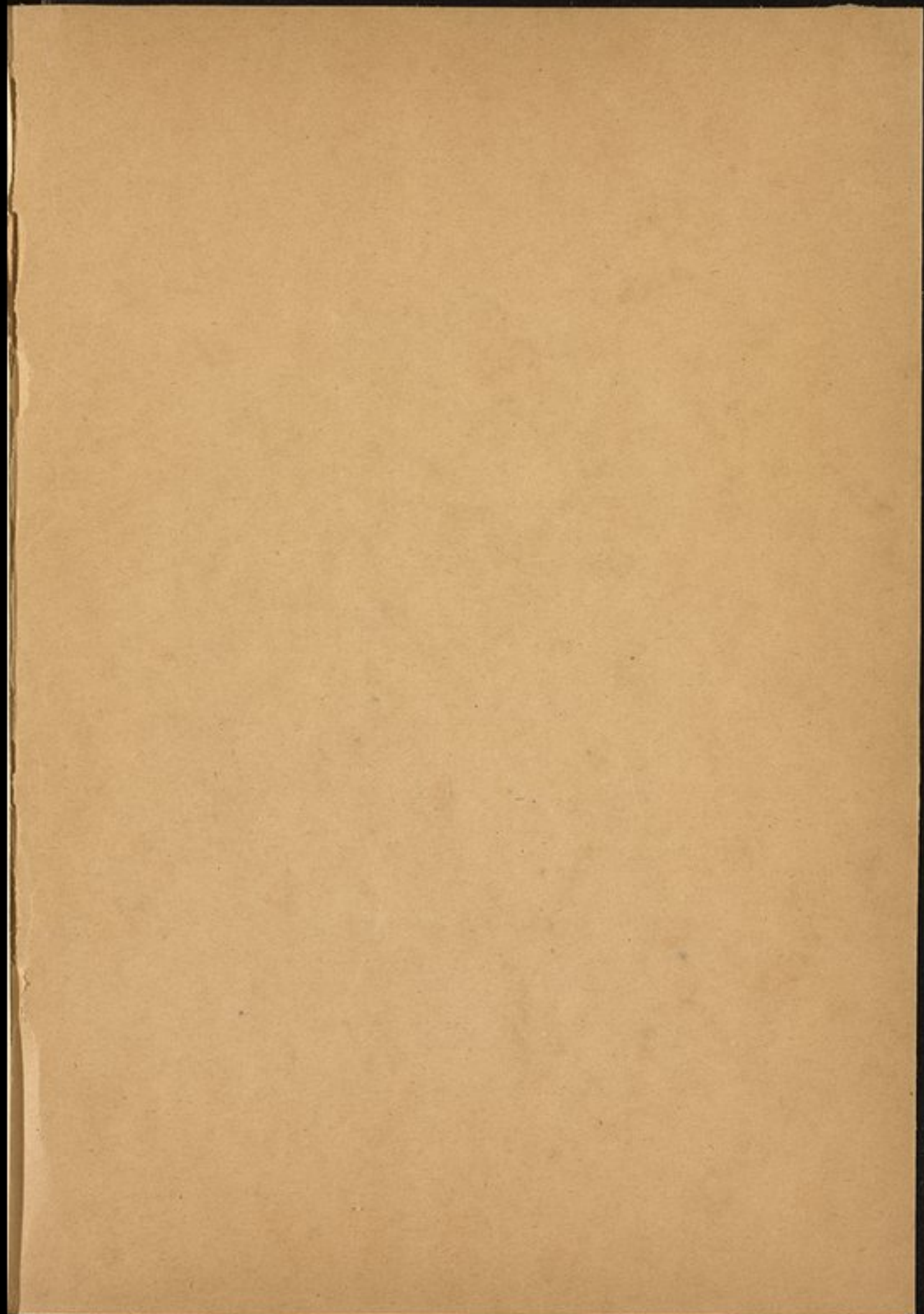
وهو القسم الأول من الجزء الثاني

في الحركة العلمية

١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م

الناشر : مكتبة الآداب بالجواميز تليفون ٤٢٧٧٧

الطبعة المنوذجية ٦ بركة الشاوي الحلبية الجديدة



PJ

8206

.53

V. 3

n. 3

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لله الحمد من قبل ومن بعد ، العالم الفرد ، الذى ليس كمثله فى علمه أحد .
يهب من علمه لمن يشاء من خلقه ، ويرزق التوفيق إليه والعمل به . أغدق على محمد
ابن عبد الله من فيضه ، فملأ الأرض نوراً وسنا . أنس به الآنس ، وقبس منه القابس ،
واهتدى به من اهتدى ، وتزود منه من تزود . فعليه أفضل الصلاة والسلام .
وبعد فقد هيا الله الأسباب منذ أكثر من عام فأصدرنا الجزء الأول بقسميه من
كتابنا « عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » . واليوم نهدي إلى القراء
هذا المجلد الجديد وهو القسم الأول من الجزء الثانى من هذا الكتاب ، على رجاء أن يتلوه
على الأثر قسمه الثانى .

والجزء الثانى بقسميه يؤرخ الحركة العلمية فى العصر المملوكى ، وقد ضمناه البحث
فى الأسباب والعوامل التى أدت إلى قيام هذه الحركة المباركة ، سواء منها ما كان
من العوامل والأسباب الخارجية التى هيئتها الأقدار خارج الديار المصرية ، أو الداخلية
التي جهد فيها أهلها على اختلاف ظروفهم

وتحدثنا فيه عن الحركة التعليمية والتأليفية ، وبعد أن سردنا تاريخ عدد من
المدارس والمساجد التى كانت دوراً للتعليم ومثابة للعلم ، وما كان فيها من نظم ومواد
دراسية ، نوهنا بالمؤلفات والمؤلفين فى مختلف العلوم والفنون ، ما عدا ما كان من المؤلفات
أدبياً خالصاً ، أو من برع من المؤلفين فى لون من ألوان الأدب كتابة أو شعراً أو
نحوهما ، فهذا مدخل للجزء الثالث والرابع من هذا الكتاب .

ثم ذكرنا جمهرة عظمى من المؤلفات تشعر بنباهة هذه الحركة ونشاطها وعظيم قدرها
وكرم أثرها ، منوهين بالمدح منها فى دار الكتب المصرية بمخاضة ، المطبوع منها
والمخطوط ، مشيرين إلى أن من بين مخطوطاتها نفائس ذات قيمة ، من شأنها لو

فيض لها الطبع والذوبوع أن تحدث أنراً جليلاً في تاريخ مصر وأدبها ، وتقلب بعض الأوضاع المستقرة ، والمعلومات الفجة المركزة في نفوسنا عن هذا العصر .

وقد عنيينا بالتعريف ببعض هذه المؤلفات عناية قد يعرض خلالها شيء من النقد ، غير أن النقد ليس غرضاً أصيلاً في هذه العناية ، وإنما هو العرض لحسب ، العرض الذي نتوخى منه وضع صورة للمؤلف كما تراءت في نظرنا ؟ دون غلو أو تضخيم ، أو جري وراء إظهار المحاسن أو المساوي ، فهي صورة هادئة خالية من صخب النقد وحملاته ، أو الحمد وغالياته ، آمليين أن نجد لنقدنا الصحيح الصريح مجالاً آخر غير هذا الكتاب . وحسبنا من الصورة الواضحة وبروز الخصائص الأصلية .

وثقينا بالتعريف بالمؤلفين ، وترجمة حياتهم وبيان أعمالهم وعرض مؤلفاتهم ، وينقسم هذا التعريف إلى مبسوط مطول ، ومقتضب موجز ، والاول توخينا فيه أن نذكر الحوادث البارزة في حياة المترجم له ، وما أثرته من الأسفار جاهدين في بيان المطبوع منها والمخطوط ومكان كل منها ، عارضين في شيء من الاسهاب عدداً من هذه المؤلفات النافعة لإبراز خصائصها كذلك . والثاني أجمالنا فيه تراجم عدد ضخم من علماء العصر على اختلاف ماتخصصوا فيه من علوم وفنون . معنيين عند كل خطوة ونص وترجمة ونحوها ، بذكر المصدر والمرجع — على قدر استطاعتنا — وذلك كدأبنا في الجزء الأول . وكما سنغنى في الأجزاء التالية إذا شاء الله ، لترجيح الباحث المنقب ، أو المراجع والمعقب أو غيرهم ، من بعض ما يلقون من عناء .

ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يهيئ بهذا الكتاب النفع للناس ، وأن يجعله أساساً لأسفار أخرى جديدة تنجبه إلى إبراز محاسن مصر في تاريخها وأدبها ، وتكون حسنة من حسنات جيل مصر في عهد مليكها المحبوب فاروق الأول ، نضر الله أيامه ورفع أعلامه . والله وحده — جلّت قدرته — العالم بما نبذل من جهد ، وما نضمر من نية ، وما

الباب الأول

تمهيد

١ - مدينة بغداد ومركزها العلمي والأدبي

قد يدهش القارئ حين نبدؤه في هذا الجزء من كتابنا بذكر مدينة بغداد ، ووصف مركزها العلمي والأدبي . ولكن الدهشة تزول إذا علم أن مصر ، وأن عاصمتها القاهرة ، يرتبط مركزها العلمي والأدبي في عصر المماليك بمركز بغداد قبل سقوطها في يد التتار عام ٦٥٦ هـ ، ارتباطا وثيقا . فإذا عرضنا لمدينة بغداد ووصف مركزها قبل العام المذكور ، فإنما نعرض من باب التمهيد لشرح المركز العلمي والأدبي للقاهرة ، وفهمه . ولعل أقرب الروابط بينهما ، مما يتبادر إلى الذهن ذكره ، أن القاهرة حملت بعد سقوط بغداد ، ما كانت بغداد تحمله من أعباء العلم والأدب ، وأن سيرة القاهرة في ميدانها امتداد لسيرة بغداد في نفس الميدان ، وإن اختلفت الأشكال والألوان . ونحن لا نطعم هنا إلا في عجالة يسيرة في هذا الموضوع ، نورد لها لنبيين الربط ، ونحكم الصلة فحسب ، فنقول :

اتخذ بنو العباس هذه المدينة الزاهرة عاصمة لملكهم العتيد ، ومقرا لعرشهم المجيد ، الذي امتد سلطانه طولا وعرضا ، وغربا وشرقا . وضم إلى رايته كثيرا من الأوطان المجاورة . ثم بدءوا فيها حركة علمية واسعة النطاق ، فدوتوا العلوم العربية والشرعية ، وترجموا كثيرا من كتب العلوم الكونية كالطب والهندسة والفلك وسياسة

الملك والحكمة والفلسفة والمنطق . وجد أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء العباسيين في تشجيع المشتغلين بهذه الحركة ، وتكليفهم القيام بها ، ودفعهم إلى العمل فيها . وسار على سنته هذه بعض الخلفاء ولا سيما الرشيد والمأمون .

وفي عهد المأمون كانت بغداد تموج بمن فيها من رجال العلم والأدب ، وأعضاء البعثات العلمية التي وكل إليها اختيار الكتب المناسبة لترجمتها أو الزيادة عليها ، مع جمهرة كبيرة من الكتاب والشعراء .

وهكذا أصبحت بغداد داراً للعلم وهالة الأدب ، وامتد نفوذها إلى الأوطان النائية ، فلونت آدابها بألوانها الخاصة ، ووجهت النابيين من أبنائها إلى التأدب بأدبها . هي فأتخذوها قبلة لهم في تفكيرهم ، وسعوا إليها سعي الحاج إلى البيت الحرام ، وتوافدوا عليها من فارس والحجاز ومن مصر والشام ، ومن المغرب والأندلس . وتركزت فيها الحركات الأدبية والعلمية زمناً طويلاً ، يعينها على ما هي بصدد علماء الأماصار العراقية وأدباؤها ، وكذلك الحجازية .

وما زال أمر بغداد على ما وصفنا ، حتى ضعف بنو العباس ، واستشرى خطر الأعاجم بها ، فانشق عن سلطانها كثير من عواصم الأقطار التابعة ، واستقلت بنفسها من الناحية السياسية . وتعددت عواصم المسلمين .

هنا ظهرت الدولة الفاطمية في مصر ، وأسس الفاطميون مدينة القاهرة ، فاجتات مركزها عاصمة كبرى لدار من أضخم الديار الإسلامية ، وهي مصر . وبدأت تكون محورياً جديداً لحركات علمية وأدبية أخرى .

ومع ذلك بقيت بغداد — على بعدها — أستاذاً لأهل هذه الأقطار ، ومعيها قياضاً سائغاً ينهلون منه ويردون على الدوام حياضه ، ويقتفون أثره ويحملون رسالته ويتمون أداءها . ولبثت بغداد نفسها نجي ثمار نهضتها العلمية الأولى . فزخرت بفحول العلماء

وكبار المؤلفين وأساطين الأدباء وبلغاء الشعراء ، والمبتكرين من أهل الفلسفة والكلام وغيرهم . واتضحت في رجالها روح التخصص في النواحي العلمية . كما ازدهرت التأليف الشائقة بها . وحج إليها في ذلك الحين عديد من أبناء الأوطان الأخرى ، يشهدون حلقاتها ودروس علمائها ومناظرات أدبائها ، ومحاورات ظرفائها ومسابقات شعرائها ، ومفاكمات أئمة المجالس فيها ، ومعايشات المجونيين من أبنائها .

وامتلأت كذلك ، في خلال هذه المدة ، بشتى الكتب طارقها وتليدها ، وتضخمت دور كتبها ، فأصبحت تراثاً فكرياً ثميناً ، وذخيرة علمية نفيسة ، ورمزاً لإنسانيا ساميا لمرحلة من مراحل العلم ، ودور من أدوار الحضارة والمدنية .

بذلك كله ظلت بغداد زهاء خمسة قرون ، العاصمة الروحية والفكرية للمسلمين قاطبة وللناطقين بالعربية ، بل ولغير هؤلاء وهؤلاء .

ثم آل بها ضعفها السيامي ، وخور ملوكها من بني العباس ، وتفاقم الخطب بأطاع الأمم المجاورة لها ، واعتدائهم عليها ، إلى سقوطها مرارا ، حتى لم يبق خليفتها من أمر حكمها شيء . ثم أعقب هذا الانحلال ، الطامة الكبرى والداهية العظمى ، وهي سقوطها في يد التتار عام ٦٥٦ هـ .

٢ — كلمة موجزة عن التتار^(١)

التتار أم وثنية جاهلة من الجنس المغولي الأصفر ، منهم الياقوتية والجيرجيزية والساموية . مساكنهم الأولى الأطراف الشمالية لبلاد الصين . ومنذ الأزمنة السحيقة كانوا يعيشون عيشة البداءة ، ويخضعون لأحد ملوك الصين . ثم نجم فيهم رجل منهم قوى الشكيمة شديد البأس ، استطاع أن يملك عليهم ، وأن يفوز بعرش الحكم

١ — في كتاب (ابن خلدون : حياته وتراث الفكرى) لعبد الله عجلان ص ٨١ . ما يفهم منه أن ابن خلدون تكلم في كتابه (التعريف) عن نشأة التتار والصلاح .

فيهم ، ودانت له أمم التتار جميعها . وأخذ يقودهم من نصر إلى نصر ، حتى خضع لحكمهم كثير من الأمم المجاورة لهم . ذلك الرجل هو : جنكيزخان ^(١) .
ثم ما لبث جنكيزخان حتى زحف بهم كالجراد على أواسط آسيا وغربها منذ عام ٦٠٦ هـ . فملكوا كثيرا من البلاد وقتلوا ما لا يحصى من أهلها ، حتى بلغوا خراسان . فانتزعوها من ملكها « خوارزم شاه محمد بن تكش » عام ٦١٧ هـ بعد أن أفنوا عددا ضخما من مسلحيها .

تتابعت بعد جنكيزخان هجمات التتار على بلاد العراق ثم على بلاد الشام ، حتى كان ما كان بينهم وبين سلاطين المماليك المصريين — مما أشرنا إليه في الجزء الأول — حيث أوقعوا بهم في « عين جالوت » ثم في « بيسان » وأجلوهم عن بلاد الشام وردوهم عنها داحرين . فوقف تيارهم عند هذا الحد ، ولم يتعمده من بعد إلا غرارا غرارا . ولم يستطيعوا قط ، أن يجتازوا إلى بلاد مصر . وتفرقت دولتهم من بعد ذلك دولا عاصرت بقايا السلاجقة ، ومماليك مصر ، وغيرهم .

ومن صفات التتار ، الشجاعة وشدة البأس وحب البطش . ومن أعظم ملوكهم بعد جنكيزخان : هو لاكو ، وهو الذي نكبت بغداد على يده . وتيمورلنك ^(٢) الذي خرب بلاد الشام من بعد ، وأذل أهل دمشق . ومنهم أولوغ بك وأرخان بك ، وغازان وأبو سعيد وغيرهم .

ومما يذكر أن كثيرا منهم اعتنق الإسلام بعد غزو بغداد بأكثر من نصف قرن . وشرعوا يعوضون الدين والعلم ما فقداه من نفائسهما العلمية على يدهم من قبل ، وذلك بتشجيع العلماء .

١ — في فوات الوفيات لابن شاكر فصل طويل عن جنكيزخان . ج ١ ص ١٣٩

٢ — ممن ترجم لتيمورلنك ، ابن عريشاه في كتابه (عجائب المقدور في أخبار تيمور) ، والسغاوي في كتاب (الضوء اللامع) . ج ٣ رقم ١٩٢

٣ - سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ

تتلخص هذه الحادثة في أن التتار كانوا قد اقتربوا من العراق بجيوشهم الجرارة قبيل عام ٦٥٦ هـ. وكانت بغداد إذ ذاك تلهب بالفتن والمؤامرات المشبوبة بين الرافضة وأهل السنة وكان الخليفة إذ ذاك، المستعصم بالله العباسي، ووزيره مؤيد الدين العلقمي من الرافضة^(١). فخلاله أن يمهّد لدخول التتار حتى تكون له النصرة على يدهم، فيحكم بغداد وحده بإرشادهم فكاتبهم بما في نفسه وأطمعهم في دخول بغداد وانتزاع ملك العراق، ومحو الدولة العباسية ليقم خليفة من آل علي. ثم أعلمهم بنواحي الضعف في البلاد، وبصرهم بشغراتها التي يطعنونها منها.

اقترب التتار من بغداد، فهاج أهلها وماجوا، واجتمعوا صفا في وجه العدو، وهزموه وردوه على أعقابهم. فخر ذلك في نفس ابن العلقمي، وعاد إلى مكتبة التتار، وقطع جسر دجلة على جنود بغداد، وهم يستجمعون، فأغرق عددا منهم، وأشاع الاضطراب في صفوف الباقين، فكر عليهم التتار كرة صادقة زلزلوا تحت تأثيرها زلزالا شديدا. ودخل التتار مدينة بغداد في نحو مائتي ألف جندي بقيادة هولاكو. وتم ذلك في عام ٦٥٦ هـ.

قيل: أشار الوزير ابن العلقمي بعدئذ على الخليفة المستعصم بمصانعة التتار. وقال له: «أخرج أنا إليهم لأقر معهم شروط الصالح. ثم عاد من لديهم وهو يقول للخليفة: «إن الملك هولاكو قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر. ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته... ولا يريد إلا أن تكون له الطاعة منك، كما كان أجدادك مع السلاطين السلاجقة. ثم ينصرف عنك بجيوشه. فليجب مولانا إلى هذا فإن فيه حقن دماء المسلمين».

١ - في فوات الوفيات ج ٢ ص ١٨٩ فصل عن ابن العلقمي.

فخرج الخليفة إليه في جمع حاشد من كبار رجال دولته وأعيانها وعلمائها . فنزله في خيمة . ثم دعى الفقهاء والأعيان ليحضرُوا كتابة العقد . . . وقد خرج لاستدعائهم الوزير ابن العلقمي لتتم فصول الرواية على يديه . فتوافدوا من بغداد زمرا بعد زمرة ، حتى صاروا بين يدي التتار فضربت رقابهم . . . واستدعيت طبقات العلماء والأمراء والحجاب والكبار طبقة إثر طبقة ، فقتلوا عن آخرهم .

بعد ذلك أبيعحت المدينة للجند ، فاخترقوا فجاجها ، وجاسوا خلال سبلها ، يشخنون في أهلها قتلا وتمثيلا . وظلوا على هذا العمل الاجرامي نحو أربعين يوما ، حتى ملئوا الطرقات دماء ، وجمعوا من جاجم السكان أهرا ما . وقيل بلغ عدد القتلى أنحوا من ألفي ألف نسمة ، ولم يسلم من يدهم إلا من اختفى في بئر أو قنارة . ثم قتل الخليفة وجمع من أولاده وأعمامه . وأحرقت دور الكتب ، وأغرقت كتب لا تحصى في نهر دجلة . وهدمت القصور وخربت الدور . وكانت فكبة لم يبيل الإسلام ولا المسلمون بمثلها . ولم ينل ابن العلقمي شيئا من وراء ذلك ، بل استبعد به التتار وأذلوا مكانته ، واستأنثروا بالسلطة دونه حتى مات كذا .^(١)

٤ — انتقال النشاط العلمي إلى مصر والقاهرة

تلفت المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، يبحثون لأنفسهم عن ملجأ يلجئون إليه ، وماوى يأوون فيه ، بعد كل هذه النكبات الملاحقة ، وبعد سقوط أكبر دولهم سقوطاً نهائياً ، وأعنى بها الدولة العباسية ، وبعد زوال أهم رمز روحي كانت تجتمع القلوب حوله ، على الرغم من تشتها ، وأعنى به الخلافة . فلم يجدوا أمامهم غير مصر

(١) (تراجع حوادث ٢٠١ في: تاريخ الخلفاء للجلال السيوطي . وبدائع الزهور لابن أبي الحسن الخنزي ج ١ ص ٣٢٧ . وطبقات السبكي ج ٥ في ترجمة عبد العظيم المنذرى . والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٧ ودائرة معارف وجدي) .

و بلاد الشام ، حيث أسس المماليك لهم ملكا ، وأقاموا لأنفسهم سلطانا ، وكونوا لعرشهم جنداً ، يذود عنه ويدفع كيد الأعداء .

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يقيم من دولة المماليك ، في هذه الآونة العصيبة من تاريخ المسلمين ، حاجزاً منيعاً ، وسداً متيناً ، يقف حجر عثرة في سبيل تدفق سيل التتار الجارف على البلاد المصرية . فوفاهم شر يومهم ، وأبعد عنها مافي جمعياتهم من نكبات يفيضون بها على الأمم المفتوحة ، ودفع عن القاهرة بوارا كالبيوار الذي حاق ببغداد وطامة كالطامة التي أصابتها .

وما ذلك إلا لوقوف المماليك في وجوههم من ناحية . وتفرق أمرهم من ناحية أخرى . وقد وقعت بين الفريقين وقائع عدة تناثرت في خلال مدة حكمهم ، كانت ذات نتائج حاسمة في رد طغيان التتار وعدوانهم ، وإن لم تسلم بلاد الشام جملة من هذا العدوان والظفیان .

وما وقف سلاطين المماليك وأمراؤهم مواقفهم تلك ، إلا لأنهم مسلمون معنيون بشئون دينهم ، مطالبون بدفع الأذى عنه ، ورد المعتدين عليه ، ومما شغذ همهم لذلك ، وأثار ثائرتهم ، أن التتار عرفوا بالجهل واعتلال الدين ، كما أشرنا ، وعرفوا بحب البطش والفنك ، واشتهروا بما أذاقوا المسلمين من ويل ، وما اقترفوه في أواسط آسيا من آثام لا قبل لأحد باحتماله . فكم أراقوا هناك من دماء ، وكم بعثروا من أشلاء ، وكم أبادوا من جماعات ، وكم شقتوا من أمر . أضف إلى ذلك ما اجترحوه في بغداد وما ألحقوه بأهلها من ذل وبوار .

فالتتار إذاً كانوا أعداء الإسلام ، وخصوم المسلمين . أحس المماليك بهذه الحقيقة السافرة ، وشعروا بالخطر القريب الداهم ، وبالشرا العاجل المستطير . فهبوا على بكرة أبيهم ، ذادة مدافعين عن دين اعتنقوه ، وملك أسسوه ، ومجد تسنموه ، وجاه بلغوه .

نم لا نفسى أن الممالك قد ورنوا عن دولة بنى أيوب ، نزعنها القوية الشديدة ، ووقتها الرائعة الرشيدة ، فى مكافحة الصليبيين ، أعداء الدين والمسلمين ، فكما ورنوا عنها كثيراً من عاداتها وتقاليدها الرسمية وغير الرسمية ، حتى ليكن القول إن دولتهم امتداد لدولة بنى أيوب . ورنوا عنها كذلك هذه النعرة الإسلامية ، وتلك العصبية الدينية لمعاداة كل من قصد بلاد المسلمين بشر ، أو أراد المسلمين بضر .

ولم ينس الممالك أنهم يحكمون أمماً أغلب أهلها من العرب ، ومن المسلمين الذين يهرم دائماً كل ذائد عن حمى الدين ، ويروعهم كل مدافع عن بلاد المسلمين ، ويعجبهم الرجل الأغلب الصمصامة الذى يهب نفسه لله ، ويقاقل فى سبيل الله .

ومن حسن سياسة سلاطينهم أن أفسحوا فى مصر مكاناً للخلافة جديداً ، بوءوا فيه أحد سلاسل خلفاء بنى العباس ، بعد ثبوت نسبه ؛ وبذلك أعادوا للخلافة سيرتها ، وأنشئوها نشأ آخر ، بعد أن طوى بساطها وانفض سارها ، وزالت عنها الغضارة والنضارة ، فوجهوا بعملهم هذا أنظار المسلمين إلى مصر ، ولفتوا قلوبهم وأرواحهم إلى القاهرة باعتبارها عاصمتهم الجديدة ومتبواً خلافتهم المحيطة .

وبذلك كله اكتسبت مصر مكاناً فى الحياة جديداً ، وأصبحت عاصمتها مركزاً لطيف به قلوب المسلمين قاطبة ، وصار ملوكها الحصن الحصين والركن الركين ، الذى يلوذ بأكتافه ذوو الحاجات العليا السامية من أبناء البلاد الإسلامية .

ومصر — إلى ذلك الحين ، وبجوارها الشام كذلك — كثيرة الخيرات موفورة الثمرات ، لا ماؤها العذب ممنوع ، ولا جناها الرطب مقطوع . فطمع فيها أبناء البلاد الأخرى طمع القنبر العبي ، فى الكرم المحسن القوى . وفاء إلى حماها كثير منهم . تراموا على صعيدها الخصب ، من كل جذب وضوب ، وسقطوا عليها سقوط الطير حيث يلتقط الحب . وهبوا يحبون من الإسلام بحمد الدارس ، ويستضحكون وجهه العابس

ويجددون له والعربية ذخايرها العلمية النفيسة . ونهضوا في التجديد حتى ضاق نطاق الزمان عن أشباع رغبتهم . وكأثما أرادوا الانتقام من هذا الزمن الخثوف ، والأخذ بالنار منه ، لما ساقه على المسلمين وتراثهم من هلكة وخسار ، وعيث ودمار .

بهذا كله انتقل النشاط العلمي من العراق وبغداد ، إلى مصر وقاهرته ، ونشرت القاهرة زعامتها العلمية وقيادتها الأدبية على البلاد الإسلامية قريبا ، زهاء هذه القرون الثلاثة التي عاشت فيها دولة المماليك .

هـ - خاتمة

ولم تكن بلاد المغرب والأندلس في هذه الظروف بأسعد حالا من العراق ، فقد أخذت تتفاقم فيها الفتن وتتجدد أنواع الخلاف وتزيد ضروب المحن وتطفئ عليها الأعداء بما لا يدع للعالم سندا ولا للأدب موردا .

ويحسن في هذا المقام أن نختم هذا الباب الأول بمقتبسات يسيرة مما كتبه ابن خلدون (٨٠٨ هـ) في مقدمته تحت عنوان « فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » فإنه عرض في الفصل المذكور للموازنة بين علم أهل المشرق وأهل المغرب قبيل عهده وإلى عهده ، منوها بانتشار العلوم والصنائع في المشرق وبخاصة في القاهرة . قال :

« وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم ، من لدن انقراض تعليم قرطبة والقبروان ، ولم يتصل سند التعليم فيهم . فمسر عليهم حصول الملكة والحدق في العلوم ، وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية ، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها ، فتجد طلاب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكونا لا ينطقون ولا يناوضون . وعنايتهم بالحفظ

أكثر من الحاجة ، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ، ثم بعد
تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل ، تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو
علم . وما أتاها القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده ، وإلا فحفظهم
أبلغ من حفظ سواهم ، لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية ،
وليس كذلك .

ومما يشهد بذلك في المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم
ست عشرة سنة ، وهي بتونس خمس سنين ، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي
أقل ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها ،
فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة
لا مما سوى ذلك .

وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم ، وذهبت عنايتهم بالعلوم
لتنافس عمران المسلمين بها منذ مئتين من السنين .

ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب واقتصروا عليه وانحفظ سند
تعليمه بينهم ، فانحفظ بحفظه ، وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر بعد عين ، وأما العقليات
فلا أثر ولا عين ، وما ذاك إلا لانقطاع سند التعليم فيها بتنافس العمران ، وتغلب
العدو على عامتها إلا قليلا بسيف البحر ، شغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها
والله غالب على أمره .

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة لاتصال
العمران الموفور ، واتصال السند فيه ، وإن كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن
العلم قد خربت ، مثل بغداد والبصرة والكوفة ، إلا أن الله تعالى قد أдал منها
بأمصار أعظم من تلك ، وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من

المشرق ، ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب ، فلم تزل موفورة ، وعمرانها متصلا ،
وسند التعليم بها قائما .

فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم ، بل سائر الصنائع ، حتى إنه
ليظن كثير من رجالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة
أكل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيسا ، بفطرتهم الأولى وأن
نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتهم من نفوس أهل المغرب . ويعتقدون التفاوت بيننا
وبينهم في حقيقة الانسانية ، ويتشيعون لذلك ، ويولعون به ، لما يرون من كيمهم في
العلوم والصنائع ، وليس كذلك ، وليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار
الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة . . . الخ .

الباب الثاني

عوامل نشاط الحركة العلمية

ألمعنا فيما سبق إلى قيام هذه الحركة العلمية في مصر، وأجملنا القول في العوامل التي شجعت القائمين بها، وأدت إلى نشاط أهلها. والآن نفصل القول تفصيلاً في بيان هذه العوامل. فنقول إنها تنقسم إلى قسمين: خارجية وداخلية. ونعني بالعوامل الخارجية، ما وقع منها في خارج مصر، ولم يكن لمصر ولا لأهلها يد في تدبيرها، غير أن هذه العوامل كان لها من الأثر العظيم داخل مصر ما أدى إلى تنشيط هذه الحركة. أما العوامل الداخلية فنعني بها ما وقع منها داخل مصر، وكان لأهلها يد في تدبيرها، وأثرت بدورها تأثيرها المباشر في تنشيط الحركة العلمية.

ولم تكن الحركة العلمية خاملة بالديار المصرية على عهد الأيوبيين، فقد كان لها هي الأخرى نشاطها الملحوظ، ولكن العوامل المتعددة التي طرأت عليها في العصر المملوكي، والتي طرأت مجتمعة، كان لها أثرها الواضح في نشاطها في العصر المذكور. ولا نفلو حين نذكر أنها كانت أكثر نشاطاً وأدأب عملاً وأضخم إنتاجاً في العصر المملوكي، مما كانت في العصر الأيوبي بل وما قبله من عصور مصر الإسلامية، وأن مصر استطاعت أن تكون لنفسها ثقافة تحمل طابعها، تأثرت بها البلاد الإسلامية الأخرى، وبخاصة بلاد الشام.

الآن نوضح هذه العوامل فنقول:

العوامل الخارجية

١ - وقوع كثير من البلاد الإسلامية في يد المغول

طغى سيل التتار الجارف من أواسط آسيا إلى شمالها مكتسحاً ما أمامه من بلاد المسلمين . وأتخن في أرضهم ، وقتل كثيراً من أهلها . وأتى في خراسان ما تشعشع منه الأبدان ، وما تأباه النفوس السليمة . ثم واصل زحفه حتى بلاد العراق ، فزق بغدادها شر ممزق . ثم عرج على بلاد الشام التي لبثت مسرحاً للنزاع العنيف بين دول التتار والمماليك زمناً طويلاً . فكان لابد للمسلمين من أن تلتف قلوبهم حول المدافعين عنهم من سلاطين المماليك ، ملتجئين فيهم الزعامة التي تدافع عنهم ، وأن يشدوا أزرهم ويدعموا ملكهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، إذ في تدعيمه إبقاء على دينهم وأنفسهم . ومن أهم وسائل تدعيم الملك إحياء العلوم والمعارف . فجد في ذلك علماء المسلمين آنئذ ، وأتوا بما يعد فريداً في بابهِ ، عجيباً في صنعه .

٢ - قتل العلماء واتلاف الكتب العلمية

قتل التتار كثيراً من علماء المسلمين ببغداد وغيرها . ومن قتل ببغداد الشيخ محي الدين بن الجوزي وأولاده^(١) . وكذلك أتلّفوا كثيراً من دور الكتب . وقد أمر هؤلاء وقت فتح بغداد بإلقاء جميع الكتب التي في دور الخلفاء في نهر دجلة . وبذلك ضاعت على الدين ذخائره ؛ وعلى العلوم والآداب نفائسها وفقدت العربية إلى الأبد آلافاً من مؤلفات بديها .

فلما نبأ المقام بمن فر من العلماء ، من وجه التتار ، وأنف من الإقامة في ظلهم استقر بهم في كنف سلاطين مصر . ولقوا ، هم ومن لف لفهم من رجال الأم الأخرى ، في جوار هؤلاء السلاطين ، الأمن والدعة والسلامة والعيش الهادي .

(١) عن مختصر أبي الفداء ج ٤ ص ١٩٤

كما وجدوا أنفسهم - بعد هذه الكارثة العلمية الرهيبة - مسئولين أمام الله عن دينه ، وأمام التاريخ عن إنهاض العلم وإزالة عثاره ، وأمام ضمائرهم عن معارفها ، وأمام أوطانهم عن تدعيمها . فدفعهم شعورهم العميق بهذه المسؤولية وضخامتها إلى الجد في العمل لملافاة ملفات ، وبذل الجهد لإعادة هذا الصرح المنهار .

٣ - وفرد العلماء والأدباء إلى مصر والشام

ولا شك أن مما عاون مصر على بلوغ إربتها ، وساعد على تزعم حركة الإحياء العلمية ، كثرة من أمها من بنى الاقطار الإسلامية الأخرى ، سواء أكانوا فارين من وجه الطغيان والظلم ، أم كانوا طامعين في كرم مصر وحسن وفادتها . وبين هؤلاء وهؤلاء علماء فضلاء وأدباء أجلاء . ولم يقتصر وفودهم إلى مصر ، على أوائل العصر المملوكي ، بل ظل متتابعاً خلال العصر المذكور . ومنهم من ألف وكتب ، ودرس وخطب ، وتولى القضاء وحكم وأقضى ، وأفادت مصر والشام منهم الخير الكثير والنفع الجهم بما نشروا وألفوا ، وبما علوا من ناشئين .

ومن هؤلاء ابن خلكان الإربلي ، وابن مالك الأندلسي ، وابن أبي حجلة المغربي ، وابن منظور الإفريقي ، وابن خلدون المغربي .^(١) والحافظ رشيد الدين النابلسي ، والبكري أبو علي الحسن بن محمد النيسابوري الدمشقي . وسعد الدين العراقي . ومن فر إلى مصر كالدين بن العديم هجر مدينة حلب فاراً من التتار إلى الناصر بن قلاوون فأقام بها حتى مات .^(٢) ودفن بها ومثله ابن الأستاذ كال الدين المتوفى عام ٦٦٢ هـ . رحل إلى مصر لما أخذ التتار حلب .^(٣)

وهاجر من حران إلى دمشق عام ٦٦٧ هـ والد ابن يثمية الحراني ومعه ولده المشهور فكان حدثاً صغيراً .

١ - راجع طبقات الحفاظ والأئمة في حسن المحاضرة ج ١ - وراجع باب التراجم الموجزة في كتابنا هذا .

٢ - راجع تاريخ آداب اللغة لجرحي زيدان ج ٣ ص ١٧٠ .

٣ - حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٣ .

وقد ذكر محمد جميل الشطبي في كتابه «طبقات الحنابلة» عددا من العلماء الذين هاجروا من بغداد فرارا من التتار حينما دهموها . ومما لا ريب فيه أن هؤلاء الفارين والمهاجرين عاونوا مع من نشأ في مصر من علمائها وأدبائها ، ومن تربوا على أيديهم من ناشئها على إنعاش الروح العلمية ، متجهين إلى إحياء علوم الدين واللغة ، ولم يستطيعوا أن يضيفوا إلى أعبائهم أعباء الإصلاح السيلامي ورفع الظلم عن رقاب الناس ، وكف المعتدين من رجال الحكم ، إلا لما ملأهم ، ذلك لأن منطق الظروف وسياق الحوادث يقف سدا منيعا دون ذلك ، فقد ألقت الأقدار مصائر الأمور في مصر إلى هذه الطبقة الحاكمة من أمراء الممالك وجنودهم فلم يجعلوا لأهل البلاد الأصليين قلامة ظفر في الحكم ، وبخاصة في المناصب العسكرية ، ولم يتركوا للمتعممين إلا مناصب القضاء والكتابة وما إليها ، وهم من نابتة البلاد في الغالب . فلم يستطع العلماء مجاهدة هذه الطبقة لئلا يزيدوا عبئا إلى عبئهم أو ينحرفوا عما نصبوا أنفسهم له أولا ، وهو إحياء علوم الدين والمحافظة عليها ووصل سندها . — ومهما يكن من شيء فقد عاونوا معاونة مذكورة على إنعاش الروح الفكرية ، ولو إلى حد ما . وفي محاكمات ابن تيمية الخرافي وما أذاعه بين الناس من آراء ، وما رد به عليه علماء عصره ، صورة من صور هذا الاتعاش الفكري .

٤ - زوال الخلافة العباسية

قتل التتار الخليفة العباسي المستعصم بالله ، وولى عهده ، وأزالوا الخلافة العباسية وعفوا أثرها . وقد كانت — على علامتها — محورا تطوف به قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ورمزا يرمز إلى تألفهم وتأزيمهم ، وعلمنا روحيا يستظلون به . وقد أصابها الوهن وتآكلتها الضعف ، ولكن المسلمين كانوا يتعللون بها ويأمنون بوجودها ، فلما زالت دولتها جملة ، كبرت المسألة في نفوس المسلمين ، وحنى الأمر ، واتقدت حماسهم ، وكانهم أخذوا يتطالعون إلى خلافة جديدة ، تعيد للسيرة في جمع القلوب ، وفي الرمز إلى الصلة الدينية كما كان في السابق .

لم تكن هناك دولة حينئذ ، بين دول المسلمين أكثر جندا وأقوى عدة ، وأوسع كنفاء ، وأشعب حماسة ، من مصر . فكان طبيعياً أن تتطلع نفوس أهلها - على الأقل - إلى إعادة هذا الرمز الروحي الجليل - وأعني به الخلافة . فأسسها الظاهر بيبرس ، كما بينا في الجزء الأول من هذا الكتاب . ولولا زوال خلافة بغداد ما وجد السبيل إلى تجديد لها في مصر . وتجديدها بمصر كان له أثره في الحركة العلمية كما سنبينه بعد قليل .

العوامل الداخلية

١ - غيرة السلاطين والأمراء

أبدى السلاطين والأمراء غيرة دينية بارزة . وتعصبوا للدين تعصبا قوياً واضحاً . ورغبوا في القيام برعايته مع رعاية أهله ، رغبة قوية . وأسبغوا على أعمالهم ثوباً دينياً سواء أكان ذلك في الحكم أم الغزو أو غير ذلك .

ولا نبحث في هذا المقام عن حقيقة هذه الغيرة ، وصدقها ، ومقدار هذا الصدق . وهل كانت عن عقيدة صحيحة حقاً أم هي إيهام وخداع للعامّة والناس ، حتى يبهروا أنظارهم ويضمّنوا معونتهم ويأمنوا جانب فتنهم أو غير ذلك .

لا يهمنا أن نبحث في ذلك كله أو بعضه ، وإنما يهمنا القول إن هؤلاء السلاطين والأمراء كانت فيهم غيرة على الدين واندفاع إلى الذود عنه ، ورغبة في التمسك به وإن الإسلام أفاد من هذه الغيرة فوائد جمّة ، إذ درأت عنه كثير من الأذى ، وردت عنه ضرراً من العدوان ، ومكنت له في مصر والشام وغيرهما .

ولعل أهم ما دفعهم إلى هذه النزعة أنهم مسلمون ، وأنهم شعروا بعد زوال الأيوبيين ودولة الخلافة أنهم أصبحوا وحدهم في الميدان حماة لهذا الدين ، وذادة عن بلاد المسلمين . وأن الأقدار نقلت إلى كواهلهم عبء الدفاع عنه . وأنهم إن قصروا

في هذا المضمار كان ذلك سبباً لهم أبد الدهر . وقد عاونهم على بلوغ مأربهم ما يتصف به جفهم من شجاعة وثبات على الرأي وتصب للعقيدة ، دون مبالاة بما يصيبهم في سبيل ذلك من سوء .

وقد تجملت هذه الغيرة منهم في كفاحهم للتتار ، ومحاربتهم للفرنجة ، حتى ردوا هؤلاء وهؤلاء عن مصر والشام والبلاد المقدسة . وتجملت فيما أفاضوا من معونة وما بذلوا من رعاية للبيت الحرام وسكان الحجاز ، ولغيرهم من أهل البلاد الإسلامية القريبة والبعيدة .^(١)

هذه النزعة من دأبها أن توقظ أمثالها في نفوس العلماء . وتحفز أهل الدين إلى حياطته ورعايته . وتدفعهم إلى تجسيد شبابه وبحث روحه . ونشر رايته . وأداتهم إلى ذلك ، التعليم والتأليف ومواصلة البحث والاطلاع .

٢ - تعاضيمهم لأهل العلم

نعني بأهل العلم ، المتفقيين في الدين . لأن العلم ، أطاق في عرف هذا العصر على الدين ، والمتفقه فيه هو العالم . أما غيره من المتفقيين في العلوم الأخرى فنندر أن يطلق عليه لفظ العالم ، وكان الطبيب يقال له الرئيس ، أو الحكيم ، كما يقوله عامة زمننا . ويقال لطبيب العيون السكحال ، ولمهندس المباني الشاد ، وأطلق على هذا الأخير لفظ المهندس ، أحياناً^(٢) وهكذا .

وبما يذكر أن سلاطين العصر المملوكي وأمرائه أقاموا وزناً كبيراً لعلماء الدين وبحلوهم وقدموهم في مسائل كثيرة ، وقد استشاروهم مراراً في أمور الدولة العليا ،

١ - راجع الجزء الأول من كتابنا هذا تحت عنوان حسنات العصر وسبائنه . ونحت عنوان السفارات .

٢ - قال المقرئ في المخطوط ج ٣ ص ٣٤٤ تحت عنوان (الدهشة) أن الملك الصالح محمد الدين عمرها في عام ٧٤٥ هـ بدأ بعث الأمير أقبحا وأبجيج (المهندس) لكشف دهشة حاة الخ . . .

وسمعوها شكاياتهم إذا تقدموا إليهم بها ، وأجابوا ملتتمساتهم ، بل توجسوا من بعضهم خيفة وذلك لما كان لهؤلاء العلماء من سلطان على العامة ، ولما كان لهم بهم من صلة ، وقدرة على سرعة التفاهم معهم ، لأن أغليبتهم تمت إلى هذه العامة بأوثق الصلات . فهم جميعاً أبناء شعب واحد ، ولغة واحدة .

وقد بلغ علماء الدين هذه الميزة السنية عند الخاصة والعامة ، لسنن درجوا عليها ، وصفات اتصفوا بها ، فتد كان من بينهم من هو مضرب المثل في الزهد والقناعة والورع ، والتمسك بما يراه حقاً ، والثبات على رأيه إذا اعتقد فيه الصواب ، لا يتزحزح عنه قيد أملة ، إذا شعر أنه موافق للشرعية . مالم يناضله مناضل ويجادله مجادل ويغلبه مناظر بالحجة والبرهان ، وإلا فهو عند رأيه ، ولو لوح له بالعذاب عزلاً أو سجن أو مصادرة أو غير ذلك من ألوان العقوبة .

وليس ذلك منهم عن عناد ومكابرة : بل عن تفقه في الدين ، وتعمق في العلم وتمسك بالحق ، وشغف بالبحث والدرس والاطلاع ، وصبر على حسن ، النظر . وجد في التأليف والتصنيف .

ضرب العلماء بذلك كله أحسن الأمثال للناس ، ووضعوا لهم أفضل قدوة يقتدون بها ، فرغب كثير من أبناء الشعب في طلب العلم ووهبوا له نفوسهم ، وسعوا في تحصيله حتى يصل الأواخر منهم إلى مثل ما وصل إليه الأوائل .

وتصدى العلماء للفتيا العامة ، كل بمذهبه . وقد كانت أسئلة العامة وغير العامة تنهاوي إليهم من كل فج ، عارضة ما يترامى لهم من مشاكل ومعضلات ، وشبه وخلافات يطلبون فيها الأجابة والفتوى . وكثيراً ما تثير هذه الاستفتاءات خلافاً بين العلماء أنفسهم فيتجادلون ويتحاورون بغير ملل أو سأم حتى يصلوا إلى قرار الحق . وفي تاريخ عز الدين بن عبد السلام ، وتقي الدين بن تيمية الحاراني ، وتقي الدين السبكي وغيرهم أمثلة متعددة لذلك .

هذه كلها سنن وصفات درج عليها علماء العصر ، أسبلت عليهم من المهابة سترًا ومن الجلال ثوبا ، وتوجت هامهم بتاج العزة والوقار ، وجعلت لهم عند العامة مكانة ، ولدى الخاصة جاها ، وبين الحكام رعاية وتعظيما ، وعناية وتكريما . حتى حسبوا حسابهم في كثير من خطواتهم ، واتمسوا معوتهم ورأيهم في عديد من أعمالهم .

وكان على رأس علماء العصر قضاة قضائه ، فهم المتقدمون في الفتيا والرأي . وكثيرا ما تعقدت الأمور بسبب حرب أو نحوها ، ورام السلطان فرض ضريبة أو أخذ مال من أوقاف المسلمين ، فكان لا بد له من استشارة هؤلاء القضاة وأخذ رأي النابهين من العلماء البارزين . كما وقع في عهد قايتباي وبرقوق^(١) . وكثيرا ما خرج السلطان إلى الحرب وصحب معه قضائه ، تقوية للبعنوية بين العامة والجنود . وما نذكره مدللين على تعظيم السلاطين والأمراء لأهل العلم ؛ ما روى من أن الظاهر بيبرس كان منقما تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأنه قال لما مات الشيخ : ما استقر ملكي إلا الآن^(٢)

وروى السيوطي في حسن المحاضرة - ج ٢ ص ٧٤ - أن الظاهر بيبرس حضر مرة إلى دار العدل في قضية بينه وبين أحد الأمراء أمام القاضي ابن بلت الأعز ، فقام الناس له تعظيما ، إلا القاضي فقد أشار إليه السلطان بعدم القيام . وقال أيضا - ج ٢ ص ١١٣ - إن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد حضر مرة عند السلطان لا جين ، فقام إليه السلطان ، وقبل يده . فلم يزد على قوله : « أرجوها لك بين يدي الله » .

وقال أيضا - ج ٢ ص ١٦٣ - إن السلطان برقوقا لما أنشأ مسجده ، وقرر فيه شيوخا يتولون التدريس ، كان من بينهم الشيخ علاء الدين السيرامي مدرس الحنفية

(١) راجع ما كتب عن « فداحة الفرائب وتعدد أنواعها » في قسم ٢ ج ١ من كتابنا هذا .

(٢) راجع ترجمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام في هذا الجزء .

وشيوخ الصوفية . وقد بالغ برقوق في تعظيم هذا الشيخ حتى فرش له السجادة بيده .
وذكر المقرئ في الخطط - ج ٤ ص ١٣٩ - أن السلطان المؤيد شيخا محمودى
لما أنشأ جامعاً ، وقرر فيه عدداً من المدرسين ، كان من بينهم شهاب الدين بن حجر
العسقلاني ، مدرس الشافعية . فجاء إليه السلطان ليستمع درسه ، فلما أقبل ، هم
ابن حجر بالقيام للسلطان فمنعه المؤيد من القيام فلم يقوم .

وروى ابن إياس أيضاً في بدائع - ج ٢ ص ٧ - أنه لما كملت عمارة الجامع
المذكور - جامع المؤيد - واجتمع الطائفة للدرس ، خرج إليهم الشيخ شمس الدين
الديرى من خلوته ، وأمامه ابن السلطان المؤيد ، وهو المقر الصارمى إبراهيم ، حاملاً
سجادة الشيخ حتى فرشها له في المحراب .

وروى السخاوى في الضوء - ج ٤ رقم ٤٥٢ - في سياق ترجمته لزين الدين العراقي
المتوفى عام ٨٠٦ هـ ، فقال ما نصه : « وكان للأمرء في أواخر ذلك القرن - يعنى
القرن الثامن الهجرى - اعتناء بالعلماء فكان لكل أمير عالم بالحديث يسمع
الناس ، ويدعو الناس للسمع ، ثم ذكر أن العراقي كان أميره إما « إيتش » ،
صاحب المدرسة بباب الوزير ، أو « يشبك الناصرى الكبير » .

ومن طرائف الحوادث التى تروى في هذا المقام ما قصه ابن حجر في كتابه
« الدرر » - ج ٣ رقم ٣٢١ - في سياق ترجمته « لنور الدين على بن يعقوب بن جديلا
البكرى ، الفقيه الشافعى المتوفى عام ٧٢٤ هـ ، قال ما ملخصه : « إن البكرى بلغه في
منتصف المحرم عام ٧١٤ هـ - على عهد السلطان الناصر بن قلاوون - أن الأقباط
استعاروا عدداً من قناديل جامع عمرو بن العاص ، وعلقوه في مجمع كان معقوداً
بالكنيسة المعلقة . فنار البكرى لهذا الحادث ، وجمع طائفة من الناس من الناقين
ودهموا الكنيسة ومن فيها من المجتمعين ونكلوا بهم . ثم عاد إلى الجامع وأهان
قومته ، وأكثر من الوقعة في خطيبه . ثم إن البكرى ذهب إلى النائب
أرغون ، واتهم كلا من كريم الدين الصغير ناظر النظار ، وكريم الدين ناظر
الخاص ، وشنع عليهما ، ونسب إليهما أن الاستعارة تمت بأمرهما . وبلغت الحادثة

سمع السلطان . فأمر بإحضار البكرى في مجلس قضاة القضاة ومعهم ابن الوكيل . فلما دخل البكرى على السلطان والقضاة ، تكلم ووعظ وتلا آيات من القرآن ، وجملة من الأحاديث النبوية ، وأغاظ في عبارته للسلطان ، قائلا : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ، فاشتد غضب السلطان وقال له : « أنا جائر ؟ » قال : « نعم ! أنت سلطت الأقباط على المسلمين وقويت دينهم » . فلم يتمالك السلطان نفسه ، وتناول سيفه وهم بضربه ، لولا أن بادره الأمير طغاي وأمسك يده . ثم التفت السلطان إلى القاضي ابن مخلوف ، وقال : يا قاضي يتجرأ على هذا ! ما الذي يجب عليه ؟ . قال : « لم يقتل شيئا يوجب عقوبة ! » فصاح السلطان في وجه البكرى أن « أخرج عني » . ثم أمر بقطع لسانه فصرخ البكرى وارتاع لصرخته الأمراء . ثم توسط له ابن الوكيل قائلا للسلطان : « إن البكرى عالم صالح ، وليكنه ناشف الدماغ » . قال صدقت وسكن غضبه وأمر بإخراجه .

وبعد ، فهذه جملة من الحوادث أو المظاهر التي ترينا منزلة العلماء التي بلغوها بعلمهم وفضلهم ، ولا ريب أن تعظيم السلاطين والأمراء لهم ، له الأثر المباشر في نفوسهم على أن يظلوا مجاهدين في سبيل الدين ، حريصين على الشريعة مستزيدين من العلم والفضل ، بائنين هذه الروح في طلابهم وناشئتهم لينهجوا نهجهم ويأحبوا طريقهم وينسجوا على منوالهم .

٣ - شعور العلماء بواجبهم وتنافسهم في أدائه

لما دالت دولة العلم في بغداد والعراق . وأيدت كتبه ومؤلفاته . وامتلك التتار هذه البلاد التي عاشت زمنا طويلا منارا للإسلام وكعبة للمسلمين ، واستشرى خطر الوثنية من ناحية ، والنصرانية من ناحية أخرى ، رأى العلماء أنهم إزاء مسئولية تاريخية كبرى ، تقتضيهم القيام بواجب نشر الدين وتجديد العلم ، وجمع شتات المعارف ، وتضمينها كتباً طارفة تسكون عوضاً عما أريد ، وصدى لما فقد . ورأوا أنهم إذا لم يغذوا السير في ميدان التدوين ، ولم يثبتوا بالتصنيف ما تعيه قرائنهم

وتحفظه صدورهم ، أتموا في حق الدين والعلم إنما لا يغتفر ، وأخرجوا أمام التاريخ ؟
وألقيت على كاهلهم تبعة بتر السلسلة العلمية .

شعر العلماء بهذه المسؤولية ورهبتها ، فامتلات قلوبهم حماسة ، وفاضت نفوسهم
تحفزا إلى القيام بالواجب الذي هيأته لهم الأقدار ، والاضطلاع بالمسؤولية التي اختارتهم
العناية لأدائها . فقاموا بذلك قياما مشكورا ، وسعوا إليه سعيا حميدا ، وأشاعوا
حركة إحياء علمية جليلة ، على الرغم من كل الملاحظات والعقبات التي تعوق النهوض
وكان بينهم في هذا المجال تنافس شديد كان له أثره المفيد في هذا الإحياء ، وبخاصة
في ميدان التعليم والتأليف .

٤ .. انصراف العناية إلى اللغة العربية

ولاشك أن مما عاون أهل العلم في تلك الآونة عناية السلاطين باللغة العربية ، عناية
اضطرتهم الظروف إليها اضطرارا . فأطلقوها تجرى كما شاءت لها الأقدار في ضبط
أمور الملك والسياسة والقضاء والعلوم . وذلك لعجز لغتهم التركية أو الجركية
عن أداء ما يتطلبه هذا الملك الواسع من ضبط وأمن وربط ، ونشر تعليمات وبعث
مراسلات ، وكتابة تقاليد وقضاء وتشريع . وما ذلك إلا لأنها لم تتخذ من قبل في
عصرها ، أداة للعلوم وتدوينها ، أو التأليف فيها ، كما اتخذت العربية . فتقاصرت
همتها عن أداء حاجة العصر ، لأنها لغة فقيرة . ولا سيما إذا قيست باللغة العربية
الفنية بمفرداتها وتراكيبها وطرق الأداء فيها ، ومصطلحاتها . فلقد سارت الحركات
العلمية منذ نشوئها في العصر العباسي ، وكابدت التدوين والتأليف والترجمة ،
واكتسبت من وراء ذلك خبرة وقدرة ومراعاة في التعبير عن الحقائق العلمية
والمعلومات والنظريات العقلية كأدق ما تؤديه لغة .

هذا إلى أن التركية لم تكن لغة الشعب المصري ولا الشامي ، إذ ذاك ، وإن
كانت لغة سلاطينه وحكامه . والعربية لغة أهل العلم فيه بل وفي العالم الإسلامي أجمع
تقريبا . فليس في مكنة إنسان كائنا من كان ، أن يحول هذه المجموع الزاخرة عن

لسانها إلى لسان غيره ، إلا يا حدى الأعاجيب ، وهى التى لم يسكن للمالك بها خبرة^(١) ولو راحوا يضبطون شئون ملكهم بلغتهم لأعوزتهم حيل جمّة وسنين عدّة ، حتى ينهضوا هذه اللغة القعيدة ، ولاحتاجوا لبذل المستحيل حتى تسوى خلقتا آخر جديدا يصلح لحياة العلم والأدب .

لهذا كله لووا عنان الحاجة إلى طائفة المتعممين الذين تخرجوا فى اللغة والدين ، وبرعوا فى الإنشاء والترسل ، فاتخذوا منهم بطانة ووليعة وسايروا الحالة التى سار عليها بنو أيوب من قبلهم ، فأفسحوا مجال العمل والترقى فى ديوان الإنشاء وأعمال الكتابة والضبط ، للنابعين من هذه الطبقة السالفة الذكر ، حتى كانت بين أيديهم إلى حد ما ، أسرار الدولة وتسيير أحوالها والبث فى شئونها . وفى ذلك كله ما فيه من التشجيع على الاشتغال باللغة وعلومها . وأكبر الظن أن السلاطين ما عنوا بفتح المدارس وإنشاء المساجد الجامعة وتقرير الدروس فيها إلا لضمان استمرار تخريج أفراد من هذه الطبقة العاملة ، التى يقع على كاهلها عبء كبير من أعباء الدولة وتصريف أمورها وضبط مشاكلها .

٥ - إنشاء دور التعليم ، ونظامها

لا شك أن إنشاء دور التعليم ، يعتبر سببا أساسيا وحيويا لتنشيط الحركة العلمية لما تضمه من مدرسين وطلاب . ولما يقرر فيها من دروس . وهى البيئات الطبيعية التى ينمو فيها العلم ويزدهر .

وتتمثل دور التعليم فى العصر المملوكى ، فيما أنشئ من مدارس ومساجد للمذاهب الأربعة ، وما شيد من خوانق وأربطة وزوايا للصوفية . وكان إلى جوار هذه المعاهد التعليمية مكاتب صغيرة متواضعة ملحقة بها ، تعنى بتعليم الصبية مبادئ القراءة والكتابة ، وطرفا من العلوم الأولية وتحفيظ القرآن الكريم ، وتعمد للالتحاق بالمدارس الجامعة .

١ - اقتبسنا بعض هذه اللقاوى من كتابنا : الأدب العربى من عهد الفاطميين إلى اليوم

ونشير هنا أولا إلى أن هذه المعاهد كانت بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن . اعترف كثير من المستشرقين — كالسير وإليم موير — أن الجامعات الأوربية الحديثة اقتبست منها نظمها . وفي رأي أن جامعات أوروبا وغيرها من جامعات العصر الحاضر ، كثيرا ما يجد طالب العلم فيها ضروبا من العقبات ، وألوانا من الصعوبات ، تقف حجرة عثرة في سبيل انتظامه في سلسكها . وتمنعه دون الأخذ بأسباب العلم الذي يشتاق إليه ويتطلع نحوه . وذلك كنفقات مالية أو رسوم معينة ، وشراء كتب ومؤلفات مرتفعة الثمن ، وكالشهادات الدراسية المشروطة ، وغير ذلك .

لكن الجامعات المصرية في عهد المماليك لم تسكن لتفرض على طلابها مثل هذه العقبات . بل كانت أبوابها مفتحة ، ومشايخها حضورا ، يفيء إليهم الجاهل والعالم على السواء ، والكبير والصغير ، ويلازمهم طالب العلم في غدوهم ورواحهم ، ويطوف بهم ذو الرغبة فيه ، سواء المدمن العاكف ، والمتفكك المستطرف ، وهكذا . وليس هناك من غرم ولا نفقة ولا إرهاق . بل كان المشايخ والطلاب مما يجدون من صنوف البر ألوانا شتى تعينهم على طلب العلم وحبه والاستمرار فيه ، مما أوقف عليهم أو منح لهم وأهدى إليهم . وقد تزود المدارس بمساكن يأوى إليها شيوخها وطلابها^(١) ونعترف أننا نشعر بما في هذا النوع من التعليم من الفوضى والاضطراب ، وعدم النظام وقلة الدقة المطلوبة في التعليم . كاختلاط الطلاب ، الكبير منهم مع الصغير ، والمجدد مع الخامل ، وكأنعدام الامتحانات التي تظهر الكفاءة ، وعدم التقسيم المدرسي الذي يقسم الطلاب إلى سنوات دراسية حسب كفاياتهم العلمية . وغير ذلك مما يراعى في نظم التعليم الحديث .

وكان قصارى الطالب أن يدأب على تحصيل العلم حتى يأنس في نفسه القدرة على التصدي للفتيا أو التدريس أو الوعظ أو التأليف أو ما شا كل ذلك . فيتصدى لذلك لما أنس في نفسه ، فإذا أجاد وأفاد ، ذاع ذكره وشاع وملا البقاع . وأصبح

(١) انظر في خطط القرى ج ٤ ص ٢٠٥ ما كتبه عن المدرسة النهائية

شيخا يشار إليه بالبنان ، وهذا على نحو ما كان متبعاً في الأزهر قبل إنشاء الشهادات الدراسية والامتحانات السنوية حديثاً .

ومن الحق علينا لأولئك العلماء من أهل ذلك العصر أن نذكر أن بعضهم تصدى للفتيا أو التدريس وهو في سن العشرين أو أقل .

ومهما يكن من شيء فإن هذا الضرب من التعليم له مزايا لا يستهان بها ، منها ترك الطالب لميله الخاص وقدرته الشخصية وكفاءته العلمية ، ليختار وحده شيخه وكتابه . فإذا سلك السبيل وبلغ الغاية ، سما قدره وبرز نجمه ، وإلا تكص على عقبه فعاود طلب العلم أو انحرف إلى حرفة .

وكان ثمة ما يشبه الشهادات الدراسية الحديثة . وأعني بذلك ما سماه أهل العصر « الإجازات العلمية » ، وهي شهادات شخصية يمنحها أحد أعلام العلماء لأحد طلابه ويشهد فيها أن الطالب المذكور قرأ عليه كتاب « كذا » قراءة فهم وتدبر ومعرفة . أو أنه مهر في الفقه مثلاً وأصبح أهلاً للفتيا ، وأنه أجاز به . أي صرح له بمزاوَلتها . أو أنه برع في الأدب وأصبح كفئاً لرواية كتاب فيه أو ديوان . أو أنه سمع عنه جملة من أحاديث الرسول عليه السلام ، ورواها عنه بسندها ، وحفظها بهذا السند ، وأنه أجاز له روايتها عنه ، باعتباره حافظاً جديداً من حفاظها .^(١)

وقد كان يعين - عادة - لكل مادة مقررة ، شيخ - أستاذ - فيتعدد الأساتذة في المسجد الواحد بتعدد ما قرّرفيه من المواد . وعُرف بجوار ذلك نظام الإعادة ، فكان لبعض الأساتذة معيدون يعاونونهم في عملهم الشاق . ويرقى المعيد من بعد فيصير أستاذاً ، فهو أقل منزلة من الأستاذ . ومما يشعر بذلك ما يلي :

قال التاج السبكي في طبقاته - ج ٥ ص ٢ في ترجمة علم الدين القمي المتوفى في عام ٦٨٦ هـ بالقاهرة : « إنه كان معيداً بالمدرسة الظاهرية . »

وقال ابن دقاق في كتابه « الانتصار » ، ج ٤ ص ٩٦ عند الكلام عن المدرسة

١ - انظر تراجم العلماء بعد ، واقرأ ترجمة السيوطي لنفسه في حسن المحاضرة

الطبرسية التي أنشأها الأمير علاء الدين طبرس الخازنداري عام ٧٠٩ هـ مانصه :

« ثم وقفها مدرسة للفقهاء الشافعية والمالكية ، يُحجسون الشافعية في الإيوان الغربي ، والمالكية في الإيوان الشرقي . ورتب من كل مذهب مدرسا ومعيدا وخمسة عشر طالبا . وقرن الإمامة لمعيد الشافعية ، والمنزلين علوها للمدرسين . وعمر مكنبا للسبيل وشرط لكل مدرس ستين درهما . ولمعيد الشافعية الإمام في كل شهر أربعين درهما ، ولمعيد المالكية في الشهر أربعين درهما .. الخ. (١) »

ونستطيع أن نفهم مما يذكره المؤرخون في سياق حديثهم عن علماء هذا العصر أن ثمة نظاما في إلقاء الدروس ، يشبه نظام المحاضرات المتبع في الجامعات الحديثة ، فقد كان بعض العلماء « يُملي مجالسه » على طلابه . قال السيوطي في حسن المحاضرة - ج ١ ص ١٦٨ - عن الحافظ العراقي المتوفى عام ٨١٦ هـ : « إنه أحيا الله تعالى به سنة الإملاء . وإنه شرع في إملاء الحديث . وإنه أُملي أكثر من أربعمائة مجلس » وقال أيضا - ج ٢ ص ١٧٠ - عن ابن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢ هـ : « إنه أُملي ألف مجلس » .

ومعنى الإملاء بلغة عصرنا الحديث ، محاضرة الطلاب ومشافهتهم ، وهو يكتبون .

وعلينا أن نشير - وأشرنا (٢) - من قبل - إلى أن سياسة التعليم وافتتاح المدارس لم تكن سياسة ثابتة للدولة . وإما هي سياسة فردية مرتجلة مقيدة برغبة السلطان أو الأمير ، الرغبة العارضة الطارئة التي يدفع إليها - عادة - حب الظهور أو الزلفى إلى الله ، أو الإبقاء على بعض الممتلكات بوقفها على المدرسة المنشأة أو نحو ذلك . ومن المؤسف أن بعض المدارس كانت تعيش بمعيشة منشأها يرعاها ويكفلها ويعنى بشئونها ، فإذا مات ، لحقها البوار ، ولعبت يد العيب في أوقافها ، ولزنتها الإهمال من كل مكان ، حتى يعفى أثرها ويذول خبرها .

(١) انظر أيضا ما كتبه المقرئ عن المدرسة الصالحية ، خطط ج ٤ ص ٢٠٩ .

(٢) اقرأ ما كتبناه عن التعليم في كتابنا هذا ج ١ قسم ٢ ص ٢٩٨ - ٣٠١ .

ويرجع الفضل في تأسيس المدارس في مصر إلى الفاطميين ، فإنهم بنوا الجامع الأزهر ، ثم جامع الحاكم ، وأقاموا المجالس التي تدرس فيها مذاهبهم الدينية . وقفي على آثارهم صلاح الدين الأيوبي ورجال أسرته من بعده ، فافتتحوا عددا كبيرا من المدارس ، وإن أتوا على مذهب الفاطميين الشيعي ، ومكنوا للمذاهب أهل السنة . وقد اقتدى المماليك بهؤلاء وهؤلاء ، فاستبقوا كثيرا مما أسسه أسلافهم ، وأخذوا ، جيلا بعد جيل ، في إنشاء عدد جديد من دور التعليم حتى امتلأت بها القاهرة على رحبها . وكذلك الإسكندرية . ومنها ما أنشأه السلاطين أو الأمراء أو العلماء والرؤساء .

ولم يقتصر إنشاء دور التعليم الجامعة على العاصمة والشعر ، بل أنشئ عدد منها في المدن المصرية الأخرى ، فكانت كلها بيئات علمية جليلة تخرج فيها كثير من أفاضل العلماء .

قال ابن دقاق في كتابه « الانتصار » - ج ٥ - يذكر المدارس المصرية المنشأة في غير القاهرة والإسكندرية ، ما ملخصه :

« كان في منية بني خصيب مدارس للشافعية والمالكية . وفي ميرو القوصية مدرستان . وفي منفوط عدة مدارس . وفي أسيوط عدة مدارس ، وفي بوتيغ عدة مدارس . وفي إخميم عدة مدارس . وفي سوهاج عدة مدارس ، وفي قوص ستة عشر مكانا للتدريس . وفي إسنا مدرستان . وفي الأقصرين مدرسة . وفي أسوان ثلاث مدارس . وفي بلبليس مدارس . وفي دمياط عدة مدارس . وفي المحلة عدة مدارس . وفي دمنهور عدة مدارس ، وفي رشيد كتاب للأيتام » .

وإذا أضفنا إلى عدد هذه المدارس التي تدرس بها المذاهب الأربعة والحديث وغيرها من العلوم الشرعية والعربية ، ما أنشئ من الزوايا والربط والخوانق التي كانت مباءات للصوفية وعلومها ، وجدنا أمامنا عددا ضخما من المعاهد العلمية المختلفة الألوان .

قال أمين باشا سامى فى كتابه تقويم النيل : ج ١ ص ٢٠٢ ، « بمجموع ماشيده
حكام مصر للتعليم من أول الفتح الإسلامى إلى عصر المقرئى وابن دقماق ، من
مدارس وجوامع ومساجد وزوايا وربط وخوانق ١٥٥ » .

وقد توفى ابن دقماق فى عام ٨٠٨ هـ ، وتوفى المقرئى عام ٨٤٥ هـ ، وقد أنشئ
من بعدهما عدد جديد من دور التعليم ، فقد أنشأ الغورى مثلاً جامعته ومدرسته
بالشرابشين وأنشأ قايىبى من قبله مدرسة بالإسكندرية . غير مدارس كثيرة أخرى
أنشأها فى أماكن متعددة كبيت المقدس ، ومكة ، ودمشق .

ولانفسى بهذه المناسبة أن نذكر أن حكام مصر لم يقتصرُوا فى إنشاء المدارس
والمساجد فى الأرجاء الأخرى من أمبراطوريتهم الواسعة كبلاد الشام والحجاز .
وأن التعليم فيها كان يسير على نمط من التعليم فى مصر .

هذا . وقد جرت العادة بافتتاح المدارس باحتفال يتفاوت فى عظمتها وأهيتها
بتفاوت أقدار المؤسسين . فيتقدم السلطان أو الأمير المنشىء مثلاً ، فى ركب ،
ويتصدر مجلساً بالدار المفتوحة ، ويشرع أحد شيوخها فى إلقاء درسه فقهاً أو
حديثاً . ثم تمنح المنح وتهدى الهدايا ، وتمد الموائد . وقد يلتقى بعض الشعراء أحياناً
مناسبة للمقام . وسنشير إلى شئ من ذلك بعد .^(١)

وقد عنى ابن دقماق والمقرئى والسيوطى وابن إياس ، يذكر المساجد ودور
التعليم من أول إنشائها إلى عهدهم ، على اختلاف بينهم فى طريقة العرض . ونحن
هنا ننقل عنهم أخبار بعض هذه المدارس على سبيل المثال . وبخاصة مابنى منها فى
العصر المملوكى ، أو ظل على ازدهار الدراسة فيه إلى العصر المذكور ، مهتمين
بذكر أخبارها فى هذا العصر أكثر من سواه . معتمدين فى أكثر ما ننقل على
ما دونه المقرئى فى خططه^(٢) . فنقول :

(١) انظر المدرسة الظاهرية والاقبغاوية والصرغتمشية ومدرسة الأمير جمال الدين
(٢) اعتمدنا فى أخبار هذه المدارس على الخطة المقرئية ج ٤ ، لذلك اكتفينا بذكر
أرقام الصفحات من هذا الجزء . وإذا نقلنا عن غيره نصصنا عليه .

١ - جامع عمرو:

أسسه عمرو بن العاص فأنح مصر، عام ٢١ هجرية في القسطنطينية . ولا يزال ماثلاً فيها حتى اليوم . وعنى بأمره منذ تأسيسه كثيرون من ولاية مصر وقضاها وأمرائها وسلاطينها . وهو أول مسجد أسس بالديار المصرية ، ويقال له أيضاً : الجامع العتيق . ومن عنى به في عصر المماليك : القاضي تاج الدين بن بنت الأعز ، فقد أصلح ما مال منه ، وهدم بعض غرفه وأبطل فسقيته التي كان المساء يصل إليها من النيل ، بحجة أن ماءها المجلوب يضر بجدران المسجد . ومنهم السلطان الظاهر بيبرس ، فقد أمر بترميم ما تهدم منه وتجديد بعض أجزائه ومحتوياته وذلك في رجب عام ٦٦٦ هـ . ومنهم السلطان المنصور قلاوون ، فقد جددته في عام ٦٨٧ هـ . ومنهم الأمير سلاّر نائب السلطنة ، فقد جددته عقب زلزال عام ٧٠٢ هـ . وجدده كذلك رئيس التجار برهان الدين إبراهيم بن عمر عام ٨٠٤ هـ في عهد الظاهر برقوق . هذا ، وقد سعدت مصر منذ إنشاء هذا الجامع بضروب من الدراسات الدينية واللغوية والأدبية . وتخرج فيه كثير من البلغاء والأدباء .

وتجد حديثاً ممتعاً عنه في المخطوط ج ٤ ، من ٤ ، وحسن المحاضرة ج ١ والانتصار ج ٤

٢ - جامع ابن طولون^(١)

هو الجامع المشهور بالقاهرة ، في طريق العابر بين حي السيدة زينب والقلعة بناه أحمد بن طولون بالقطائع عام ٢٦٣ هـ . وفرغ من بنائه عام ٢٦٦ هـ . وقد لبث هذا الجامع منارة كبرى تشع نور العلم والعرفان في مصر زمناً طويلاً . ومن عنى به في العصر المملوكي : السلطان لاچين ، فإنه قبل سلطنته عام ٦٩٦ هـ قتل الأشرف خليل بن قلاوون سلطان البلاد ، ثم هرب واختفى في منارة هذا الجامع ،

١ - يوجد عن هذا الجامع كلام طويل في كل من حسن المحاضرة والمخطوط المقرئية . وفصل ابن دقيق في « الانتصار » ج ٤ ، من ١٢٢ الحديث عنه وعن عمارته والإسناد محمود عكوش كتاب مطبوع سنة ١٣٤٦ هـ . ومنه نسخة بدار السكتب المصرية - تكلم فيه عنه وعن ابن طولون وحرره .

فندر الله إن نجاه من هذه الفتنة ليعمرنه . فنجاه الله ، وآلت إليه سلطنة مصر . فأمر بتجديد هذا الجامع ، وفوض هذا الأمر إلى الأمير ، علم الدين سنجر الزينى ، فعمره . ووقف عليه لاجين أو قافا ثمانية . ورتب فيه دروس التفسير والحديث والفقه ، على المذاهب الأربعة ، والقراءات والطب والميقات .

قال ابن دقاق : إن لاجين وقف على هذا الجامع وقفا يختص بالديكة تسكون على سطحه فى مكان مخصوص بها لتعين المؤذنين على الأوقات . ونقل السيوطى عنه ذلك .

ومن قام فيه بتدريس الطب : شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى عام ٧٧٦ هـ .

ومن تولى نظره بعد تجديده : الأمير علم الدين سنجر العادلى دوادار السلطان لاجين . ثم وكل أمره إلى القضاة . ومن تولاه منهم : بدر الدين بن جماعة ، أنا ، وعزالدين بن جماعة أنا آخر . وبعد مدة وكل أمره ثانية إلى الأمراء فتولاه : الأمير صرغتمش ، ثم الجاى اليوسفى ، ثم قطالوبغا الصفوى . ثم عادت وكالته إلى القضاة مرة أخرى .

(٣٦ — وحسن المحاضرة . ج ١ ص ٢٦٢ - والاتصار ج ٤ ص ١٢٢)

٣ — الجامع الأزهر

هو ذلك الطود الأشم والحصن المنيع ، والركن المتين ، والعضو القوى الذى وجد فيه الدين الحنيف واللغة العربية أكبر معين على البقاء . وكما شاء الله أن تقوم القاهرة مقام بغداد بعد محنتها عام ٦٥٦ هـ ، فيحيا فى ربوعها العلم والدين واللغة ، شاء أيضا أن يقوم الأزهر وسطها ، ويبقى حقا طويلا منارا للدين ، وحياة للغة ، حتى يعد محنة القاهرة عام ٩٢٣ هـ . وظل وصلة صالحة بين علم الماضين ، وعلم الحاضرين .

وقد بناه جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى ، أثناء بناء القاهرة .

وبُدىء في ذلك البناء في يوم السبت است بقين من جمادى الأولى عام ٣٥٩ هـ ،
وتم بناؤه في رمضان عام ٣٦١ هـ ،، وصليت به أول جمعة لسبع خلون منه .

وقيل إن الفضل في بنائه يعود إلى جوهر . فهو صاحب الاقتراح بذلك .
أغرى به سيده المعز ليكون لها أثرا خالدا يذكر الناس بها أبد الدهر ، ولينافسا به
جامع عمرو ، وجامع ابن طولون . وليكون مثابة يفد إليها المتشيعون بدرسون
مذهبهم على علانيته . ومباعدة تنتشر منها جرائيم هذا المذهب في أرجاء البلاد .

وظل الجامع الأزهر يقوم برسائله العلمية في عهد الفاطميين ، وإن شابها مذهب
التشيع ، حتى آل الأمر إلى الأيوبيين . فأبطل صلاح الدين خطبة الجمعة فيه اكتفاء
بها في جامع الحاكم ، وأبطل تدريس المذهب الشيعي ، وظل الجامع مفتوحا لما
عدا ذلك من صلاة ودراسة .

والجامع الأزهر ثالث المساجد العظيمة التي بنيت بمصر بعد الفتح العربي .
وقد عني به كثير من خلفاء الفاطميين وسلاطين آل أيوب والمماليك وأمرائهم ،
لما ناله في عالم الدراسة من سمعة طيبة ، ولما حازه من مركز ديني عظيم . وقد أكسبه
موقعه وسط القاهرة وعلى مقربة من مساكن الأمراء والرؤساء حينذاك أهمية كبرى ،
إذ صرفوا إليه كثير من عنايتهم . وله في التاريخ الحديث مكانة حافلة إذ تحول إلى جامعة
دبية عليية إسلامية كبرى . ومن مظاهر العناية به في العصر المملوكي ما يلي :

١ - في سنة ٦٦٥ هـ جدد الأمير عز الدين إيدمر الحلي ، بعد استئذان السلطان
الظاهر بيبرس ، فاكنتبا واكتتب معها كثير من الأعيان بطائفة من المال .
فأقيمت جدره الواهية ، وأعلى سقفه وطلّى وفرش . وبنيت به مقصورة ، ورتب
بعض الدروس الدينية . وأعيدت إليه صلاة الجمعة وخطبتها ، بناء على رغبة من
السلطان ، وفتوى من قاضي قضاة الحنفية ، بعد عطله من الخطبة نحو من مائة
عام ، بناء على أمر صلاح الدين الأيوبي ، وفتوى قاضيه الشافعي صدر الدين بن درباس .

٢ - وفي سنة ٧٠٢ هـ . أصاب مصر زلزال شديد تهدم على أثره بعض المساجد

فهب الأمراء يتقاسمون إصلاحها . فكان إصلاح الأزهر من نصيب الأمير سيف الدين سلار ، فجدد مبانيه .

٣ - وفي سنة ٧٦١ هـ ، في عهد السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، استأذنه الأمير سعد الدين بشير الجمدار الناصري في إصلاح الأزهر ، فنزع كثيرا من مئاصره التي كانت قد ضيقت من سعته ، وأقام جدرانته وسقفه وبيضه وبلطه ، حتى عاد جديدا . وأنشأ بيا به القبلى موردا ومكتبا يحفظ به الأيتام القرآن الكريم . وخصص طعاما يوميا لفقراء المجاورين به ، وأقام شيخا يدرس فقه الأحناف للطلاب . ثم أوقف على ذلك كله أوقافا واسعة .

٤ - ومنذ عام ٨٠٠ هـ ، في عهد السلطان برقوق وابنه فرج ، أقيمت منارته عدة مرات . وبني له صهريج للمياه وميضأة .

٥ - وفي عام ٩٠١ هـ ، أنشأ الأشرف قايتباي ميضأة جديدة في وسطها حوض بديع وموردا للماء ومكتبا .

٦ - وفي عام ٩٠٢ هـ أنشأ الأشرف الغوري منارته ذات الرأسين ، ومنحه كل سنة ٦٧٠ ديناراً و ١٠٠ قنطار من العسل و ٥٠٠ إردب من القمح .

وقد ازدهرت الدراسة في الجامع الأزهر في عصر المماليك أيما ازدهار ، لما وهبوا له من عناية ، وما أغدقوا عليه من أرزاق . لذلك أمه كثير من الطلاب على اختلاف أوطالهم . وكانوا عنه لسان صدق ، ورسول حق ، إذا عادوا إلى بلادهم ذكروا بالخير مصر وسلاطينها ، وكسب الجامع شهرة عظيمة من وراء ذلك ، ينعم بالتمتع بها حتى اليوم ، ويعهد في المزيد منها .

وأهم ما كان يدرس به علوم الدين ومذاهبه الأربعة والحديث واللغة والأدب والوعظ . وتخرج فيه كثير من الفطاحل . وما يذكر أن السلاطين كانوا يلون أمره بأنفسهم ، ويعنون بانتقاء شيوخه ومدرسيه وخطبائه ، وكثيرا ما كانوا يؤمونه لأداء صلاة الجمعة .

ولا بأس من إيراد بعض ما رواه المقرئى عنه ، قال ما يفهم منه أنه حتى عام ٨١٨ هـ كان بهذا الجامع عدد كبير من الفقراء المنقطعين لطلب العلم يبلغ عددهم ٧٥٠ رجلا ، وهم ما بين عجم وزبالة ، ومن أهل ريف مصر ومغاربة . ولكل طائفة رواق يعرف بهم .

وقال : « فلا يزال هذا الجامع عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيته . والاشتغال بأنواع الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ . وفاق الذكر . » وقال : « يجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره . وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاهدين فيه على عبادة الله تعالى . وكل قليل يحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات ، لاسيما في المواسم . » (٤٩ - حسن المحاضرة . ج ٢ ص ١٥٤)

٤ - جامع الحاكم :

أسسه العزيز بالله الفاطمى ، ثم أكمله ابنه الحاكم بأمر الله . وتمت عمارته في عام ٣٩٣ هـ ، وأوقف عليه الحاكم بأمر الله أوقافا واسعة وأسواقا .

ولما تهدم إثر زلزلة عام ٧٠٢ هـ جددّه الأمير « بيبرس الجاشنكير » ورتب فيه دروسا على المذاهب الأربعة . ودرس في الحديث ، ودرس في النحو ، ودرس في القراءات . ووقف عليه أوقافا عدة وكان بجانبه مكتب لتعليم الأيتام وتحفيظهم القرآن الكريم .

ص ٥٥

٥ - المدرسة الصلاحية :

أنشأها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٢ هـ بجوار قبة الشافعى . وجعل بها مدرسين ومعيدين . وبلغ عدد المعبدن بها أحيانا عشرة . وقد عاشت هذه المدرسة في العصر المملوكى مدة طويلة . (حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٧)

٦ - المدرسة القمحية :

أنشأها صلاح الدين الأيوبي بجوار جامع عمرو ، عام ٥٦٦ هـ ، وخصصت

لفقهاء المالكية وهي أفضل مدارسهم . وعرفت بالقمحية نسبة إلى ما كان يرسل من القمح إلى فقهاءها ، من ضيعتها الموقوفة عليها بالفيوم . وعند إنشائها أوقفت عليها الأوقاف ، ورتب عليها المدرسون . قال المقرئى : « وقد أحاط بها الخراب ، ولولا ما يتحصل منها للفقهاء لدرثت . » وفى شعبان عام ٨٢٥ هـ أخرج السلطان الأشرف برسبای بعض أوقافها عنها .

(ص ١٩٣ - الانتصار ج ٤ ص ٩٥)

٧ - مدرسة العادل أو مدرسة ابن شاس :

أنشأها الملك العادل أبوبكر بن أيوب ، أخو صلاح الدين الأيوبي . وهي من مدارس المالكية . ومن درس بها قاضى القضاة تقي الدين بن شاس ، قال المقرئى : « فعرفت به . » وقيل لها مدرسة ابن شاس إلى اليوم . وهي عامرة .

ص ١٩٥

٨ - المدرسة السيوفية :

أسسها صلاح الدين الأيوبي ، وتقع بالقاهرة بجوار سوق السيوفيين ، فعرفت بالسيوفية : « قال المقرئى : « وهذه المدرسة هي أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر ، وهي باقية بأيديهم ، »

ص ١٩٧

٩ - المدرسة الفاضلية :

أنشأها بدرج ملوخيا بالقاهرة ، القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى ، الكاتب المنشئ المشهور ، بجوار داره ، عام ٥٨٠ هـ . ورتب فيها دروسا للقراءات وفقه الشافعية والمالكية . وأوقف عليها نحو مائة ألف مجلد فى مختلف العلوم . وظلت مفتحة الأبواب فى عصر المماليك ، حتى وقع الزلا . عام ٦٩٤ هـ فى عهد السلطان كتبغا المنصورى . فعبث طلابها ومدرسوها بما أوقف عليها من الكتب ، دفعا للحاجة . قال المقرئى : « وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها . وقد تلاشت خراب ما حولها . »

ص ١٩٧

١٠ - المدرسة الصالحية :

كانت تقع بخط بين القصرين ^(١) بالقاهرة . أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ابتداء من سنة ٦٣٩ هـ . وتتكون من أربع مدارس معا ، واحدة لكل مذهب من المذاهب الأربعة . وهي أول مدرسة أنشئت على هذا النمط . وأوقف عليها منشؤها أوقافا .

وقد اهتم بشأنها في العصر المملوكي الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ابن الظاهر بيبرس ، وأضاف إليها أوقافا جديدة بنواحي متعددة ، منها أماكن بالقاهرة والمحلة بالغربية ، وبالجزيرة . ورتب لها أربعة من المدرسين . لكل مدرس معيدان وعدة طلبة . وعين له جميع من يحتاج إليهم من خدام دائمة ومؤذنين وذلك في عام ٦٧٧ هـ . قال المقرئ : وهي جارية في وقفها إلى اليوم ،

ومن اهتم بها الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب السكر . إذ رتب لها جمال الدين الغزاوي خطيبا بقسم الشافعية وجعل له في كل شهر خمسين درهما . وأضاف إليها أوقافا جديدة وذلك في عام ٧٣٠ هـ . قال المقرئ : فاستمرت الخطبة هناك إلى يومنا هذا . . .

والسيوطي (٩١١ هـ) قال عن هذه المدرسة نقلا عن المقرئ : « وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة إلا أنها قد تقادم عهدا فرئت ، ولم نجد العبارة المذكورة فيما رواه المقرئ . ونعتقد أن السيوطي نقلها عنه فيما رواه في الخطط عن المدرسة الظاهرية ، التي نذكرها بعد . كما نقل عنه في أخبار تلك المدرسة الصالحية ، أنباء افتتاح الظاهرية ، وما أنشد فيه من الشعر ، على اعتبار أنه قيل في افتتاح الصالحية . والمقرئ هنا أوثق وأصدق لسبقه على السيوطي ولأن السيوطي ينقل عنه . من ٢٠٩ ، ٢١٠ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٩ »

(١) كتب المقرئ فصلا ممتعا عن هذا الخط في الخطط ج ٣ ص ٤٤ ، وذكر عنه أنه كان ملهى من ملاهى القاهرة يكثر فيه الزحام كثرة مضية للمارة وأن الناس كانوا يسرون فيه إلى يسارهم دائما تلافيا للاضطدام ، وظل زمنا على هذا الحال إلى عصر المؤلف .

١١ - المدرسة الكاملة :

كانت منشأة بخط بين القصرين كذلك : أسسها الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن العادل الأيوبي في سنة ٦٢٢ هـ . وتعرف بدار الحديث ، وهي ثانية الدور التي بنيت لرجال الحديث بخاصة . والاولى بناها العادل نور الدين بن زنكي بدمشق . وقد أوقف الملك الكامل على هذه المدرسة أوقافا عدة وظلت عامرة برجالها وبطائفة من المدرسين المشتغلين بالحديث حتى عام ٨٠٦ هـ . ومنذ ذلك العام ولى أمرها من لم يحسن القيام به ، فأخذت في الزوال . ص ٢١١

١٢ - المدرسة المعزية : عمرها السلطان عز الدين بن أيبك الجاشنكير أول ملوك الدولة البحرية وذلك عام ٦٥٤ هـ ، ودرس بها الصاحب برهان الدين السنجاري ثم شمس الدين الجزري ثم نجم الدين أحمد بن الرفعة ثم جمال الدين بن الزرعي .
الاتصارج ٤ ص ٩٢

١٣ - المدرسة الظاهرية :

كانت منشأة بخط بين القصرين أيضا . ومنشؤها الملك الظاهر بيبرس البندقداري . قال المقرئ : « ابتدئ في عمارتها في ٢ ربيع الآخر سنة ٦٦٠ هـ . وقال السيوطي في سنة ٦٦١ هـ . واتفقا على أن بناها قد تم في سنة ٦٦٢ هـ . ويسمى السيوطي « المدرسة الظاهرية القديمة » ، تميزا لها عن « المدرسة الظاهرية » التي أنشأها الملك الظاهر برقوق عام ٧٨٦ هـ . وقد عني الظاهر بيبرس بهذه المدرسة أكبر عناية . وأوقف عليها أوقافا كثيرة وألحق بها خزانة كتب جليلة تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم . وبنى بجانبها مكتبا لتعليم الأيتام القرآن الكريم وأجرى عليهم الطعام والشراب . ورتب بها دروسا في المذاهب الأربعة والقراءات . وعندما تم تشييدها افتتحها بيبرس باحتفال شائق ، تناظر فيه العلماء ، وتبارى الشعراء ، ومدت المواثد الحافلة . وكان شعراؤها ثلاثة : أبو الحسين الجزار ، والسراج الوراق . وجمال الدين يوسف بن الخشاب .

فقال الجزار :

ألا هكذا يبني المدارس من بني
لقد ظهرت للظاهر الملك همه
تجمع فيها كل حسن مفرق
ومذجأورت قبر الشهيد فنفسه
وماهى إلا جنة الخلد أزلفت
ومن أبيات الوراق :

مايك له فى العلم حب وأهله
فشيدها للعلم مدرسة غدا
ولانذكرن يوما نظامية^(١) لها
ولا تذكرن ملكا فيبرس مالك
ولما بناها زعزعت كل بيعة
وقد برزت كالروض فى الحسن أنبات

بأن يديه فى النوال غمام

لم تر محراباً كأن أزاهرا
تفتح عنهن الغداة كمام

وقال جمال الدين يوسف بن الحشاش :

قصد الملوك حماك والخلفاء
أنت الذى أمراؤه بين الورى
ملك تزيات الممالك باسمه
وترفعت لعلاه خير مدارس
يبقى كما يبقى الزمان وملكه
كم للفرنج وللتتار يبابه
فانخر فإن محلك الجوزاء
مثل الملوك وجنده أمراء
وتجملت بمديحه الفصحاء
حلت بها العلماء والفضلاء
باق له ولحاسديه فناء
رسل منها العفو والإعفاء

وطريقة لبلادهم موطوءة وطريقهم لبلاده عذراء
 دامت له الدنيا ودام مخلصها ما أقبل الإصباح والإسماء
 فلما فرغوا من إنشادهم أفيضت عليهم الخلع .
 قال المقرئ : « وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة ، إلا إنها قد تقدم
 عهدا فرثت : وبها إلى الآن بقية صالحة ونظرها تارة يكون بيد الحنفية ، وأحيانا
 بيد الشافعية . وينازع في نظرها أولاد الظاهر فيدفعون عنه ولله عاقبة الأمور ،
 ص ٢١٦ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٠ »

١٤ - المدرسة المنصورية :

كانت بخط بين القصرين أيضا . أنشأها تجاه المارستان داخل بابه ، الملك
 المنصور قلاوون ، على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . ورتب بها دروسا
 في المذاهب الأربعة ، ودرسا في الطب ، كما رتب بقبته المجاورة لهذه المدرسة درسا
 في الحديث ، ودرسا في تفسير القرآن الكريم ، وميعادا للوعظ . وعُنى باختيار
 مدرسيها عناية تامة . وزودت بخزانة كتب .

قال السيوطى : « وقد مدحه الشرف البوصيرى لذلك بقصيدة أولها :

أنشأت مدرسة ومارستانا لتصحيح الأديان والأبدان

ويبدو أنها كانت في أيام المقرئ على غير ما يُرجى لها وتولى أمرها من ليس
 قينا به قال :

وكانت هذه التداريس لا يليها إلا أجل الفقهاء المعبرين . ثم هي اليوم كما قيل :

تصدر للتدريس كل مهوس	بليد يسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوا	ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها	كلاها وحتى سامها كل مفلس

ومما يذكر أن الأمير أرغون العلائى زوج أم الملك الصالح إسماعيل بن الناصر

ابن قلاوون ، رتب بالعتبة المنصورية أيضاً دروساً في المذاهب الأربعة ، عرفت بدروس وقف الصالح . وذلك أن الصالح المذكور أراد بناء مدرسة فمات قبل أن يبلغ مأربه . فاستبدل بها زوج أمه الأمير أرغون ، هذه الدروس في القبة . وأوقف عليها أوقافاً . وزاول قضاة القضاة تدريس هذه الدروس زمناً ، ثم زاوله غيرهم .

ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٠

١٥ — المدرسة الصاحبية البهائية :

كانت بزقاق القناديل بمصر قرب جامع عمرو بن العاص . أنشأها الوزير صاحب بهاء الدين علي بن محمد بن حنّاً عام ٦٥٤ هـ . وكان زقاق القناديل إذذاك أكثر أحياء مصر عمرانا وسكانا ، وكان يسكنه الأشراف ويعلقون القناديل على أبواب منازلهم . وقد توفي هذا الوزير في مستهل ذي الحجة عام ٦٧٧ هـ بعد أن وقف على مدرسته جملة أوقاف . وخصص لها خزانة كتب ثمينة .

وأول من درس بهذه المدرسة صاحب نحر الدين محمد بن الوزير بهاء الدين ، وعدد آخر من أبنائه ، وولياها أبنائه أيضاً بالنظر ابنا بعد آخر حتى عام ٨١٣ هـ . وفي العام المذكور توفي آخر من وليها منهم وهو شمس الدين محمد بن بهاء الدين ، فاستولى بعض نواب القضاة على ما بقى لها من وقف ، ولم ترع مصالحها فمطلت الدراسة بها ، وبعثت خزانة كتبها ، وأخذ أمرها في الزوال .

قال المقرئ : « وكانت من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر ، يتنافس الناس من طلبة العلم في النزول إليها ، ويتشاحنون في سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من طلبة العلم والثلاثة ، ثم تلاشى أمرها ،

ص ٢٠٥

١٦ — القبة المنصورية .

كانت تجاه المدرسة المنصورية السالف ذكرها ، داخل المارستان المنصوري بخط بين القصرين بالقاهرة . بناها المنصور قلاوون وجعلها خاصة لنفسه ، وأبدع ما شاء في زخرفتها . وقد أعدت لتسكون مقبرة له . ودفن بها هو وبعض أبنائه . وكان ابتداء عمارة المارستان والقبة والمدرسة عام ٦٨٢ هـ

وقد رتبت في هذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة ، ودرس في الحديث ، وآخر في التفسير ، ودروس في الوعظ ، وعدة من المدرسين والمعبدن والقراء ، وزودت بخزانة كتب عظيمة الشأن . وأسس بجوارها مكتب لتحفيظ القرآن الكريم . وأوقفت على ذلك كله أوقاف عدة مختلفة ، وأجريت المراتب على موظفيها . وكذلك عني بتزويدها بما تحتاج إليه من أدوات وأثاث وما إلى ذلك

٤ خطط ص ٢١٨ ، ٢٦١

١٧ - المارستان المنصوري :

كان يقع بين القصرين . بناء المنصور قلاوون عام ٦٨٢ هـ . وهو بناء ضخم فسيح الأرجاء يحتوي على مستشفى للبرضى ومدرسة للطب . وهو من أعظم المؤسسات التي خلدت ذكر المنصور ، ومن أهم دور التعليم بمصر حينذاك . ويندر أن تجد له نظيرا في تلك العصور الحالية .

وقد أنفق المنصور في سبيل انشائه هو والمدرسة والقبة أموالا طائلة . وأوقف عليها نحو ألف ألف درهم سنويا .

ويقال في سبب إقدام المنصور على بنائه ، أنه توهّم مرة أن العامة خالفت أمره ، فأطلق فيهم مماليكه ، فأثخنوا فيهم وقتلوا وجرحوا ماشاءوا ثلاثة أيام . ثم كف عنهم بشفاعه بعض العلماء . وعاد فندم وقدم ، هذا المارستان قربان الله تكفيرا عن ذنبه . ويقال إنه لما مرض في بلاد الشام حينما كان أميرا بها على عهد الظاهر بيبرس ، عولج بأدوية جلبت من مستشفى نور الدين ، ثم شفى . فنذر لله إن آتاه الملك أن يبني مارستانا .

وكان هذا المارستان ينقسم إلى جملة أقسام : منها قسم للحميات ، وآخر للرمد ، وآخر للجراحة ، وآخر للأمراض النسوية ، وآخر للإسهال . ومجهز بصيدلية تطبخ فيها أنواع الأدوية . وزود بما يحتاج إليه من أدوات وأسرة وموظفين . وأسست به قاعة تلقى بها دروس الطب ، وضمت إليه خزانة كتب قيمة .

٤ خطط ص ٢٥٩

١٨ - المدرسة الناصرية :

تقع بخط بين القصرين شرق القبة المنصورية . بدأ بناءها الملك العادل كتبغا المنصوري . ثم خُلع قبل تمامها ، وتولى مكانه الناصر محمد بن قلاوون ، فأكمل بناءها عام ٧٠٣ هـ . وقد عني بزخرفتها وتزويدها بالرخام البديع . وصنع لها باب منه دقيق الصناعة . أصله باب إحدى كنائس عكا ، نقل إلى مصر بعد أن هدم الأشرف خليل بن قلاوون أسوارها .

وقد أوقف لها الناصر بن قلاوون ماشؤها أوقافاً عدة ، ونظم بها حركة التدريس . فقرر درسا يلقى لكل من المذاهب الأربعة . وأجرى على مدرستها وطلبتها الأرزاق الوفيرة . ورتب بها إماما يؤم الناس في الصلوات الخمس ، وزودها بدار كتب جليلة .

قال المقرئ : « وأدركت هذه المدرسة وهي محترمة إلى الغاية ، يجلس بدهايزها عدة من الطواشي ، ولا يمكن غريبا أن يصعد إليها . وكان يفرق بها على الطالبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها السكر في كل شهر ، لكل واحد منهم نصيب . ويفرق عليهم لحوم الأضاحي في كل سنة . وقد بطل ذلك ، وذهب ما كان لها من الناموس . وهي اليوم عامرة من أجل المدارس » .

وهذه المدرسة غير « المدرسة الناصرية » التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي بجوار الجامع العتيق عام ٥٦٦ هـ وجعلها وقفا على الشافعية والتي تعرف « بالمدرسة الشريفة » أيضاً ، نسبة إلى الشريف القاضي شمس الدين الأرموي الذي اشتغل بالتدريس فيها زمنا

وهي أيضا غير « المدرسة الناصرية » التي أنشأها صلاح الدين كذلك بجوار قبة الشافعي ، وسيأتي ذكرها .

ص ١٩٣ ، ٢٢١ ، ٢٥١ - حسن المعاصرة ج ٢ ص ١٦٠

١٩ - المدرسة القطبية :

في أول حارة زويلة . أسستها السيدة عصمة الدين مؤنسة خاتون المولودة عام ٦٠٣ هـ ، والمتوفاة عام ٦٩٣ هـ ونسبت إلى الملك الأفضل قطب الدين أحمد ، شقيق

مؤسستها هذه، التي كانت مولعة بحب الحديث وروايته ، فأسسها وأوقفت عليها أوقافا ، وجعلتها مدرسة للشافعية والحنفية . قال المقرئى : « وهى إلى اليوم عامرة » . وقال « وكان وقفها فى سنة ٦٠٥ هـ ، وفيه نظر ، فلعلها سنة ٦٥٠ هـ .

ص ٢٠٠ ، ٢٣٧

٢٠ - المدرسة الخروبية :

كانت تقع فى مدينة مصر ^(١) - مصر القديمة - على شاطئ النيل . أنشأها تاج الدين محمد بن صلاح الدين الخروبى المتوفى عام ٧٨٥ هـ ، وأوقف عليها أوقافا ، ورتب بها مدرسا للحديث .

ص ٢٠١

٢١ - المدرسة الفارقانية :

كانت تقع فى القاهرة بجوار سويقة حارة الوزيرية . أنشأها الأمير « شمس الدين آق سنقر الفارقانى السلحدار ، وفتحت فى يوم الاثنين ٤ جمادى الأولى سنة ٦٧٦ هـ ، وخصص فيها درس للشافعية وآخر للحنفية .

وهذه المدرسة غير المدرسة الفارقانية التى أسسها الأمير « ركن الدين يبرس الفارقانى ، خارج باب زويلة بين حدوة البقر وصلبة جامع ابن طولون .

ص ٢٠١ ، ٢٤٨

٢٢ - المدرسة الخروبية :

هى غير المدرسة الخروبية السالفة الذكر - رقم ٢٠ - كانت واقعة فى ظاهر مدينة مصر ، تجاه المقياس بخط كرمى الجسر . أنشأها بعد عام ٨٥٠ هـ بدر الدين محمد بن محمد بن على الخروبى التاجر المتوفى عام ٧٦٢ هـ . ورتب بها مدرسا للفقهاء ، ومعيدا له . وشرط ألا يلى وظائفها أحد من الأعاجم بل من العرب .

ص ٢٠٢

ملحوظة : هناك ثلاث مدارس تعرف « بالخروبية » الأولى أنشأها تاج الدين الخروبى ، والثانية أنشأها بدر الدين الخروبى - وقد ذكرناهما - والثالثة أنشأها عز الدين محمد بن صلاح الدين الخروبى المتوفى فى عام ٧٧٦ هـ ، قبل تمامها .

ص ٢٠٣

(١) يقصد بمصر فى هذه المواقع ، مصر القديمة حيث بنى عمرو بن العاص فسطاطه وجاءه النهر

٢٣ - المدرسة الحجازية

أنشئت برحبة باب العيد^(١) بالقاهرة بجوار قصر الحجازية ، وهي السيدة خوندتر الحجازية ابنة السلطان الملك الناصر بن قلاوون . وهي زوجة الأمير بكتمر الحجازي . وكان إنشاؤها عام ٧٦١ هـ ورتبت بها درسا للشافعية ، ودرسا للمالكية ، وإماما . وزودتها بخزانة كتب . وبنت لنفسها بجوار هذه المدرسة قبة رتبت فيها عدة من القراء يتلون القرآن الكريم . وألحقت بها مكتبا يتعلم فيه الأيتام القرآن الكريم على معلم خاص . وأجريت عليهم الأطعمة والأكسية في مناسبات كثيرة . وأوقفت المؤسسة على ذلك كله أوقافا كبيرة . وكان يلى أمرها أكابر الأمراء ثم أثقلها الزمان بمن وليها من الخدم .

قال المقرئى : « إن الأمير جمال الدين يوسف الجاسى أستاذار السلطان الناصر فرج بن برقوق اتخذ هذه المدرسة سجنًا لمن يصادره ويعاقبه . واقتدى به غيره من بعده . فرالت عن المدرسة أبتها . ومع ذلك فهى من أبهج مدارس القاهرة إلى الآن ، »

ص ٢٢٢ ، ٢٢٣

٢٤ - المدرسة الطبرسية

كانت تقع بجوار الجامع الأزهر من الناحية الغربية . أنشأها الأمير علاء الدين طبرس الخازندارى الذى كان نقيب الجيوش فى عهد السلطان لاجين المنصورى والذى توفى فى شهر ربيع الآخر سنة ٧١٩ هـ . وقد جعلها وزينها بأبدع زينة وأنفق فى سبيلها مالا كثيرا ، وانتهت عمارتها فى سنة ٧٠٩ هـ . وقرر بها درسا للشافعية . ووقف عليها أوقافا عدة .

قال المقرئى : « وقد تداولت أيدي نظار السوء على أوقاف طبرس هذا ، فخرّب أكثرها ، وخرّب الجامع والخانقاه — وكانا من منشآت — وبقيت هذه المدرسة . عمرها الله بذكره ، »

١ - باب العيد أحد أبواب قصر الخلافة الفاطمية ، يخرج منه الخليفة لصلاة العيد . وقد كتب المقرئى عن هذه الرحبة فى المخطوط ج ٣ ص ٧٥ .

وقد ذكر ابن دقاق هذه المدرسة في كتابه ، الانتصار ، وذكر تاريخ مكانها حتى انتقل ملكه إلى الأمير علاء الدين طبرس . وقد قال ما نصه : « ثم وقفها مدرسة للفقهاء الشافعية والمالكية بإسوان الشافعية في الإيوان الغربي ، والمالكية في الإيوان الشرقي . ورتب من كل مذهب مدرسا ومعيدا وخمسة عشر طالبا . وقرن الإمامة لمعيد الشافعية ، والمنزلين علوها للمدرسين ، وعمر مكتبا للسبيل ، وشرط لكل مدرس ستين درهما ولمعيد الشافعية الإمام في كل شهر أربعين درهما ، ولمعيد المالكية في الشهر أربعين درهما ... الخ .

ثم ذكر ابن دقاق بعض من تولوا التدريس في هذه المدرسة . ونثبتهم فيما يلي (رقم ٨ بعنوان العناية باختيار العلماء ..) .

ج ٤ : خطط من ٢٢٣ - الانتصار ج ٤ ص ٩٦

٢٥ - المدرسة الحسامية :

كانت تقع بخط المسطاح بالقاهرة قريبا من حارة الوزيرية . بناها الأمير حسام الدين طرنتاي المنصوري نائب السلطنة في عهد الملك المنصور قلاوون . وقد توفي في يوم الاثنين ١٥ من ذى القعدة عام ٦٨٩ هـ . وقد خصصت هذه المدرسة لفقهاء الشافعية . قال المقرئ : « وهى فى وقتنا هذا تجاه سوق الرقيق » .

١ : خطط من ٢٢٨

٢٦ - المدرسة المنكوتمية :

كانت تقع بحارة بهاء الدين بالقاهرة . بناها الأمير سيف الدين منكوتر الحسامى نائب السلطنة في عهد السلطان لاجين المنصوري . وقد قتل هذا الأمير في ليلة الجمعة ١٠ ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ . وقد بنى هذه المدرسة بجوار داره ، وانتهى بناؤها في صفر عام ٦٩٨ هـ ورتب بها درس للمالكية ، ودرس للحنفية . وزودت بخزانة كتب . وأوقفت عليها أوقاف ببلاد الشام . قال المقرئ : « وهى اليوم بيد قضاة الحنفية يتولون نظرها وأمرها متلاش وهى من المدارس الحسنة » .

٢ : خطط من ٢٣٠

٢٦ - المدرسة الجمالية :

كانت بجوار درب راشد بالقاهرة على باب درب سيف الدولة نادر . بناها الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي الذي كان وزيرا في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وقد توفي عام ٧٣٢ هـ بعد أن بنى هذه المدرسة عام ٧٣٠ هـ . وأوقف عليها عدة أوقاف بالقاهرة وبالشام ، ورتب بها درسا للحنفية ، وجعلها خانقاه للصوفية . وتداول العمل فيها أكابر العلماء .

قال المقرئى : « وكان شأن هذه المدرسة كبيرا يسكنها أكابر فقهاء الحنفية . وتعد من أجل مدارس القاهرة . ولها عدة أوقاف بالقاهرة وظواهرها ، وفي البلاد الشامية . وقد تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولادة أمرها . وتخريبهم أوقافها وتعطل منها حضور الدرس والتصوف . وصارت منزلا يسكنه أخلاط ممن ينسب إلى اسم الفقه . وقرب الخراب منها ، »
٤ خطط من ٢٣٨

٢٧ - المدرسة القراستقرية :

كانت تقع تجاه خانقاه سعيد السعداء بين رحبة باب العيد وباب النصر . أنشأها الأمير شمس الدين قراستقر المنصورى نائب السلطنة في عهد السلطان لاجين المنصورى قبل النائب منكوتر . وقد توفي هذا الأمير بمدينة المراغة من أعمال أذربيجان وهو منضم إلى التتار . وذلك في يوم السبت ٢٧ شوال عام ٧٢٨ هـ في عهد الناصر محمد ، وكان بطارده .

ولما بنى هذه المدرسة بنى بجوارها مكتبا لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز . وجعل بها درسا للفقهاء . ووقف عليها داره وغيرها .

قال المقرئى : « ولم يزل نظر هذه المدرسة بيد ذرية الواقف إلى سنة ٨١٥ هـ ثم انقرضوا وهي من المدارس المليحة . وكنا نعهد البريدية إذا قدموا من الشام وغيرها ، لا ينزلون إلا في هذه المدرسة ، حتى يتهيا سفرهم . وقد بطل ذلك من

سنة ٧٨٠ هـ ٤ خطط من ٢٣٢

٢٨ - المدرسة البوبكرية .

أنشأها الأمير سيف الدين أسبغابن الأمير سيف الدين بكتمر البوبكرى الناصرى . بجوار الدرب العباسى قريبا من حارة الوزيرية بالقاهرة ، فى سنة ٧٧٢ هـ وبني بجانبها حوضا للماء وسديلا وسقاية ، ومكتبا للإيتام . ووقفها على الخنفية .
٤ خطط من ٢٣٥

٢٩ - المدرسة البقرية :

أنشأها الرئيس القاضى شمس الدين شاكر بن غزىل المعروف بابن البقرى المتوفى عام ٧٧٦ هـ . وتقع فى الزقاق المواجه لباب الجامع الحاكمى المجاور لمبهره . وكان ابن البقرى ناظرا للذخيرة والأوقاف وغيرهما فى عهد السلطان الناصر حسن . وقد جعل مدرسته هذه ونظم بهادرسا للشافعية وميعادا للوعظ ، ووظف بها عدة من كبار الفقهاء .
٤ خطط من ٢٣٦

٣٠ - المدرسة الماسكية :

بناها بخطط المشهد الحسينى ، الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار . ورتب بها درسا للشافعية وزودها بخزانة كتب جليلة وأوقف عليها أوقافا . قال المقرئى : وهى الآن من المدارس المشهورة .
٤ خطط من ٢٣٧

٣١ - المدرسة السابقية .

كانت داخل قصر الخلفاء الفاطميين قريبا من خط بين القصرين بالقاهرة . بناها الطواشى الأمير سابق الدين مئقال الأنوكى مقدم الممالك الساطانية الأشرفية . وقد توفى عام ٧٧٦ هـ . ولما بناها بنى بجوارها حوض ماء للسبيل ومكتبا يحفظ فيها الأيتام القرآن الكريم . وزودها بخزانة كتب . وقرر بهادرسا للشافعية وقراءات .
٤ خطط من ٢٤٠

٣٢ - المدرسة الرمامية .

كانت بخطط رأس البندقانيين من القاهرة على مقربة من المدرسة الصحابية . بناها الأمير الطواشى زين الدين مقبل الرومى الزمام فى عهد برقوق . وذلك عام ٧٩٧ هـ . ورتب بها درسا للصوفية .
٤ خطط من ٢٤١

٣٣ - المدرسة المحمودية :

كانت بخط الموازين خارج باب زويلة . أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الأستاذار في سنة ٧٩٧ هـ . ورتب بها درسا ، وزودها بدار كتب جليلة الشأن . قال المقرئزي ، وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر . وقد مات هذا الأمير محبوسا ومريضا عام ٧٩٩ بعد أن ذاق أهوالا كثيرة . ٤ خطط ص ٢٤٢

٣٤ - المدرسة المهدبية :

كانت بحارة حلب خارج القاهرة . بناها الطبيب مذهب الدين بن أبي الوحش المعروف بابن أبي حليقة رئيس الأطباء بمصر ومدرس الطب بالمارستان المنصوري . ٤ خطط ص ٢٤٥

٣٥ - المدرسة الجاولية :

كانت بجوار قلعة الكباش فيما بين القاهرة ومصر . أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولي عام ٧٢٣ هـ . وأوقف عليها ورتب لها دروسا وصوفية . وقد مات هذا الأمير في ٩ رمضان سنة ٧٤٥ هـ . ودفن بمدرسته هذه .

٤ خطط ص ٢٤٧

٣٦ - المدرسة البشيرية :

كانت خارج القاهرة قرب بركة الفيل . بناها الأمير الطواشي سعد الدين بشير الجمدار الناصري في سنة ٧٦١ هـ . وزودها بخزانة كتب .

٤ خطط ص ٢٤٨

٣٧ - المدرسة المهندارية :

كانت خارج باب زويلة بخط المارداني . بناها الأمير شهاب الدين أحمد بن أقوش العزيزي المهندار عام ٧٢٥ هـ . مدرسة وخانقاه . ورتب بها دروسا للحنفية .

٤ خطط ص ٢٤٨

٣٨ - مدرسة الجاي :

كانت خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل . أنشأها الأمير سيف الدين

الجلای عام ٧٦٨ هـ . وجعل بها درسا للشافعية ودرسا للحنفية وزودها بخزانة كتب .
وقد توفي هذا الأمير غرقا في المحرم سنة ٧٧٥ هـ .

٤ خطط من ٢٤٨

٣٩ — مدرسة أم السلطان :

كانت خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل . أنشأتها السيدة بركة أم السلطان
الأشرف شعبان عام ٧٧١ هـ . وقررت بها درسا للشافعية ودرسا للحنفية . قال
المقريزي « وهي من المدارس الجليلة » . وقد توفيت هذه السيدة عام ٧٧٤ هـ .
٤ خطط من ٢٥٠

٤٠ — المدرسة الايتمشية :

كانت خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل . أنشأها الأمير سيف
الدين ايتمش البجاسي الظاهري في سنة ٧٨٥ هـ . وقرر بها درسا في فقه الحنفية .
قال المقريزي « وهي مدرسة ظريفة » .

٤ خطط من ٣٥٠

٤١ — المدرسة المحمدية الخليلية :

كانت بمصر بدرب البلاد — مصر العتيقة — عمرها الشيخ الإمام محي الدين
أبو محمد عبد العزيز الخليلي الداري . فتحت في ذي الحجة سنة ٦٦٣ هـ . وقرر بها
مدرسا للشافعية ، ومعيدين وعدة من الموظفين لخدمتها . وجعلها ووقف عليها
أوقافا عدة . وقد تولى التدريس بها زمنا ابن مؤسسها وهو صاحب الوزير فخر
الدين عمر . وتوفي مؤسسها بدمشق في ١٣ ربيع الثاني عام ٦٨٠ هـ .

٤ خطط من ٢٥٠

٤٢ — المدرسة الناصرية بالقرافة :

كانت بجوار قبة الشافعي . وهي غير الناصرية الشريفة ، وذير الناصرية التي
بدأها كتبنا وأكملها الناصر محمد . وقد مر ذكرها . أما هذه فقد أسسها صلاح
الدين الأيوبي . ووقف عليها عدة أوقاف . وأقام فيها دروسا للشافعية وأجرى

الأرزاق على علمائها وطلابها . وقد ظلت هذه المدرسة مزدهرة زمنا كبيرا في عهد المماليك . وولى التدريس بها عدد من أعظم علماء ذلك العهد .

٤ خطط من ٢٥١

٤٣ — المدرسة المسلمية:

كانت بمدينة مصر في خط السيوريين . أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد بن مسلم البالى . ومات عام ٧٧٦ هـ ، قبل تمامها فأوصى بتكتمتها وخصص لها مالا وأوقافا عدة . وشرط أن يكون فيها مدرس للملكية ، ومدرس للشافعية ، ومؤدب أطفال . وغير ذلك . فأكملت . قال المقرئى « وهى الآن عامرة » .

٤ خطط من ٢٥١

٤٤ — مدرسة إينال:

كانت خارج باب زويلة بالقرب من باب حارة الهلالية بخط القهاحين . أوصى بعمارها الأمير الأتابكى سيف الدين إينال اليوسفى ، أحد المماليك اليلبغاوية . فابتدأت عمارتها عام ٧٩٤ هـ . وفرغت في العام التالى . وكان الأمير قد مات فدفن من بعد فيها .

٤ خطط من ٢٥٢

٤٥ — مدرسة الأمير جمال الدين الأستاذار :

هذه المدرسة كانت تقع برحبة باب العيد من القاهرة . أنشأها الأمير جمال الدين محمود الأستاذار الذى أعدمه السلطان عام ٨١٢ هـ . ويفهم من سياق ما أورده المقرئى أنه الأستاذار محمود صاحب المدرسة المحمودية التى مر ذكرها ، والذى قيل إنّه توفى عام ٧٩٩ هـ . أما هذه المدرسة التى نحن بصدددها ، فقد جعلها منشئوها أبداع تجميل ، وزخرفها ، واشترى لها جملة قيمة من الكتب النفيسة فى الفقه والحديث وغيرهما ، وبينها مؤلفات مخطوطة عظيمة القيمة . وعشرة مصاحف كبيرة الحجم أحدها بخط ياقوت ، وآخر بخط ابن البواب ، هى مجلدة تجليدا أنيقا بالجلد . وقد اشتراها من مكتبة الملك الأشرف شعبان ودفع قيمة ثمنها إلى الملك الصالح المنصور حاجى بن الأشرف .

وقد تم بناؤها عام ٨١١ هـ . فاحتفل الأمير جمال الدين بافتتاحها في يوم الخميس ٣ رجب عام ٨١١ هـ . ومد سماطا جليلا للمحتفان وملا البركة بوسط المدرسة سكرا مذابا مخلوطا بعصير الليمون . ورتب بها ستة من كبار المدرسين ، واحد لكل مذهب ، وواحد للحديث ، وواحد للتفسير ، ووظف بها عددا من الرجال الآخرين لخدمتها في كل ناحية . وأوقف عليها أوقافا كثيرة جداً ، وأجرى الرواتب والأرزاق على موظفيها وطلبتها . وأنشأ قسما بها لتحفيظ القرآن وتأديب الصغار .

ولما بطش الملك الناصر فرج بن برقوق بمنشئ هذه المدرسة وهو جمال الدين الأستاذ دار وقتله عام ٨١٢ هـ ، ثم بهدم مدرسته كذلك والاستئثار بأوقافها فأقعده عن ذلك كاتب سره فتح الدين فتح الله وكره إليه هذا العمل . ثم تحيّل وعاونه في تحياله بعض الفقهاء والقضاة ، حتى ذير معالم هذه المدرسة وأزال منها كل ما يُعرف بمنشئها وكتب مكانه اسمه ووضع علاماته الخاصة ، حتى اسم المدرسة غير ، وأطلق عليها اسم « الناصرية » ، ولكن لما ذهبت دولة هذا السلطان استطاع ورثة الأمير جمال ، بمعاونة الملك المؤيد شيخ وبعض القضاة من رد بعض ما سلبه منهم السلطان فرج . والخلاصة أن المسألة كانت على حد قول المقرئى « كانت قصة هذه المدرسة من أعجب ما سمع به في تناقض القضاة وحكمهم بإبطال ما صححوه ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه .. كل ذلك ميلا مع الجاه ، وحرصا على بقاء رياستهم .. » ستكتب شهادتهم ويسألون .

٤ خطط من ٢٥٢

٤٦ — مدرسة السلطان حسن :

واقعة تجاه القلعة . أنشأها السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ابتداء من سنة ٧٥٧ هـ ، واستمر العمل فيها نحو ثلاث سنوات . وقد أنفق عليها من الأموال الشيء الكثير ، فجاءت ضخمة البناء بديعة الرواء . وهى فى الواقع عبارة عن مسجد عظيم أنشئت فيه ثلاث مآذن . وهم السلطان بإنشاء رابعة ، لولا أن تهدمت واحدة من الثلاث . فعُدل عن إعادتها مكتفيا بالاثنتين . ويضم المسجد

في قاعته أربع مدارس معا . وبحوارها مكتب لأبناء السبيل والأيتام ، كان يضم أكثر من ثلثمائة طفل . وكانت تدرس بها المذاهب الأربعة .

وشهد هذا المسجد ضروبا من الصراع العنيف الذي كان ينشب بين الفينة والفينة بين زعماء المماليك ، وكان بعضهم يتخذونه حصنا يرى من ورائه أعداءه . وقد عبث السلطان برقوق — لهذا السبب — بأجزاء من بناء المسجد .

ويبدو لنا أن الدراسة لم تزدهر طويلا بهذه المدرسة ، فقد مات بانيتها بعد سقوط إحدى مناراتها الثلاث بثلاثة وثلاثين يوما . وعبث العابثون من بعده في أوقافها .

وبما يذكر أنه لما تهدمت منارتها المذكورة وذلك بعد تمام بناء المدرسة بنحو عامين ، لهجت العامة بمصر والقاهرة بقرب زوال الناصر حسن بانيتها . فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علي بن محمد السبكي يعلل سقوطها ، وكأنه يُطمئن السلطان :

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى	بشيره بمقال سار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة	لكن لسر خفي قد تبين لي
من نحتها قرىء القرآن فاستمعت	فالوجد في الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل	تصدعت رأسه من شدة الوجمل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت	من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت وورمت	بنفسها لجوى في القلب مشتعل
فالحمد لله حظ العين زال بما	قد كان قدره الرحمن في الأزل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة	شيدت بديانها بالعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلات	علما فليس بمصر غير مشغول

خطوط ٤ من ١١٧ حسن المحاضرة ج ٣ ص ١٦٢ بدائع ج ١ ص

٤٧ — المدرسة الصرغتمشية :

كانت تقع خارج القاهرة بحوار جامع ابن طولون ، يده وبين قلعة الجبل .

أنشأها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري رأس نوبة النوب . بدأ في عمارتها في رمضان عام ٧٥٦ هـ وانتهت في جمادى الأولى سنة ٧٥٧ هـ وكانت من أجمل المباني . وقد رتب فيها درس للحنفية أسند إلى الشيخ قوام الدين أمير كاتب بن أمير عمر ، العميد بن العميد أمير غازي الإتقاني . ودرس آخر في الحديث .

وقد افتتحت هذه المدرسة يوم الثلاثاء ٩ من جمادى الأولى عام ٧٥٧ هـ بحضور مؤسسها الأمير صرغتمش ، ومدير الدولة الأمير سيف الدين شيخو وغيرهما من كبار الأمراء ، وقضاة القضاة ومشايخ العلم فألقى أساذ الحنفية قوام الدين الإتقاني درساً ، وألقى قصيدة منها هذه الأبيات الغثة :

أرأيتم من حاز الرتبة وأتى قرباً ونفى ريباً
فبدأ علماً وسماً كرمها ونما قدماً ولقد غلباً
بنتقى وهدى وندى وجدى فعدا وسدى وجبى وحباً
..... الخ

والآيات واحد وعشرون .

قال المقرئ ، وخلع — أي صرغتمش — في هذا اليوم على القوام خلعة سنية ، وأركبه بغلة رائعة وأجازه بعشرة آلاف درهم على أبيات مدحه بها في غاية السباحة ،

وقال فيه العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ الحنفى :

ليهنك يا صرغتمش ما بليتته لأخراك في دنياك من حسن بفيان
به يزدهى الترخيم كالزهر بهجة فله من زهر ولله من باني
وقد مدت في هذه الحفلة مائدة حافلة ، وملئت بركة المدرسة بالسكر المذاب
فاكل المدعون ماشاءوا وشربوا ، وأبيع الباقي للعامة فانتبهوه .

خط ٤ من ٢٥٦ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٢

٤٨ - المدرسة الظاهرية:

وهي غير الظاهرية التي أسسها الظاهر بيبرس . أما هذه فقد أسسها الظاهر

برقوق بين القصرين ابتداء من عام ٧٨٦ هـ إلى عام ٧٨٨ هـ . وقد افتتحها السلطان
برقوق باحتفال عظيم شهده الأمراء والقضاة والقراء ومد لهم مائدة حافلة وشربوا
السكر والليمون وفرق منه على العامة بالطاسات : وخلع السلطان خلعا ثمينة على
المهندسين وجميع الفنانين والعمال الذين اشتركوا في بنائها مع قدر من المال ،
وقد أسند مشيختها إلى العلامة علاء الدين السيرامي مدرس الحنفية ، وفي يوم
الافتتاح بالغ السلطان في تعظيم هذا الشيخ حتى فرش له سجادة بيده .
ورتب بها دروسا في المذاهب الأربعة ودرسا في الحديث ودرسا في
القراءات ،

وقد كثر شعر الشعراء في افتتاحها ، ومن ذلك قول بعضهم :

الظاهر الملك السلطان همته	كادت لرفعته تسمو على زحل
وبعض خدامه طوعا لخدمته	يدعو الجبال فتأتيه على عجل
وقال الشاعر بن العطار	

وقد أنشأ الظاهر السلطان مدرسة	فاقت على إرم مع سرعة العمل
يكفي الخليلي أن جاءت لخدمته	شم الجبال لها تأتي على عجل

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٣ - البدائع ج ١ ص ٢٦٤

٤٩ - جامع آق سنقر:

كان قريبا من قلعة الجبل ، أنشأه الأمير آق سنقر السلاري المتوفى في نحو
عام ٧٤٤ هـ . وأنشأ بجانبه مكتبا لتحفيظ القرآن الكريم وقرربه عدة من الدروس .
٤ خطه ص ١٠٥

٥٠ - جامع الخطيرى:

كان بناحية بولاق . أسسه الأمير عز الدين الخطيرى المتوفى عام ٧٣٧ هـ .
وقد كملت عمارة المسجد قبيل وفاته بقليل عام ٧٣٧ هـ وقرر فيه درسا لفقهاء
الشافعية . ووقف عليه عدة أوقاف .

٥١ — جامع القلعة :

كان بقلعة الجبل . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٨ هـ . وجعل فيه درسا وقراء .

٤ مخطوط ص ١٣٢

٥٢ — جامع ابن المغربي :

كان بالقرب من بركة قرموط مطلا على الخليج المصرى ، أنشأه صلاح الدين يوسف بن المغربى رئيس الأطباء بديار مصر ، ورتب به درسا وقراء . وخرب بعد حين .

٤ مخطوط ص ١٣٦

٥٣ — جامع الفخرى :

كان بجهة باب السورين . أنشأه الأمير غفر الدين عبد الغنى بن الأمير تاج الدين عبد الرزاق بن أبى الفرج الأستاذار فى سنة ٨٢١ هـ ورتب فيه عدة دروس فى المذاهب ، وقد توفى هذا الأمير فى نصف شوال من تلك السنة .

٤ مخطوط ص ١٣٦

٥٤ — المدرسة المؤيدية :

هى الجامع المعروف بجوار باب زويلة . أسسها الملك المؤيد شيخ الحمردى . وانتهت عمارتها سنة ٨١٩ هـ وأنفق عليها أربعون ألف دينار ، وكان مكانها السجن المشهور إذ ذاك بخزانة شمائل ، وقد حبس به المؤيد مرة ونذر أن يبنيه جامعاً لله إذا أطلق سراحه وآلت إليه السلطنة ، فكان كذلك . ونقل إليها باب مدرسة السلطان حسن بعد أن اشتراه بخمسمائة دينار ، وبما يذكر أن مالت مئذنة هذه المدرسة بعد نحو عام من بنائها ، وقد اتخذ بعض أدباء العصر هذا الميل موضوعاً لدعابات شعرية طريفة .

وقد احتفل المؤيد بفتح هذه الدار احتفالا شائقا اجتمع فيه كثير من عظماء الدولة على اختلاف طبقاتهم وقدمت إليهم الأسمطة الفاخرة ، ووزع على الناس

السكر المذاب والحلوى . ومنحت الخلع ، وألقيت الدروس ، وقد رتبت بها عدة دروس دينية في كل مذهب .

خطط ج ٤ : ص ١٣٦ حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٧

الخوانق والربط والزوايا :

لم نشر فيما سبق إلى الخوانق والربط والزوايا باعتبارها دورا تعليمية إلا إشارات عابرة . وإنما عنينا بذكر المساجد والمدارس لأنها بليت من أول أمرها ، والتعليم أحدا لا غراض الرئيسة من بنائها ، ولأنها كانت دورا عامة مفتحة الأبواب لطلاب العلم على اختلاف ألوانهم ، في كل آن ، ولأن الاشتغال بالتعليم فيها كان الحركة الدائبة البارزة في حياتها . ولأنها كثيرة العدد قريبة المنال ، وتخرج فيها فحول علماء مصر في عصرها المملوكي .

أما الخوانق والربط والزوايا فهي أقرب إلى أن تكون ملاجئ منها إلى أن تكون دورا للتعليم المنتظم . فقد أنشئت في أول أمرها لكي تكون منزلا للزبناء والفقراء والمحتاجين ، لا أن تكون دورا تلقى فيها دروس العلم على اختلاف موادها .

وليس هناك من فارق كبير بين هذه الأسماء الثلاثة وما ترمى إليه من المعاني ، غير أنه يبدو لنا أن الخوانق امتازت باتساعها ، وبكثرة من أوى إليها من غرباء الصوفية وفقرائهم ، وقد يكون بعض منهم على علم وبصيرة وفقه بالدين وما يتصل به ، فيكون وجوده مؤذنا بنشر العلم وبث أحكام الشريعة . وفي أحيان كثيرة كان نظر الخوانق يستند إلى أحد علماء الدين الفضلاء ، كالسيوطي مثلا ، فيكون وجوده جرثومة من جراثيم التعليم ونواة لدروس العلم . وبعض هذه الخوانق رتبت فيه الدروس في المذاهب الأربعة وفي الحديث ، فشابهت بذلك ، غيرها من المساجد والمدارس . غير أن الخوانق كان منقطعا ينقطع فيه هؤلاء اللاجئون للعبادة والتأمل ، أي للتصوف العملي لا العلي ، وللهذيب الروحي لا العقلي ، ولعل هذا أهم الفوارق بين الخوانق والمدارس ولا يمنع هذا الوضع أن ينبجس بعض هذه الخوانق

علماء أجلاء يجمعون بين التصوف العملي والعلوي ، ويكونون ذوي خبرة وبصر بأحكام الشريعة ، بل وبغيرها .

ونظرا إلى هذا الانقطاع ، كان السلاطين أو الأمراء أو غيرهم ، يفيضون عليهم بضروب من البر والإحسان والمعونة فيوقفون عليهم الأوقاف أرضا أو دورا أو نحوهما ، ويقدمون إليهم الطعام والشراب والسكى ، فضلا عما ينعمون به من الأثاث . فكانت حياتهم في داخل خوانقهم ، أحفل من حياة الفقراء في خارجها ، وأقرب إلى التمتع والترف . ويعتقد بعض صوفيتها أن الأموال الموقوفة عليها حق خالص لهم لا ينبغي المساس به ، ولو كانت حقوقا لم ينص عليها شرط الواقف ، بل كانت حقوقا مكتسبة .

ومهما يكن من أمر فالخوانق وماشابهها من ربط وزوايا تعتبر إلى حد ما ، دورا من دور التعليم ، وبيئة من بيئات العلم ، ومنشأ من منشآت العلماء . وكان التصوف ضربا من ضروب الحياة النفسية والعقلية معا ، في هذا العصر ، وهي نزعة نعتبرها امتدادا للنزعة التصوفية التي برزت في عصر بني أيوب .

وقد فصل المقرئ في الخطط ، الحديث عن الخوانق والربط والزوايا ، ونوه السيوطي في حسن المحاضرة ببعضها — ونكتفي هنا بالإشارة الموجزة إلى ثلاث منها ، وذكر طرف من أخبارها لبروز المظهر التعليمي فيها أكثر من سواها : فنها :

١ — خانقاه سعيد السعداء :

سعيد السعداء ، هو أحد الأساتذة المحنكين الذين كانوا يخدمون في قصور الفاطميين ، واسمه الأستاذ قنبر ، أو عنبر . وكانت داره بخط رحبة باب العيد بالقاهرة ، فلما آلت سلطنة مصر إلى صلاح الدين الأيوبي ، رأى أن يجعل هذه الدار ملجأ يأوي إليه فقراء الصوفية الغرباء فجعلها موقوفة عليهم ، وذلك عام ٦٥٩ هـ ووهب لها أوقافا أخرى واسعة للإنفاق عليها . ورتب لساكنيها الطعام واللحم

والخبز يومياً . وهى أول خانقاه بديار مصر ، ولقب شيخها دون غيرها بشيخ الشيوخ ثم شاركه شيوخ غيرها فى ذلك ، وقد ولى مشيختها أجلاء العلماء . ونزل بها فضلاء الصوفية . واستمرت العناية بها فى العصر المملوكى ، وبلغت عدة نزلاتها نحو ثلثمائة صوفى ، لهم فى كل يوم خبز ولحم . وفى كل شهر صابون وحلوى ، وفى كل سنة كسوة بأربعين درهما لكل منهم . غير أن ذلك لم يسلم جملة من عبث العابثين . ومن ولى مشيختها فى العصر المذكور . تاج الدين بن بنت الأعرز ، وبدر الدين ابن جماعة ، وعلاء الدين القرنوى . ومنهم أيضاً الشيخ محمد البلالى أحد القادمين من الشام ، بلغت عقيدة الأمير سودون الشيوخونى نائب السلطنة به حداً كبيراً ، فسعى له فى مشيختها . وولياها بعده كثيرون .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٨ - الخطط ج ٤ ص ٢٧٣

٢ — الخانقاه البيبرسية :

أنشأها السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى ، قبل أن يلى سلطنة مصر . تم إنشاؤها بموضع دار الوزارة تجاه باب العيد ، فى عام ٧٠٩ هـ ^(١) . قال المقرئى : « وهى أجل خانقاه بالقاهرة بليانا وأوسعها مقدارا وأتقنها صنعة ، وأنشأها أيضاً رباطاً وقبة .

وقال : « ولما كملت فى سنة تسع وسبعائة ، قرر بالخانقاه أربعائة صوفى ، وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت . وجعل بها مطبخاً يفرق على كل منهم فى كل يوم اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر ، وجعل لهم الحلوى . »

وقال : « ورتب بالقبة درساً للحديث النبوى له مدرس ، وعنده عدة من المحدثين . ورتب القراء بالشباك الكبير ، يتناوبون القراءة فيه ليلاً ونهاراً . » . وقال : « ووقف عليها عدة ضياع بدمشق وحماة ومنية الخاخص بالجيزة من أرض مصر ، وبالصعيد والوجه البحرى والربع والقيسارية بالقاهرة . »

(١) قال السيوطى : سنة ٧٠٧ هـ .

ولما خلع بيبرس من السلطنة ، فوليها الناصر بن قلاوون ، أغلق هذه الخانقاه
فلبثت نحو عشرين عاما معطلة . ثم فتحها ثانية وأعاد إليها ما كان موقوفا عليها .
غير أنها من بعد ، عانت كثيرا من الاضطراب . وضعف أمرها .
وكانت لهذه الخانقاه مهابة في نفوس الناس وكان لا يُسمح لأحدهم بدخولها ،
وذلك في أوائل أمرها .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٠ - المخطوط ج ٤ ص ٢٧٦

٣ - خانقاه شيخو :

أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمرى فى حى الصليبة تجاه جامعہ ، فى
سنة ٧٥٦ هـ . ورتب بها دروسا عدة ، منها أربعة دروس فى المذاهب الدينية ،
ودرس فى الحديث ، ودرس فى القراءات بالروايات السبع . وجعل لكل
درس من هذه الدروس الستة مدرسا ، وعنده عدد من الطلبة مقيد
بالحضور والاستماع إليه ، مع الاشتراك فيما يقوم به الصوفية من ضروب العبادات .
ووكل مشيختها إلى الشيخ العلامة أكمل الدين محمد بن محمود البارقي الحنفى
ووكل إليه كذلك درس الحنفية ، ونظر أوقاف الخانقاه . ووكل درس الشافعية
إلى الشيخ بهاء الدين أحمد بن على السبكى . ودرس المالكية إلى الشيخ خليل . .
ودرس الحنابلة إلى مرفق الدين الحنبلى .

وقد أجرى على كل طالب مقدارا من الطعام واللحم والخبز والحلوى والزيت
والصابون ووقف عليها أوقافا واسعة . قال المقرئى . « فعظم قدرها واشتهر فى
الأقطار ذكرها ، وتخرج بها كثير من أهل العلم » .

وقد ذكر السيوطى عددا من أفاضل العلماء الذين تولوا مشيخة هذه الخانقاه
بعد وفاة البارقي عام ٧٨٦ هـ . ومنهم عز الدين الرازى ، وجمال الدين بن العجمى
وسيف الدين السيرامى ، وبدر الدين الكستانى ، وجمال الدين بن العديم ، وزين
الدين التفهنى ، وغيرهم .

حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦١ - المخطوط ج ٤ ص ٢٨٣

٦ - رصد الأوقاف على إهدء المدارس والإحسان إلى أهلها

أما وقد انتهينا من ذكر بعض المساجد والمدارس ودور التعليم ، فلنشر في هذا الفصل إلى أوقافها بعض الإشارة ذاكرين أنه لا يمكن لعمل من الأعمال الخيرية ، أو منشأة من المنشآت العامة ، أن تبقى وتؤدى واجبها كاملا ، دون أن توجه إليها عناية ورعاية ، ودون أن ترصد عليها أوقاف ، أو تربط لها مبالغ خاصة بها ، تهيء لها استمرار حياتها وبخاصة في عصر كعصر الممالك ، لم تتخذ فيه للتعليم سياسة عامة عليا ، تكفلت الدولة بتنفيذها ، والإنفاق عليها من أموالها العامة . بل كانت سياسة التعليم فردية شخصية موكولة إلى همم الأمراء وضمائر السلاطين ورغبات الرؤساء ، كل منهم على حدة ، يكيفها حسبما تملى عليه أهواؤه وظروف حياته ومقدرته المادية . وقصارى هذه السياسة أنها كانت إلى باب الجود والإحسان أقرب منها إلى باب التعليم الذى هو حق للشعب واجب أدائه .

وقد كانت هذه السياسة التعليمية الفردية — لحسن الحظ — مجالا للمنافسة وحب الظهور بين السلاطين والأمراء ، ومن إليهم ، وسيدا إلى تخليد الذكر ، وطريقا إلى حفظ بعض الأموال المقطعة ، فى ذرية الواقف ، قبل عودها إلى السلطان بموته أو بشىء آخر . لذلك كان السلطان أو الأمير يلجأ إلى إنشاء مسجد أو مدرسة أو نحوهما ، ثم يهب لها الأرض والدور والرباع والمال ، وقفا خيريا لوجه الله ، والإنفاق من ريعها على مرافقها المختلفة ، ويشترط أن يكون له نظر الوقف ، أو لأحد من أعقابها . كما أن بعضهم قد يوقف أوقافا على منشآت غيره . وقد قلنا ، لحسن الحظ ، لأن هذه النزعة كانت سببا فى إسعاد البلاد ، بتأسيس عدد ضخم من دور التعليم . ولا ندرى إلى أى مدى كانت تصل الطامة ، لو لم توجد هذه النزعة ، فلم تؤسس تلك الدور .

وقد كان أكثر هذه الدور مؤسسا بمدينة القاهرة ، فكانت هذه المدينة منها ذات حظ عظيم ، بالقياس إلى غيرها من مدن البلاد . وهذا أمر لا بد منه ، إذ كانت القاهرة مقر السلطان ، ومهد الجند ، ومرتبعة الأمراء ، ومهوى الرؤساء ، ومثابة

الطامعين ، ومسرح الظهور ، ومراح الجاه . فهي لذلك أنسب المدن لهذه المؤسسات .
غير أن كثيرا من هذه الدور كانت أوقافها خارج القاهرة وبعيدا عنها في
النواحي الأخرى من البلاد ، بل قد تكون أوقافها خارج القطر كله . كأن تكون
ببلاد الشام مثلا .

وكثيرا ما لعبت الأيدي بأوقافها ، وعبث العاشون بريعها . بعد وفاة مؤسسها ،
فكان ذلك وبالا عليها ، قد يصيبها في الصميم ، فيكون مآلها إلى الزوال .
وإلى جانب هذه الأوقاف كانت تجرى الرواتب أحيانا على العلماء والطلاب
على حد سواء ، وتقدم لهم الأطعمة والكسب والعطايا المختلفة في مناسبات شتى ،
كما كانت لبعضهم أماكن للنوم في نوافذ المدرسة وخرجاتها العريضة ، أو
جوارها الواسع .

كل ذلك عون من المؤسسين وغيرهم ، لهؤلاء المشتغلين بالعلم وتشجيع لهم
على الانتساب إليه ، ودفع إلى الدأب والتحصيل .
وإليك بعضا من الأمثلة من أخبار هذه الأعمال الخيرية من وقف وغيره نقلها
عمارواه المقریزی فی الخطط ج ٤ :

١ — لما جدد الأمير عز الدين إيدمر الحلى ، بناء الجامع الأزهر عام ٥٦٦هـ
وجمله وزاد فيه ، ورتب به الدروس المختلفة — قال المقریزی — « وقف على ذلك
الأوقاف الدارة ، » .

ولما جدد كذلك الأمير سعد الدين بشير المجدار عام ٧٦١هـ وأنشأ فوقه
« مكتب سبيل ، لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله العزيز ، قال المقریزی : « ورتب
للفقراء المجاورين طعاما يطبخ كل يوم ، وأنزل إليه قدورا من نحاس جعلها فيه ،
ورتب فيه درسا للفقهاء من الحنفية ، يجلس مدرسم لإلقاء الفقه في المحراب الكبير ،
ووقف على ذلك أوقافا جليلة باقية إلى يومنا هذا ، » .

من ٥٢ ، ٥٣

٢ — في عام ٧٠٢هـ أصيبت البلاد بزلزال أحسست القاهرة وما قاربها بشدته .
وتهدم بسببه بعض الأبنية وفي جملتها جامع الحاكم بأمر الله ، فتعهد الأمير

ركن الدين بيبرس الجاشنكير بتجديده . ثم أوقف عليه أوقافا بالجيزة وبعض بلاد الصعيد ، والإسكندرية ، ذات ريع عظيم .

وقد زاد الملك الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون عام ٧٦٠ هـ في مخصصات هذا الجامع وفي أوقافه ، ويقال إنه أوقف عليه نحو ٥٦٠ فدانا بجهة طنطدا .

ص ٥٧ ، ٥٨

٣ - وقد أوصت السيدة عصمة الدين مؤنسة خاتون المتوفاة عام ٦٩٣ هـ بإنشاء مدرستها المعروفة بالمدرسة القطبية واشترى لها بأمرها وقف لينفق من دخله عليها وعلى ما قرر فيها من الدروس .

ص ٢٠٠ : ٢٣٧

٤ - وقد أوقف تاج الدين محمد بن صلاح الخروبي المتوفى عام ٧٨٥ هـ على مدرسته الخروبية جملة من الأوقاف .

ص ٢٠١

٥ - وقد أوقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون على مدرسته الناصرية المنشأة عام ٧٠٣ هـ ، قيسارية أمير على ، بخط الشراشيين بالقاهرة ، والربع الذي يعلوها ، وكان يعرف بالدهيشة ، وقف عليها أيضا حوائط بخط باب الزهومة بالقاهرة أيضا ، ودار الطعم خارج مدينة دمشق .

ولما مات ابنه ، أنوك ، عام ٧٤١ هـ دفنه بقبة هذه المدرسة وخصص لها وقفا جديدا . قال المقرئ عنه : « وهو باق إلى اليوم يصرف لقراء وغير ذلك » .

ولما رتب الناصر الدروس بهذه المدرسة خصص لكل مدرس عددا من الطلبة ينقطعون لطلب العلم وأجرى عليهم ، المعاليم ، أى الرواتب . وكان يُفرَّق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها ، السكر في كل شهر لكل أحد منهم نصيب ، ويفرق عليهم لحوم الأضاحي في كل سنة . قال المقرئ في أعقاب ذلك : « وقد بطل ذلك وذهب ما كان لها من الناموس ، وهى اليوم عامرة من أجل المدارس » .

ص ٢٢٢

٦ - وقال المقرئ في سياق حديثه عن المدرسة الصالحية التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب منذ سنة ٦٣٩ هـ :

« ثم إن الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس ، وقف — أى على هذه المدرسة — الصاغة التى تجاهاها وأما كن بالقاهرة وبمدينة

المحلة الغربية ، وقطع أراضي جزائر بالأعمال الجيزية والإطفاحية على مدرسين أربعة ، عند كل مدرس معيدان وعدة طلبة ، وما يحتاج إليه من أئمة ومؤذنين وقومة ، وغير ذلك . وثبت وقف ذلك على يد قاضي القضاة تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعي ، ونفذه قاضي القضاة شمس الدين أبو البركات محمد بن هبة الله بن شكر المالكي ، وذلك في سنة ٥٦٧٧ هـ ، وهي جارية في وقفها إلى اليوم .
— وقد رددنا بعض هذا الحديث في أخبارها السالفة . ص ٢١٠

٧- ولما أنشأت الست خوند تتر ، بنت الناصر محمد بن قلاوون ، مدرستها الحجازية عام ٧٦١ هـ أوقفت عليها عدة أوقاف واسعة يعطى منها أرباب وظائفها معلوماتهم . وأجرى على الأيتام الذين يحفظون القرآن بجوارها خبزاً يومياً لكل واحد خمسة أرغفة ومبلغاً من المال ، وأردية صيفية وشتوية . وكان يوزع عليهم في كل سنة ، أيام عيد الفطر السكك والحشكنان ، بعض الفطائر . وفي عيد الأضحى يعطون اللحوم ، ويطهى لهم الطعام في رمضان ، قال المقرئى : وقد بطل ذلك ، ولم يبق غير المعلوم في كل شهر ، ص ٢٢٣

٨- وقد أوقف الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامى نائب السلطنة على مدرسته المنكوتمرية المنشأة عام ٦٩٨ هـ ، أوقافاً ببلاد الشام . ص ٣٣٠

٩- وقد أوقف الأمير سيف الدين صرغتمش الناصرى على مدرسته التى بناها عام ٧٥٧ هـ وقفاً ينفق منه على مشايخها وفقهاها . ص ٢٥٦

١٠- وقد قال المقرئى عن الأمير جمال الدين الأستاذار بعد ما أنشأ مدرسته برحبة باب العيد ، والتي افتتحها في ٣ رجب عام ٨١١ هـ وقرر بها عدداً من المدرسين ، قال : وقرر عند كل من المدرسين الستة طائفة من الطلبة ، وأجرى لكل واحد ثلاثة أرطال من الخبز في كل يوم ، وثلاثين درهماً فلوساً في كل شهر . وجعل لكل مدرس ثلثمائة درهم في كل شهر . ورتب بها إماماً وقومة ومؤذنين ، وقرائين ومباشرين ، وأكثر من وقف الدور عليها ، وجعل فائض وقفها مصروفاً لذريته . الخ . ص ٢٥١

٧ - إنشاء دور الكتب

ومما هو جدير بالذكر أنك قل أن تجد مدرسة أو مسجدا أو دارا تعليمية ، أنشئت في ذلك العصر ، دون أن تزود بخزانة كتب نافعة تعين المدرسين والطلاب فيها ، والهاوين إليها . وظل الأمر يزداد بطول الأيام حتى غصت البلاد بذخائر عليية نفيسة من هذه المؤلفات ، فوق ما خلفه العصر الأيوبي . وكان بعض السلاطين مغرما باقتناء الكتب النفيسة ، فكان لذلك أثر صالح . كالسلطان الملك الناصر حسن ابن الناصر ابن قلاوون . وكذلك كان كثير من الأمراء والعلماء ، وقد روى ابن إياس في البدائع . ج ٢ ص ٢١٨ ما نصه :

« وفيه - أي في ربيع الأول سنة ٨٨٨ هـ - توفي القاضي نجم الدين يحيى بن حمى ، وهو يحيى بن محمد بن أحمد بن حمى بن موسى بن أحمد الحسباني الدمشقي ثم القاهري الشافعي . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، وُعد من العلماء وكان كريما سخيا . ولى نظارة الجيش بمصر ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر والشام فلما مات وجد عنده زيادة عن ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة . ولا ريب أن هذا العدد له قيمته ، في عصر كان اعتماد التدوين فيه على الكتابة الخطية ، ولا ريب أيضا في أن وجود دور الكتب العامة أو الخاصة له أثره الم محمود في النهوض العلى ، ونشاط الحركة التأليفية . ونذكر فيما يلي بعض دور الكتب التي عرفت في العصر المملوكى وأخبارها ، نقلا عن المقرئى في الجزء الرابع من خططه . فمنها :

١ - خزانة الكتب بجامع الحاكم بأمر الله ، وهى التى زوده بها الأمير بيبرس الجاشنكير عام ٧٠٣ هـ ، لما رجمه أثر زلزلة عام ٧٠٢ هـ .

ص ٥٧

٢ - خزانة الكتب بجامع الخطيرى ببولاق ، زوده بها منشؤه الأمير عز الدين

إيدمر الخطيرى عام ٧٣٧ هـ .

ص ١١١

٣ - خزانة السكتب بجامع المؤيد . قال المقرئى عنه : « نزل السلطان -
أى المؤيد - فى ٢٠ المحرم - أى عام ٨١٩ - إلى هذه العمارة ، ودخل خزانة السكتب
التي عملت هناك . وقد حمل إليها كتب كثيرة فى أنواع العلوم . كانت بقاعة الجبل .
وقدم له ناصر الدين محمد البارزى كاتب السر خمسمائة مجلد قيمتها ألف دينار ،
فأقر ذلك بالخزانة ، وأنعم على ابن البارزى بأن يكون خطيبا ، وخازن السكتب
هو ومن بعده من ذريته » .

ص ١٣٢

٤ - خزانة السكتب بالقبة المنصورية ، التي أنشأها المنصور قلاوون . قال
المقرئى : « وهذه القبة خزانة كتب جليلة ، كان فيها عدة أحمال من السكتب فى
أنواع العلوم ، مما وقفه الملك المنصور وغيره . وقد ذهب معظم هذه السكتب وتفرق
فى أيدي الناس » .

ص ٢١٩ ، ٢٦١

٥ - خزانة السكتب بالمدرسة الناصرية التي بدأها كتبغا ، وأكملها الناصر
محمد بن قلاوون عام ٧٠٣ هـ .

ص ٢٢١ ، ٢٢٢

٦ - خزانة السكتب بالمدرسة الحجازية المنشأة فى عام ٧٦١ هـ .

ص ٢٢٣

٧ - خزانة كتب المدرسة المشكوتمية المنشأة عام ٦٩٨ هـ .

ص ٢٣٠

٨ - خزانة السكتب بالمدرسة السابقة التي أنشأها الأمير سابق الدين مثقال
الأنوكى مقدم الممالك السلطانية الأشرفية ، المتوفى عام ٧٧٦ هـ .

ص ٢٤٠

٩ - خزانة المدرسة المحمودية التي بناها الأستاذ ارجال الدين محمود عام ٧٩٧ هـ .

قال المقرئى: « وعمل فيها خزانة كتب لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها .
وهى باقية إلى اليوم لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة . وبهذه
الخزانة كتب الإسلام فى كل فن . »

وفهم من حديث المقرئى المذكور أنه كان ثمة نظام للاستعارات الخارجية
والداخلية فى دور الكتب ، غير أن دار الكتب بالمدرسة المحمودية كانت لا تسمح
بالاستعارات الخارجية .

ص ٢٤٢

١٠ — خزانة الكتب بالمدرسة البشيرية التى بناها الأمير الطواشى سعد الدين
بشير الجمدار الناصرى فى عام ٧٦١ هـ

ص ٢٤٨

١١ — خزانة كتب مدرسة الجاى وهى من بناء الأمير سيف الدين الجاى ،
أسسها عام ٧٦٨ هـ .

ص ٢٤٩

١٢ — خزانة الكتب بمدرسة الأمير جمال الدين الاستادار — ولعلها غير
الخزانة السابقة — راجع المدارس أيضاً .
قال المقرئى بصدد الحديث عن المدرسة المذكورة .

« كان بمدرسة الملك الأشرف شعبان بقية من داخلها ، فيها شبايك من نحاس
مكفت بالذهب والفضة ، وأبواب مصفحة بالنحاس البديع الصنعة المكفت .
ومن المصاحف والكتب فى الحديث والفقه وغيره من أنواع العلوم جملة . فاشترى
ذلك — أى الأمير جمال الدين الاستادار — من الملك الصالح المنصور حاجى بن
الأشرف شعبان بمبلغ ستمائة دينار . وكانت قيمتها عشرات أمثال ذلك . ونقلها
إلى داره ، وكان مما فيها عشرة مصاحف طول كل مصحف منها أربعة أشبار إلى
خمس ، فى عرض يقرب من ذلك ، أحدها بخط ياقوت ، وآخر بخط البواب .

وباقها خطوط منسوبة . ولها جلود في غاية الحسن معمولة في أكياس الحرير الأطلس . ومن الكتب النفيسة عشرة أحمال . . .
هذا ، ولما بطش الملك الناصر فرج بن برقوق ، بالأمير جمال الدين الأستاذار وقتله عام ٨١٢ هـ ، غير معالم مدرسته ، وعيث بمكتبة ، ونقل كثيرا من كتبها ، إلى قلعة الجبل .

ص ٢٥٢ ، ٢٥٤

١٣ - خزانة الكتب بالمدرسة الماسكية التي أنشأها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار .

ص ٢٣٧

١٤ - خزانة كتب المدرسة الظاهرية البيبرسية التي أنشأها الظاهر بيبرس عام ٦٦٢ هـ ، وكانت تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم .

ص ٢١٨

٨ - العناية باختيار العلماء

وقد عني السلاطين والأمراء ومنشئو المدارس باختيار علمائها الذين يشرفون على أمورهم . وأساتذتها الذين يتولون التدريس فيها وغير التدريس . فانتخبوهم من بين الأفاضل ذوي الشهرة المعروفين بالعلم والفضل . منهم من يزاول التدريس في أحد المذاهب الدينية . ومنهم من يلى الإمامة والخطابة ، ومنهم من يلقى دروس الوعظ . أو يتولى غير ذلك من الوظائف بها .

ولا نريد الآن أن نستوعب الكلام عن هؤلاء المدرسين أو ذكر آثارهم أو مؤلفاتهم . لا . فسيرد لذلك باب خاص متشعب النواحي مفصل الجهات . وحسبنا أن نسوق مجرد ثبوت موجز ، لنستبين منه جانباً من هؤلاء العلماء الأفاضل الذين حملوا أعباء النهوض العلمي ، وحافظوا على التراث الديني واللغوي ، في هذه الحقبة القاسية من تاريخ مصر . فأسدوا إليها يداً بيضاء لا تنسى . فمنهم .

١ - ممن تولى التدريس بالمدرسة الصلاحية في عصور مختلفة وولى أمرها : تقي

الدين بن رزين . تقي الدين بن دقيق العيد . برهان الدين الحضرمي السنجاري .
شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن حمويه الجويني وكان يدرس مذهب
الشافعي . تاج الدين بن بنت الأعز . تقي الدين بن بنت الأعز . عز الدين محمد
ابن محمد بن الحرث بن مسكين . ضياء الدين عبد الله بن أحمد ابن منصور النساقي .
مجد الدين حرمي بن قاسم بن يوسف الفاقوسي . شمس الدين بن القماح . ضياء الدين
محمد ابن ابراهيم المناوي . شمس الدين بن اللبان . شمس الدين محمد بن أحمد بن
خطيب بيروت الدمشقي . بهاء الدين بن تقي الدين السبكي . ثم أخوه تاج الدين .
بهاء الدين أبو البقاء محمد بن عبد البر السبكي . ثم ولده بدر الدين محمد . ثم برهان
الدين بن جماعة . سراج الدين البلقيني . عماد الدين أحمد بن عيسى السكركي . ومنهم
ابن حجر والقاياني والسفطي والسراج الحمصي وغيرهم .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٧

٢ - ومن تولى الدراسة في المدرسة الكاملية وهي دار الحديث : ابن دقيق العيد ،
أبو عمرو بن سيد الناس . البدر بن جماعة . عماد الدين الدمياطي الجمال بن
التركاني . الحافظ زين الدين العراقي . سراج الدين بن الملقن .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٩

٣ - ومن تولى التدريس في المدرسة الظاهرية القديمة : تقي الدين بن رزين للشافعية .
ومحب الدين عبد الرحمن بن الكمال عمر بن العديم للحنفية . والحافظ شرف الدين
الدمياطي للحديث . وكال الدين القرشي للقراءات .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٦٠

٤ - ومن تولى التدريس بالمدرسة الخروية المنشأة بعد عام ٧٥٠ هـ . الشيخ
بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل مدرسا للفقهاء . والشيخ سراج الدين
عمر البلقيني معيدا له .

الخط ج ٤ ص ٢٠٢

٥ - ومن تولى التدريس بالمدرسة الصاحبية البهائية المنشأة عام ٦٥٤ هـ ،
بزقاق القناديل : صاحب فخر الدين محمد بن صاحب بهاء الدين بن حنا، باني

هذه المدرسة . ثم ابنه محي الدين أحمد بن محمد . ثم صاحب زين الدين أحمد بن
الصاحب فخر الدين محمد بن صاحب بهاء الدين . ثم ولده الصاحب شرف الدين .
وما زال أبناء المؤسس وأحفاده يتوارثون التدريس بهذه المدرسة حتى وليها الصاحب
الرئيس شمس الدين محمد بن أحمد ، بعد أبيه عز الدين ، وكلاهما من نفس الأسرة ،
فلما مات الصاحب شمس الدين عام ٨١٣ هـ . وانتقل أمر المدرسة إلى بعض نواب
الحكم بدأ الخراب يدب إليها واضمحلت الدراسة فيها .

المخطوط ج ٤ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥

٦ - ومن ولى التدريس بالمدرسة الناصرية التي أنشأها العادل وأكملها الناصر
ابن قلاوون : القاضي زين الدين علي بن مخلوف المالكي لتدريس فقه المالكية .
وشرف الدين عبد الغنى الحراني لتدريس فقه الحنابلة . وأحمد بن السروجي الحنفى
لتدريس فقه الحنفية . وصدر الدين محمد بن المرحل المعروف بابن الوكيل الشافعى
لتدريس فقه الشافعية .

المخطوط ج ٤ ص ٢٢٢

٧ - ومن درس بالمدرسة البقرية : سراج الدين عمر بن علي الأنصارى المعروف
بابن الملقن ، وكان يدرس فقه الشافعية وكمال الدين بن موسى الدميرى الشافعى للبيعة
و الوعظ ، وزين الدين أبو بكر بن الشهاب أحمد النحوى للقراءة .

المخطوط ج ٤ ص ٢٣٦

٨ - ومن تصدى للتدريس فى المدرسة الجالية : علاء الدين علي بن عثمان
التركمانى الحنفى وتولى فيها مشيخة الصوفية ودراسة فقه الحنفية . ثم ابنه جمال
الدين عبد الله التركمانى الحنفى . ثم ابنه صدر الدين محمد بن عبد الله بن علي
التركمانى الحنفى . ثم قريبهم حميد الدين حماد .

المخطوط ج ٤ ص ٢٣٨

٩ - ومن درس فى المدرسة السابقة سراج الدين عمر بن علي الأنصارى المعروف
بابن الملقن ، الذى مر ذكره فى المدرسة البقرية وكان يدرس فقه الشافعية .

المخطوط ج ٤ ص ٢٤٠

١٠ - ومن ولى تدريس الشافعية بالمدرسة الناصرية بالقرافة تقي الدين بن رزين الحموي ثم تقي الدين بن دقيق العيد . والصاحب برهان الدين الخضر السنجاري .

المخطوط ج ٤ ص ٢٥١

١١ - ومن تصدى للتدريس بمدرسة الأمير جمال الدين الأستاذار المؤسسة عام ٨١٠ هـ ، ٨١١ هـ : الشيخ همام الدين محمد بن أحمد الخوارزمي الشافعي ، وقد تولى مشيختها وتدريس فقه الشافعية بها . وبدر الدين محمود بن محمد المعروف بالشيخ زاده الخريزاني وقد تولى تدريس فقه الحنفية . وشمس الدين محمد بن البساطي ، وقد تولى تدريس المالكية . وفتح الدين أبو الفتح محمد بن نجم الدين محمد بن الباهلي وقد تولى تدريس فقه الحنابلة . وشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر ، وقد تولى تدريس الحديث . وشيخ الإسلام القاضي جلال الدين عبد الرحمن بن البلقيني وقد تولى تدريس التفسير .

المخطوط ج ٤ ص ٢٥٣

١٢ - ومن درس فقه الحنفية بالمدرسة الصرغتمشية : قوام الدين أمير كاتب ابن أمير عمر العميد ابن العميد أمير غازي الإيتقاني ، وكان شاعرا كذلك .

المخطوط ج ٤ ص ٢٥٦

١٣ - ومن درس في المدرسة الظاهرية ، مدرسة برقوق ، المنشأة عام ٧٨٨ هـ : علاء الدين السيرامي وقد ولى مشيخة المدرسة ، وتدريس فقه الحنفية . وأوحد الدين الرومي وتولى تدريس فقه الشافعية . وشمس الدين بن مكين وتولى تدريس فقه المالكية . وصلاح الدين بن الأعمى ، وتولى تدريس فقه الحنابلة . وأحمد زاده العجمي وتولى تدريس الحديث . وفخر الدين الضرير الذي كان إماما للجامع الأزهر ، وتولى تدريس القراءات . ثم سراج الدين البلقيني وتولى التفسير والميعاد ، والوعظ .

حسن المعاصرة ج ٢ ص ١٦٣

١٤ - ومن درس في جامع الفخرى : شمس الدين محمد بن عبد الدائم البرماوي ، ودرس فقه الشافعية وأضيفت إليه مشيخة التصوف بهذا الجامع . وشمس الدين

محمد الديري المقدسي الحنفي، ودرس فقه الحنفية . وجمال الدين عبد الله بن المقداد المالكي ودرس فقه المالكية .

خطط ج ٤ ص ١٣٦

١٥ - ومن درس في الجامع المؤيدي : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر، وقد درس فقه الشافعية ، ويحيى بن محمد بن أحمد العجيسي البجائي المغربي، وقد درس فقه المالكية . وعز الدين عبدالعزيز بن علي بن الفخر البغدادي، وقد درس فقه الحنابلة . وبدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد العيلتاني، وقد ولي تدريس الحديث . وشمس الدين محمد بن يحيى، وقد ولي تدريس القراءات . وشمس الدين محمد بن سعد الديري، وقد ولي تدريس فقه الحنفية ومشيخة الصوفية بالجامع .

خطط ج ٤ ص ١٣٩

١٦ - ومن درس بالمدرسة المعزية ، نسبة إلى المعز أيلك رأس الدولة التركية ، : صاحب برهان الدين السنجاري وهو الخضر بن الحسن، إلى أن توفي، فدرس الفقيه شمس الدين الجزري ، ثم عزل ودرس بها الفقيه نجم الدين بن الرفعة إلى أن توفي، فدرس بها الفقيه شمس الدين الجزري المشهور بالخطيب ، وكان يومئذ خطيب الجامع الطولوني، إلى أن توفي، فدرس بها قاضي القضاة جمال الدين الزرعي .

(الانتصار لابن دقاق ج ٤ ص ٩٢)

١٧ - ومن درس بالمدرسة القمحية ، المالكية ، : ولي الدين أبو زيد عبد الله بن خلدون والشيخ جمال الدين بن الشيخ صفى الدين ابن أبي المنصور ، والقاضي أبو البركات المتطبيب ، وقاضي القضاة شمس الدين الركاكي .

(ذكره ابن دقاق في ج ٤ من الانتصار ص ٩٥)

١٨ - ومن درس بالمدرسة الطبرسية : قال ابن دقاق في ج ٤ ص ٩٧ من كتابه ، الانتصار ، : « وأول من درس بها الشيخ الإمام شرف الدين قاضي السكر كان ، إلى أن توفي . ثم درس بها الفقيه أقضى القضاة جمال الدين المشهور بابن السقطي ، إلى أن تعفف عن جميع ما كان بيده ، وعزل نفسه من الحكم ولزم بيته إلى حين وفاته .

ثم وليها الفقيه نجم الدين بن الرفعة ثم نزل عنها للشيخ نجم الدين البالي - وأول من درس بها من المسالكية الشيخ الإمام شهاب الدين القرافي . ثم نجم الدين القاياني ثم القاضي بهاء الدين بن أبي المنصور ، ثم زين الدين أبو الحسن علي البوشى . . هذه بحالة يسيرة تثبت بها صورة موجزة لهيئات تدريسية متعددة في هذا العصر وليس غرضنا هنا الاستيعاب كما ذكرنا في أول الفصل . وللاستيعاب محل آخر سيجي . عما قريب بعون الله .

٩ - الدروس المقررة وأثرها

أعتقد أننا إذا تصفحنا صفحات هذا الكتاب السالفة يمكن بسهولة أن نستنبط أى الدروس تقررت دراستها وتقرر إلقاؤها في هذا العصر .

لقد مهدت الحوادث التي سبقت هذا العصر كمنكبة العباسيين ، وكالحروب الصليبية ، وغير ذلك مما كثر المسلمين ، لحدوث رد فعل في نفوسهم ، دفعهم إلى التعصب للإسلام ومن ثم إلى التعصب لعلومه ولعلوم لغته . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، عنى عظماء العصر بافتتاح المساجد والمدارس ونحوها تقرباً إلى الله وزلفى . فلا يمكن - والحالة هذه - أن تتقرر فيها دروس غير ديلية . وإذا كان ثمة دروس أخرى فلتكن لغوية لمتانتها إلى الأولى بصلة . ثم تأتى بعد ذلك العناية بالدروس السكونية . وليس بمستساغ عادة أن يدرس الطب والفلك مثلاً في أحد مساجد الله ، وتهمل علوم الدين أو علوم اللغة المرتبطة بها .

لهذا كانت الدروس الدينية في مقدمة الدروس المقررة . أو قل إنها أهم ما عنىوا بتقريره من الدروس . ونخص بالذكر من بينها فقه المذاهب الأربعة وأصولها . ويلها في الأهمية دروس الحديث . ثم دروس التفسير ثم دروس الوعظ والكلام والتصوف . ثم دروس النحو والصرف . وقد عنى بغير تلك الدروس عناية فرعية كدروس الأدب والطب والفلك والهندسة والتاريخ والتقويم والرياضة . ولعل الهندسة كانت أحظاها بالعناية للحاجة إليها في البناء

وأغلب الظن أن الذين نبغوا في إحدى المواد الفرعية المذكورة إنما كان نبوغهم لفرط ذكاء وقوة ميل ولاشتغال شخصي فردى .

وقد لحظنا عند سرد تاريخ بعض المدارس أن الدروس المقررة بها ، ليست متشابهة في كل حالة . ونعني بالدروس ، المواد الدراسية ، فقد كان بعضها يقرر فيه درس للشافعية ، وبعضها درس للحنفية ، وهكذا ، وبعضها درس في الحديث ، ونحو ذلك . فكأنما كان لكل مذهب مدرسة أو مدارس . غير أن بعضها اجتمعت فيه دروس المذاهب الأربعة كلها ، ويذكر المقرئ في الخطط ج ٤ ص ٢٠٩ ، أن الملك الصالح الأيوبي أول من جمع المذاهب الأربعة في مكان .

وبما يذكر أنه لم تكن في دور التعليم برامج معينة مقررة تحدد للناشئين سبيل الدراسة وتلزمهم باستيعابها ، كما نشاهد في النظم الحديثة . بل ثمة كتب في الفقه أو الحديث أو الأصول أو المنطق أو النحو أو القراءات ، ونحو ذلك ، يدرسها الشيوخ في دور التعليم . يختار كل شيخ منها ما يروقه ويحاول تدريسه للناس ، فيسمعه منه من يشاء من الطلاب وغير الطلاب .

فإذا لازمه أحدهم ملازمة نافعة ودرس عليه كتابا معيننا منحه شهادة بذلك ، وتسمى « إجازة » يشهد له فيها أنه درس الكتاب المذكور .

وكان الطلاب أو النابغون منهم يعنون عناية تامة بحفظ عددهم من الكتب المذكورة المشهورة عن ظهر قلب . ويبدو أنه كانت هناك عناية كبرى بتقوية ملكة الحفظ . ولعل الرغبة في حفظ أحاديث الرسول عليه السلام ، كان لها دخل في توجيه هذه العناية وجهتها تلك .

ولأنك لتقرأ جليا في كتب تراجم الأعلام وسيرهم ما يدل دلالة قوية على هذه العناية . فيقال مثلا إن فلانا حفظ كتاب كذا وكذا وكذا الخ .

وليس الحفظ مقصوراً على علم دون آخر ، بل يتناول كتب الحديث والفقه والنحو والمنطق ونحوها ، ولعله كان أكثر انصرافا إلى المتن والمختصرات منه إلى المطولات .

يقول السخاوي في ترجمة الزين العراقي « في الضوء ج ٤ رقم ٤٥٢ ، إنه حفظ القرآن وهو ابن ثمان وحفظ التنبيه والحاوي ، والإمام لابن دقيق العيد .

ومما قيل عن ابن حجر العسقلاني إنه حفظ مختصر ابن الحاجب ، والعمدة
والحاوي الصغير ، والملحة وألفية العراقي .

وهناك كتب جليلة ساعدت بهذا الحفظ ، وظفرت بعناية الطلاب والشيوخ
دون غيرها ، فكانت قوام التعليم ، ومنهاجه وسراجه في تلك الحقبة . ومنها عن
الضوء كما نستقرئ . في تراجم رجاله ما يلي :

النبهية . المنهاج الأصلي للنووي . والمنهاج الفرعي ، والشاطبيتان في القراءات
والعمدة لحافظ الدين النسفي في أصول الدين . والكافية لابن الحاجب في العربية
ومختصر القدوري في الفقه ، وجمع الجوامع ، والأربعون حديثاً النووية ، وتلخيص
المفتاح في البلاغة ، والجعبرية في الفرائض ، والخزرجية ، والهداية لابن الجزري
والكنز في فقه الحنفية ، والمنارة في الأصول ، وألفية ابن مالك في النحو ، والملحة ،
ومختصر أبي شجاع ، والرحبية ، والمختار والمنظومة كلاهما للنسفي في الفقه ، ونظم
قواعد الإعراب لابن الهائم ، وإيساغوجي في المنطق ، وفصيح ثعلب في اللغة ،
وألفية العراقي ، والحاوي والإمام . وكتب الحديث وفي مقدمتها موطأ مالك ،
وصحيح البخاري وصحيح مسلم . والمجمع ، والمغني في أصول الفقه الحنفي .
هذا وقد كان للاتجاه التعليمي المذكور أثره البالغ في نوع الإنتاج العلمي ،
سواء أكان ذلك في طبقات العلماء ، أم في أنواع المؤلفات .
أما العلماء :

فقد زخر العصر بصنوف منهم شتى من علماء المذاهب الأربعة وما يتصل بها .
ومنهم من بلغ حد الاجتهاد ، أو لم يقل عن الأئمة المجتهدين السابقين كفاءة وقدرة
على الاستنباط ، وعليها بأحكام الشريعة ، وتصرفاً في الوقائع ، بالفتيا الدقيقة المحكمة ،
مع قوة استدلال ، ووضوح حجة ، وتمسك تام بالحق ، كل هذا في ورع وتقوى وزهد
في الدنيا . ومن هؤلاء :

عز الدين بن عبد السلام . وابن المنير الاسكندراني . وابن الرفعة . وتقي الدين
السبكي . وسراج الدين البليقيني . وتاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز . وابن

دقيق العيد القشيري . وابن تيمية الحراني . وابن قيم الجوزية ، والأقصراني .
والسيوطي ، والأنصاري . وغيرهم كثيرون .

حسن المحاضرة ج ١ ص ١٣٢

وزخر العصر كذلك بعلماء الحديث وحفاظه ، وعارفي مصطلحاته ورواته .
وهم ممن يشار إليهم بالبنان ، ومنهم :
تقي الدين السبكي . وابن دقيق العيد القشيري ، والمنذري ، والرشيد العطار ،
وابن العماد ، والأبيوردي ، والإسعدي ، وشرف الدين الدمياطي ، وقطب الدين
الخلبي ، وفتح الدين بن سيد الناس ، وأحمد بن أيوب الحسامي الدمياطي ، وجمال
الدين الزيلعي ، وعز الدين بن جماعة ، وزين الدين العراقي . وولي الدين أبوزرعة .
وابن حجر العسقلاني ، والقسطلاني ، وغيرهم .

حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦١ - طبقات الحفاظ للذهبي ،

وامتلاً العصر بعدد من علماء الأصول والصوفية والنحويين وأهل البلاغة
وحفاظ اللغة ومنهم على سبيل المثال :
أمين الدين المحلي ، والرضي الشاطبي ، وابن مكرم الإفريقي ، وأثير الدين
أبو حيان الأندلسي ، وابن هشام المصري ، والسمين شهاب الدين أحمد الحلبي ،
وابن عقيل العقيلي ، وناظر الجيش محب الدين محمد الحلبي ، وشمس الدين الغماري ،
وشمس الدين الأسيوطي ، وشمس الدين الشنطوفي ، وبدر الدين الدماميني ،
وجلال الدين السيوطي ، وغيرهم .

حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٤

ومن بينهم علماء القراءات ، فمنهم :

ابن وثيق توفي عام ٦٥٤ هـ . والناصري ٦٦١ هـ ، والسكال الضرير
٦٦١ هـ ، وأبو الحسن الدهان ٦٦٢ هـ ، وعبد الله بن محمد الإسكندراني
٦٨٣ هـ ، والراشد ٦٨٥ هـ ، والجرائدي ٦٨٩ هـ ، وسجنون ٦٩٥ هـ ،
وابراهيم بن فلاح الجذامي الإسكندراني مات بعد سنة ٧٠٠ هـ ، الشنطوفي

٥٧١٣ هـ ، وأبو العلاء السلاحي ٥٧١٨ هـ ، والتقى الصائغ ٥٧٢٩ هـ ، وأبو حيان المعروف بابن السراج ٥٧٤٧ هـ ، وعثمان بن عبد الرحمن المخزومي البليسي ٥٨٠٤ هـ ،
حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٠

وتد نبغ عدد أقل من هؤلاء وهؤلاء في المواد الأخرى كالأطب والهندسة والفلك والكلام والحكمة والمنطق . وما إلى ذلك . هذه القلة على الرغم من أن العصر كان من العصور الذهبية في تاريخ الفن الهندسي العربي وما امتزج به . وذلك لعناية السلاطين والأمراء بإنشاء ما يخلد ذكركم من مساجد ومدارس وقناطر وربط وخوانق ونحو ذلك ويغالون في إنشائها ذلوا يخرج بعضهم أحيانا إلى حد السرف ثم إلى حد العجز عن التمام . وقد كان السلطان حسن الناصر يقول وهو ينشئ مسجده الشهير ، ما مؤداه : إنه عاجز عن إتمامه لكثرة ما أنفق عليه ، ولا تساع العمل فيه ، ولولا رمية بالعجز لكف عن إكاله .

ولكن لا نفي في هذا المقام أن نشير بوجه خاص إلى أن مادة التاريخ بأنواعه ومادة التقويم والمعلومات العامة قد وجدت في هذا العصر رجالا هاموا بها هياما ، وأغرموا بها غراما ، فوضعوا فيها من المؤلفات ما يُبعد — إلى وقتنا هذا — في مقدمة الأسانيد والمراجع ، وما يُبعد مفخرة للعلم ومآثرة لمصر . — ومن هؤلاء جميعا من ولى التدريس .

فمنهم : ابن النفيس الطبيب . والأصمغاني الأصولي المنطقي . والتقى شبيب بن حمدان الحراني الطبيب السكحالي وعلاء الدين الباجي في الأصول والمنطق . والصفي الهندي في الكلام . صلاح الدين المعروف بابن الدهان في الطب . شمس الدين محمد بن عبدالله المصري مدرس الأطباء بجامع ابن طولون . صلاح الدين المعروف بابن المغربي في الطب . العلاء علي ابن أحمد في المعقولات . ضياء الدين القرمي في المعقولات . ابن صغير في الطب . قنبر بن عبدالله الشرواني في المعقولات . باكير زين الدين السكختاوي في البلاغة . الكافيجي في المعقولات .
(راجع حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٨)

ومنهم : ابن خلكان المؤرخ صاحب وفيات الأعيان . وركن الدين يبرس المنصوري الدوادار المؤرخ صاحب زبدة الفكرة . وابن المتوج المؤرخ صاحب كتاب إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل في تاريخ مصر . والأدفي مؤرخ صاحب الطالع السعيد . والنويري المؤرخ والمفهوم صاحب نهاية الأرب وابن دقاق مؤرخ مصر، وله عدة كتب منها الانتصار وشهاب الدين الأوحدي وله كتاب في خطط مصر والقاهرة . والمقرئ صاحب الخطوط وغيرها، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى . وابن حجر صاحب الدرر الكامنة . وصلاح الدين الصفدي صاحب كتاب الوافي بالوفيات في تاريخ الرجال وابن شاكر مؤلف فوات الوفيات في تاريخ الأعلام وابن خلدون صاحب تاريخه المسمى بالعبر . وابن الوردي صاحب تاريخه . والسخاوي المؤرخ صاحب الضوء اللامع . والسيوطي مؤلف تاريخه المسمى حسن المحاضرة . وابن إياس صاحب تاريخه المشهور ببداية الزهور . وابن تغري بردي صاحب مؤلفه الأشهر في التاريخ وهو النجوم الزاهرة . وابن عبد الظاهر صاحب الروضة البهية في التاريخ والتقويم . وابن فضل الله صاحب مسالك الأبصار في التاريخ والتقويم والأدب . ويضاف إلى هؤلاء وهؤلاء عدد ضخم من الأدباء سئد كره في الجزء الخاص بالشعر أو الكتابة .

راجع حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥

هذا ولا ننسى - ونحن ننوه هؤلاء العلماء الأفاضل والمدرسين الأماثل - أن نذكر أن كثيرا منهم أجنبي عن مصر وعن القاهرة . ولدهو أو أبوه أو أحد أجداده في بلد آخر ونسب إليه . ثم كانت خاتمة مطاف أحدهم مصر ، قدم إليها ، ونعم بخيراتها واتخذها وطنًا له ثانيا . ولذلك فيها المقام وسواء في ذلك هي أو الشام . وسنعود إلى هذا الموضوع بالكلام المفصل والحديث الطويل ، ونعرض تراجع عدة لبعض هؤلاء الأعلام . ووصفا لجهودهم العلمية . أما المؤلفات فسنتناول الحديث عنها كذلك .

١٠ - تشجيع المؤلفين

أشعر بأن العلماء الذين وجدوا كل ضرب من ضروب التشجيع على المضى قدما في الناحية العلمية ، ففتحت لهم المدارس ، وعنى باختيارهم لتولى الدراسة فيها ، وسعى إلى استشارتهم وسمع لشكاياتهم ، وقد أجريت عليهم المرتبات القيمة ، وأغدقت عليهم النعم الوفيرة ، ورفعت منازلهم ... إلى غير ذلك . أشعر أن هؤلاء العلماء قد وجدوا في كل هذا ما يشجعهم كذلك على المضى قدما في التأليف والتدوين والتصنيف ، وإن كنا لا نجد تشجيعا صريحا مباشرا في هذه الناحية ، تشجيعا ينصب على ناحية التأليف . وتنشيط حركته ، وإغراء المؤلفين بالأقدام على عملهم وإتقانه .

وربما وجدنا بعض الحوادث في هذا الباب ، ولكنها في نظرنا حوادث فردية ، وليست سياسة عامة أو اتجاهات شاملا . ومن هنا لانستطيع اتخاذ مثل هذه الحوادث تكة نعتد عليها في اعتبار هذا العامل - وهو عامل التشجيع - كان ذا خطر كبير وذا تأثير خطير في حفز همم العلماء ودفعهم إلى ميدان التأليف ، كما دفع نظراءهم تشجيع خلفاء بني العباس - مثلا - ووزرائهم وغيرهم من رؤساء دولتهم لعلماء عصرهم وأدبائه .

ومن هنا نشعر شعورا قويا بجلال هذا الإقدام العجيب الذي أقدمه علماء العصر المملوكي على اقتحام ميدان التأليف والاضطلاع بحمل أعبائه . فأية قوة نفسية تلك التي كانوا يدخرونها بين ضلوعهم ، وأية شجاعة قلبية تلك التي كانوا يحتازونها بين حناياهم ! إن بعضهم ، بل كثيرا منهم - يعتبرها ويا من هواة التأليف ، قد تعددت مؤلفاته في شتى العلوم ، حتى عدت بالمئات .

على أننا ، وقد اعترفنا بضعف هذا العامل باعتباره حافزا من حوافز الاشتغال بالعلم والتأليف ، لا نرى مناصا ، للعصر انصافا ، من ذكر ما قرأناه عن حوادث التشجيع الفردية فيها :

ما ذكره ابن أبي حجلة المغربي عن كتابه «ديوان الصباية»، فقد قال في مقدمته إنه احتفظ لنفسه بهذا الكتاب بعد تأليفه حتى يرزله مرسوم شريف من الملك الناصر حسن بطلبه، فقدمه إليه.

وكذلك قال عن كتابه «سكردان السلطان»، فإنه ألفه للسلطان الناصر حسن المذكور. ولعل هذا يرجع إلى المزاج الأدبي لهذا السلطان، ويبدو أنه كان كثيرا ما يشجع الأدباء، فإنه كذلك طلب إلى الشاعر ابن نباتة المصري، أن يقدم إليه ديوانه الشعري، فقدمه. وقد وظفه السلطان بديوان الإنشاء بالقاهرة، فلعل ذلك كان إحدى جوائزهم على ديوان شعره.

وذكر السيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢، أنه ألف للخليفة المتوكل على الله أبي العز عبد العزيز المتوفى عام ٩٠٣ هـ كتابين أولهما: «كتاب الأساس في فضل بني العباس»، وثانيهما «كتاب رفع الباس عن بني العباس». وقيل إن المؤرخ أبا بكر بن أبيك، ألف كتابه «كنز الدرر وجامع الغرر»، للسلطان الناصر محمد بن قلاوون — راجع تاريخ آداب العربية لجورجي زيدان ج ٣ ص ١٩٢.

كما عرف أن السلطان الغوري، ألف له كتب منها كتاب «نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية»، من تأليف حسين بن محمد الحسيني. ومنها كتاب «السكوك الدرر في مسائل الغوري»، وقد نشر أخيرا ملخصين عام ١٩٤١ م. وقال جورج زيدان أيضا — ج ٣ ص ٢٥٤ أن محمدا القوصوي الطيب ألف للغوري بإشارة منه كتابه الطبي «كمال الفرحة».

وقال أيضا — ج ٣ ص ٢٥٤ — إن عماد الدين موسى بن محمد اليوسفي المصري المتوفى عام ٧٥٩ هـ ألف للسلطان جقمق كتابه «كشف الكروب في معرفة الحروب»، وهو في الفنون العسكرية.

وقال أيضا في ص ٢٥٧ إن محمد بن لاجين الحسامي الطرابلسي الرماح، ألف

كتابته في الفروسية ، وهو « بغية القاصدين في العمل بالميادين » ، للأمير سيف الدين المارديني صاحب حلب .

وقال أيضا في ص ٢٥٩ إن حسن بن عبد الله العباسي ألف كتابه « آثار الأول في تدبير الدول » ، للسلطان المظفر بيبرس المنصوري .

وقال أيضا في نفس الصفحة إن محمود بن اسماعيل الجيزي ألف كتابه « الدرة الغراء في نصائح الملوك والولاة والوزراء » ، للملك الظاهر أبي سعيد جقمق العلاني .
وقال في ص ١٨٢ إن شهاب الدين الأشرفي ألف كتابه « البرهان في فصل السلطان » ، للسلطان الملك الظاهر خشقمر .

وذكر ابن حجة الحموي في خزانة الأدب ص ٨٠ ، أن شمس الدين بن ناهض الفقاعي كتب سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي سلطان مصر ما بين نظم ونثر ، وقدمها إليه في عام ٨١٨ هـ .

وفي فهرس دار الكتب المصرية ج ٥ ص ٢٠٥ ، أن كتاب « روض المناظر » ، ألفه قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة المتوفى عام ٨١٥ هـ ، إجابة لرغبة الأمير عماد الدين محمد نائب السلطان بقلعة حلب . وبهذا الكتاب حديث عن المخلوقات والمشاهير وغير ذلك .

وفي ص ١٣٣ منه أيضا أن كتاب « تذكرة الملوك إلى أحسن السلوك » ، ألفه أحد العلماء الأفاضل برسم السلطان الأشرف الغوري . وبهذا الكتاب سير ملوك ووزراء وقضاة .

١١ — تنافس العلماء

لا أعنى بتنافس العلماء هنا، تنافسهم في سبيل العلم وفي سبيل الناليف ومباراتهم بالمنظرات والمحاورات، وما إليها مما يكون ذا أثر بعيد وبديع في الحركة العلمية. لا، وإنما أقصد تنافسهم في سبيل بلوغ هذه المراكز العالية التي خصصت لهم في القضاء وفروعه وفي مشيخة الإسلام وفي مشيخة المساجد والمدارس، وفي تولي التدريس بها وفي مشيخة الخرافق كذلك وسواء في ذلك أكان مغربهم الرواتب المادية أم المنزلة الأدبية التي يصلون إليها بمصاحبة السلطان والأمراء وأعيان الدولة، وفي التقدم في الصفوف الأمامية، وفي دعوتهم للاستشارة، وفي دعوتهم للفتيا، وهكذا. — كان هذا كله ميدانا لتسابق علماء العصر، وتنافسهم. وهذا التسابق والتنافس له أثره غير المباشر في تقدم الحركة العلمية. فإن العلم هو أهم سلاح يتقلده كل منافس.

لذلك كان على كل طامع في جاه أو منصب أو مال أو شهرة أو نحو ذلك من علماء العصر، أن يسعى إلى مطمعه من ناحية العلم أولا، فعليه أن يتأمل ويتنقل من شيخ إلى شيخ وأن يدأب على الدرس والمطالعة وأن يلم بشتات من علوم عدة ثم عليه بعد ذلك أن يجرب نفسه في التصدي للتدريس والفتيا والتأليف، وأن يبني بيديه أساس مستقبله، وأن يتصدى للنفع العام، وتفقيه الطلاب والعامة، فإذا أفلح في ذلك ذاع صيته واشتهر، وعرف خبره وكثر ذكره، وسما اسمه إلى مسامع الملوك والأمراء، وتولدت لديهم الثقة به، والركون إليه فيدعى حينئذ إلى تربع في منصب، أو جلوس في دست، أو استشارة في أمر. وهكذا. لذلك نقول إن تنافس العلماء من هذه الناحية كان من وسائل تشجيع الحركة العلمية.

وحسبك أن تقرأ ما كتبناه في الجزء الأول من هذا الكتاب عن القضاء والقضاة لتدرك بعض ما أشرنا إليه هنا.

١٣ .. تجديد الخلافة

فصلنا في الجزء الأول^(١) من هذا الكتاب ، حديث الخلافة وتجديدها في مصر ، بعد زوالها من بغداد ، بنحو ثلاث سنوات . ونوهنا بالجهود التي بذلها السلطان الظاهر بيبرس في سبيل إنشائها . وهي فرصة انتهزها بيبرس ليدعم مجده بعمل ديني عظيم ، يلفت إليه أنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، ويهرأبصارهم ، ويجمع من حوله قلوبهم ، ويبرز سلطنته بين دولهم باعتبارها حاضنة الخلافة ورافعة علم الإسلام . ولكي يكسب سلطنته صفتها الشرعية ، إذ يضيفها عليه خليفة مبايع يملك التولية والعزل ولو من الناحية الشكلية .

وقد عاشت هذه الخلافة — على علاتها — في مصر ، إلى آخر عصر المماليك ، ثم زالت بزواله . ولبت سلاطين مصر طيلته يستمدون سلطتهم الشرعية من الخلفاء . وكذلك فعل بعض ملوك المسلمين غيرهم .

ولا ريب أن وجودها كان له أثره المعنوي العظيم في جعل البلاد المصرية محورا إسلاميا ومركزا دينيا هاما ، وعشا للعلماء ينشئون فيه أو يفدون إليه ، ويستمدون منه الإلهام والتوجيه ، في جهادهم العلي ، والسعى سعيا غير شعوري ، في سبيل تدعيمه . إذ في بقائه بقاء لهم ، وفي زواله طامة عليهم .

وهكذا استكملت القاهرة كل العناصر اللازمة للنشاط العلمي ، فإنها لم يكن ينقصها قبل إنشاء الخلافة بها إلا هذه الخلافة ، لكي يتم لها وجوه الشبه بينها وبين بغداد .

خاتمة

ويحسن بنا أن نختم هذا الباب بما قاله ابن خلدون (٨٠٨ هـ) في مقدمته عن مبلغ تقدم العلوم والفنون ، ومبلغ العناية بهما في البلاد المصرية مع التعليل لذلك . قال :

« ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم ، إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبجر ، وحضارتها مستحكمة ، منذ آلاف من السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع ، وتفننت . ومن جملة ما تعلم العلم . وأكد ذلك وحفظه ، ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب ، وهلم جرا .

وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم ، لما له عليهم من الرق أو الولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته . فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة ، يجعلون فيها شركا ، لولدهم ، بنظر عليها أو نصيب منها ، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير ، والتماس الأجور في المقاصد والأفعال . فكثر الأوقاف لذلك ، وعظمت الغلات والفوائد ، وكثر طالب العلم ومعلمه ، بكثرة جرائتهم وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ، ونفقت بها أسواق العلوم ، وزخرت بحارها . والله يخلق ما يشاء . » (١)

(٢) راجع تقويم النيل ج ١ ص ٢٠٢ ، ومصر والفيل من ١٥ ، كلاهما لأمين سامي باشا .

الباب الثالث

نتائج نشاط الحركة العلمية

تكاد تنحصر نتائج هذا النشاط العلمي في ثلاثة أمور هي: أولاً: وفود الطلاب إلى دور التعليم. ثانياً: كثرة العلماء والأدباء. ثالثاً: نشاط الحركة التأليفية.

١- وفود الطلاب إلى دور التعليم

لا ريب أن افتتاح المدارس، وتعيين العلماء فيها للتدريس، والعناية باختيارهم ورصد الأوقاف للإعناق عليها، وإجراء الرواتب على طلابها، وتهيئة المساكن لنومهم، وتزويدهم بالطعام والكسوة وما إلى ذلك مما فصلناه فيما سبق، من شأنه أن يجذب إليها قلوب الطلاب، ويحببهم في الانتظام في سلكها، بل وإلى الانقطاع إلى طلب العلم فيها.

وليس لدينا ثبوت نرجع إليه في معرفة عدد الطلاب المنتظمين في كل مدرسة، وفي كل جيل، حتى نستطيع أن ندرك بالضبط إلى أي مدى وصلت هذه الحركة التعليمية.

غير أنه قد نُص في سياق بعض الحوادث والأخبار، على أن عدد الطلبة كان يحدده مشيئة المدرسة، وبخاصة عند كتابة شروط وقفها. وهذه نصوص فردية، لا عامة.

والمفهوم أن هذا التحديد — إن كان — منشؤه أن الوقف محدود، وفي طاقة ريعه أن ينفق على عدد محدود من الطلاب.

وكان بعض الواقفين يحدد عدد طلاب مدرسته بعشرة. وبلغ العدد

أحيانا ثلاثين . وهذا يدلنا على قلة من انتظم في سلك الطلبة انتظاما ثابتا مستمرا . زد على ذلك ما كان يصيب الأوقاف المدرسية ، بعد وفاة الواقف ، من عبث وضياح ، كان لها أثرهما بلا ريب في نقص عدد الطلاب المنتظمين .

ومع ذلك كله ، فقد كانت أبواب المدارس مفتحة يلجها من شاء من الطلاب ، منتظمين وغير منتظمين على السواء ، في أى وقت ، لسماع دروسها ، والاغتراف من مناهلها . وفي ذلك ما فيه من الحرية التعليمية ، التي تعين كثيرا من العامة والراغبين في العلم ، غير المنقطعين إليه ، ممن لا يتقيدون برواتب أو جرايات ، يعطونها من الأوقاف ، لقاء حضورهم الدروس ، نقول تعينهم بل تستهويهم إلى طلب العلم ، فيترددون على هذه الدور الفينة بعد الفينة طلبا للثقافة .

وبهؤلاء وهؤلاء زخرت دورا لتعليم وما جت بطلاب العلم ، لا من البلاد المصرية وحدها ، بل ، ومن كل إسلامى آخر . إذ أصبحت مصر أهم كعبة علمية إسلامية يحج إليها محبو العلم وطلابه بلد وقد قيل إن الجامع الأزهر انتظم في سلك طلابه أحيانا ما يزيد على سبعمائة وخمسين طالبا في آن واحد ، وأنه ضاق عن أن يتسع لمثل هذا العدد الضخم ، فخرج الطلاب منه إلى العراء بجواره بين الهوام الطاق ، يتناولون هناك ما يحلوهم من أطايب العلم والأدب . وكان من بينهم أحيانا ، العجم والزبالة والمغاربة ، وغيرهم من الطلاب الغرباء .^(١)

٢ — كثرة العلماء والأدباء

وهذه من أهم نتائج النشاط العلمى ، إذ زخر العصر بالعدد الوافر من علماء المذاهب الأربعة والعلماء المجتهدين ، وكثير من المتصوفة وأهل الكلام ، والأصوليين ، والنحويين واللغويين والأدباء والأطباء والمنجمين والفلكيين والمؤرخين ، إلى غير هؤلاء وهؤلاء .

(١) راجع ما كتبه المقرئى عن الأزهر ج ٤ من المخطوط

وحسبك العودة لما ترجمناه في باب القضاء والقضاة في الجزء الأول من هذا الكتاب ، ولمن نوهنا بذكرهم في باب الدورس المقررة وأثرها ، ومن سننوه به منهم في باب المؤلفين الآتي :

وقد نشط كثير من هؤلاء العلماء إلى التأليف والفتوى والتدريس والوعظ ، وشغلوا مناصب القضاء والكتابة وما إليهما ، وشغفوا بالمحاورات والمناظرات في علوم الدين وعقائده ، فكان من وراء ذلك كله حركة فكرية نافعة ممتعة .

ومن المناظرات ما ذكره السبكي في طبقاته ^(١) في سياق ترجمة أبيه تقي الدين السبكي ، أن عددا من العلماء اجتمع معه وناظره كل منهم ، حتى أبطل حجة كل ومقالته ، ثم عاد فدعمها ، ثم عاد فاختر مذهب الشافعي ودنمه .

وقال صاحب الدرر الكامنة ^(٢) ، في سياق ترجمة ناج الدين محمد المراكشي الشافعي المولود بالقاهرة إنه تناظره والفخري ، فكان من حضر لا يفهم ما يقولانه لسرعة عبارتهما .

ومن المناظرات ماجرى بين ابن تيمية الحراني وأنصاره من جانب ، وبين معارضيهم من جانب ، وما جرى له في مجالس التحقيق فيما أدعوه عليه . وسنعود إلى توضيح هذا الموضوع فيما بعد .

٣ — نشاط الحركة التأليفية

هذه الحركة هي أهم نتائج النشاط العلمي ، وهي أهم ما نعتى بوصفه في هذا الجزء من كتابنا ، إذ هي الثمرة الخالدة والآثر الباقي ، والوصلة الصالحة بين الماضي والحاضر . وهي بما أنجبت من مؤلفات ، سلسلة ذهبية وثقى ، سرى بها العلم وروحه من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة . وكان لمصر بسببها مفخرة أي مفخرة .

(١) الطبقات ج ٦ - ١٧١ ، ١٧٢

(٢) ج ٣ رقم ٨٠٣

إذ ما جت صفتها بهذه الأمواج السكر من المؤلفين ، وبهذا الجم الغفير من المؤلفات .

وهي ، فيما بين هذا وذاك ، رجة الصدر كثيرة الخير ، تحمل للإنسانية والعلم ما ألقاه الزمان على كاهلها من أعباء النهوض بهما ، فجهدت في القيام على ذلك ، وحملت الأمانة فأحسنت حملها وأدائها .

ونتناول هنا بالكلام ، العلوم المختلفة ، مشيرين إلى ماهيتها في هذا العصر ، والاتجاهات التي اتجهت فيها ، والنواحي التي سلكتها . مع ذكر طائفة من المؤلفين والمؤلفات في كل مادة على حدة . ثم نترجم لعدد من هؤلاء النوابغ ، ما بين إيجاز وتفصيل .

ولم نعن في هذا المقام إلا بالمؤلفين الذين اتصلوا بمصر والشام في ذلك العصر اتصالاً ما ، مثل الاستيطان ، أو الزيارة والمرور ، أو الوظيفة أو نحو ذلك . ولولم يكن أحدهم مصرياً خالصاً صميمياً . وعوامل اكتساب المصرية كثيرة . . . ثم أغضينا عن عدا هؤلاء لضعف صلتهم بمصر أو الشام ، فنقول والله المستعان :

المؤلفات^(١)

لا نبالغ إذا قلنا إن مؤلفات علماء مصر في خلال العصر المملوكي ، وهو أقل من ثلثمائة عام ، تبلغ عدة آلاف ، وحسبنا دليلاً على ما نقول أن بعضهم عُرف

١ — اعتمدنا في هذا الباب على كتب كثيرة ومراجع عدة ومنها :
حسن المحاضرة للسيوطي ورمزنا إليه بحرف «س» ، وطبقات الشافعية للتاج السبكي ورمزنا إليه بحرف «طس» وطبقات الحنكية ورمزنا إليه بحرف «طح» ، وطبقات الحنابلة لمحمد جميل الشطبي ورمزنا إليه بحرف «طن» وفوات الوفيات لابن شاكر ورمزنا إليه بحرف «ف» — والطالع السعيد للدقوي ورمزنا إليه بحرف «طس» والجزء الثالث من تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ورمزنا إليه بحرف «ج» — وورد الكتب ورمزنا إليه بحرف «م» .

عنه أنه وحده ألف مئات من الكتب والرسائل ، كالسيوطي فقد قيل إن مؤلفاته أربت على ستمائة ، وكان تيمية الخرافي فقد قيل إن مؤلفاته أربت على خمسمائة ، وكان حجر العسقلاني فقد قيل إن مؤلفاته أربت على مائة وخمسين ، وهكذا .

وبلاريب ، كانت هذه المؤلفات تملأ دور الكتب المصرية في العصر المذكور بجوار دور التعليم ، عدا ما كان منها في خزائن الكتب بدور بعض الأمراء أو الرؤساء والعلماء . وكانت تحتل مكانها بجانب غيرها من ثمار القرائح في العصور الأدبية السابقة .

فلما فتح العثمانيون مصر عام ٩٢٣ هـ ، وأزالوا حكم سلاطين المماليك ، نهبوا ذخائر البلاد ونفائسها ، وفي مقدمتها تلك المؤلفات . فحملوها فيما حملوا إلى عاصمة بلادهم ، وجعلوا بها دور كتبهم ، ولم تبق في مصر إلا صباغة من تلك الكأس المليئة ، مبعثرة هنا وهناك . وقد كانت هذه الصباغة نواة لإنشاء دار الكتب المصرية بالقاهرة ، في عهد عاهل مصر العظيم الخديوي إسماعيل .

وتسرب كثير من هذه المؤلفات كذلك إلى مكاتب أوروبا ، فازدانت بها هذه المكاتب .

ولا تزال هذه وتلك ، تنادى المصريين وتهيب بالسكرماء منهم والغيورين على تراث مصر ومجدها ، والحريصين على كنوزها العلية ، أن يردوا عليها غربتها ، ويعيدوها هي أو صورة منها إلى الوطن العزيز .

إن هذه المؤلفات بلاريب ، أعانت هي وأمثالها كثيرا من المستشرقين على ما هم بصدد من البحوث الإسلامية والمشرقية . ونحن أولى بأن تكون قريبة منا لتقدم إلينا مثل هذه المعونة .

على أن عددا ضخما من هذه البقية الباقية من المؤلفات المصرية ، التي كان من نصيبها السلامة من عبث العثمانيين ، وتزدان بها الآن دور الكتب ، بالقاهرة وغيرها ، لا يزال مخطوطا ، لم يزل عنه غبار النسيان ، في عصر اكتملت فيه كل أدوات الطباعة ووسائلها . ومست حاجة النهضة إلى طبعتها .

وحقا ، أخرجت مطبعة بولاق وغيرها بعضا من هذه الأسفار المجفوة ، وكذلك عثي بها بعض كرام الأدباء ، وسهر على إخراجها إلى النور ، فكان لذلك كله أثر بارز في النهوض العلمي والثقافة الحديثة ، غير أن هذا لم يعد قطرة من بحر ، ونشقة من زهر .

وبعد ، فلنعد إلى هذه المؤلفات المصرية ، وعصر تأليفها ، وهي العصر المملوكي . فنقول إنها قد تنوعت صنوفها ، واختلفت ضروبها ، وكان لكل علم نصيب منها . وها نحن أولاء ننوه ببعض منها . فمن ذلك :

كتب التاريخ

التاريخ في مقدمة الفنون التي سعدت بالعناية ، ورزقت الرعاية في هذا العصر . فقد تضافرت الجهود ، وتضاعفت الهمم ، وتنافست العقول والأيدي على إخراج كتب تاريخية حافلة . فامتلات بها خزانات الكتب ، وتعددت أنواعها وتكاثرت مزاياها ، حتى أصبحت ذخيرة نفيسة عظيمة القيمة ، لا غنى عنها للإنسانية والتاريخ في حلقاتها الحافلة . ولو لم توجد هذه الكتب التاريخية التي ألفها رجال العصر المملوكي ، لأصيب تاريخ مصر وتاريخ الإنسانية معها ، بنقص ذريع . ولبانت فيه ثغرة فاغرة واسعة لا يستطيع أحد من بعد سدّها .

ولعلنا نعترف مزايا هذه النهضة التاريخية العجيبة — أكثر مما عرفنا — إذا علمنا أن هذه المؤلفات تضم بين ثناياها ضروبا أخرى من أقوال تاريخية وأنباء ، تتوارد في سياق الموضوعات الرئيسية التي تكلفت الحديث عنها ، كذكر مؤلفات العلماء ، وحوادث الأعلام ، وأخبار المناظرات والمجادلات ، وما وضع بسببها من الرسائل والمقالات والبحوث الفقهية وغيرها ، وتدوين نصوص عدة من منشور الكلام ومنظومه ، وتسجيل الطارف الأدبية ، والحوادث الفكاهية وما إلى ذلك . مما يوقف الباحث على الاتجاهات الأدبية ، ويعينه على فهم النزعات

الاجتماعية ، والعادات والتقاليد المرعية . ولا يزال ميدان البحث في هذه الأمور وما شاكلها ، خلوا لم يخترقه من الجياد إلا قلائل . ولا يزال في حاجة قصوى إلى الكرو والتجوال . وفيه للمنتخب الخبير الجامع للشعث ، اللام للشتات ، المتعمق المستنبط ، مدى فسيح ، وأفق رحب وعمل بارع مجيد ، عظيم القيمة جميل العاقبة .
 وإننا مع إعجابنا الشديد بهذه اللوحات البارقة ، وبمن تهدي إليها من المؤرخين ، لا ننكر أن فيها خلطا بين العناصر التاريخية ، وتقطيعا للبحوث الرئيسية ، وإجهادا للقارىء . أو الباحث المعنى بناحية ما وحدها ، وإضاعة لزمته . ولكن هكذا كانوا يؤلفون . كأنما أرادوا أن يقدموا للباحثين من بعدهم بذورا يستولدون عليها نباتهم ، وإن اختلطت حياتها ، أو فسائل يستنبتون عليها غراسهم ، وإن تداخلت أصولها . لذلك نرى ضرورة تجديد هذه السكتب ، وطبعها ، لبعثها بأثواب قشبية تحجب إليها أنظار الناشئة والهوة ، بما لها من طبع جميل ، وما بها من نظم تيسر سبيل الاستفادة منها ، وأبسطها ترتيب فهرسها وتنوعها بتنوع الأعلام والحوادث والموضوعات ونحوها .

ومن مزايا بعض هذه السكتب ظهور روح النقد فيها ، مع حسن الضبط وتحري الصواب ، وتغلغل النظر في بواطن الحوادث والنزوع إلى استنباط القضايا العامة . وعلى رأس القائمة مقدمة ابن خلدون وتكاد تكون نسيج وحدها في هذا العصر وفيها ما فيها من كثرة القضايا ، وعمق النظر ، وحسن الاستنباط ، وشمول الحكم ، وصوابه في كثير مما ذهب إليه .

ومن المؤلفات التاريخية المشهورة كذلك : وفيات الأعيان لابن خاكان ، واشتهر بحسن الضبط ودقة النقل وإيراد الروايات .
 وخطط المقرئى وسلوكه وغيرهما من كتب هذا العلامة الذى اشتهر بطرافة موضوعاته مع الحرص على الاستيعاب وكشف الخفى الدقيق من اجتماعيات ونظم إدارية .

والضوء اللامع للسخاوى ، فقد شاعت فيه روح النقد ، مع العناية بأخبار معاصريه وأنداده منهم بخاصة .

وكتاب الوافي بالوفيات لصلاح الدين بن أيبك الصفدى ، وقد عُرف
بضخامته وسعته .

ومن يقرأ كتاب ابن إياس فى تاريخ مصر ، وهو بدائع الزهور ، يشعر فى
ثناياه بروح نقد قوية تتجلى ، وبصراحة واضحة لاهوادة فيها ، تترأى .
فلكل مؤلف خصوصيات ترسم شخصيته ، وسنعود إلى هذا الحديث بتفصيل
وتمثيل فيما بعد .

ولعل ظهور روح النقد فى كتب المؤلفين ، كان من أسبابها : استعجام ملوك العصر ،
وبعدهم عن فهم ما يدونه المؤرخون فى بطون أسفارهم ، وكذلك عدم سيطرتهم
المادية عليهم ، هذا إلى تلك الشدائد التى قاساها العصر ، والحن التى شغلت ملوكه
وأمرائه بالحروب الخارجية والفتن الداخلية . فأاحت لهؤلاء غفلة من حكامهم
القساة ، نعموا فيها بطيب النقد ، والاسترواح إليه بين الفينة والفينة .

على أن العصر كان عصر تزويق وتنميق ومداهنة ، بدت هذه الظاهرة فى أمور
كثيرة ، وهى بدورها تولد روح النقد وتنميتها ، وتمدها بمادة ثرية للحديث . كما أن
هؤلاء المؤرخين ، هم فى أصالة أمرهم ، رجال دين وعلماء شرع ، الحق فى أغلب أمرهم
ضالتهم . فلا يبالون فى سبيله بشيء .

هذا ، على أن منهم من خرج إلى ميدان من النقد فسيح آمن ، بعيداً عن عنق
الملوك والأمراء وكيد الرؤساء ، فتناول بالنقد غيره من العلماء والأدباء ، فكان
من نقده مادة طريفة من مواد البحث .

ومن لطيف ما نظفر به فى مؤلفاتهم ما كتبوه عن معاصريهم وأهل جيلهم
نما رأوه بعيونهم ، واشتركوا أحياناً فى حوادثه . وفى كثير منه استيعاب ودقة
وصدق .

ولم يقصروا موضوعاتهم الرئيسية على ضرب من التاريخ دون ضرب . بل
طرقوا صنوفه المتعددة وأبوابه المختلفة . فتباينت أسفاره وتعددت أنواعه .
بهذا كله نراهم قد استجابوا لذلك النداء المدوى فى أرجاء الضمائر الإسلامية

داعيا إلى تعويض الإسلام وتاريخه ، عما فقدته من ذخائره في بغداد بالتتار ، وفي الشام الصليبيين ، وفي الأندلس بالفرنجة .
وإننا لنسوق هنا ثبوتا ، نذكر فيه عددا من الكتب التاريخية في كل نوع حسبها وسعته المقدرة ، وبلغه جهد الاطلاع ، ذكرافيه سرد وإيجاز ، أما التفصيل فله موضع آخر .

١ — كتب تراجم الاعلام

إنما قدمنا ذكر هذا النوع من الكتب التاريخية لأنه أكثرها عددا وأوفرها عناية ، وأفضلها ضبطا وأكثرها سعة ، وأضخمها استيعابا وأعظمها نفعا ، وأوسعها تناولا .

وقد لا نجد في عصر ما من العصور السابقة ولا اللاحقة ، مجموعات من كتب التراجم شبيهة بما وضع منها في هذا العصر — وأجمل ما يلفت النظر فيها ، عناية المؤرخين بترجمة أعلام العصر نفسه ، المعاصرين لهم وغير المعاصرين . فتركوا بين يدينا بذلك حلقات متتابعة ، كل حلقة منها حسنة الصلة بالآخرى . ويتكون من كل عدة حلقات منها سلسلة متماسكة وثيقة ، يقرأ المرء فيها حياة رجال هذا العصر من أوله إلى آخره . ولا يقرأ المرء فيها حياة هؤلاء الرجال فحسب ، بل يجد كثيرا من نواحي العصر الروحية والخلقية والاجتماعية والسياسية والعلمية وما إلى ذلك ، كما نوهنا

وإليك مثلا لذلك : كتاب وفيات الأعيان لابن خلسكان المتوفى عام ٦٨١ هـ وبه أكثر من ثمانمائة ترجمة . بينها عشرات التراجم لبعض أهل القرن السابع . وقد وضع ابن شاكر السكتي المتوفى عام ٧٦٤ هـ ملحقا لهذا الكتاب سماه : فوات الوفيات ، ضمنه عشرات التراجم لبعض أهل القرن الثامن . وقد اقتدى بهما الصلاح الصمدي المتوفى عام ٧٦٤ هـ أيضا في كتابه الجامع المسمى : الوافي بالوفيات ،

ضمنه - على ما يقال - مئات من تراجم أهل القرنين السابع والثامن .
 وإليك مثلاً آخر : كتب البرزالي المتوفى عام ٧٣٩ هـ كتابه ، مختصر المائة
 السابعة ، به تراجم كثيرين ممن عاشوا فيها . وكذلك صنع الأدقوى المتوفى عام
 ٧٤٨ هـ فكتب كتابه ، البدر السافر وتحفة المسافر ، في تراجم مشاهير القرن السابع .
 ثم وضع ابن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢ هـ كتابه ، الدرر الكامنة في
 أعيان المائة الثامنة ، ترجم فيه مشاهير القرن الثامن . ومن قبله وضع الصفدى
 صلاح الدين المتوفى عام ٧٦٤ هـ كتابه ، أعيان العصر وأعوان النصر ، وهو في
 تراجم مشاهير القرن الثامن الهجرى .

ثم وضع السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ كتابه ، الضوء اللامع في أعيان القرن
 التاسع ، ترجم فيه لمشاهير هذا القرن .
 وقد أتم هذه السلسلة من الكتب ، كتب أخرى كطبقات الشافعية للسبكي ،
 وطبقات الشافعية للأسنوى وغيرهما .

ويجب أن يكون مفهوماً أن بين ثنايا تراجم الكتب المذكورة تراجم كثيرين
 ممن لم يعيشوا في مصر ، ولا يعنيها أمرهم في عصرنا الذى نحن بصددده .
 هذا وقد اعتبرنا كتب الأنساب الخاصة برجال الحديث داخلة ضمن كتب
 هذا الباب .

كما أنه من ظرف هذه الكتب أن تراجمها مرتبة ترتيباً هجائياً حسب أسماء
 الأعلام . وهذا مما يسهل تناولها فكانها تحمل في طياتها فهرسها . - وإليك نبذة
 ببيان بعض هذه الكتب .

١ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبتته
 العيان : مؤلفه

شمس الدين بن خلكان المتوفى عام ٦٨١ هـ . وهو معجم تاريخي به أكثر
 من ثمانمائة ترجمة مرتبة ترتيباً أبجدياً . وبه أعلام من عصور مختلفة وطبقات
 مختلفة . ويمتاز بالضبط والدقة وتحري الصواب . وهو جزءان كبيران .

٢ — الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء العيد : مؤلفه كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوى المتوفى عام ٧٤٨ هـ. وهو معجم حافل به أكثر من ٥٩٠ ترجمة لأعلام الصعيد من معاصري المؤلف ومن سبقهم كذلك وهو مرتب على حروف المعجم.

٣ — البدر السافر وتحفة المسافر : مؤلفه الأدفوى السابق ذكره أيضا . وهو في تراجم مشاهير القرن السابع الهجرى .

٤ — الوافى بالوفيات : وهو لصلاح الدين الصفدى المتوفى عام ٧٦٤ هـ. وهو فى نحو خمسين مجلدا ، ولا يوجد مجتمعا فى مكتبة واحدة . وهو موسوعة جامعة فى تراجم الأعلام اقتدى فيها بابن خلكان فى وفيات الأعيان . ذكره السيوطى فى خطبة كتابه ، بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، وأنه أطلع عليه بخط الصفدى فى أكثر من خمسين مجلدا .

٥ — أعيان العصر وأعوان النصر . مؤلفه صلاح الدين الصفدى كذلك . وهو مجموع تراجم مشاهير القرن الثامن الهجرى إلى أيام المؤلف ، من النساء والرجال .

٦ — فوات الوفيات : مؤلفه محمد بن شاكر الكتبى المتوفى عام ٧٦٤ هـ . وهو تذييل على كتاب وفيات الأعيان . ومرتب على حروف المعجم . وبه نحو خمسمائة وخمسين ترجمة لأعلام من عصور مختلفة على نمط كتاب الوفيات . وهو جزءان .

٧ — عيون التواريخ : مؤلفه ابن شاكر أيضا . وهو مجموع تراجم مرتب السنين ، انتهى فيه إلى سنة ٧٦٠ هـ فى ستة مجلدات .

٨ — الإصابة فى تمييز الصحابة : كتاب مشهور لابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ ، وهو مرتب على الحروف .

٩ — المجمع المؤسس للبعجم المفهرس : مؤلفه ابن حجر العسقلانى أيضا . ذكر فيه أسماء شيوخه ورتبه على الحروف .

١٠ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : كتاب نفيس لابن حجر العسقلاني أيضا . وهو أربعة أجزاء تحتوى على أكثر من ألف ترجمة لأعلام هذه المائة . مرتبة حسب الحروف .

١١ - رفع الإصر عن قضاة مصر : مؤلفه ابن حجر العسقلاني أيضا . ذكر فيه قضاة مصر من أول فتحها إلى آخر المائة الثامنة .

١٢ - تقريب التهذيب في رجال الكتب الستة : وهو لابن حجر العسقلاني أيضا

١٣ - تاج التراجم : وهو في طبقات الخنفية ، ومؤلفه أبو الفضل بن قُطْلُوبُغَا المتوفى عام ٨٧٩ هـ ، مرتب على الحروف .

١٤ - عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران : مؤلفه برهان الدين البقاعي المتوفى عام ٨٨٥ هـ . جمع فيه تراجم شيوخه وأساتذته ومعاصريه وتلاميذه على حروف المعجم . ج ٣ - ص ١٦٨

١٥ - عنوان العنوان : وهو مختصر الكتاب السابق . ألفه البقاعي كذلك .

١٦ - الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع : من أنفس كتب التراجم ، ومؤلفه شمس الدين السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ . وهو كتاب جامع لأعلام القرن التاسع الهجرى في ١٢ جزءا

١٧ - ذيل رفع الإصر عن قضاة مصر ، مؤلفه شمس الدين السخاوى أيضا . استدرك فيه وذيل لكتاب شيخه ابن حجر .

١٨ - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، مؤلفه شمس الدين السخاوى أيضا . عرف فيه التاريخ وما ألف فيه . وأسماء المؤرخين على حروف الهجاء .

١٩ - طبقات الشافعية ، مؤلفه الإسئوى المتوفى عام ٧٧٢ هـ . وهو في رجال المذهب الشافعى ^(١)

(١) هذا ما ذكره جورجى زيدان ج ٣ ص ١٧٠ - وذكر السيوطى في حسن المحاضرة « باب فقهاء الشافعية » ما يفهم منه أن محبى الدين بن حعفر الاسئوى المتوفى عام ٧٥٦ هـ له طبقات للشافعية وإن جمال الدين بن عبد الرحيم الاسئوى المتوفى عام ٧٧٧ هـ له طبقات للشافعية .

٢٠ — مختصر المائة السابعة : مؤلفه القائم علم الدين البرزالي المتوفى عام ٧٢٩ هـ وهو مرتب حسب الوفيات .

٢١ — درة الأسلاك في ملك الأتراك : مؤلفه بدر الدين بن حبيب الحلبي الدمشقي المتوفى عام ٧٧٩ هـ . وهو في تاريخ السلاطين المماليك المصرية ، ومرتب حسب السنين من سنة ٦٤٨ هـ إلى ٧٧٧ هـ . وفي أثناء ذلك أورد تراجم من مات من العلماء والأعيان في تلك الفترة .

٢٢ — نظم الجمان في طبقات أصحاب إمامنا النعمان : مؤلفه صارم الدين بن دقاق المصري المتوفى عام ٨٠٩ هـ . ثلاثة مجلدات الأول في مناقب أبي حنيفة .

٢٣ — كتاب المقفى : مؤلفه تقي الدين المقرئ المتوفى عام ٨٤٥ هـ ، وصف فيه عيشة الأمراء والمشاهير الذين أقاموا بمصر . مرتب ترتيباً أبجدياً أراد به ثمانين مجلداً فأخرج منها ١٦ مجلداً .

٢٤ — درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة : ومؤلفه المقرئ كذلك .

وهو معجم في ثلاثة مجلدات ، لتراجم الأعيان من معاصري المؤلف .

٢٥ — إمتاع الأسماع فيمن للنبي من الحفدة والأتباع : وهو للمقرئ كذلك في ستة مجلدات . في تاريخ أقرباء النبي وأصحابه كتبه وحدث به .

٢٦ — الذهب المسبوك في ذكر من حج من الملوك : مؤلفه المقرئ أيضاً . ذكر فيه ترجمة ٢٦ علماً منهم النبي عليه الصلاة والسلام ، والخلفاء الراشدون ومن بعدهم إلى أيام المؤلف . وهو خمسة أجزاء .

٢٧ — مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة : مؤلفه أبو المحاسن بن تغري بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ . وابتدأ فيه بالنبي عليه الصلاة والسلام ثم الخلفاء الراشدين ، وهكذا إلى القائم بأمر الله الفاطمي . وعقب على ذلك بذكر العبيدين ومن بعدهم إلى أيامه .

٢٨ — المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي : مؤلفه أبو المحاسن أيضاً . وهو كتنيديل للوافي بالوفيات تأليف الصفدي . وهو معجم لمشاهير الرجال من سنة

٦٥٠ هـ^(١) إلى آخر أيام المؤلف . وهو ثلاثة مجلدات كبيرة .

٢٩ — الإعلام في وفيات الأعلام : مؤلفه اسماعيل الذهبي المتوفى عام ٧٨٠ هـ .
وهو غير شمس الدين الذهبي

٣٠ — تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام : مؤلفه شمس الدين محمد الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وهو تاريخ كبير في نحو ١٢ مجلدا رتبته على السنين من أول الإسلام إلى سنة ٧٠٠ هـ . وجمع فيه بين الحوادث والوفيات .

٣١ — تهذيب تهذيب الكمال : مؤلفه شمس الدين محمد الذهبي أيضا . أما الكمال ، فهو معجم في ثلاثة مجلدات لرجال الحديث وضعه أبو محمد المقدسي الجماعلي . وقد وضع له جمال الدين أبو الحجاج المزني المتوفى عام ٧٤٢ هـ « تهذيبا » ، ووضع الذهبي « تهذيبا » لهذا التهذيب هو المذكور هنا وهو في خمسة مجلدات .

٣٢ — التجريد في أسماء الصحابة : وهو معجم كبير في أربعة مجلدات لشمس الدين الذهبي أيضا .

٣٣ — العبر في أخبار البشر من غير : وهو مختصر من تاريخ الإسلام . وكلاهما للذهبي شمس الدين أيضا .

٣٤ — طبقات الحفاظ : وهو لشمس الدين الذهبي أيضا ، واقتطفه من كتابه الكبير « تاريخ الإسلام » .

٣٥ — طبقات القراء : وهو لشمس الدين الذهبي كذلك . اقتطفه من كتابه الكبير أيضا « تاريخ الإسلام » .

٣٦ — تاريخ النبلاء : استخرجه الذهبي أيضا من تاريخه الكبير .

٣٧ — معجم الأشياخ : وهو لشمس الدين الذهبي أيضا ترجم فيه لنحو ١٣٠٠ من أشياخه على حروف الهجاء .

١ — ذكر في المخطوط التوفيقية ج ٩ ص ٦٩ ، ٧٠ في سياق ترجمة المقرئ : أن معجم « المنهل الصافي » لأبي المحاسن يتبدى بترجمة الرجال من سنة ٥٥٦ هـ .

٣٨ — المشتبه في الأسماء والأنساب : وهو لشمس الدين الذهبي أيضاً . وفيه تراجم لكثير من الرجال والنساء الذين تشابهت ألقاب أسمائهم أو كناههم أو أنسابهم . مرتب ترتيباً أبجدياً .

٣٩ — ميزان الاعتدال في نقد الرجال : تأليف شمس الدين الذهبي أيضاً . جمع فيه أسماء الرواة من كتب الحديث الستة وزاد عليهم . وهو في نحو ثلاثة مجلدات .

٤٠ — جامع المسانيد والسنن الهادي لأقدم السنن : مؤلفه أبو الفداء اسماعيل بن كثير المتوفى سنة ٧٤٨ هـ . ترجم فيه رواية الحديث نقلاً عن كتب الحديث الستة . مرتب على حروف المعجم .

٤١ — طبقات الشافعية . مؤلفه أبو بكر تقي الدين بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي المتوفى عام ٨٥١ هـ . وفيه تراجم مشاهير الشافعية إلى سنة ٨٤٠ هـ . مرتب حسب الطبقات في ٢٩ باباً . وكل باب مرتب حسب الحروف .

٤٢ — طبقات النحويين واللغويين : هناك ثلاثة كتب للسيوطي (٩١١ هـ) في طبقات النحاة مختلفة الحجم أصغرهما يسمى « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » . . . وقد ضاعت كبراهما .

٤٣ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : وهو للسيوطي كما قلنا . ترجم فيه لكثير من أهل اللغة وعلماء النحو . وهو منقطع النظر . ترجم فيه للمحمدين أولاً ثم للأحمديين ، ثم رتب البقية ترتيباً هجائياً من الهزرة إلى الياء .

٤٤ — تاريخ الخلفاء : وهو لجلال الدين السيوطي أيضاً . ترجم فيه للخلفاء من عهد أبي بكر إلى الأشرف قايتباي المتوفى سنة ٩٠١ هـ .

٤٥ — طبقات الحفاظ : وهو لجلال الدين السيوطي أيضاً . لخصه من طبقات الحفاظ لشمس الدين الذهبي .

٤٦ — طبقات المفسرين : وهو لجلال الدين السيوطي كذلك . وهو معجم أبجدي للمفسرين على اختلاف طبقاتهم .

- ٤٧ - الدرارى فى أبناء السرارى : وهو للسيوطى أيضاً . ذكر فيه أسماء أبناء الخلفاء المولودين من الجوارى .
- ٤٨ - المنجم فى المعجم : وهو للسيوطى أيضاً . ذكر فيه أعيان شيوخه الذين سمع منهم .
- ٤٩ - عيون الأنباء فى طبقات الأطباء : ومؤلفه موفق الدين بن أبى أصيبعة المتوفى عام ٦٦٨ هـ . وهو فريد فى بابيه ومن خيرة كتب التراجم .
- ٥٠ - طبقات الشافعية الكبرى : مؤلفها تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب السبكي المتوفى عام ٧٧١ هـ ، وهى ستة أجزاء أورد فيها رجال المذهب الشافعى مرتبين أولاً حسب قرونهم ، أى رجال كل مائة على حدة . ثم رتب رجال كل مائة ترتيباً أبجدياً .
- ٥١ - الكوكب المضى : مؤلفه شمس الدين السخاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ . ترجم فيه لسكثير من العلماء المعاصرين له .
- ٥٢ - تذكرة الحفاظ : مؤلفه شمس الدين الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وهو معجم كبير فى أربعة مجلدات .
- ٥٣ - الإعلام بتاريخ الإسلام : مؤلفه أبو بكر بن قاضى شعبة المتوفى عام ٨٥١ هـ وهو مختصر لتاريخ الذهبى « تاريخ الإسلام » .
- ٥٤ - المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الإمام أحمد : مؤلفه أبو اليمن العائى المتوفى عام ٩٢٧ هـ . وهو فى أصحاب ابن حنبل .
- ٥٥ - عمدة الطالب فى نسب آل أبى طالب : مؤلفه أحمد بن على بن عتبة المتوفى عام ٨٢٨ هـ أو عام ٨٢٥ هـ . وهو فى نسب العلويين وتراجمهم .
- ٥٦ - بحر الأنساب : مؤلفه ابن عتبة أيضاً . وهو فى نسب بنى هاشم .
- ٥٧ - الكاشف : مؤلفه شمس الدين الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وهو فى معرفة رجال الحديث .
- ٥٨ - إسعاف المبطل فى رجال الموطأ . مؤلفه السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ .

- ٥٩ - در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة : مؤلفه السيوطي أيضا .
- ٦٠ - نكتتُ الهَمَّيان ونسكتُ العميان : مؤلفه صلاح الدين الصفدي المتوفى عام ٧٦٤ هـ وهو في تراجم مشاهير العميان .
- ٦١ تهذيب الاسماء : مؤلفه محي الدين أبو زكريا يحيى النووي المتوفى عام ١٢٧٧ م وهو في تراجم مشاهير رجال الشافعية مرتباً على حروف المعجم ، ما عدا الذين اسمهم محمد فقد أوردتهم مستقلين أول الكتاب .
- ٦٢ - كتاب التبيين في طبقات المحدثين المتقدمين والمتأخرين : مؤلفه جمال الدين يوسف بن عبد الهادي المتوفى عام ٩١٠ هـ . وهو في سبع مجلدات .
- ٦٣ - الرياض الياضة في أعيان المائة التاسعة : مؤلفه جمال الدين يوسف بن عبد الهادي أيضا .
- ٦٤ - معجم الشيوخ : مؤلفه الإمام الحافظ وجيه الدين بن العماد المتوفى عام ٦٧٣ هـ وهو معجم شيوخه .
- ٦٥ - إسعاف المبطل برجال الموطن : لجلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ .
- ٦٦ - عين الإصابة في معرفة الصحابة : لجلال الدين السيوطي أيضاً .
- ٦٧ - معجم في رجال الصحيحين : مؤلفه الحافظ شهاب الدين أبو الحسين أحمد بن أحمد الهكاري المتوفى عام ٧٦٣ هـ .
- ٦٨ - طبقات الحنفية : مؤلفه عبد القادر بن محمد بن محمد بن أبي الوفاء القرشي المتوفى عام ٧٧٥ هـ .

٦٩ - طبقات الحنفية : مؤلفه بدر الدين محمود العيني المتوفى عام ٨٥٥ هـ .

س ١ ص ٢٢٤

٧٠ - تراجم العلماء : مؤلفه عبد الرحمن البسطامي الحنفى المتوفى عام ٨٥٨ هـ ، عاش
زمننا فى القاهرة .

ج ص ٢٤٩

٧١ - طبقات شعراء العرب : للسيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ .

س ١ ص ١٦٠

٧٢ - حاطب ليل وجارف سيل : للسيوطى كذلك ، وهو معجم شيوخه .

س ١ ص ١٦١

٧٣ - تاريخ النحاة : مؤلفه تاج الدين أبو محمد أحمد بن عبد القادر بن محمد بن
مكتوم المتوفى عام ٧٤٩ هـ

س ١ ص ٢٢٢

٧٤ - طبقات الفقهاء : مؤلفه جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الإسئوى المتوفى
عام ٧٧٧ هـ

س ١ ص ٢٠١

٧٥ - سجع المطوق : لجمال الدين بن نباتة المصرى الشاعر المتوفى عام ٧٦٨ هـ ،
وهو يشتمل على تراجم من قرظوا كتابه ، مطلع الفوائد ،

ج ص ١٢٢

٧٦ - زهرة الألباب فى الألقاب : لابن حجر العسقلانى المتوفى عام ٨٥٢ هـ ، وهو
فى ألقاب المحدثين مرتبة ترتيبا أبجديا .

ج ص ١٦٧

٧٧ - تهذيب الكمال : أو مختصر تهذيب الكمال ، لابن حجر أيضا ، اختصر فيه
كتاب ابن النجار ، فى معرفة المحدثين .

ج ص ١٦٧

٧٨ - مختصر أخبار النحويين لا بن القفطى : مؤلفه شمس الدين الذهبي المتوفى
عام ٧٤٨ هـ

ج ص ١٩١
٧٩ - مختصر درة الأسلاك للذهبي : اختصره تقي الدين بن قاضى شعبة المتوفى عام
٨٥١ هـ . وهو فى سير ملوك مصر الماليك من عام ٦٤٨ هـ إلى عام ٧٧٧ هـ .

ج ص ١٩٥
٨٠ - طبقات الشافعية الوسطى والصغرى لتاج الدين السبكي المتوفى عام ٧٧١ هـ
ج ص ٢٤٣

٨١ - غاية النهاية فى رجال القراءات أولى الرواية والدراية : لشمس الدين بن
الجزرى الدمشقى المتوفى عام ٨٣٣ هـ

ج ص ٢٤٧
٨٢ - تراجم الحنابلة : واضعه الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن رجب البغدادى
الدمشقى الحنبلى المتوفى عام ٧٩٥ هـ ، وهو تذييل لمن سبقه .

طن ٦٤
٨٣ - طبقات الأصحاب : واضعه برهان الدين ابراهيم بن مفلح الحنبلى المتوفى عام
٨٨٤ هـ ، وهو فى تراجم الحنابلة .

طن ٦٧ ، ج ١٨٣

٢ - كتب السيرة النبوية

ونعنى بها هنا الكتب التى تحدثت عن حياة النبي عليه السلام ، وما كان له من
وقائع وغزوات ، وما عرف له من مواقف ، وما جرى منه من حوادث ، وتتضمن
كثيرا من أقواله وأفعاله وأقوال بعض صحابته . والغالب أن مؤلفى هذه
الكتب هنا إنما جروا فى الميدان الذى جرى فيه أسلافهم وساروا على غبارهم
واستقوا من معينهم . وليس بينهم من مجدد مبتكر ، كتب السيرة على نمط حديث .
ومن مؤلفاتهم :

١ - عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير في غزوات سيد ربيعة ومضر ، وفي شمائله إذ هي أشرف شمائل البشر : مؤلفه فتح الدين اليعمرى الأندلسي المشهور بابن سيد الناس المتوفى عام ٧٣٤ هـ . وهو مجلدان مطولان في السيرة النبوية .

٢ - نور العيون في تلخيص سيرة الأمين والمأمون : ومؤلفه ابن سيد الناس أيضا وقد اختصره عن كتابه السابق « عيون الأثر » .

٣ - المواهب اللدنية في المنح المحمدية : مؤلفه شهاب الدين القسطلاني المتوفى عام ٩٢٣ هـ وبه بحوث عدة في نسب النبي عليه السلام وولادته ورضاعه وحروبته وأسمائه وأولاده وأزواجه إلى آخره . وقد طبع في ثمانية أجزاء .

المفصل ٢٦

٤ - مختصر سيرة النبي وثلاثة من الخلفاء الراشدين : مؤلفه برهان الدين بن عمر البقاعي المتوفى عام ٨٨٥ هـ .

٥ - المقتنى في ذكر فضائل المصطفى : وهو مختصر السيرة النبوية لمؤلفه ابن حبيب الحلبي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ .

٦ - النجم الثاقب في أشرف المناقب : مؤلفه ابن حبيب الحلبي الدمشقي أيضا . وهو مرتب على ثلاثين فصلا .

٧ - الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم : مؤلفه أبو عبد الله محمد بن طي المتوفى عام ٧٦٢ هـ .

٨ - الخبر عن البشر : مؤلفه تقي الدين المقرئ المتوفى عام ٨٤٥ هـ ، وهو ستة أجزاء في نسب القبائل ونسب النبي عليه السلام .

٩ - تصنيف في السيرة : مصنفه محب الدين أبو الوليد بن الشحنة المتوفى عام ٨١٧ هـ .

١٠ - مختصر السيرة النبوية . واضعه عز الدين بن جماعة السكناي المتوفى عام ٧٦٧ هـ .

١١ - بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب : منظومة شعرية في مدح النبي عليه السلام
لابن سيد الناس المتوفى عام ٧٣٤ هـ

ج ٣ ص ١٥٥

١٢ - الصارم المسلول على شاتم الرسول : لتقى الدين بن تيمية الحراني المتوفى
عام ٧٢٨ هـ .

ج ٣ ص ٢٤٥

١٣ - المنهج السوي والمنهل الروى ، في الطب النبوى : للجلال السيوطى :

ج ٣ ص ٢٣٣

١٤ - طب النبي عليه السلام ، : لمؤلفه شمس الدين الذهبي .

ج ٣ ص ١٩١

١٥ - الخصائص النبوية وهو في المعجزات وما اختص به النبي عليه السلام ،
للجلال السيوطى .

ج ٣ ص ٢٣٣

٣ - كتب تاريخ مصر والقاهرة

في مقدمة ما عني به مؤرخو هذا العصر ، الكتابة عن تاريخ مصر عامة ، وتاريخ
القاهرة خاصة . وذكر ما جرى فيهما من أحداث ، وعن حكمهما من سلاطين
وأمراء ، ومن عاش فيهما من أعلام مشاهير .

وقد ظهرت العناية بهذا الجانب التاريخي منذ بدأت مصر تسترد استقلالها
بعد الاحتلال العربى ، أى منذ العهد الطولونى . — وقبل ذلك قل أن تجد عن
مصر كلاما تاريخيا مستقلا . — وبعده أخذت العناية بها تتضح وتستقل ، ونشطت
هذه العناية فى العصور المتوالية حتى العصر الذى نحن بصددده .

فى هذا العصر : وهو عصر المماليك ، يمكن القول إن فسكرة الكتابة المستقلة
عن تاريخ مصر وقاهرتها ، قد اختمرت وتحورت إلى مشروعات تأليفية ضخمة ،
تفصل القول تفصيلا لا مجال للزيادة عليه . وبدأت على المؤرخين المصريين
أعراض هذا الحب الخالد الذى نشيره مصر دائما فى قلوب أبنائها ، بدوائرائها ،

حتى لكانهم آلوا على أنفسهم أن ينقذوا تاريخها من يد النسيان ، وأن يشبعوه شرحا وبيانا ، وأن يدونوا منه كل ما بطن أو ظهر ، وبأن أو استتر . ، وأصيبوا بما يعد تهيجا تأليفيا . . .

فكان من أثر ذلك وضع هذه الموسوعات التاريخية الضخمة الجامعة لتاريخ مصر وتاريخ قاهرته . واعتمد المؤرخون على ما دونه أسلافهم من حوادث هذه البلاد حتى أيامهم . وأشاروا إلى ذلك في مقدمات كتبهم . ولم يعنوا العناية كلها التي كان يبذلها أسلافهم في النص على السند والرواية في كل مناسبة ، فأعفوا كتبهم من ذلك كله في كثير من أخبارها .

ونذكر القارىء - في هذا المقام - بما كتبناه في صدر الكلام عن كتب التاريخ ، من أن هذه المؤلفات ذات طرافة وإمتاع يبدوان فيما كتبه واضعوها عن الأحداث والملوك والأعلام المعاصرة ، وفيما لذلك من صدق وصراحة ودقة ، ونقد . غير أننا نعترف أن روح النظام والتعليل والتعقيب المثمر بذكر النتائج ، وما إلى ذلك مما شاع في المؤلفات التاريخية الحديثة ، قليلة الوجود في مؤلفات هذا العصر .

ونذكر الآن بعض هذه المؤلفات فنقول :

- ١ - السلوك لمعرفة دول الملوك : مؤلفه المقرئ تقي الدين المتوفى عام ٨٤٥ هـ . وهو تاريخ مصر من عام ٥٧٧ هـ إلى سنة ٨٤٤ هـ ، مرتبا حسب السنين . وقد بدى في طبعه منذ أكثر من عام . - وهو أربعة أجزاء .
- ٢ - التبر المسبوك في ذيل السلوك : مؤلفه شمس الدين السخاوي المتوفى عام ٩٠٢ هـ . وهو يوميات في تاريخ مصر دون فيه مؤلفه حوادث عصره اليومية واعتبره تكملة لسلوك المقرئ .
- ٣ - جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور : مؤلفه إبراهيم بن وصيف شاه المصرى المتوفى أواخر القرن السابع ، وهو موجز في أخبار مصر من أقدم أزمانها إلى سنة ٦٨٨ هـ .

- ٤ — نزهة الأنام في تاريخ الإسلام : مؤلفه ابن دقاق المصرى المتوفى عام ٨٠٩ هـ وأكثره عن مصر إلى سنة ٧٧٩ هـ في ١٢ مجلدا ..
- ٥ — الجوهر الثمين في سير الخلفاء والسلاطين : مؤلفه ابن دقاق أيضا . وهو تاريخ مصر إلى سقوط السلطان برقوق .
- ٦ — عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط : مؤلفه تقي الدين المقرئ أيضا . وهو في تاريخ مصر من الفتح العربى إلى قبيل تأسيس الدولة الفاطمية .
- ٧ — اتعاظ الخلفاء بأخبار الخلفاء : مؤلفه تقي الدين المقرئ أيضا . وهو في تاريخ الدول الفاطمية بمصر .
- ٨ — النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : مؤلفه أبو المحاسن بن تغرى بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ . وهو جملة مجلدات في تاريخ مصر والقاهرة وأعلامهم ، وفيضان النيل من الفتح الإسلامى إلى سنة ٨٥٧ هـ ، ويعتبر من خير الكتب المؤلفة في تاريخ مصر . ويطلع الآن طبعا أنيقا .
- ٩ — منشأ اللطافة في ذكر من ولى الخلافة : مؤلفه أبو المحاسن أيضا . وهو تاريخ مصر من أقدم أزمانها حتى سنة ٧١٩ هـ
- ١٠ — حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور : مؤلفه أبو المحاسن أيضا . وجعله ذيلاً لكتاب سلوك المقرئ فبدأ به حيث انتهى المقرئ في سلوكه حتى سنة ٨٥٦ هـ . وبه تاريخ مصر في مدة ١٢ عاما مع كثير من التراجم .
- ١١ — التحفة الملوكة في الدولة التركية : مؤلفه بيبرس المنصورى ركن الدين الدوادار المتوفى عام ٧٢٥ هـ . وهو تاريخ السلاطين المماليك إلى عام ٧٢١ هـ
- ١٢ — العقود الدرية في الأمراء المصرية : مؤلفه محمد بن الحسن البنى المتوفى عام ٨٢٦ هـ . وهو إلى عصر برسباى .

- ١٣ - الدر الثمين المنظوم فيما ورد عن مصر وأعمالها بالخصوص والعموم : للخطيب الجوهري بن داود المتوفى عام ٨٩٠ هـ
- ١٤ - الإعلام فيمن ولى مصر في الإسلام : مؤلفه ابن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢ هـ في ثلاث مجلدات .
- ١٥ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة : مؤلفه جلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ وهو جزءان . وبه تراجم موجزة لكثير من الأعلام . ومختصرات عن حوادث مصر من قديم الزمان حتى عهد المؤلف .
- ١٦ - بدائع الزهور في وقائع الدهور : مؤلفه أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس المصري الحنفى المتوفى في نحو عام ٩٣٠ هـ . وهو أربعة أجزاء كبار في تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٩٢٨ هـ . وهو بديع ممتع . ونحن نعتبر هذا الرجل من رجال عصر الماليك لأنه لم يعيش في العصر العثماني إلا قرابة ثمانية أعوام .
- ١٧ - مفرج السكروب في أخبار بني أيوب : مؤلفه جمال الدين بن واصل المتوفى عام ٦٩٧ هـ . وهو تاريخ الدولة الأيوبية في ثلاث مجلدات .
- ١٨ - تاريخ مصر : مؤلفه الحافظ القطب الحلبي أبو علي عبد الكريم بن عبد النور الحنفى المتوفى عام ٧٣٥ هـ وهو في بضع عشرة مجلدا .
- ١٩ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : مؤلفه شهاب الدين عبد الرحمن أبو شامة المتوفى عام ٦٦٥ هـ ، وهو كتاب جليل في أخبار دولة صلاح الدين الأيوبي ودولة نور الدين بن زنكي . وإنما اعتبرناه من رجال هذا العصر لأنه عاش في مصر زمننا ، وتوفى بعد بدء هذا العصر بنحو سبع عشرة سنة .

٤ - كتب تاريخ المدن والأمصار الأخرى

نقصد بها تلك الكتب التي عنيت بذكر حوادث المدن أو وفياتها ، كل مدينة على حدة في مؤلف خاص . أو التي عنيت بوصف حوادث الأقطار الأخرى غير مصر . وقد وضعت كتب من هذا النوع في عصر المماليك لا بأس بها ، نذكر بعضها .

١ - أنباء الغمر بأبناء العمر : مؤلفه ابن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢ هـ . وهو تاريخ مصر والشام معاً من الناحية السياسية والأدبية من ولادة المؤلف حتى عام ٨٥٠ هـ . مرتباً حسب السنين . وبه ذكر الأحداث والوفيات .

٢ - بغية الطلب في تاريخ حلب : مؤلفه كمال الدين بن العديم المتوفى عام ٦٦٠ هـ . تقريباً . وفيه تراجم علمائها مرتبة ترتيباً أبجدياً في عشرة أجزاء . - ولم يتم تبويضه في حياته .

٣ - زبدة الحلب في تاريخ حلب : مؤلفه كمال الدين بن العديم كذلك ، وقد اختصره عن كتابه بغية الطلب . ورتبه على السنين حتى عام ٦٤١ هـ .

٤ - تاريخ مصر ودمشق : ومؤلفه علم الرين البرزالي المتوفى عام ٧٣٩ هـ . وهو تاريخهما حتى عام ٧٣٨ هـ . واعتبره تذييلاً لتاريخ دمشق لأبي شامة .

٥ - الدرة المضيئة في فضل مصر والاسكندرية : مؤلفه ابن دقاق المصري المتوفى عام ٨٠٩ هـ . وهو مقتطف من كتابه الانتصار بواسطة عقد الأمصار الآتي ذكره في باب تقويم البلدان .

٦ - الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب مملكة : مؤلفه علاء الدين بن خطيب الناصرية المتوفى عام ٨٤٣ هـ . وهو مختصر لكتاب ابن العديم . السابق ذكره . بغية الطلب . . ويبدو أنه تكملة أيضاً لهذا الكتاب .

٧ - الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب : مؤلفه محب الدين بن الشحنة المتوفى عام ٨٩٠ هـ .

- ٨ - مختصر تاريخ بغداد : مؤلفه شمس الدين الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ هـ . اختصره
عن كتاب ابن الديبشي ، مع زيادات .
- ٩ - تراجم ملوك الغرب : لتقى الدين المقرئى المتوفى عام ٨٤٥ هـ . فيه أخبار
أبو حمو ومن خلفه على تلبسان .
- ١٠ - الأنيس الجليل فى تاريخ القدس والخليل : مؤلفه أبو اليمن العليمى المتوفى
عام ٩٢٧ هـ . وهو فى وصف مدينتى القدس والخليل وذكر أخبارهما وآثارهما
وما جرى فيها من وقائع حربية .
- طن ٧٤ ، ج ١٨٣
- ١١ - الطرفة الغربية فى أخبار حضر موت العجيبة : لتقى الدين المقرئى المتوفى
عام ٨٤٥ هـ . وبها إرشاد للحاج بطريق مكة .
- ١٢ - الإعلام بفضائل الشام : مؤلفه برهان الدين الفزارى المتوفى عام ٧٢٩ هـ
وهو مختصر كتاب فضائل الشام ودمشق للربيعى المتوفى عام ٤٣٥ هـ .
- ١٣ - تاريخ الاسكندرية : للإمام الحافظ . وجيه الدين بن العماد المتوفى عام ٦٧٣ هـ
- س
- ١٤ - مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ، واضعه ابن منظور الإفريقى المتوفى
عام ٧١١ هـ .
- ج ص ١٤٤
- ١٥ - مختصر تاريخ بغداد للسمعانى : واضعه ابن منظور الإفريقى أيضا .
- ج ص ١٤٢
- ١٦ - الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام : لتقى الدين المقرئى

٥ - كتب التاريخ العام

ونعني بكتب التاريخ العام تلك التي تناولت تاريخ الدول الأخرى وأحداثها السياسية وذكر ملوكها إسلامية أو غير إسلامية ، عربية أو غير عربية ، سواء أكان فيها ذكر مصر أم لم يكن . وقد وضعت في ذلك كتب عدة .

غير أن الغالب عليها سرد الحوادث في السنين ، متتابعة كل سنة على حدة ، في جميع الأمصار ، فيصبح المطالع عليها بين مشرق ومغرب ، مضطرا إلى بذل مجهود حتى يجمع في ذهنه أحداث معينة وقعت في سنين متفرقة ، أو يجمع حوادث مصر ما في عدة سنين . ومهما يكن من شيء ، فبعضها موسوعات تاريخية واسعة النطاق من أخذ نفسه بتنظيم التاريخ حسب الطرق الحديثة ، يمدلجها في هذه الموسوعات مراحا طيبا ومرعى خصيبا . وإليك بعضها منها .

- ١ - وجيز الكلام في ذيل تاريخ دول الإسلام : مؤلفه شمس الدين السنجاوى المتوفى عام ٩٠٢ هـ . وهو تذييل على كتاب تاريخ دول الإسلام للذهبي الآتي ذكره
- ٢ - جبهة الأخبار في ملوك الأمصار : مؤلفه بدر الدين بن حبيب الحلبي الدمشقي المتوفى عام ٧٧٩ هـ . يشتمل على نبذ تاريخية موجزة مرتبة حسب العصور والدول ، عن الأنبياء واليهود والفرس واليونان والقبط والعرب والمسلمين والمغول وغيرهم .
- ٣ - البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر : لأبي المحاسن بن تغري بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ . وهو مطول في التاريخ مرتب بالسنين .
- ٤ - المجموع المبارك : لجرجيس المسكين بن العميد المتوفى عام ٦٧٢ هـ . وهو جزءان في التاريخ العام من بدء الخليقة إلى ظهور الإسلام في جزء . ومن ظهور الإسلام إلى سنة ٦٥٨ هـ ، في جزء ثان . وقد ذيل له ابن أبي الفضائل في النهج السديد .
- ٥ - كتاب التاريخ العام : ألفه أبو شكر بطرس بن الراهب القبطي المتوفى عام ٦٨١ هـ . وبدأ بذكر آدم إلى قضاة بني إسرائيل فلوك الروم إلى مجيء المسيح . وذكر سير البطارقة والخلفاء الراشدين ومن بعدهم إلى أيامه .

٦ — زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة : ألفه ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار المتوفى عام ٧٢٥ هـ . وهو تاريخ عام للدول الإسلامية من بدئها حتى عام ٧٢٤ هـ في أحد عشر مجلدا ، مرتب على السنين .

٧ — المختصر في أخبار البشر : ألفه السلطان الملك المؤيد إسماعيل المعروف بأبي الفداء المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وهو مشهور متداول بين أيدي محبي التاريخ العام منذ بدء الجاهلية ثم الإسلام حتى عام ٧٢٩ هـ . في أربعة أجزاء .

٨ — الدول الإسلامية : أو دول الإسلام لمؤلفه شمس الدين الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وهو مختصر في التاريخ العام للدول الإسلامية من الهجرة حتى عام ٧٤٠ هـ . ومرتب على أحرف الهجاء .

٩ — تمة المختصر في أخبار البشر : مؤلفه زين الدين عمر بن الوردي المتوفى عام ٧٤٩ هـ . وهو تكملة وتذييل لكتاب أبي الفداء السابق ذكره . كتب فيه التاريخ العام بإيجاز حتى سنة ٧٤٩ هـ . في جزئين .

١٠ — كنز الدرر وجامع الغرر : مؤلفه أبو بكر بن أيوب المتوفى في أواسط القرن الثامن . وهو في تسعة أجزاء تكلم فيه عن بدء الخلق والامم القديمة وسير ذالتي عليه السلام والخلفاء الراشدين والدولة الأموية فالعباسية ، وهكذا حتى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون . ورتب الحوادث حسب الأعوام .

١١ — درر التيجان ودرر تواريخ الأزمان : مؤلفه ابن أيوب أيضا ورتبه حسب السنين . وذكر فيه الخليفة في بدئها والجاهلية وشعراءها والسيرة النبوية والخلفاء وذكر فيضان النيل . وذلك حتى عام ٧١٠ هـ .

١٢ — البداية والنهاية : ألّفه إسماعيل أبو الفداء المعروف بابن كثير المتوفى عام ٧٧٤ هـ . وهو متّول في التاريخ العام يبلغ عشرة أجزاء . وفيه حديث طويل عن النبي عليه السلام وحياته .

١٣ — الاجتهاد في طلب الجهاد : ألفه ابن كثير أيضا ، وذكر فيه جانباً من الحروب الصليبية وحروب صلاح الدين .

- ١٤ - روض المناظر في علم الاوائل والاواخر : مؤلفه زين الدين بن الشحنة المتوفى عام ٧١٥ هـ . وهو مطول في التاريخ العام من بدء الخليقة حتى عام ٧٠٦ هـ .
- ١٥ - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان : مؤلفه بدر الدين العيني المتوفى عام ٨٧٥ هـ وهو تاريخ عام للخليقة من بدءها حتى سنة ٨٥٠ هـ . مرتب حسب العصور والامم . وهو في أكثر من عشرين مجلدا .
- ١٦ - تاريخ البدر في أوصاف أهل العصر : مؤلفه بدر الدين العيني أيضاً ، وهو تاريخ كبير مرتب حسب السنين منذ البدء إلى أيام مؤلفه .
- ١٧ - مختصر سير الاوائل والملوك ووسيلة العبد والمملوك : مؤلفه ابن بركات الحموي في أواخر القرن السابع . وهو في تاريخ الجاهلية والإسلام حتى الخليفة المهدي أي عام ٢٥٥ هـ
- ١٨ - روضة الأعيان في أخبار مشاهير الزمان : مؤلفه محمد بن أبي بكر الموصلی المعروف بابن حماد المتوفى عام ٨٥٠ هـ بدأ بسيرة النبي إلى الفاطميين ، وفيه تراجم كثيرة .
- ١٩ - تاريخ الدول والملوك : مؤلفه ناصر الدين بن الفرات المتوفى عام ٧٠٧ هـ . من الهجرة حتى سنة ٧٩٩ هـ
- ٢٠ - النجوم الزواهر في الاواخر : ألفه اللبودي الدمشقي من أهل القرن التاسع .
- ٢١ - بهجة السالك : مؤلفه نصر الدين الجعفري من أهل القرن التاسع . وهو في تاريخ الخلفاء والسلاطين والملوك من ظهور الإسلام إلى عام ٨٨٦ هـ .
- ٢٢ - نهج الطرائق والمناهج والسلوك إلى تواريخ الأنبياء والخلفاء والملوك : مؤلفه نصر الدين الجعفري أيضاً .
- ٢٣ - مخدرات القصور في تاريخ أهل العصور : لابن قطري المتوفى عام ٨٩٨ هـ وهو مختصر في التاريخ العام .
- ٢٤ - درر الأبرار في وصف الصفوة الأخيار : لأبي الفتح بن صدقة السرميني من أهل القرن التاسع فيه أخبار عن الصحابة والأئمة .

٢٥ - تاج المعارف وتاج الخلائف : مؤلفه أبو السعادات بن أبي الجود السلموني، من آدم إلى سلطنة قايتباي . وبه تراجم لقضاة مصر وأعيانها .

٢٦ - الجمان في أخبار الزمان : مؤلفه محمد الشطبي المغربي من أهل القرن التاسع . وهو تاريخ عام من أول الخليقة إلى عهد النبي عليه السلام ، ثم إلى أيام المؤلف وعهد خشقدم .

٢٧ - الدرر الماضية في تاريخ الدولة الإسلامية : مؤلفه تقي الدين المقرئ المتوفى عام ٨٤٥ هـ . وهو من مقتل عثمان إلى المستعصم آخر خلفاء بني العباس .

٢٨ - نزهة الرأي في التاريخ . مؤلفه أبو المحاسن بن تغري بردي المتوفى عام ٨٧٤ هـ . وهو مفصل في التاريخ مرتب على السنين والشهور والأيام في عدة مجلدات .
٢٩ - مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة : لأبي المحاسن كذلك . ذكر فيه الخلفاء والسلاطين .

٣٠ - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاشرهم من ذوى السلطان الأكبر : مؤلفه ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون المشهور المتوفى عام ٨٠٨ هـ وموضوعه واضح من عنوانه . ونحن نعتبر هذا الكتاب ومقدمته بخاصة من مفاخر التراث العربي ، وهو سبعة مجلدات . وقد عاش ابن خلدون زمنا طويلا في مصر ، كما سنفصله في ترجمته .

٣١ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان : مؤلفه أبو محمد عبد الله الياقبي المصري من رجال القرن الثامن الهجري . المتوفى عام ١٣٦٤ م وهو في التاريخ العام إلى سنة ١٣٤٩ م .

٣٢ - كتاب في التاريخ العام : مؤلفه العلامة عبد الرحمن بن محمد العليمي المتوفى في أوائل القرن العاشر . وهو في التاريخ العام من لدن سيدنا آدم إلى سنة ٨٩٦ هـ مرتبا حسب السنين .

٣٣ - الدرر في الحوادث والسير : لعبد الرحمن البساطامي الحنفي المتوفى عام ٨٥٨ هـ

وهو مختصر مرتب على السنين من لدن وفاة النبي عليه السلام إلى سنة ٧٠٠ هـ .
وقد عاش مؤلفه زمنا طويلا في القاهرة وتوفي بها .

ج ص ٢٤٩

٣٤ - كتاب في التاريخ العام : لمحب الدين أبي الوليد بن الشحنة المتوفى عام ٨١٨ هـ
تسكلم فيه من ابتداء خلق السموات والأرض حتى آخر عام ٧٠٦ هـ

٣٥ - النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد : مؤلفه ابن أبي الفضائل
القبلي المصري . وهو تذييل على كتاب المجموع المبارك للمكين بن العميد السابق
ذكره . وفي كتاب النهج السديد تراجم سلاطين مصر من لدن الظاهر بيبرس إلى
الناصر محمد بن قلاوون من عام ٦٥٨ هـ إلى عام ٧٤١ هـ

ج ص ١٨٥

٣٦ - العبر في أخبار البشر من غير : لشمس الدين الذهبي المتوفى عام ٧٤٨ هـ
وهو تاريخ عام في مجلدين مقتطف من كتابه الكبير « تاريخ الإسلام » وهو
مرتب حسب السنين ، وفيه أشهر الحوادث والوفيات من أول الهجرة حتى عام ٧٤٠ هـ

ج ص ١٨١

٣٧ - مختصر كتاب العبر للذهبي ، السابق ذكره : مؤلفه تقي الدين بن قاضي شعبة
المتوفى عام ٨٥١ هـ

٦ - كتب السير

وهي الكتب التي يستقل كل منها بالترجمة لأحد الأعلام ، سواء أكان
سلطانا أم غير سلطان . يكون الحديث فيها دأرا حول هذا الشخص .

ولعل السبب في كثرة ما ألف من هذا النوع تعدد الدول وكثرة السلاطين
فيها ، وانتماء كل سلطان إلى أسرة ، وتشعب الأسر المالكة وحسب السلاطين ومن
لف لفهم إلى إخلاد ذكرهم بتدوين سيرة حياتهم ، كما حاولوا إخلادها بطرق
أخرى . وبدهى أن ظهور كثير من الشخصيات البارزة في ميدان السياسة أو العلم
كان له أثره كذلك في نماء هذا الضرب من كتب التاريخ .

ومن بينها سير مستوعبة وافية ، وبعضها مكتوب بأسلوب أدبي بديع . وإليك بعضها منها .

١ - عجائب المقدور في أخبار تيمور : مؤلفه شهاب الدين أحمد بن محمد الدمشقي الرومي المعروف بابن عربشاه المتوفى عام ٨٤٥ هـ وهو في تاريخ تيمور لنك ملك التتار المشهور . مكتوب بعبارات أدبية مسجوعة في مجلد واحد

٢ - الألفاظ الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية : مؤلفه مهدي الدين ابن عبد الظاهر . وهو تاريخ مصر في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون . ألفه في أيامه مرتباً على السنين .

٣ - التأليف الظاهر في شيم الملك الظاهر : مؤلفه ابن عربشاه السابق الذكر . وهو جزءان في سيرة السلطان چقمق .

٤ - سبك النضاد وكسب المفاز ، ونثر الدرر ونظام الجواهر : كتبه عبد الله بن محمد بن عبد الله التركي الغزي ، في سيرة السيفي أقبای .

٥ - تاريخ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبنائه . مؤلفه شمس الدين الشجاعی . وهو جزءان .

٦ - الدر النضيد في مناقب الملك الظاهر أبي سعيد : مؤلفه محمد بن عقيل . وهو تاريخ السلطان خشقدم

٧ - الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية : مؤلفه محمد بن صرصره ، وهو تاريخ السلطان برقوق . كتب في نحو عام ٨٠٠ هـ

٨ - الدر الثمين في سيرة نور الدين زنكي : مؤلفه بدر الدين محمد بن الشهيد الدمشقي كتبه عام ٨٧٤ هـ .

٩ - إيضاح الظلم وبيان العدوان ، في تاريخ النابلسي الخارج الخوان : مؤلفه الحسن بن شهاب الدين أحمد المعروف بابن عربشاه مؤلف عجائب المقدور وهو تاريخ ابراهيم النابلسي المتغلب على دمشق في القرن التاسع والمستبد بها والظالم أهلها .

- ١٠ - ترجمة أحمد السيد البدوي : مؤلفه ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ .
١١ - محاسن المساعي في مناقب الأوزاعي : مؤلفه ابن حجر العسقلاني أيضاً وهو ترجمة الأوزاعي المحدث .
١٢ غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر : مؤلفه ابن حجر أيضاً وهو ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني (١) .

ج ٣ - ١٦٨

- ١٣ - الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر : مؤلفه شمس الدين السخاوي المتوفى عام ٩٠٢ هـ وهو ترجمة شيخه ابن حجر العسقلاني المحدث المؤرخ .
١٤ - تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه : مؤلفه ابن حبيب الحلبي الدمشقي المتوفى عام ٧٧٩ هـ . وهو في أخبار السلطان المنصور قلاوون وبنيه .
١٥ - القول المستظرف في سفر الملك الأشرف : مؤلفه أبو البقاء بن يحيى بن الجيعان المتوفى عام ٩٠٠ هـ . وهو وصف لسفر الملك الأشرف قايتباي عام ٨٨٢ هـ .
١٦ - مناقب الإمام الشافعي : مؤلفه ابن قاضي شهابية المتوفى عام ٨٥١ هـ .
١٧ - السيف المهند في سيرة الملك المؤيد : مؤلفه بدر الدين القيني المتوفى عام ٨٥٥ هـ .
١٨ - تزيين الممالك في مناقب مالك : مؤلفه السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ .
١٩ - المنهاج السوي في ترجمة النووي : مؤلفه السيوطي أيضاً .
٢٠ - ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري : مؤلفه المقرئ تقي الدين المتوفى عام ٨٤٥ هـ .
٢١ - تاريخ ومناقب مالك : مؤلفه عيسى بن مسعود أبو الروح الزواوي المتوفى عام ٧٤٣ هـ في تاريخ سيدنا مالك .
س

١ - عبد القادر الجيلاني أحد رجال الصوفية الحنبلية ويعتبر من الأولياء الصالحين والعلماء الراغبين : توفي عام ٥٦١ هـ وله ترجمة في فوات الوفيات ج ٢ وترجم له كذلك جميل الشطبي في طبقات الحنابلة .

٢٢ — لطائف المنن : مؤلفه تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري الشاذلي المتوفى عام ٧٠٩ هـ وهو في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن الشاذلي وبه بحوث صوفية .
ج ٣ ص ٢٤٨

٢٣ — ترجمة البلقيني : وهو للسيوطي كذلك .
س ١ ص ١٦١

٢٤ — تبيين الصحيفة في مناقب أبي حنيفة ، مؤلفه السيوطي أيضاً . ج ٣ ص ٢٣١

٢٥ — الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية ، في تاريخ الإمام الليث : مؤلفه ابن حجر العسقلاني .
٤

٢٦ — توالي التأسيس بمعالى ابن ادريس : في تاريخ الإمام الشافعي ، مؤلفه ابن حجر العسقلاني أيضاً .
٢

٢٧ — سيرة الملك المؤيد شيخ : كتبها شمس الدين محمد بن ناهض الفقاعي المتوفى عام ٨١٨ هـ .
(خزنة الادب لابن حجة ص ٨٠)

٧ - تاريخ الخطط والآثار^(١)

نقصد بذلك ، المؤلفات التي تحدثت عن البلاد والمدن والمواضع فوصفت بناءها وتاريخ هذا البناء وما اعتوره من زيادة أو نقص على مر العصور . فكلماها عبارة عن جغرافية تاريخية . وهو ممتع جداً يجد فيه المؤرخ الأثرى لذة لا يجدها في سواه .

وقد نشط مؤرخو الخطط في عصر المماليك نشاطاً محموداً ، وأكثر ما اهتموا به وبوصفه خطط مصر والقاهرة . وقد وجد من بينهم رجال هم مضرب الأمثال في تاريخ الخطط ، وعلى رأسهم المؤرخ القدير تقي الدين المقرئ صاحب الشهرة الذائعة في هذا المضمار .

١ — للأستاذ عبد الله عثمان كتاب مستقل في هذا الموضوع ، غير مستقل بعصر دون غيره .

وهي تتحدث عادة عن المدن وأنهارها ومبانيها الشهيرة وشوارعها ومساجدها ومدارسها وكنائسها ودياراتها وجبالها وجزائرها وبحيراتها وبركها وبساتينها وما إلى ذلك . وما تقلبت هذه الأشياء فيه من أحداث ، وما صاحبها من وقائع . ومن لطائفها أن يستطرد كاتبوها إلى ذكر الحوادث الأدبية يوردونها بمناسباتها عند الكلام عن أثر ما . ويذكرون ما صحب هذه الحوادث من فكاهات وأشعار ورسائل . ويترجمون عادة للأعلام الذين يرد ذكرهم في هذه المناسبات ولا سيما مشتمو هذه الخطط . فهي بذلك كتب تاريخ وتقويم وأدب واجتماع .

ومن كتاب المقرئى وغيره من كتب الخطط المؤلفة في عصر المماليك استقى على مبارك باشا مؤرخ الخطط التوفيقية في عصرنا الحديث أكثر معلوماته . - وإليك بعضاً منها :

١ - الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة : مؤلفها يحيى الدين بن عبد الظاهر المتوفى عام ٦٩٢ هـ . ويظهر أنها موسوعة نفيسة نقل عنها ابن فضل الله والمقرئى ولسكنها الآن مفقودة .

٢ - الانتصار بواسطة عقد الأمصار : مؤلفه ابن دقاق المصرى المتوفى عام ٨٠٩ هـ . وهو كتاب عظيم الأهمية في عشرة مجلدات . وصف المؤلف فيها الفسطاط وأسواقها وجوامعها ومدارسها وأبنتها وشوارعها . والاسكندرية وبعض قرى مصر . ونقل عنه كثيرون .

٣ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : مؤلفه تقي الدين المقرئى المتوفى عام ٨٤٥ هـ . ودو أربعة أجزاء في وصف الخطط المصرية . وبه تراجم عدة . واشتهر بالدقة والصدق وحسن العبارة . وهو عمدة كثيرين من الباحثين في تاريخ مصر .

٤ - جنى الأزهار من الروض المعطار : للمقرئى أيضاً . وصف به أقاليم عدة . ويقال إنه لمقرئى آخر غير تقي الدين .

٨ - كتب تاريخية أخرى في موضوعات شتى

كتبت في هذا العصر مؤلفات عدة في موضوعات تاريخية مختلفة رأينا إثباتها فيما يلي :

- ١ - نبذة العقود في أمور النقود : للمقرئى تقى الدين المتوفى عام ٨٤٥ هـ . وهو تاريخ للنقود عند الفرس والروم وعرب الجاهلية والإسلام . ونقود مصر .
- ٢ - المكاييل والموازين الشرعية : للمقرئى أيضاً . وهى رسالة فى المكاييل والموازين العربية وتطبيق الشرع عليها .
- ٣ - البيان والإعراب عما فى أرض مصر من الأعراب : للمقرئى أيضاً .
- ٤ - الإلمام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام : كتاب صغير للمقرئى أيضاً .
- ٥ - النزاع والتخاصم بين بنى أمية وهاشم : للمقرئى كذلك .
- ٦ - إزالة التعب والعناء فى معرفة حال العناء : للمقرئى أيضاً .
- ٧ - ذكر ما ورد فى بنى أمية وبنى العباس من الأقوال : للمقرئى أيضاً .
- ٨ - إغاثة الأمة بكشف الغمة : للمقرئى كذلك . وهو كتاب صغير طبع حديثاً ، وبه موضوعات كثيرة طريفة منها ذكر ما حل بمصر من غلاء ، والحوادث الهامة التى صحبت هذا . وكلام عن التعامل والنقد ، وفصل فى أقسام الناس وأصنافهم وفصل عن الأسعار زمن المؤلف . وهكذا .
- ٩ - ممالك عباد الصليب : مؤلفه شهاب الدين بن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وصف فيه ملك فرنسا وملك ألمانيا وأحوالهما السياسية والاجتماعية .
- ١٠ - نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب : مؤلفه شهاب الدين القلقشندى المتوفى عام ٨٢١ هـ ، صاحب صبح الأعشى . وهو معجم فى الأنساب رتب فيه أسماء القبائل والبطون على أحرف الهجاء . ج
- ١١ - قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان : مؤلفه شهاب الدين القلقشندى أيضاً . وهو فى أنساب عرب زمانه المقيمين بمصر .

تقويم البلدان وما يتصل به

عنى بعض علماء هذا العصر بالقيام برحلات في نواحي الأقطار المختلفة ، وتدوين ما يشاهدونه فيها أو يسمعون منه من بينها . وعنى البعض بوضع تقاويم تصف الأرض وأقطارها ، ومنهم من تكلم في طبقاتها ومنهم من تكلم عن التقويم البشرى وهكذا . وقصارى الكتاتين هنا الأخذ عن أسلافهم والاقتداء بهم والاقتباس منهم وللوقوف عند نظرياتهم . ولكن هذا لا يدعنا ألا نذكر لهم بالخير والشكر مؤلفاتهم الحافلة وموسوعاتهم الضخمة التي يربى بعضها على الثلاثين مجلدا . — وهو يدل على سعة الاطلاع والصبر على التأليف والرغبة الجدية في خدمة العلم . ولا ننسى لهم تلك المزية التي ذكرناها للمؤرخين عند الكلام على التاريخ . وذلك أن مزجوا التقويم بغيره من المواد المختلفة فتجد أحيانا تاريخا وأحيانا كلاما عن النبات أو الحيوان ، مثلا . ولكن هذا كله وإن أخذوا به واعتبروا من أجله مجتهدين للمطلع ومتعبين للقارىء الذي لا يحب الاستطراد ، معين فياض للباحث في إحدى هذه المواد يجد فيه مددا دائما مدد . ومهما يكن من شيء فإن لرجال هذا العصر بصفة عامة أو لبعضهم ، جهودا موفقة ونظريات جديدة محمودة لا يتسع للجري ورامها والتنقيب عنها هذا البحث الجامع لذلك نكتفي بأن نذكر هنا على سبيل المثال ما قيل في مقدمة الجزء الأول من مسالك الأبصار من أن الشيخ أبا الشفاء محمود بن أبي القاسم الأصفهاني المتوفى عام ٧٤٩ هـ . (١٣٤٨ م) نزىل مصر تلبأ بوجوده أمريكا قبل أن يكشفها خرسنوف كولمبس ، أو بالأحرى يفتح الطريق إلى كشفها بنحو قرن ونصف . هذا هو قوله بالنص :

« لا أمتنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا . منكشفها من الجهة الأخرى . وإذا لم أمتنع أن يكون منكشفها من تلك الجهة ، لا أمتنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى ،

هذا والآل نسوق جدولا بأسماء بعض المؤلفات في هذا الموضوع . فمنها .

- ١ — تقويم البلدان : مؤلفه أبو الفداء اسماعيل وهو الملك المؤيد صاحب حماة المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وهو في الجغرافيا العامة . وفيه تصحيح لبعض الأسماء والأنساب . وكلام عن الأطوال والعروض . ووصف للأرض والأقاليم ، وهكذا . وهو صاحب المختصر في التاريخ العام . ٢
- ٢ — نخبة الدهر في عجائب البر والبحر : مؤلفه شمس الدين الدمشقي المتوفى عام ٧٢٧ هـ . وهو يشتمل على العلم بهيئة الأرض وأقاليمها واختلاف القدماء في ذلك . وما فيها من بحار وجزر وجبال وطرق وآثار وعمائر وحيوان نادر ونبات غريب . وأحجار كريمة . ومساحات الأرض ومسافاتها . وكذلك أنساب الأمم واختلاف طبائعهم إلى آخره . وهو كتاب هام . ٣
- ٣ — التحفة السنية في أسماء البلدان المصرية : مؤلفه شرف الدين يحيى بن الجيعان كتبه عام ٧٧٧ هـ . وهو يشتمل على إحصاءات إدارية وخراجية عن الأرض في أيام الملك الأشرف شعبان . وبدأه بالوجه البحرى ٣
- ٤ — خريدة العجائب وفريدة الغرائب : مؤلفه سراج الدين بن الوردى المتوفى في نحو عام ٨٥٠ هـ . وبه رسم لدائرة الأرض ووصف لأقاليمها وما فيها من العجائب . ووصف لمدينتها . ٢
- ٥ — الفضائل في محاسن مصر والقاهرة : مؤلفه أبو حامد القدسي المصري المتوفى عام ٨٨٨ هـ . في وصف جغرافيتهما وتاريخيهما . ٣
- ٦ — التحفة الفاخرة في ذكر رسوم خطط القاهرة : مؤلفه أقبغا الخاصكي وزير السلطان قانصوه الغورى المتوفى عام ٩١٥ هـ . ٣
- ٧ — فضائل الشام : مؤلفه عماد الدين الحنفى المتوفى عام ٩٢٠ هـ . ٣
- ٨ — مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : مؤلفه شهاب الدين بن فضل الله العمرى المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وهو موسوعة ضخمة ، في أكثر من عشرين مجلدا . وهو عمدة بين المكاتب استمد منه كثيرون وخصوصا كتاب الخطوط .

وفيه موضوعات شتى منها وصف الأرض وسكانها وحيوانها . وأقطارها ومسالكها وما فيها من أنهار وجبال وجزر وبحار وبرك ومباني وديارات وكنائس إلى آخر ما هنالك . واستطرادات تاريخية وأدبية ممتعة جداً ، قليلة الوجود في سواه . وكثير من تراجم الأعلام وقد طبع منه حديثاً جزؤه الأول وسنعود إلى وصفه قريباً بعون الله .

م

٩ — نهاية الأرب في فنون الأدب : مؤلفه أبو العباس شهاب الدين المعروف بالنويري المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وهو في أكثر من ثلاثين مجلداً . وهو في فنون مختلفة . ويعتبر أحد السكتب الجامعة الهامة ذات المواد العامة . وهو عمدة بين السكتب كذلك ، اعتمد عليه كثير من المؤرخين والأدباء تديماً وحديثاً . وفيه فصول عن الأسماك والأجرام والسحاب والمطر والتنج والصواعق والنيازك والفصول . ووصف الأرض وما فيها من جبال وأنهار وبحار . ووصف لطبائع الإنسان والحيوان والأسماك والنبات . وغير ذلك . ويطبع الآن طبعة حديثة صدرت منها عدة أجزاء . وسنعود إلى وصفه بعون الله في ترجمة النويري .

م

١٠ — مباحج الفكر ومناهج العبر : مؤلفه جمال الدين محمد بن إبراهيم الوطواط المتوفى عام ٧١٨ هـ . وهو ضخيم في أربعة أجزاء تسكلم فيها عن علم الهيئة ووصف الأرض والحيوان والنبات .

ج

١١ — سرور النفس بمدارك الخواص الخمس : مؤلفه ابن منظور الإفريقي المتوفى عام ٧١١ هـ . وهو تهذيب لكتاب شرف الدين التيفاشي . وهو جزءان في وصف الليل والنهار والهلل والفجر والشمس والكواكب والمطر والبرق وغير ذلك . ممتزج بالروح الأدبية .

ج ٣ ص ١٤٢

١٢ — مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام : واضعه شهاب الدين أبو محمود أحمد القدسي المتوفى عام ٧٦٥ هـ .

ج ٣ ص ٢١٩

المؤلفات الدينية

سبق ان بينا تلك النزعة الدينية والروح الإسلامية التي سرت في أرجاء البلاد المصرية والشامية في عصر المماليك ، بعد حوادث التتار بيغداد ثم بالشام ، وبعد حوادث الحروب الصليبية ، وما أصاب السكتب والعلماء من جرائهما . فكانت هذه النزعة وتلك الروح ، بمثابة رد الفعل .

وقد غذاها سلاطين المماليك بظهورهم بمظهر حماة الإسلام ، وذاذة الدين ، لأنهم مسلمون ويحكمون شعباً أغليبيته من المسلمين . هذا فضلاً عن أن مصلحتهم السياسية تقتضيهم الظهور بهذا المظهر . فنحوا نحوا دينيا في معظم تصرفاتهم . فأقاموا الشعائر وقربوا علماء الدين ورفعوا منزلتهم ، وجالسوهم وناظروهم . واهتموا في مجالسهم بتحقيق المسائل الدينية . وأقاموا قضاة الشرع يحكمون بين الناس بما أنزل الله . واستشاروا القضاة والعلماء في كثير من معضلات الدولة — وعززوا نفوذهم في الشعب بإنشاء المساجد ودور التعليم ليتلى فيها كتاب الله ، ويقرأ حديث نبيه . وتدرس شريعته . كما أنشؤوا الربط والخوانق والزوايا للصوفية . ومن لف لفهم . وأوقفوا على ذلك كله الأوقاف . وأجروا المال والزاد على المنقطعين للعمل فيها . وعينوا في كل منها المشايخ والمدرسين والأئمة ، وصنعوا غير ذلك مما سبقت إليه الإشارة .

لهذا كله كان طبيعيا أن تنشط روح التأليف في النواحي الدينية وأن تثمر خير الثمار . — وكان مما زادها نشاطا منافسة محمودة بين علماء مصر والشام ، وطمع في المنافسة من علماء غيرهما من الأقطار الإسلامية في ميادين العلم والأدب . ولا سيما أن كثيرا من الوظائف السنية في الدولة كان يناط بها النابغون النابهون من هؤلاء المتنافسين ذوي الأثر العلى المعروف بين الناس .

إذن : عني أهل العلم والدين بنشره بمختلف الطرق ، وفي مقدمتها التأليف

فيه . والسكن إلى أية ناحية نحووا في تأليفهم ؟ لقد كان نشاطهم هذا بعد عهود سبق أن عاش فيها أئمة محققون مجتهدون اعتنق الناس مذاهبهم . ولا سيما الأئمة الأربعة . وانتشرت مذاهبهم في جميع بلاد المسلمين تقريبا . وكاد يختص كل مذهب ببلد منها . ثم قفى على آثارهم تلاميذهم وأتباعهم ، فلتشر كل مذهب لإمامه ، واحتج له ، ودال عليه ، وشرح مرامه ، حتى استتب لكل مذهب سلطاناه ، ورضى الناس عامة عن هذه المذاهب ، حتى وقر في النفس أنه لم يعد في الإمكان أفضل مما كان . وأنه لم تعد طاقة على النظر الجدي ، وأنه لم تعد قدرة على الاجتهاد . فسد بابه ، وأوصد وصرف بوابه . . .

كل هذا مع أن الدين سمح . ودائرة مرنة ، ودستور مطاط ، يتسع لكل قبيل وجيل ، ويصالح لكل زمان ومكان تستلبط منه باستمرار الأحكام الصائبة المناسبة لكل حادثة ومشكلة . ويضاف إليه كل قانون يحقق العدالة ويجمع عليه . لم يجد علماء هذا العصر أمام هذه النزعة العامة والفكرة السائدة خصوصا في ذلك الزمان الذي استعجم أهله ، سوى أن يتجهوا وجهة أخرى بها ييسر العلم وتضبط مسأله ، وتسرى الدقة في صوغ عباراته ، ويحكم التعبير عن معانيه . فكانت وسيلتهم إلى ذلك ، وضع المتون التي تجمع مسائله وتلم شعها في صعيد واحد . وهي موجزة العبارة جامعة الإشارة ، حتى يستطيع طالب العلم أن يستوعبها كلها بأيسر طريق وفي أقل زمن . — وغلا بعضهم في الإيجاز وفي ضغط العبارة في هذه المتون حتى بلغت حد الرموز ، فاستغلق بسبب ذلك على الطلاب فهمها ، واحتاج الأمر إلى شرحها . فوضعت لها كتب شارحة . مفسرة بل ووضعت كتب أخرى شارحة لهذه الكتب الشارحة وكذلك صنعوا في كتب متقدمهم ، فهي في أيديهم بين اختصار وشرح . وهكذا حتى عجز العصر بالمتون والشروح وشروح الشروح ، بل واختصار الشروح ، أو التحشية عليها وتهميشها والتنبيه على ما فات واضعها . فبقيت مسائل العلم عودا على بدء ، وبدءا على عود . . . وترجحت لذلك فيها أساليب الاحتجاج والاعتراض والتدليل والقياس ، وسرت الروح المنطقية في عباراتها .

وزيدت مصطلحاتها وتنوعت وتغايرت . وإن تمكن في مؤلفات مصر والشام أيسر منها في مؤلفات غيرها .

فشرهت بكل هذه القيود تلك المؤلفات الدسمة السمينية ، حتى صعب على العقول ازدرادها . . . بل وكان لها من العواقب السيئة من بعد ما لا نزال نشهد آثاره حتى اليوم . . . إذ صرفت عقول الطلاب عن التفكير والاستنباط والابتكار والتجديد إلى حفظ المتون واستظهارها ، وإلى مقارنة الشروح بعضها ببعض الآخر ، ونقد عبارتها وموازنة ألفاظ هذه بألفاظ تلك . . . وهكذا انحدر طالب العلم من جمع المعاني وفهمها وتوليدها ، إلى مناقشة اللفظ واستيعابه ، والتحليل المتعب في ترجيحه ، فوقف بذلك تقدمه وشح في مسأله الابتكار . مع أن حوادث الزمان اليوم كروج البحر الجارف يسوق الناس أمامه سوقا . . .

واستساغ العلماء إذ ذاك طعم الوقوف ، واستلنا هذا التراخي ، واكتفوا بمقاربة أسلافهم بعضهم البعض والتقايب في صفحات مؤلفات هؤلاء الأسلاف حتى يعثروا على ضالتهم فيها . وأصبح حسبهم من العلم أن عرفوا ما دُونَ منه ، واقتنوا في صدورهم ما ألف فيه . وحسبوا علما أن يقولوا : قال فلان وقال فلان . . . ولا سيما أن مستمعهم قد بهرهم منهم هذا النحو من العلم ، وأن الوظائف والتطاحن على بلوغها كان شغل الكثيرين منهم . . . لهذا كله وقف العلم ، أو كاد يقف حيث كان .

واسننا بذكر هذه الحقائق ، نريد أن نغمط حق هؤلاء العلماء أو نقتصص من قيمتهم أو نتجنى عليهم . فإن بعضهم كملت له أدوات الاجتهاد من ورع وزهد وتقوى . ومن عقل وحدة ذهن . ومن معرفة بالعربية وطرق أدائها وأسرار بلاغتها . ومن فهم دقيق لكتاب الله . وسعة علم بحديث الرسول والصحابة وسيرتهم . كل هذا مع دقة فهم للظروف الطارئة وملابساتها . وهكذا . وإن بعضهم بلغ فعلا حد الاجتهاد ، وله من الفتاوى والآراء ما يضعه في مصاف الأئمة المقتدى بهم . ومن الأمثلة لذلك : تقي الدين بن دقيق العيد القشيري المتوفى عام ٧٠٢ هـ . وهو شافعي

المذهب . قال عنه تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى : « لم ندرك أحدا من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس السبعمائة المشار إليه في الحديث المصطفوي النبوي صلى الله عليه وسلم ، وأنه أستاذ زمانه علما ودينا . »

والشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء المتوفى عام ٦٦٠ هـ ، الشافعي المذهب وأستاذ ابن دقيق العيد قال عنه الذهبي في العبر : « انتهت إليه معرفة المذهب مع الزهد والورع وبلغ رتبة الاجتهاد . » وقال عنه ابن كثير في تاريخه : « انتهت إليه رئاسة المذهب وقصد بالفتوى من سائر الآفاق . ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب بل اتسع نطاقه بما أدى إليه اجتهاده ، ^(١) »

والشيخ سراج الدين البلقيني المتوفى عام ٨٠٥ هـ والشافعي المذهب أيضا ، قال عنه السيوطي في حسن المحاضرة ما ملخصه : « مجتهد عصره وعالم المائة الثامنة . انتهت إليه رئاسة المذهب والإفتاء وبلغ رتبة الاجتهاد . وله ترجيحات في المذهب خلاف ما رجحه النووي . وله اختيارات خارجة عن المذهب . »

ولا نفس الشيخ ابن تيمية الحراني ، المتوفى عام ٧٢٨ هـ . وهو حنبلي المذهب وقد عرف عنه الاجتهاد والفتوى بما يراه ، ولو خالف في ذلك ما أجمع عليه معاصروه . ولقي من وراء ذلك كثيرا من العنت . وأهم ما اختلف فيه مع علماء عصره ، زيارة القبور ، والطلاق . وسنفصل ذلك في ترجمته إن شاء الله .

وتلميذه ابن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ ، وقد قال عنه صاحب الشذرات هو المجتهد المطلق . وله آراء اجتهادية كثيرة كأستاذه ابن تيمية .

ومنهم تقي الدين السبكي العالم المجتهد المتوفى عام ٧٥٦ هـ ، قيل عنه في حسن المحاضرة نقلا عن ابنه في الترشيح ما ملخصه : « قال الشيخ شهاب الدين بن النقيب جلست بمكة بين طائفة من العلماء . وقلنا : لو قدر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة

في هذا الزمان مجتهدا عارفا بمذاهبهم أجمعين، يركب لنفسه مذهبا من الأربعة بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة كلها، لازدان الزمان به، وانقاد الناس له . فاتفق رأينا على أن هذه الرتبة لا تعدو الشيخ تقي الدين السبكي ، ولا ينتهي لها سواء .
ومنهم ولده تاج الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية الكبرى . قال عنه السيوطي إنه كتب مرة عن نفسه ورقة إلى نائب الشام يقول فيها : « وأنا اليوم مجتهد الدنيا على الإطلاق » . قال السيوطي بعدها : « وهو مقبول فيما قال عن نفسه » . (١)

وأمامنا جلال الدين السيوطي ، فقد قال عن نفسه في ترجمته بكتابه حسن المحاضرة : « وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى . أقول تحدثا بنعمة الله تعالى لا لأنفخر ، وأى شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيله بالفخر ، وقد أزف الرحيل وبدا الشيب وذهب أطيب العمر » .

والسيوطي بما وصف نفسه جدير . فإن رجلا ألف الإتيقان في علوم القرآن ، والمزهر في علوم اللغة ، وحسن المحاضرة في التاريخ ، والأشباه والنظائر في النحو . والدر المنثور في التفسير المأثور في سبعة مجلدات . والجامع الكبير في الحديث وبلغت مؤلفاته نحو ستمائة كتاب ورسالة في علوم شتى ، لجديرا بأن تكون أدوات الاجتهاد قد كملت له ، وأن يعد من الأئمة المجتهدين .

على أننا لا نستطيع أن ندعى أن من بين هؤلاء الأعلام من بلغ به اجتهاده إلى استنباط مذهب جديد كامل تام الأحكام في جميع نواحي الحياة كما أرادتها الشريعة ، على نمط من مذاهب الأئمة المتقدمين الذين هم القدوة والإمام . — ولو كان اجتهاده في استنباط مذهبه بطريق التلقيق من المذاهب المعتمدة .

ومهما يكن من شيء . فإننا نحمد لرجال العصر وقف جهودهم على نشر العلم ، والمحافظة على الدين ، ووضع المؤلفات الممتعة في مسأله، فوصلوا الماضي بالحاضر .

وقد عقد السيوطي فصلاً في كتابه ، حسن المحاضرة ، خاصاً بذكر الأئمة
المجتهدين الذين كانوا بمصر وسنعود إليه في مناسبة أخرى
والآن نسوق شواهد من مؤلفاتهم على سبيل التمثيل ، فمنها :

كتب الشافعية في الفقه والأصول

١ — الروضة : مؤلفه محي الدين النووي المتوفى عام ٦٧٦ هـ وله أيضاً المجموع ،
في شرح المذهب للرافعي ، لم يتمه .

٢ — الفتاوى الموصلية : مؤلفه عز الدين بن عبد السلام المتوفى عام ٦٦١ هـ
وله أيضاً : مختصر النهاية . والقواعد الكبرى . والقواعد الصغرى .

٣ — منهاج الطالبين : مؤلفه أبو زكريا محيي الدين النووي المتوفى عام ٦٧٦ هـ
وهو مختصر كتاب المحرر تأليف عبد الكريم أبي القاسم القزويني المعروف
بالرافعي صاحب الشرح الكبير المسمى بالفتح العزيز والمتوفى عام ٦٢٣ هـ

٤ — تصحيح التلبيح : مؤلفه أبو زكريا محيي الدين النووي أيضاً . وهو
تهذيب للكتاب المذكور .

٥ — شرح العنوان : مؤلفه ابن دقيق العيد القشيري المتوفى عام ٧٠٢ هـ وهو
في أصول الفقه .

٦ — الكفاية : مؤلفه نجم الدين أحمد الأنصاري المعروف بابن الرفعة المتوفى
عام ٧١٠ هـ . وهو عشرون مجلداً .

٧ — المطلب : مؤلفه نجم الدين بن الرفعة أيضاً . وهو ستون مجلداً .

٨ — الابتهاج في شرح المنهاج : مؤلفه تقي الدين السبكي المتوفى عام ٥٧٥٦ هـ ، وهو شرح لمنهاج النووي وصل فيه إلى باب الطلاق .
س

٩ — تكملة المجموع في شرح المذهب : مؤلفه تقي الدين السبكي كذلك . وهو بناء على ما هذبه النووي ، وذلك من باب الربا إلى التفليس ، في خمسة مجلدات

١٠ — جمع الجوامع ومنع الموانع : مؤلفه تاج الدين السبكي المتوفى عام ٧٧١ هـ صاحب طبقات الشافعية الكبرى . وهذا الكتاب في أصول الفقه الشافعي ويعتبر من أمهات كتب هذا المذهب .
ج ٢ — ٢٤٢ ، س

١١ — توشيح التصحيح : مؤلفه تاج الدين السبكي أيضا . وهو في أصول الفقه الشافعي كذلك .
ج ٣ — ٢٤٣ ، س

١٢ — حواشي الروضة : مؤلفه سراج الدين البلقيني المتوفى عام ٨٠٥ هـ

١٣ — الأزهار الفضة في حواشي الروضة : مؤلفه جلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ . وله أيضا : مختصر الروضة .
س

١٤ — الوافي في شرح التنبية : لجلال الدين السيوطي . وله أيضا : الأشباه والنظائر في الفقه . واللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق . ورفع الخصاصة ، وهو شرح الخلاصة . والخلاصة نظم كتاب الروضة وكلها من تأليفه ، وله أيضا : الجامع في الفرائض ، وشرح الرحبية في الفرائض أيضا .
س

١٥ — شرح التنبية : لجلال الدين أحمد بن عبد الرحمن الدشناوي ، ٥٧٢٢ هـ ،

١٦ — شرح مشكل الوسيط : لظهير الدين جعفر بن يحيى التزمني ، ٦٨٢ هـ ،
س

١٧ — المغني : لسراج الدين بن موسى بن دقيق العيد ، ٦٨٥ هـ ، وهو أخو

الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد .
س

- ١٨ — شرح التنبيه : للكمال أحمد بن عيسى بن رضوان القليوبي ، ٧٢٥ هـ .
س
- ١٩ — جامع المختصرات : لكمال الدين أبي العباس أحمد الدشاقى ، ٧٥٧ هـ ،
وله أيضا شرحه .
س
- ٢٠ — مختصر الروضة : لمحبي الدين يحيى بن عبد الرحيم بن زكير الفرضى
س
٧١٨ هـ .
- ٢١ — تصحيح التحبير : لقطب الدين محمد بن عبد الصمد بن عبد القادر السباطى
س
٧٢٢ هـ .
- ٢٢ — مختصر الوسيط : لنور الدين إبراهيم بن هبة الله الإسناوى ، ٧٢١ هـ ، وله
أيضا : مختصر الوجيز ، وشرح المنتخب وهو فى الأصول .
س
- ٢٣ — الجمع والفرق والمسائل المهمة فى اختلاف الأئمة : لسراج الدين يونس بن
عبد المجيد الأرمنى ، ٧٢٥ هـ .
س
- ٢٤ — البحر المحيط فى شرح الوسيط : لنجم الدين أبي العباس أحمد القمولى
٧٢٧ هـ . وله أيضا كتاب الجواهر ، وهو تلخيص لكتاب « البحر » .
س
- ٢٥ — التنجيز فى تصحيح التعجيز : لفخر الدين محمد بن محمد المعروف بأبن
الصقلى ، ٧٢٧ هـ .
س
- ٢٦ — شرح التنبيه : لنجم الدين محمد بن عقيل بن الحسين المحاسنى ، ٧٢٩ هـ .
س
- ٢٧ — شرح التنبيه : لمجد الدين أبى بكر بن اسماعيل الزنكلونى ، ٧٤٠ هـ ،
وله أيضا : شرح المنهاج .
س
- ٢٨ — شرح التنبيه : لضياء الدين محمد بن إبراهيم المناوى ، ٧٦٥ هـ ، وله أيضا
شرح فرائض الوسيط .
س
- ٢٩ — شرح المنهاج : لجمال الدين عبد الرحيم بن الحسن بن على الإسئوى ، ٧٧٧ هـ ،
صاحب طبقات الشافعية . وله أيضا : شرح التنبيه ، كتب منه مجلداً .
س
وله الهداية إلى أوهام الكفاية .

٣٠ - مختصر الكفاية : لشهاب الدين بن النقيب أبي العباس أحمد بن لؤلؤ (٧٦٩ هـ) ، وله أيضا : كتاب نكت التلبيه . وتصحيح التهذيب .
س

٣١ - شرح الحاوي : لبهاء الدين حامد بن أحمد بن تقي الدين السبكي (٧٧٣ هـ) . وله أيضا تكملة شرح المنهاج . وهو تكملة لشرح أبيه تقي الدين ، على كتاب المنهاج .
س

٣٢ - الخادم على الرافعي . لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (٧٩٤ هـ) . وله أيضا . شرح المنهاج . وشرح التنبيه .
س

٣٣ - شرحان على المنهاج والتنبيه : لسراج الدين بن الملقن (٨٠٤ هـ) .
س

٣٤ - شرح المنهاج : لكمال الدين الدميري (٨٠٨ هـ) .
س

٣٥ - شرح المنهاج : لشهاب الدين بن العماد الاقفسي (٨٠٨ هـ) .
س

٣٦ - شرح مختصر المزني . لشرف الدين يحيى المناوي (٨٧١ هـ) .
س

٣٧ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام : لشهاب الدين بن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) ، في الفقه والحديث وله أيضا : مناسك الحج .
س

٣٨ - منية الباحث عن حكم دين الوارث : للثقي السبكي (٧٥٦ هـ) ، وله أيضا : السهم الصائب في قبض دين الغالب . والغيث المفرق في ميراث ابن المعتق وضرورة التقدير في تقويم الخنزير . والفتاوى جمعها ولده تاج الدين .
س

٣٩ - القواعد : لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي المتوفى عام ٧٩٤ هـ في الفقه . وله أيضا : البحر . وسلاسل الذهب في الأصول .
س

٤٠ - شرح منهاج البيضاوي . لسراج الدين بن الملقن المتوفى عام ٨٠٤ هـ ، في الأصول .
س ١ ص ٢٠٦

٤١ - منهج الطلاب . لزين الدين زكريا الأنصاري المتوفى عام ٩٢٦ هـ ، في الفقه .
س ١ ص ٢٠٦

وله أيضاً : تحفة الطلاب بشرح تنقيح اللباب ، وفتح الرحمن ، في الفقه والإصول .

٤٢ - قرائد الفوائد ومقاصد القواعد : لكمال الدين الادفوى صاحب الطالع

السعيد ، المتوفى عام ٧٤٨ هـ ، وهو في الفروض . ج ، س ١٦٠

٤٣ - شرح منهاج النووى . لكمال الدين الدميرى المتوفى عام ٨٠٨ هـ ، ج ، س ٢٥٤

٤٤ - نظم الحاوى . للملك المؤيد أبى الفداء اسماعيل صاحب حماة المتوفى عام ٧٣٢ هـ

ف ١ س ٢٠

٤٥ - قيام الليل ، وقيام رمضان ، والوتر . ثلاث كتب وضعها أبو عبد الله محمد

ابن نصر المروزى المتوفى عام ٢٩٤ هـ وقد اختصرها جميعاً تقي الدين المقرئ .

٤٦ - منظومة في الأصول : وضعها شمس الدين محمد البرماوى المتوفى عام ٨٣١ هـ

٤٧ - طرح التثريب في شرح التثريب : لزين الدين العراقى ، وولدهولى

الدين أبى زرعة ، ٨٠٦ هـ ، والتثريب هو « تقریب الاسانيد » لزين الدين العراقى .

كتب الحنفية في الفقه وأصوله

١ - شرح الجامع الكبير : لعلاء الدين على بن يلىان الفارسى المصرى المتوفى

عام ٧٣١ هـ .

٢ - شرح الهداية : لبرهان الدين بن على بن أحمد الواسطى المتوفى عام ٧٤٤ هـ س

٣ - شرح الجامع الكبير : لفخر الدين عثمان بن ابراهيم بن مصطفى الماردى

المشهور بابن التركمانى المتوفى عام ٧٣١ هـ س

٤ - شرح الهداية ^(١) : لتاج الدين بن نحر الدين الماردى المشهور بابن التركمانى -

توفى عام ٧٤٤ هـ . وله أيضاً شرح الجامع الكبير . س

(١) الهداية : من أهم كتب الحنفية ، وهو عبارة عن شرح المختصر اسمه « بداية المشتري »

والكتابان مما تأليف شيخ الاسلام برهان الدين أبى الحسن على المرفغانى المتوفى عام

١١٩٦ م ، وكتاب « البداية مأخوذ باختصار من كتاب « مختصر القدورى » المتوفى عام

١٠٣٧ م ، ومن كتاب « الجامع الصغير » للشيبانى المتوفى عام ٨٠٤ م . وجميع هؤلاء الرجال

من جلة علماء الحنفية . - المنتخب .

- ٥ - مختصر الهداية : لعلاء الدين بن فخر الدين المارديني المتوفى عام ٧٤٥ هـ .
س
- ٦ - شرح متن السكندر : لفخر الدين عثمان بن علي بن محجن البارع المشهور بالزليحي ، المتوفى عام ٧٤٣ هـ . ويسمى هذا الشرح : « تبين الحقائق على كثر الدقائق » .^(١)
س
- ٧ - شرح الهداية : مؤلفه أمير كاتب بن أمير عمر الإتقاني المتوفى عام ٧٥٨ هـ .
س
- ٨ - شرح الهداية : للسراج الهندي عمر بن اسحق بن أحمد الغزنوي المتوفى عام ٧٧٣ هـ .
س
- ٩ - التحرير : مؤلفه أحمد بن علي بن منصور بن شرف الدين أبو العباس الدمشقي المتوفى عام ٧٨٢ هـ . وهو مختصر كتاب المختار في الفقه . وله عليه تعليق .
س ٢٢٣
- ١٠ - شرح الهداية : لأكمل الدين محمد بن محمد بن محمود البارقي المتوفى عام ٧٨٦ هـ .
س
- ١١ - البناية في شرح الهداية . لبدر الدين محمود العيني المتوفى عام ٨٥٥ هـ وله أيضاً رمز الحقائق : وهو شرح متن السكندر للنسفي : وشرح المجموع . وله أيضاً « درر البحار » .
س
- ١٢ - شرح التحرير : مؤلفه ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيراشي السكندري المتوفى عام ٨٦١ هـ .
س
- ١٣ - شرح النقاية : مؤلفه تقي الدين أبو العباس أحمد الشُّمُني المتوفى عام ٨٧٢ هـ .
س
- ١٤ - فتح القدير . مؤلفه ابن الهمام السالف الذكر المتوفى عام ٨٦١ هـ . وهو شرح الهداية ، كتب فيه إلى باب الوكالة . وله أيضاً . زاد الفقير ، وهو في مسائل الصلاة .
س

(١) كتاب « كثر الدقائق » من أهم كتب الحنفية ، مؤلفه أبو البركات حافظ الدين النسفي المتوفى عام ٧١٠ هـ .
ج

كتب المالكية في الفقه وأصوله

- ١ - الذخيرة : للعلامة شهاب الدين أبي للعباس أحمد القرافي المتوفى عام ٥٦٨٤ هـ .
س
- ٢ - شرح مختصر ابن الحاجب : مؤلفه عيسى بن مسعود أبو الروح الزواوي المتوفى عام ٧٤٣ هـ . وله أيضاً شرح المدونة ^(١) والرد على ابن تيمية ، وهو خاص بمسألة الطلاق .
س
- ٣ - شرح مختصر ابن الحاجب : ^(٢) مؤلفه خليل بن اسحق الجندی المتوفى عام ٧٦٧ هـ ، وله أيضاً : « المختصر » وقد اشتهر به - وله أيضاً « مناسك الحج » .
ج ٣ ص ٢٤١ ، س
- ٤ - شرح مختصر ابن الحاجب : مؤلفه ناصر الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله الزبيرى الاسكندراني المتوفى عام ٨٠١ هـ .
س
- ٥ - الشامل : مؤلفه بهرام بن عبد الله بن عبد العزيز المتوفى عام ٨٠٥ هـ . وله أيضاً : شرح أصول ابن الحاجب .
س
- ٦ - شرح المختصر : مؤلفه بهرام بن عبد الله كذلك . والمختصر المذكور هو مؤلف خليل بن اسحق السابق ذكره .
س

كتب الحنابلة في الفقه وأصوله

- ١ - الرعاية الكبيرة : لنجم الدين أبي عبد الله أحمد بن حمدان الحراني المتوفى عام ٦٩٥ هـ .
س

١ - المدونة : من أهم كتب المالكية وهي آراء أبي عبد الله القاسم العنق المتوفى عام ٨٠٦ ميلادية . نقلها تلميذه أبو سعيد عبد السلام التتوخي المعروف بنحو المتوفى عام ٨٥٤ هـ .
٢٤٠ هـ - منتخب س ١٠٨

٢ - ابن الحاجب من أرفع علماء المالكية ، ألف المختصر في الأصول . والمختصر في الفقه . والسكافية في النحو . والشافية في الصرف والخط وغير ذلك . ومات بالاسكندرية عام ٦٤٦ هـ - حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٥ .

٢ — مختصر تهذيب السكال : لعلم الدين أبي بكر بن أبي المجد ماجد السعد الحنبلي المتوفى عام ٨٥٤ هـ .
س

٣ — الفتاوى المصرية : لتقى الدين بن تيمية الحراني المتوفى عام ٧٢٨ هـ ، وهو سبع مجلدات . ولابن تيمية مؤلفات أخرى منها : تحقيق الفرقان بين الطلاق والايمان . مجموعة من الرسائل في مسائل فقهية ، الدرة المضية . رسالة في معنى القياس . رسالة في حكم السماع والرقص . رسالة في الكلام على القصاص : مناسك الحج . خلاف الأئمة في العبادات . زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور . النية في العبادات . معارج الوصول ، وهو في أصول الدين وفروعه . شرح العمدة وهو في الفقه والأصول والكلام .
طن ، م

٤ — كتاب الكبائر : وهو مجلد ، ألفه شمس الدين بن القيم ، المتوفى عام ٧٥١ هـ . ولابن القيم مؤلفات أخرى ، منها : رفع اليدين في الصلاة . نكاح المحرم . إغمام هلال رمضان . زاد المعاد في حجب خير للعباد . وهو أربعة أجزاء في الفقه والتصوف . الطرق الجسكية في السياسة الشرعية ، وهو في « هل يصح الحكم بالفراصة والقرائن » ، إذا لم تتوفر الأدلة الشرعية ، وبه فوائد تاريخية واجتماعية .
طن . م . ج . س ٢٤٥

٥ — الفروع : مؤلفه شمس الدين بن مفلح المقدسي الصالحى المتوفى عام ٧٦٣ هـ . ولابن مفلح مؤلفات أخرى منها : كتاب في أصول الفقه . شرح المقنع لابن قدامة^(١) ، وهذا الشرح في ثلاثين مجلدا .
طن . م

١ — ابن قدامة هو الشيخ موفق الدين . وهو من رؤوس الحنابلة ، توفى عام ٦٢٠ هـ . وقد ترجمه الشطبي في طبقاته — والكتبي في فوائده ج ١ ص ٢٦٠ — وتعتبر مؤلفات ابن قدامة من أمهات كتب الحنابلة . وله كتاب : المتنوع ، وكتاب : الصدة . — وله أيضا كتاب المغنى في عشرة مجلدات ، وشرح فيه كتاب « المختصر » في فقه الحنابلة لأبي القاسم محمد بن الحسين الخرق المتوفى عام ٩٤٥ م — من المنتخب .

٦ - معنى ذوى الأفهام عن الكتب الكثيرة في الأحكام : لجمال الدين يوسف بن عبد الهادى المتوفى عام ٩١٠ هـ ، ويحتوى على مهمات مسائل الدين في المذاهب الأربعة .
طن

٧ - شرح المقنع : مؤلفه برهان الدين ابراهيم بن مفلح المتوفى عام ٨٨٤ هـ . وله أيضاً ، كتاب فى الأصول .
طن ٦٧

٨ - الإنصاف : وهو شرح آخر للمقنع : كتبه علاء الدين على بن سليمان السعدى المتوفى عام ٨٨٥ هـ ، وله أيضاً كتاب : التنقيح المشبع فى تحرير أحكام المقنع . وهو مختصر لكتابه ، الإنصاف ، المذكور ، وله أيضاً كتاب ، التحرير فى أصول الفقه .
طن ٦٨

تفسير القرآن الكريم وما يتصل به

لم يقصر علماء هذا العصر فى مضمار التفسير ، وكيف يكون التقصير ، والتفسير كان وما زال فى مقدمة علوم الدين ، وهم رجاله وحفظاته . ثم إن التفسير كان من بين المواد الدراسية المقررة . واشتهر بإلقاء دروس التفسير طائفة من العلماء جليلة ، لهذا نال التفسير نصيباً محموداً من عناية المؤلفين .

ومنهم من فسر القرآن كله ، ومنهم من فسر بعضاً منه . كما أن منهم من شرح وأسهب ، ومنهم من أوجز واقتضب ، ومنهم من اقتصر على الشرح بطريق ذكر المرادفات . ومنهم من خلط التفسير ببحوث أخرى . أو تكلم عما فى القرآن من الغريب أو المبهم ، أو المشكل . وهكذا . وبعضهم تحدث عن أسباب النزول ، وتكلم فى تاريخ القرآن . إلى غير ذلك .

وأفضل ما تصفحته من تفاسيرهم ، تلك التى امتزج فيها التفسير بالحديث وشرحه وبالفقه والتصوف والحديث عن العقائد . وتراءى لك خلاله دروس قيمة فى الأخلاق الإسلامية ، والتربية النفسية ، مع توضيح تام لروح الإسلام وسموه .

هذا إلى ضروب من الوعظ نافعة . وفي مقدمة رجال التفسير : ابن تيمية الحراني وتلميذه ابن القيم ، والجلال السيوطي ، والتقى السبكي والكافيجي والزركشي والانصارى والعلمي .

وإليك بعضا من مؤلفاتهم .

١ - تفسير القرآن : للعلامة ناصر الدين الجذامي الإسكندراني المعروف بابن المنير المتوفى عام ٦٨٣ هـ .
ف ١ ص ٩٢ ، س

٢ - الدر النظيم في تفسير القرآن العظيم : للعلامة تقي الدين السبكي المتوفى عام ٥٧٥٦ هـ .
س

٣ - الدر المنشور في التفسير المأثور : للجلال السيوطي . وله أيضا مؤلفات أخرى في التفسير منها . ترجمان القرآن . الاتقان في علوم القرآن . مفحات الأقران في مبهمات القرآن . المذهب ^(١) . فيما وقع في القرآن من المغرب . وقطف الأزهار ولباب ^(٢) النقول في أسباب النزول . تفسير الجلالين . ألف بعضه الجلال المجلي ثم أتمه السيوطي . التبحر . تناسق الدرر في تناسب السور . مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع . مجمع البحرين ومطلع البدرين . معترك الأقران في مشترك القرآن ^(٣) .

٤ - تفسير القرآن : لبهاء الدين هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل القفطي المتوفى عام ٦٩٧ هـ .
س ج

٥ - تفسير القرآن : لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي المتوفى عام ٦٩٤ هـ وصل فيه إلى سورة مريم .
س ١ ص ٢٠٦

٦ - تفسير القرآن : لعلم الدين صالح البلقيني بن سراج الدين ، وهو المتوفى عام ٨٦٨ هـ .
س

(١) المذهب : هكذا ذكره السيوطي في حسن محاضراته . وسماه جورجى زيدان : المذهب فيما وقع في القرآن من المغرب . «

(٢) الباب : هكذا ذكره السيوطي في حسن محاضراته . وسماه جورجى زيدان
العقول

(٣) للسيوطي كتب أخرى في التفسير كثيرة .

٧ - تفسير القرآن : لجمال الدين أبي عبد الله محمد البلخي بن الملقن المفسر العلامة السكبير المتوفى عام ٦٩٨ هـ . وهو كتاب ضخيم .
١ من - من ٢٢٠

٨ - تفسير سورة الإخلاص : للتمقي بن تيمية الخرائي . وله أيضاً تفاسير أخرى منها : تفسير سورة النور . تفسير المعوزتين ، فتوى في أن القرآن أنزل على سبعة أحرف . التبيان في أسباب نزول القرآن . العبودية وهي رسالة في تفسير قوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » . الاكليل في المتشابه والتأويل . تفسير البسملة . تفسير قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » . تفسير آية الكرسي . تفسير سورة المائدة . تفسير سورة يوسف . سورة القلم . بعض آي سورة البقرة . قوله تعالى « وإذا أخذ ربك من بنى آدم » . (٤)

ط ، م

٩ - أمثال القرآن : لشمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ . وله أيضاً رسائل كبيرة في التفسير ، منها : إيمان القرآن . تفسير المعوزتين . تفسير قوله تعالى : « ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً » . الكلام عن لفظ « غير » في قوله تعالى . « غير المغضوب عليهم » . (٥)

م

١٠ - المنة في تفسير قوله تعالى : لتؤمن بالله ولتنصرنه . لتقى الدين السبكي المتوفى عام ٧٥٦ هـ . وله أيضاً : الحكم والالانة في إعراب قوله تعالى « غير ناظرين إناه » . تفسير قوله تعالى « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات » .

س

١١ - إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب . لأثير الدين بن حيان المتوفى عام ٧٤٥ هـ . ج ، نكت الهيمان من ٢٨٠ ، ٢٠٠

١٢ - البحر المحيط : وهو لأثير الدين أبي حيان أيضاً . ج

١٣ - التيسير في علم التفسير : لمحيي الدين محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الكافيجي المتوفى عام ٨٧٩ هـ . وله أيضاً كتاب تفسير آيات متشابهات .

ج ٢٤٩ ، س ٢٦٤١

(٤) لابن تيمية رسائل أخرى في التفسير كثيرة .

(٥) هذه البحوث الثلاثة الأخيرة ضمن مجموعة لابن القيم في علوم شتى - راجع فهرس دار الكتب المصرية .

- ١٤ - تفسير القرآن : لشهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي السمين
المتوفى عام ٧٥٦ هـ .
س ١ ص ٢٥٧
- ١٥ - تفسير القرآن : مؤلفه عبد العزيز أحمد بن سعيد الديري المتوفى عام ٦٩٧ هـ
س ١ ص ١٩٧
- ١٦ - البرهان في علوم القرآن : لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي
المتوفى عام ٧٩٤ هـ
س ١ ص ٢٠٦
- ١٧ - شرح البسمة والحمدلة : لزين الدين زكريا الأنصاري ٩٢٦ هـ .
- ١٨ - تفسير القرآن : لعبد الواحد بن شرف الدين بن المنير المتوفى عام ٧٣٦ هـ
في عشر مجلدات .
س ١ ص ٢١٦
- ١٩ - تفسير القرآن : لأبي الفداء إسماعيل بن كثير المتوفى عام ٧٧٤ هـ
ج ١ ص ١٩٣
- ٢٠ - تفسير القرآن : للعلامة مجير الدين عبد الرحمن العليمي المتوفى عام ٩٢٧ هـ
طن ٧٣

الحديث ومصطلحه وشرحه ونقده

يمكن القول إن عصر الماليك من العصور الذهبية ، في تاريخ الحديث ومصطلحه
وشرجه ونقده . فقد تكاثر فيه الحفاظ ، وعنوا بالرواية عناية تامة ، على الرغم من انتشار
الخط وكثرة الخطاطين ، مما كان يكون له شأن في التقليل من العناية بالحفظ
والرواية .

ولكن علماء العصر ، كأنما وجدوا أنه لا بقاء لعلمهم في صدورهم ، ما لم تعاونه
ذخيرة من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام . فحفظوه كما حفظوا كتاب الله
واهتموا به أي اهتمام . واشتروا على رواته الحصول على الإجازة ، بالرواية من
عالم حافظ رواية مجاز من شيخه . والإجازات بمثابة شهادة دراسية ، يجتهد

الطالب في الحصول عليها من أستاذه ، بعد ملازمة له طويلة ، وحفظ الحديث ومعرفة رجاله . فيجيزه شيخه بعد تأكده من حفظه وروايته ومعرفة ، يجيزه برواية حديث عنه ، أو عدة من الأحاديث . وينضم بذلك الراوية الجديد إلى سلسلة رواة هذا الحديث أو تلك الأحاديث .

وسمى العناية بالحديث — كما أشرنا — سموا كبيرا . حتى كان قصارى كثير من طلاب العلم الحصول على الإجازات ليصيروا في زمرة « الحفاظ » . وكانت هذه العناية سببا في شحذ الهمة وتنبيه الحافظة والذاكرة ، أعنى قوة الحفظ والذكر حتى أصبح بعضهم مضرب المثل فيها . ويذكر في تاريخه وأوصافه أنه « سريع الاستحضار للأحاديث في مناسباتها ، وأن بعضهم يحفظ حديثا أو عدة أحاديث يجمع أسانيدها ورواياتها المتغايرة ، مع علم رجال كل سلسلة من سلاسل هذه الأسانيد من ناحية ضبط الأعلام والسكنى والنسبة ، وتاريخ كل علم منها ، وكل ما قيل فيه من ترجيح أو تعديل أو نحو ذلك . وقد أشرنا إلى شيء من هذا فيما سبق . فكان طبيعيا أن يكون لهذه العناية أثر بارز في ميدان التأليف . فانهضت العناية إلى وضع مؤلفات في الحديث ورجالها وفي مصطلحه ونقده وشرح كتبه واختصارها كذلك . فظفر العصر بجملة بارعة نافعة في هذه الأبواب ، وحسبك منها كتب الذهبي والعيني والسيوطي ، والقسطلاني ، والعسقلاني الذي قال السخاوي عن كتابه في شرح البخاري إن الأمة به وفدت دينها .

وقد عقد السيوطي بابا في حسن محاضراته ألم فيه بالحفاظ وسنشير إليه فيما بعد ونقتبس منه .

وقد نوهنا في كتب تاريخ الأعلام ببعض كتب رجال الحديث . وإليك عددا من كتب الحديث أو نقده ، مصطلحه وشرحه ، فمنها :

١ - الاقتراح : في المصطلح لتقى الدين بن دقيق العيد القشيري ، ٥٧٠٢ هـ ، وله أيضا كتاب « الإمام » ، وقد قال السيوطي عنه إنه لم يؤلف في الحديث كتاب أعظم .

٢ - شرح البخارى . للعلامة سراج الدين البلقينى ، ٨٠٥ هـ ، وله أيضا شرح الترمذى .

٣ - كشف المغطى فى شرح الموطا ، للجلال السيوطى . وله أيضا التوشيح على الجامع الصحيح . الديباج على صحيح مسلم بن . الحجاج . مرقاة الصعود إلى سنن أبى داود . شرح سنن ابن ماجه . نظم الدرر فى علم الأثر ، وشرحه المسمى : قطر الدرر . اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة . جمع الجوامع ويسمى الجامع الكبير . وغير ذلك

٤ - شرح سنن أبى داود : لسعد الدين أبى محمد مسعود بن أحمد العراقى المصرى الحنبلى المعروف بالحارثى ، ٧١١ هـ ،

٥ - شرح البخارى : مؤلفه القطب الحلبي أبو على بن عبد النور بن منير الحنفى ، ٧٣٥ هـ .

٦ - شرح الترمذى لفتح الدين بن سيد الناس ، ٧٣٤ هـ ، مؤلف السيرة النبوية . وقد أتم هذا الشرح الحافظ العراقى ، ٨٠٦ هـ ،

٧ - تخريج أحاديث الهداية وأحاديث الكشف : لجمال الدين الزيلعى ، ٧٦٢ هـ ، وهو أحد الحفاظ وقد أخذ عن نضر الدين الزيلعى شارح السكتز فى فقه الحنفية

٨ - تخريج أحاديث الرافعى . لعز الدين أبى عمر بن جماعة ، ٧٦٧ هـ ، وهو ابن قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة .

٩ - شرح البخارى : للحافظ مفلطاي بن قليج الحنفى ، ٧٦٢ هـ . وله أيضا : شرح سنن ابن ماجه .

١٠ - تخريج أحاديث الاحياء : للحافظ العراقى ، ٨٠٦ هـ ، والاحياء للغزالى .

١١ - فتح البارى بشرح البخارى : لشهاب الدين بن حر العسقلانى ، ٨٥٢ هـ ، ويقع هذا الكتاب فى عشرة أجزاء ضخام . وله مقدمة ثمينه هى ، هدى

السارى ، . ولا بن حجر مؤلفات أخرى منها : نخبة الفسك في مصطلح
أهل الأثر ، وهو في مصطلح الحديث . وقد شرجه المؤلف في كتابه
« شرح نخبة الفكر » ومن كتبه : الكاف الشاف في تخريج أحاديث السكشاف .
المعجم المفهرس ، رتب فيه الأحاديث ترتيباً أبجدياً مع حذف الأسانيد .
نزهة السامعين . نصب الراية . هداية الرواة . توالى التأسييس ، ذكر فيه
لأحاديث المروية عن طريق الشافعى .

٢٠٦ س ١ ج ١٦٦

١٢ - شرح البخارى : لبدر الدين الزركشى ، ٥٧٩٤ هـ . وله أيضاً : التنقيح .
تخريج أحاديث الرافعى .

٢٠٦ س ١

١٣ - شرح البخارى : لسراج الدين بن الملقن ، ٨٠٤ هـ .

١٤ - شرح مسلم : لعيسى بن مسعود أبى الروح الزواوى ، ٥٧٤٣ هـ .

١٥ - مختصر سنن البيهقى : لبرهان الدين بن على بن أحمد ، ٥٧٤٤ هـ .

١٦ - مختصر علوم الحديث لابن الصلاح : لفخر الدين عثمان بن ابراهيم الماردى
المعروف بابن التركمانى ، ٥٧٤٥ هـ .

٢٠٦ س ١

١٧ - تخريج أحاديث الهداية : لعبد القادر بن محمد بن أبى الوفاء القرشى ، ٥٧٧٥ هـ .

٢٢٢ س ١

١٨ - عمدة القارى في شرح البخارى : لبدر الدين العينى ، ٨٥٥ هـ .

٢٢٤ س ١ - ١٩٦ ج

١٩ - شرح حديث النزول : لتقى الدين بن تيمية الحرانى .

٢٠٦ س ١

٢٠ - إرشاد السارى إلى شرح البخارى : للشهاب أبى العباس القسطلانى ، ٩٢٣ هـ .

١٥٦ ج

٢١ - جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام : لشمس الدين بن القيم .
وفيه بحث عن جميع الأحاديث التى وردت فى الصلاة والسلام على النبى
الكريم . وله أيضاً شرح سنن أبى داود .

٢٠٦ س ١

- ٢٢ - رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : للحبي الدين النووى « ٦٧٦ هـ » .
وله أيضا : الأربعون حديثا . وشرح صحيح مسلم . م
- ٢٣ - فتح البارى فى شرح البخارى : للحافظ زين الدين بن رجب البغدادى
الحنبل « ٧٩٥ هـ » . وصل فيه إلى الجناز . وله أيضا شرح جامع الترمذى .
طن ٦٤
- ٢٤ - نظم علوم الحديث لابن الصلاح : ناظمه شهاب الدين الخوينى « ٦٩٣ هـ » .
س ١ من ٢٦٠
- ٢٥ - شرح البخارى : لبدر الدين الدمامينى « ٨٢٧ هـ » .
س ١ من ٢٥٨

التصرف والعقائد

من الطبيعى أن يزدهى التصوف ويكثر المتصوفون فى هذا العصر ، ويتردد
الحديث عن العقائد ، ويكثر الأخذ والرد فى مسائله ، وتظل بين إثبات ونفى ، وقبول
ورفض ، وتراخ وشد ، وهكذا . وتقع بسبب ذلك الحوادث أحيانا ، الحوادث
المفككة المسلمية ، أو الحوادث الآزمة القاسية .

أقول : إن هذا كان من الطبيعى ، لأن الروح السارية روح إسلامية ، غذاها
السلطين ، ورفع العلماء لواها ، وانقاد لها العامة . وأدى التطرف إلى إنشاء
الزوايا والربط والخوانق لإيواء الفقراء ، أى أهل الطريق الذين يزعمون التصوف
ويدعون القرب لله . ونحن طبعا لا ندرى مبلغ صدقهم ، فعلم ذلك عند علام
الغيوب ! وإمكن عددهم تكاثر وازداد ، وعجت القاهرة بصنوفهم . وامتلات بهم
المؤسسات المنشأة لهم خاصة ، بل وكانت تنشأ لهم المدارس أيضا لإلقاء وعظهم
للناس وإرشادهم ، وتجرى عليهم الأرزاق شتى مختلفة الأنواع كما بينا فيما سبق -
ولا شك أن ذلك من أهم ما أطمعهم فى السير فى طريقهم ، وشجعتهم إلى التشبث
بمكائهم المكتسبة .

والمصوفية هم أهل الباطن ، يدعون الصلة والكشف ، ويحبون أن يعبروا عما يقع لنفوسهم من الرؤية ، فلا تسعفهم اللغة ، ولا تجودهم الفاظها ، ويضيق نطاق عباراتها عن أن تحمل معانيهم ، فيضطرون إلى التجوز في التعبير ، والانتقال بالألفاظ والعبارات من معانيها الحقيقية إلى معانيهم هم التي تجول بخواطيرهم . وقد تسكون كنيائاتهم خفية واستعاراتهم بعيدة العلاقة . وقد لا يحسنون هذا الانتقال ، فيقع بسبب ذلك الاضطراب في حديثهم ، والارتباك في كلامهم ، ويستشعر منه أهل اللغة ، وذوو الذوق الأدبي ، وأهل الظاهر من العلماء ، شذوذاً وبعداً عن الحقيقة ، وتلبيساً وخطأ ، واضطراباً في الذوق ، وإيهاماً ، وأخيراً يستشعرون منهم خلافاً لصريح الكتاب والسنة وظاهر الدين . فيقع بسبب ذلك الحوادث التي أشرنا إليها ، والمحاجات والردود والمناظرات ، لذلك ترى شدة ارتباط علم الكلام بحديث التصوف .

على أن عامة المصريين ، كانوا ولا يزالون يعتقدون في أهل الطريق ، قد يكون من بينهم من بلغ مرتبة الولاية - وإن كنا لا نستطيع أن نشير إليه ، ولا يستطيع غيرنا أيضاً أن يشير إليه - إلا أنهم لا يخلو أمرهم من أن يكون بينهم الرجل الصالح الجدير بهذه المرتبة .

وقد اشتهر كثير من الأسياف في هذا العصر ، من أهل التصوف الرسميين وغيرهم بكرامات وأحوال كشف متعددة . عرفوا بها وروتها عنهم كتب التاريخ . ولا غرابة ، فقد كان بعض السلاطين والأمراء يعتقدون في بعض هؤلاء اعتقاداً راسخاً ، أنهم أولياء ، وأنهم إلى الله مقربون ، وأنهم من الممكن أن يستشفعوا بهم إلى الله .

وعلى القارئ الكريم ، أن يعود إلى الجزء الأول من كتابنا هذا ، ويتصفح الفصل الخاص بالقصص والنوادر ، يجد من بينها ما يدعم ما ذكرناه هنا . ومنها : حكاية الشيخ أبي العباس الشافعي الدهموري ، الذي قال إنه لا يحجبه عن أصحابه

التراب . فطلب منه الشيخ تاج الدين الفاكهاني ، طلبات عند قبره ، فتحققت ...
ومنها حكاية انشقاق العلماء بسبب عقيدتهم في عمر بن الفارض الشاعر
المتصوف المشهور .

ومنها حكاية السلطان قايتباي وتقييله رجل الشيخ الدشوطي .
ومنها حكاية طومان باي آخر سلاطين مصر في العصر المملوكي ، وعدم قبوله السلطنة
إلا بعد أن ذهب مع الأمراء إلى الشيخ أبي السعود الجارحي ، أحد المتصوفة
بكوم الجارح ...

ولانس أن بجوار الصالحين منهم قومًا زائفين ، يتجرون بالتصوف ، ويتكسبون
بدعوى الصلاح . وتصدر منهم تحت الستار شرور كثيرة . وهناك في باب القصص
بالجزء الأول ، قصة الشيخ سنطباي المتصوف الذي كان يزيف الدراهم والدنانير
في عهد السلطان الغوري .

ومهما يكن من أمر ، فإن لصلحاء هذه الطائفة ، ومن نهج منهم منهج العلم ، أثرا
محمودا في تقويم الناس ، بالوعظ والقص ونحوه ، وبالقدوة الطيبة .
وقد عقد السيوطي في حسن محاضراته ، فصلا ، ترجم فيه لعدد من الصوفية ،
منوها ببعض مآثرهم .

وقد وضع بعض علماء العصر ، كتبًا في التصوف ، وفي العقائد ، هي من أفضل
ما تخلفه حركة كحركة الصوفية . ويبدو لنا أن كثيرا من أهل هذا العصر ، ومن
عامته ، شغلت أذهانهم ببعض المذاهب في العقائد . ينظرون فيها ، ويوازنون بينها
وينقدونها ، ويوجهونها وينقادون لها ، أو يردون عليها ويتعصبون ضدها . وذلك
كذهب الأشاعرة والصفاتية ، والجهمية والمعتزلة ، وغير ذلك . فكان هذا
مثارا لعلماء الدين ، ودافعا لهم إلى وضع رسائل في هذه الموضوعات ، يفصح كل
منهم فيها عن حقيقة عقيدته ، ويدلل على مبلغ صحتها ، ويزيف ما عداها ، ويرد على
الخارجين عليها ، والمنحرفين عنها . ولذلك أثره الدولة وطوائفها وجمعهم أو تفريقهم .

وكثيرا ما ترى مؤلفاتهم مزيجاً من العقائد والأخلاق والتفسير والحديث والفقه والأخبار ، ونحو ذلك مما يدفع إليه الاستشهاد والاستطراد .
وننوه ببعض هذه المؤلفات منها .

١ — الحكم العطائية : لتاج الدين بن عطاء الله الاسكندرى الشاذلى ، ٥٧٠٩ هـ ،

ج ٢٤٨

٢ — الفوائح المسكية في الفوائح المسكية : لعبد الرحمن البسطامى الحنفى ، ٨٥٨ هـ ،

وهو فى علوم عدة . وقد عاش مؤلفه فى القاهرة زمنا .

ج ٢٤٩

٣ — شرح العمدة : لتقى الدين بن دقيق العيد القشيرى ، ٥٧٠٢ هـ ، وكتاب

العمدة يسمى ، عمدة عقيدة أهل السنة والجماعة ، للحافظ النسفى ،

فى علم الكلام .

س ١ ص ١٤٣

٤ — تأييد الحقيقة العلية وتشديد الطريقة الشاذلية : للجلال السيوطى . وله أيضاً

كتب أخرى منها : تشييد الأركان فى ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

ودرج المعالى فى نصرة الغزالى . والخبر الدال على وجود القطب والأوتاد

والنجباء والأبدال . والمعانى الدقيقة فى إدراك الحقيقة .

س ١ ص ١٦٠

٥ — شرح العمدة : لسراج الدين بن الملقن ، ٨٠٤ هـ .

س ١ ص ٢٠٦

٦ — شرح العمدة . لشمس الدين البرماوى ، ٨٣١ هـ ،

س ١ ص ٢٠٧

٧ — شرح العمدة : لتاج الدين الفسكهانى ، ٨٣٤ هـ ،

س ١ ص ٢١٦

٨ — الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : لتقى الدين بن تيمية الحرانى

، ٧٢٨ هـ ، وله كتب أخرى منها : التحفة العراقية فى الأعمال القلبية .

الفرقان بين الحق والباطل . رسالة فى القضاء والقدر . الدين والدنيا .

الواسطة بين الخلق والحق . والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، فى أربعة

أجزاء. إثبات المعاد والرد على ابن سينا. تقارض العقل والنقل. ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً، وفيه حديث عن المعجزات والكرامات. منهاج السنة النبوية في نقض الشيعة القدرية. الإيمان. منهاج الاستقامة. الرد على الفلاسفة
ف ١ ص ٥٤ - ج ص ٢٤٥، ٢٤٦ - ٢

٩ - مدارج السالكين : لشمس الدين بن القيم « ٧٥١ هـ ». وهو كتاب كبير في شرح كتاب « منازل السائرين »، للشيخ أبي اسماعيل الهروي المتوفى عام ٤٨١ هـ. — ولا بن القيم كتب أخرى منها : الفوائد في التصوف والأخلاق وبه فصول عن البعث والجنة والنار وغيرهما. وكتاب مفتاح دار السعادة وبه فصول في حكم المخلوقات ودعوى إلى الإيمان وحسن العبادة وردود على الفلاسفة. وشفاء الغليل في مسائل القضاء والقدر والحكم والتعليل. وكتاب اجتماع الجيوش الإسلامية لغزو المرتجة والجهمية.

ج ص ٢٤٦، ٢
١٠ - البيان المفيد في الفرق بين التوحيد والتلحيد : لتقي الدين المقرئ « ٨٤٥ هـ » وله أيضاً : تجريد التوحيد.

القرارات

إن العناية التي وجهت إلى علوم القرآن الكريم، وما يتصل به، دعت القوم إلى أن يعنوا كذلك، بطرق قراءته وحسن أدائه، وتأثر رسمه. ولم يخرجوا فيما صنعوا عما رسم القدماء.

ومن أهم الدعائم التي استند إليها علم القراءات بمصر، ما نظم الشاطبي المشهور المتوفى عام ٥٩٠ هـ، لقد أصبحت منظوماته متنا، يتناولها الشراح بالشرح. وللشاطبي قصيدتان في القراءات ورسم المصحف. وهو من جالية الأندلس بمصر، وفد إليها واشتغل بالتدريس فيها، وبذلك أصبح للأندلس الفضل في نشر هذا العلم بالشرق، كما لها الفضل كذلك في اشتغال أهلها بعلوم النحو والصرف.

وكثر علماء فن القراءات بمصر، حتى عقد لهم السيوطي فصلاً في حسن محاضراته ذكر فيه النابهين منهم . وأكب كثير منهم على تدريسه بدور التعليم ، ومنحوا لطلابهم النابهين فيه ، الإجازة ، بالرواية ، على نظام إجازات الحديث وغيره من العلوم .

وأكب بعضهم أيضاً على التأليف فيه ، وتوضيح مسائله ، ودارت هذه المؤلفات في أغلب أمرها على شرح الشاطبية كما نوهنا ، أو النظم على غرارها . وكتب بعضهم في تاريخ أعلامه . ومن كتب هذا الفن :

١ — كتاب القراءات : لمعين الدين عبد الله بن محمد بن عبد الله أبي بكر النكراوى الاسكندراني المتوفى في عام ٦٨٣ هـ :

س ١ ص ٢٣٩

٢ — قصيدة في القراءات : لنور الدين علي بن محمد بن الناصح المقرئ « ٨٠١ هـ ،

س ١ ص ٢٤٢

٣ — شرح الشاطبية : لشهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي السمين

س ١ ص ٢٥٧

« ٧٥٦ هـ »

٤ — شرح الشاطبية : لجلال الدين السيوطي « ٩١١ هـ ،

س ١ ص ١٥٨

٥ — المقصد لتلخيص ما في المرشد : لزين الدين زكريا الأنصارى « ٩٢٦ هـ ،

وله أيضاً كتاب « الدقائق المحكمة » وهو في شرح المقدمة الجزرية .

٢

٦ — المقدمة الجزرية : وهى منظومة في التجويد وضعها شمس الدين أبو الخير

محمد بن الجزرى الدمشقي القرشي المتوفى عام ٨٣٣ هـ . وله أيضاً كتاب

« النشر في القراءات العشر » . وله أيضاً « غاية النهاية في رجال القراءات » .

ج ص ٢٤٧

٧ — شرح الشاطبية : لشهاب الدين أبي شامة « ٦٦٥ هـ ،

ج ص ٦٤ ، ف ١ ص ٣٢٢

٨ - شرح الشاطبية : لشهاب الدين القسطلاني (٨٩٢٣ هـ)

المفصل من ٢٦٠

مؤلفات العربية

بنفس الروح التي أثارت الجدل في نفوس علماء الدين ، ثار الجدل في نفوس علماء العربية بجميع فنونها . ونبغ فيها علماء أجلاء ، منهم من يعتبر إماما في فنه ، وقُدوة في مادته .

والعربية كانت - ولا تزال - وستبقى - أهم الأدوات لفهم الدين وتوضيح مسائله ، بينها من الوشائج ما لا تستطيع الأيام فصمه .

ولقد كان الاشتغال بها وفنونها ، منذ صدر الإسلام ، وليدا للعناية بالدين والاشتغال بعلومه . وهذا هو نفس ما حدث في العصر المملوكي . إذ اهتم بها العلماء اهتماما دعا إليه انصراف العناية إلى إحياء علوم الدين .

غير أن ولوع أهل العصر بإحياء علوم الدين ، جعل اللغة وفنونها في المرتبة الثانية بالنسبة إليها . ومن ثم ، لم تكن لعلماء اللغة تلك المنازل المرموقة التي سما إليها علماء الدين . لذلك لم يكن غريبا أن يحرص العلماء على أن ينبغوا أولا في علوم الشريعة ، ثم يفيضوا إلى اللغة وفنونها فيتعهدوها بالعناية .

على أن هناك بعضاً من العلماء ، غلب عليه الاشتغال باللغة وفنونها ، لرغبة فيها ، وولوع بها ، فأجاد وأفاد ، وسجل لنفسه بما ألفه ودونه من مسائلها ، سجلا خالدا

كتب النحو والصرف

ولعل النحو والصرف في مقدمة فنون العربية ، التي حظيت من العناية بنصيب أوفر . فقد وضعت فيهما أسفار قيمة ، وعُرف بهما رجال أفذاذ .

ونحن لا ننكر أن نحوي هذا العصر ، لم يأتوا بجديد ممتع ، ولا بمبتكر رائع ،

وقصارى جهودهم بذلت في توضيح مسائل النحو ، وتوجيه قواعده ، والاستدلال لها ، مع عرض الآراء المتناقضة ، أحيانا ، والموازنة بينها وترجيح أحدها .

ونحاه بعضهم إلى وضع المتن ، ثم إلى شرحها ، ثم إلى شرح هذا الشرح ، أو اختصاره ، وذلك على نمط مما كان يفعل علماء الدين بكتب الفقه . وزادت التحشية على المؤلفات ، والاستدراك عليها ، ونحوه . حتى نتج من ذلك كله نتاج وفير ، في هاتين المادتين : النحو والصرف .

غير أننا لا نرى مناصا من التنويه بأن بعضهم كانت له في بحوثه شخصية وقوة تشعرنا بأنه كان حسن التذوق لمادته ، عميق الفهم ، كامل الإلمام ، دقيق الملاحظة والموازنة ، جديد التوجيه والتعليل . وأفضل الأمثلة لذلك . ابن هشام المصري ، ذلك العلامة الذي قال فيه ابن خلدون . « مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر ، عالم بالعربية ، يقال له : ابن هشام ، أنحى من مسيبويه » .

ونشير في هذا المقام إلى جالية علماء الأندلس ، بالمشرق ، وعلى رأسها جمال الدين بن مالك الأندلسي الذي وفد إلى بلاد الشام في عهد الملك الظاهر بيبرس ، وتلمذ له كثيرون من أبنائها ، وانتشرت بينهم كتبه ومنظوماته . كالألفية والتسهيل ، وكلاهما في مقدمة الكتب التي اتخذت محورا للتأليف .

وكذلك أبو حيان الأندلسي ، فقد وفد على مصر ، وتلمذ لبعض رجالها ، وتلمذ له بعض رجالها . وأفادوا منه كما أفاد منهم .

وإليك بعضا من المؤلفات والرسائل في هذين الفنين :

١ - البهجة المضية في شرح الألفية . للجلال السيوطي (٩١١ هـ) . وله أيضا . الأشباه والنظائر في النحو . والفريدة في النحو والصرف والخط . والنكت على الألفية . والفتح القريب وهو شرح على مغنى ابن هشام . والاقتراح في أصول النحو . وجمع الجوامع ، وهو مختصر في النحو ، شرحه بمؤلف

آخر هو جمع الموامع . شرح شواهد المغنى . شرح القصيدة الكافية
في التصريف . وللسيوطى كتب أخرى غير ذلك .

ج ص ٢٣٢ س ١ ، ص ١٦٠

٢ - مفنى اللبيب عن كتب الأعراب : لجمال الدين بن هشام المصرى د ٥٧٦١ ،
وله أيضا : شذور الذهب . وقطر الندى وبل الصدى . والجامع الصغير
والروضة الأدبية . وموقد الأذهان . والإعراب عن قواعد الإعراب .

م ، س ١ ص ٢٥٧

٣ - الألفية : وهى المنظومة المشهورة لجمال الدين بن مالك الأندلسى د ٦٧٢ هـ .
وله أيضا : التسهيل والكافية الشافية وهى أرجوزة فى أكثر من ٢٧٥٠
بيتا لخص منها الفيته . وسبك المنظوم وفض المختوم ولامية الأفعال .

وإيجاز التعريف . وشواهد التوضيح . م ، ج ص ١٤١

٤ - شرح القواعد لابن هشام : مؤلفه جلال الدين المحلى د ٨٦٤ هـ . وله أيضا
شرح التسهيل ، كتب بعضه . س ١ ص ٢٠٦

٥ - شرح ألفية ابن مالك : لشمس الدين بن الصائغ محمد بن عبد الرحمن بن على
الزمردى د ٧٧٧ هـ . س ١ ص ٢٢٠

٦ - شرح ألفية ابن مالك : لأكل الدين البارتى د ٧٨٦ هـ .

س ١ ص ٢٢٢

٧ - شرح التسهيل : لبدر الدين المرادى ، وهو ابن أم قاسم ، حسن بن قاسم
د ٧٤٩ هـ ، وله أيضا شرح الألفية . س ١ ص ٢٥٧

٨ - شرح التسهيل : لشهاب الدين السمين ، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم
الحلبى نزيل القاهرة د ٧٥٦ هـ . س ١

٩ - شرح الألفية : لناظر الجيش محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد بن
عبد الدائم الحلبي د ٧٧٨ هـ ، وله أيضا شرح التسهيل .

ج ، م

- ١٠ - حاشية على مغنى اللبيب : لبدر الدين الدماميني المتوفى بالهند عام ٨٢٧ هـ ،
وله أيضا شرح على التسهيل . ج ، س
- ١١ - السكناش : للملك المؤيد إسماعيل أبي الفداء صاحب حماة ٧٣٢ هـ ،
في عدة مجلدات . ف ٢ ص ٢٠ - ج ص ١٨٩
- ١٢ - مفتاح الإعراب : لأمين الدين المحلى ٦٧٣ هـ ،
ج ص ١٢٤
- ١٣ - شرح الألفية : لجمال الدين عبدالرحيم الأسنوى ٧٧٧ هـ ، كتب بعضها
منه . وله أيضا شرح التسهيل . س ص ٢٠١
- ١٤ - المساعد في شرح التسهيل : لبهاء الدين بن عقيل ٧٦٩ هـ ، وله شرح
الألفية أيضا . س ١ ص ٢٥٧
- ١٥ - قصيدة في المقصور والمحدود : لشمس الدين الهوارى الشاعر ٧٨٠ هـ ،
ج ص ١٢٤
- ١٦ - الألغار النحوية . لخالد الأزهرى الجرجاوى ٩٠٥ هـ ،
ج ص ١٤٤
- ١٧ - بلوغ الأرب بشرح شذور الذهب : لزين الدين زكريا الأنصارى ٩٢٦ هـ ،
وله أيضا . المناهج الكافية في شرح الشافية . م

بقية فنون العربية

أما علوم البلاغة ، فالمعروف أنها نضجت قبل هذا العصر ، نضوجا محمودا ،
فقد هذب عبدالقاهر الجرجاني - المتوفى سنة ٤٧١ هـ - مسائلها ، ووجه
أنواعها ، ورتب قواعدها في كتابيه ، د أسرار البلاغة ، و دلائل الإعجاز ،
بعد تلك المحاولات التى سبقه بها غيره من علماء العصر العباسى وأدبائه . ثم جاء
السكاكى وهو أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر المتوفى عام ٦٢٦ هـ ، فوضع
علوم البلاغة فى قالبها العلمى الأخير ، على ضوء ما صنع الجرجاني . وذلك فى كتابه
الشهير « مفتاح العلوم » .

وجاء العصر المملوكي ، فاشتغل علماءه بالشرح والتفصيل ، أو الاختصار .
وعلى رأسهم جلال الدين القزويني ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عمر المتوفى
عام ٧٣٩ هـ الذي تولى قضاء الشافعية بمصر زمنا ، فوضع كتابا لخص به جزءا من
كتاب السكاكي . « مفتاح العلوم ، وسماه « تلخيص المفتاح » ، حازفا من المفتاح
ما فيه من حشو أو تطويل أو تعقيد ، وزاده ما يحتاج إليه من أمثلة وشواهد ،
وأزال ما فيه من عقادة . ثم عاد القزويني ، فوضع لهذا الكتاب شرحا سماه :
« التوضيح » .

وقد اتخذ السكتابان المذكوران محورا للتأليف في علوم البلاغة في العصر
المملوكي ، وأساسا للحديث فيها . لذلك جاءت كتب المؤلفين شروحا لها أو تلخيصا
أو نحو ذلك . ثم لانسكر أن كثيرا منها ذو عبارة جافة تثودها الملاحظات ،
وتثقلها مصطلحات اللفظ والأسلوب .

على أنه كان بجوار هؤلاء العلماء الذين اشتغلوا بالبلاغة باعتبارها علما ذا قوانين
وتعاريف ، علماء آخرون أو قل أدباء ، كان لهم ذوق أدبي خاص ، فأخضعوا
— ما استطاعوا — علوم البلاغة وقواعدها لهذا الذوق ، ومزجوا مباحثها بالروح
الأدبية ، وإن طغت عليهم نزعة البديع . ووضعوا على هذا الأساس كتباً محدودة
قيمة في بابها ، وعلى رأسها « خزنة الأدب » لابن حجة الحموي أحد كبار النقاد
في العصر المملوكي .

لذلك لا تغلو إذا قلنا إن النقد انقسم إلى شطرين . نقد بلاغي ، ونقد أدبي .
وسنمضي في الجزء الثالث والرابع من هذا الكتاب ، بالحديث عن هذين النقيدين
لاتصالهما بالثقافة الأدبية ، أكثر من اتصالهما بالثقافة العلمية البحتة .

وإلى جانب هؤلاء وهؤلاء ، عدد من المؤلفين ، وجهوا عنايتهم إلى فنون
اللغة الأخرى ، كوضع المعجمات ، والحديث في العروض والقافية . ونحن نذكر
هنا بعضا من مؤلفاتهم جميعاً فيها .

١ - كتاب العروض : لابن مالك النحوى الأندلسى (٦٧٢ هـ) . وله أيضا : تحفة المودود فى المقصور والممدود ، وهى منظومة همزية ، كأنها معجم الألفاظ المنتهية بألف ، فتشبه بالمقصود أو الممدود . وله أيضا : الألفاظ المختلفة ، وهو فى المترادفات . والاعتقاد ، فى الفرق بين الصاد والضاد : والإعلام بمثلث الكلام وهو منظومة فى ثلاثة آلاف بيت ، ذكر فيها الألفاظ التى تختلف معانيها باختلاف حركات حروفها .

٢ - المصباح المنير : وهو معجم لغوى مشهور لمؤلفه أحمد بن على المقرئ الفيومى (٧٧٠ هـ) ، فرغ من تأليفه عام (٧٣٤ هـ) .

٣ - المسترسل فى السكتى : لشمس الدين الذهبى (٧٤٨ هـ) . وله أيضا : المقتنى فى سرد السكتى .

٤ - ملخص تلخيص المفتاح : لزين الدين زكريا الأنصارى (٩٢٦ هـ) . وله أيضا : فتح رب البرية بشرح القصيدة الخزرجية للشيخ ضياء الدين أبى عبد الله الخزرجى الأندلسى ، فى العروض والقافية . وله أيضا : فتح منزل المثانى لشرح أقصى الأمانى ، وهو فى البلاغة ، شبيه بكتابه « ملخص التلخيص » .

٥ - الإفصاح : للجلال السيوطى (٩١١ هـ) ، وهو نسكت على التلخيص فى البلاغة . وله أيضا : عقود الجمان فى المعانى والبيان . وشرح أبيات تلخيص المفتاح ، وهو فى البلاغة كذلك . وله أيضا : المزهرة ، وهو كتاب جليل فى مجلد واحد وموضوعه علم اللغة وفقهها . وله أيضا : جناس الجناس .

٦ - عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح : لبهاء الدين أبى حامد السبكى (٧٧٣ هـ) .

٧ - شرح تلخيص المعانى والبيان : لأكمل الدين محمد بن محمد بن محمود البارقى (٧٨٦ هـ) .

٨ — خزانة الأدب وغاية الأرب : لتقى الدين بن حجة الحموى « ٨٢٧ هـ » وضعه شرحاً لبديعيته ، فضمنه الحديث عن البديع والبلاغة . وسنتحدث عنه في الأجزاء القادمة . — ولا بن حجة أيضاً : كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام .

٩ — لسان العرب . لابن منظور الإفريقي « ٧١١ هـ » وهو معجم لغوى مشهور نافع ، ومن مفاخر هذا العصر .

١٠ — كتاب القوافى . لبدر الدين الدمامي « ٨٢٧ هـ » وهو في علم القوافى . وله أيضاً . جواهر البحور ، في العروض . ج ١٤٤

١١ — شفاء العليل في علم الخليل . لأمين الدين المحلى « ٦٧٣ هـ » . وله أيضاً : العنوان في معرفة الأوزان . ج ١٤٤

١٢ — جلوة الأمداح الجمالية ، في حلقى العروض العربية : قصيدة في العروض لشهاب الدين بن عريشاه « ٨٥٤ هـ » . ج ١٥٦

١٣ — جنان الجناس : لصلاح الدين الصفدى « ٧٦٤ هـ » في البديع والأدب . وله أيضاً : فض الختام في التورية والاستخدام وهو في البيان والأدب .

واختراع الخراع : في اللغة والعروض . ونفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من الوهم ، وهو انتقادى على كتاب الصراح للجوهري في اللغة . ج ١٦٤

١٤ — مختصر أساس البلاغة للزمخشري : لشهاب الدين بن حجر العسقلاني « ٨٥٢ هـ » . ج ١٦٧

العلوم الكونية ومؤلفاتها

نقصد بالعلوم الكونية ، كل ما عدا العلوم الشرعية واللسانية ، وما عدا التاريخ كذلك . ومنها : التقويم والسياسة والاجتماع والطب والهندسة ، وعلم الحيوان

والنبات ، والرياضيات ، والمنطق والفلك والنجوم والفلسفة والطبيعية والصناعات .
وما إلى ذلك .

ولم ينصرف إلى هذه العلوم ، اهتمام بالغ ، كما انصرف إلى علوم الدين ، فعلم اللغة . وما ذلك إلا لأن منطق العصر ، ومنطق ظروفه ، اتجه بالعلماء نحو تجديد علوم الدين واللغة ، أكثر من سواها . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ، في أكثر من مناسبة . وكان لهذا الاتجاه أثره في ضعف الإنتاج التأليفي في العلوم السكونية . وبخاصة إذا قيس بالإنتاج في علوم الدين واللغة .

وإذا أخرجنا التاريخ من عداد العلوم اللسانية ، وجدناه الوحيد المقدم من بين العلوم السكونية ، الذي حظى بعناية ملحوظة . ويبدو أن هذا كان نتيجة للعناية بعلوم الدين . فإن كثيراً من كتب التاريخ — كما رأينا — كان في تراجم علماء المذاهب ورجال الحديث .

على أنه كانت هناك بلا ريب ، عناية بالهندسة ، نتيجة لحاجة العصر إلى فن البناء ، لاهتمام سلاطينه ورؤسائه بتشديد العماثر من مدارس ومساجد ، وقباب ، وخوانق ، وقصور ، وقلاع ، ونحو ذلك . ولم يكن البناء مجرد استجابة لنداء الحاجة العامة فحسب ، بل كان مجالاً للتفاخر والظهور ، ولهذا كان مليئاً بألوان من الزخرف والزينة . فكان طبيعياً بجوار هذا ، أن ينبغ عدد كبير من المهندسين وشادى العماثر وأهل الفن وأرباب الصناعات ممن خلفوا لنا آثاراً قيمة ، لا تزال ماثلة للعيان ، تشهد بعلم غزير ، ودقة كاملة وذوق سام ، وفن دقيق . هذا فضلاً عما خلفوه خارج البلاد المصرية من آثار .

وكان يطلق على أهل فن البناء ، الشادى ، أو شادى العماثر ، وعرفت أحياناً كلمة مهندس ، مرادفة للشاد . — كما أشرنا في موضع سابق .
ومن اشتهر من المهندسين ، على سبيل المثال . المعلم شمس الدين الطولونى . هو وابنه شهاب الدين أحمد وقد عاشا في عصر برقوق ، وقد ذكرهما شمس الدين السخاوى في الضوء — ١ ص ٢٢١ — فقال ما مؤداه .

والمعلم شمس الدين الطولوني ، كبير المهندسين . كان هو وأبوه ، عليهما المعول في العمائر السلطانية . وإليهما مقدمة الحجارين والبنائين بديار مصر . وتزوج برقوق ابنته ، وتزوج ابنه — أى ابن الطولوني — واسمه شهاب الدين أحمد ، ابنة برقوق — أى السلطان الظاهر برقوق — .

ومن أعماله أن قام بعمارة المسجد الحرام ، وشهد أيام عز في عهد برقوق . وكان بجوار مهندس البناء ، عدد من خبراء الرى ، الذين كانوا يراقبون فيضان النيل وتصريف مائه ، وحفر خلجانه وبناء قناطره ، ونحو ذلك .

وكانت هناك عناية لا بأس بها بعلوم الطب . وقد ذكر في تاريخ بعض المدارس أن الطب كان يدرس فيها . ومن الأمثلة لذلك جامع ابن طولون . فقد نقلنا من قبل ، في تاريخه ، ما رواه المقرئ عن السلطان لاچين . أنه عني بهذا الجامع ، ووسع في أوقافه . ورتب فيه دروسا منها درس في الطب .

وقال السيوطي في حسن المحاضرة عن شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى عام ٧٧٦ هـ ، أنه كان مدرسا للأطباء بالجامع الطولوني . ونذكر بالفخر ، المارستان المنصوري الذى أسسه السلطان المنصور قلاوون ، فقد كان بجوار أنه مستشفى لعلاج المرضى ، كان مدرسة عظيمة للطب . وأسست به قاعة خاصة لإلقاء دروس الطب على الطلاب .

وُعرف عدد من أفذاذ الأطباء بمصر ، قيل في تاريخهم عبارات تدل على نبوغهم ، ورسوخ قدمهم في صناعاتهم . ويلقب كل منهم « بالرئيس » ، ومنهم على سبيل المثال : الرئيس علاء الدين على بن عبد الواحد بن محمد ، المشهور بابن صغير .

قال عنه السيوطي في حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٢ :
« كان أعجوبة الدهر في الفن ، ولى رئاسة الطب دهرا طويلا ، وله فيه المعرفة التامة ، كان يصف الدواء الواحد للمريض الواحد ، بما يساوى ألفا ، وبما يساوى درهما . وكان الشيخ عز الدين بن جماعة ، يثنى على فضائله . مات في ذى الحجة سنة ست وتسعين وسبعمائة . »

ومنهم أيضاً : ابن المغربي الطبيب ، قال عنه السيوطي : « رئيس الأطباء بالقاهرة » مات في عام ٧٧٦ هـ . وسنرد ذكر هؤلاء وغيرهم في مناسبات آتية .

ومما نحب أن ننوه به في هذا المقام ما رواه ابن إياس في البدائع - ج ١ ص ٣٠٠ - ، قال : « إنه في عام ٧٩٥ هـ ، حضر رسول إلى السلطان الظاهر برقوق ، من قبل السلطان بايزيد بن مراد ، سلطان العثمانيين ، يطلب إليه أن يرسل له طبيباً في أمراض المفاصل ، لأنه مريض بهذا الداء . فأرسل إليه السلطان برقوق : الرئيس شمس الدين بن صفيير ، ومعه أدوية كثيرة . »

على أنك تقرأ في تاريخ المارستان المنصوري المتقدم ذكره ، أنه كان يحتوي على جملة أقسام منها : قسم للحميات ، وآخر للرمم ، وآخر للجراحة ، وآخر للأمراض النسوية . وآخر للإسهال . وتقرأ في تاريخ بعض العلماء أو الأدباء أنه كان « كحالا ، أي طبيب عيون . »

من هذا وذاك ، نشعر بمقدار النباهة التي كان عليها فن الطب في الديار المصرية خلال العصر المملوكي . وأنها حازت به شهرة عظيمة طارت إلى الآفاق . وأن هذا الفن لم يقتصر على إحدى نواحيه ، بل امتد أفقه ، واتسع مداه ، وتعددت اتجاهاته .

إلى جانب هذا عني بعضهم بعلم التقويم - وقد نوهنا به فيما سبق - ونذكر في هذا المقام ، الملك المؤيد أبا القدام اسماعيل صاحب حماة المتوفى عام ٧٣٢ هـ . صاحب كتاب « تقويم البلدان » نظم فيه معلومات الجغرافيين المتقدمين ، مع عناية ودقة وتحقيقات لا بأس بها تناسب مع عصره .

كما نذكر أيضاً أبا التمام محموداً الأصفهاني نزيل مصر ، وهو الذي تنبأ بوجود الأمريكتين ، قبل كشفهما بنحو قرن ونصف . وقال ما ملخصه إنه لا يمنع وجود يابس في الجزء المقابل لهذه البلاد ، من وجه الأرض ، روى ذلك ابن فضل الله في مسالك الأبصار ج ١ . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

ثم إن مصر بموقعها الجغرافي ، كانت ممراً تجارياً بين الشرق والغرب ، لذلك

لا غرابة إذا رأينا عددا من المصريين ، يشتغلون بالملاحة في البحرين . ولا سيما أنهم يرون أمامهم ملاحى البندقية وحنوة وبيزا وغيرهم ، يروحون في البحر الأبيض ويغدون . والملاحة تتطلب - بلاريب - علما بالبحرين ومسالكهما وظروف الملاحة فيهما . ولقد اشتغل بعض المصريين بنقل المتاجر عبر البحار . وبلغوا بسفينهم مرافىء المحيط الهندى . وقد استطاع بعض السلاطين أن ينشئ لمصر أسطولا بحريا ، يغزو باسمها فيما وراء البحار . كأسطول الأشرف برسباى ، الذى غزا جزيرة قبرص وهزم ملكها ، وأسر عددا من جنوده . وكأسطول الغورى ، الذى أرسله لاستئصال شأفة البرتغاليين من سواحل المحيط الهندى . - هذا كله يستدعى خبرة بالملاحة وصناعة السفن .

وبهذه المناسبة نشير إلى أن الطبقة الحاكمة عاشت معظم حياتها - كما بينا - معيشة جنديّة ، فبرع في فنون القتال ، وصناعة الأسلحة ، عدد من الصناع . وبعد فلا أدل على وفرة أهل الفنون والصناعات في تلك البلاد ، من هذا العدد الضخم العظيم الذى جمعه منهم السلطان سليم العثمانى . بعد تمام الفتح ، وشحنه شحنا في سفن شراعية إلى عاصمة ملكه ^(١) .

ثم نعود فنقول . إنه يبدو لنا ، أن تعاطى هذه العلوم والحرف والصناعات ، كان في أغلب أمره مبنيّا على التقليد ، والتجارب الشخصية أكثر من بنائه على أسس تعليمية دقيقة منظمة . وكانت حقائقها فردية جزئية متفرقة ، أكثر من كونها عامة مجمعة ، مؤسسة على قواعد علمية ثابتة . وعلى أقل تقدير ، لم تكن متقنة منظمة استطاع إلقاؤها في دروس مرتبة ، كما كان الشأن في العلوم الدينية ، كما لم تكن دروسها واسعة المجال ، منتشرة فميسورة ، كذلك الدروس .

ولعل مما يناسب ذكره في هذا المقام أن بعض الناس كان يشتغل بعلم الكيمياء ، ومعناه وموضوعه تحويل الزئبق إلى ذهب . وتعددت حوادث

(١) راجع بدائع الزهور لابن إياس الحنفى ح ٣ حوادث سنة ٩٢٣ هـ .

المشتغلين بهذا العلم . حتى خدع أحد السلاطين وهو الظاهر چقمق العلائي ،
بواحد منهم ، اسمه الشيخ أسد الدين ، ، فأنفق عليه نحواً من عشرة آلاف دينار
ثم ظهر زيفه . (١) .

وكان الناس ينظرون بريبة إلى كل مشتغل بالكيمياء ، ويرجعون حوله
بالأحاديث . ويذهبون في هذا الاشتغال مذاهب شتى . فمنهم من يحرمه ، ومنهم
من يحله .

ومهما يكن من شيء ، فإن العصر لم يكن بالمسرح الصالح لظهور رجال المنطق
والفلسفة ، المجدد منهم والمبتكر . ولا رجال الحكمة والنظر فيما وراء الطبيعة . ولعل
ضعف الثقافة بعامة ، والعناية بعلوم الدين بخاصة ، كان لها دخل في ذلك . وربما كان
للحروب والفتن الداخلية التي شغلت العصر وأهله ، وضعف وسائل التشجيع
في هذا الباب ، دخل آخر .

أما مقدمة ابن خلدون ، في فلسفة التاريخ ، وقوانين الاجتماع ، فحدث فذ
في العصر ، لم يذتجه سياقه ومنطقه ، وإن هي إلا ذكاء المؤلف وعبقريته .
وكانت الروح الدينية سائدة إلى حد بعيد ، وإلى جانبها النزعة الأدبية ، حتى
إنك لثراها طاغية السمات على المؤلفات . ومن اشتغل بالنظر في الإلهيات ،
تناولها تناولاً إسلامياً ، على نحو ما وصفنا عند الحديث عن التصوف والعقائد .
فلم يقيض الاشتغال الحر بهذا النظر . وكان لذلك أثره في تفاهة النتاج التأليفي
في هذا الباب . إذ كان التأليف في الفقه والحديث والتفسير ونحوهما يستهوى قلوب
العلماء المؤلفين أكثر من سواء . وقد قال جلال السيوطي في سياق ترجمته
لنفسه في حسن المحاضرة . . ما يلي بالنص : « وقد كنت في مبادئ
الطلب ، قرأت شيئاً في علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهته في قلبي . وسمعت أن ابن
الصلاح أفتى بتحريمه . فتركته لذلك فعوضني الله تعالى عنه علم الحديث الذي هو
أشرف العلوم ، .

(١) راجع القصة في الجزء الأول من هذا الكتاب ، قسم ٢ ص ١٦٢ .

ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن شعور السيوطي ، هو شعور علماء العصر كله .

ولنذكر الآن بعض المؤلفات في هذه الموضوعات فمنها (١) .

١ - المختار من الأغذية : مؤلفه علاء الدين بن النفيس المتوفى عام ٦٩٦ هـ . في الطب والنبات . وله أيضاً : موجز القانون وهو في الطب .

ج ٥٠ ، ص ٢٦٠

٢ - كمال الفرحة في دفع السموم وحفظ الصحة : لمحمد القوصوي الطيب . قدمه لقانصوه الغوري بإشارة منه . وبه تفاصيل مفيدة عن معالجة السموم .

ج ٣ ص ٢٥٠

٣ - مطالع الأنوار : لسراج الدين أبو الشفاء الأرموي المتوفى عام ٦٨٢ هـ . وهو في الحكمة والمنطق .

ج ٢٥٠

٤ - زيج ابن الشاطر : لابن الشاطر الموقت في الجامع الأموي والمتوفى عام ٧٧٧ هـ وهو في النجوم .

ج ٢٥١

٥ - خلاصة الأقوال في معرفة الوقت ورؤية الهلال : لشهاب الدين بن طيبوغا القاهري المتوفى عام ٨٥٠ هـ

ج ٣ - ٢٥١

٦ - حياة الحيوان الكبرى : مؤلفه كمال الدين بن عيسى الدميري المتوفى عام ٨٠٨ هـ وهو في علم الحيوان واللغة والأدب والتاريخ .

ج ٢٥٣

٧ - عين الحياة : وهو مختصر حياة الحيوان للدميري . اختصره الدماميني .

ج ٢٥٤

٨ - ديوان الحيوان : وهو للسيوطي جلال الدين المتوفى عام ٩١١ هـ . وهو مختصر آخر لحياة الحيوان للدميري

ج ٢٥٤

٩ - حاوي الحسان : وهو لمحمد بن عبد القادر الدميري . وهو مختصر حياة الحيوان للدميري كمال الدين .

ج ٢٥٤

(١) اعتمدنا في هذه المؤلفات على كتاب جورجى زيدان ج ٣ ، وعلى حسن الهافنة للسيوطي ج ١ ، وعلى فهرس دار الكتب المصرية . ولم نذكر شيئاً في كتب التاريخ والتقويم فقد سبق لنا ذكرهما .

١٠ - تحفة المجاهدين في العمل بالميادين : مؤلفه الأمير لا جين بن عبد الله الذهبي الحسامي الطرابلسي المتوفى عام ٧٣٨ هـ وهو في الحركات العسكرية - وينسب لابنه محمد .
ج ٢٥٤

١١ - كشف المكروب في معرفة الحروب : لعبد الدين موسى بن محمد اليوسفي المصري المتوفى عام ٧٥٩ هـ وهو في فن الحرب ونظام الجند مرتب على عشرة أبواب .
ج ٢٥٤

١٢ - كتاب الفروسية : لبدر الدين بكتوت الرماح الخازنداري نائب الاسكندرية سنة ٧٧١ هـ .
ج ٢٥٤

١٣ - الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية : مؤلفه محمد بن منكلي نقيب الجيش في زمن الأشرف شعبان . وهو في فن القتال وجميع آلاته وحركاته وله أيضاً . التدبيرات السلطانية في سياسة الصنائع الحربية . ألفه للسلطان الأشرف شعبان . وله أيضاً : أنس الملا بوحش القلا .
ج ٢٥٤ ، ٢٥٥

١٤ - بغية القاصدين في العمل بالميادين . مؤلفه محمد بن لا جين الحسامي الطرابلسي الرماح المتوفى عام ٧٨٠ هـ . وهو في الفروسية ألفه للأمير سيف الدين المارديني صاحب حلب . وله أيضاً . غاية المقصود من العلم والعمل بالبنود . وله أيضاً : كتاب في الرماح .
ج ٢٥٧

٢٥ - الإتيق في المجانيق . مؤلفه . . . ارنيغا الزردكاش المتوفى سنة ٨٦٧ هـ

ج ٢٥٧
٢٦ - الحجة والبرهان على فتیان هذا الزمان . مؤلفه صفي الدين أدریس ابن بيدکین بن عبد الله التركاني . وهو من تلاميذ ابن تيمية الحراني . وفي هذه الرسالة ينتقد شبان زمانه .
ج ٢٥٨

٢٧ - بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاية الأمور وسائر الرعية : في

السياسة والإدارة وهو بحث شرعى فى واجبات السلطان والولاية والرعية،
مؤلفه نجم الدين أحمد بن محمد بن الرفعة المصرى محتسب القاهرة المتوفى

ج ٢٥٨ ص

عام ٧١٠ هـ

١٨ - آثار الأول فى تدبير الدول : وهو فى السياسة أيضاً ألفه حسن بن عبد الله
العباسى ، للملك المظفر بيبرس المنصورى . وبه كلام عن قواعد المملكة
وأحوال الملك مع خواصه وخدمه والأمور المختصة بما شئته والحروب
وشروطها برا وبحرا . وغير ذلك

ج ٢٥٩ ص

١٩ - محاسن الملوك : كتبه أحد أدباء القرن الثامن الهجرى للسلطان برقوق
وبه بحوث عن الآداب السلطانية وواجبات السلاطين نحو الرعية .

ج ٢٥٩ ص

٢٠ - الدرة الغراء فى نصائح الملوك والولاية والوزراء : وهو فى السياسة ، ألفه
محمود بن اسماعيل الجيزى المتوفى نحو عام ٨٤٥ هـ ، وقد ألفه للسلطان
أبى سعيد چتمق . وهو فى عشرة أبواب

ج ٢٥٩ ص

٢١ - زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك : وهو فى السياسة ، ألفه غرس
الدين خليل بن شاهين الظاهرى المتوفى عام ٨٤٠ هـ ، وبه بحوث شتى منها
قسم فى تاريخ بعض الخطط بمصر ، ومنها فى وصف السلطان ومحاسنه
ومواكبه وملابسه ، وكذلك الحنفية والقضاة ، وكبار الرجال فى الدولة ،
وأبناء الملوك ونظام الملك والأمراء والخزائن والأسلحة والمطابخ
والاستبيلات والممالك التابعة لمصر ، فهو كتاب سياسى اجتماعى إدارى .

ج ٢٦٠ ص

٢٢ - البرهان فى فضل السلطان : فى السياسة أيضاً . مؤلفه شهاب الدين توغان
المحمدي الأشرى المتوفى عام ٨٨٠ هـ . ألفه للسلطان خشقدم . وله أيضاً منهج
السلوك فى سيرة الملوك . فى السياسة أيضاً . وله كذلك : المقدمة السلطانية
فى السياسة الشرعية : فى السياسة أيضاً .

ج ٢٦٠ ص ، ١٨٢

٢٣ — هدية العبد الفاضل إلى السلطان الملك الناصر: في السياسة . ألفه عبد الصمد ابن يحيى بن أحمد بن يحيى الصالحى قدمه للملك الناصر محمد بن الملك الأشرف قايتباى . ذكر فيه مآثره وبه بحوث عن أحوال الرعية والشكاوى وواجبات الولاية والعامل إلى غير ذلك
ج ص ٢٦٠

٢٤ — نيل الرائد فى النيل الزائد : ألفه أبو الطيب شهاب الدين الحجازى الأنصارى المتوفى عام ٨٧٤ هـ . وهو عبارة عن جداول لزيادات النيل حسب الزمان
ج ص ١٢٦

٢٥ — طوابع البدور فى تحويل السنين والشهور : مؤلفه أبو البقاء بن يحيى بن أبيهان المتوفى عام ٩٠٠ هـ . وهو فى علم الميقات
ج ص ١٨٣

٢٦ — بهجة الخلد فى نصيح الولد : وهى أرجوزة فى التربية نظمها بهاء الدين محمد بن يوسف الباعونى الدمشقى المتوفى عام ٩١٠ هـ .
ج ص ١٩٧

٢٧ — مقدمة ابن خلدون : واضعها ولى الدين بن خلدون الشهير المتوفى عام ٨٠٨ هـ وهى مقدمة تاريخه العبر . وقد أثبتنا هنا لما بها من فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع .
ج ص ٢١٢

٢٨ — كتاب السياسة فى علم الفراسة : مؤلفه شمس الدين أبو عبد الله الدمشقى المتوفى عام ٧٢٧ هـ .
ج ص ٢١٥

٢٩ — المناهج لطالب الصيد والذباح : مؤلفه برهان الدين الفزارى المتوفى عام ٧٢٩ هـ .
ج ص ٢١٩

٣٠ — اللؤلؤ العظيم فى روم التعلم والتعليم : مؤلفه زين الدين أبو يحيى زكريا الأنصارى المتوفى عام ٩٢٦ هـ . ذكر فيه أصناف العلوم وحدودها .
ج ص ٢٤٣

٣١ — أخبار النساء : واضعه شمس الدين بن القيم المتوفى عام ٧٥١ هـ . ويشتمل على أخبار النساء وأوصافهن وما يقال فى التحذير منهن ومن غدرهن .
ج ص ٢٤٦

٣٢ - المدخل : لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج ، المتوفى بالقاهرة عام ٥٧٣٧ هـ . وهو في أربعة أجزاء ، وفيه نقد لحالة البلاد الاجتماعية والخلقية ، وعاداتها وتقاليدها المرعية عند العوام وغيرهم ، وعلاج ذلك علاجا شرعيا .

٣٣ - القواعد : صنفه شمس الدين محمد بن محمود الاصبهاني المتوفى بالقاهرة عام ٦٨٨ هـ . وهو في الجدل والمنطق .

س ٢٦٠

٣٤ - كتاب الترياق : للفضل بن هبة الله الحميري الإسفاني ،

س ٢٦١

٣٥ - إغاثة الأمة بكشف الغمة : لتقي الدين المقرئ ، ٨٤٥ هـ ، وهو في وصف المجاعات وحوادث الغلاء التي وقعت بمصر في . وبه وصف لعاداتها وطوائفها وقد تولى الأستاذان محمد مصطفى زيادة وجمال الدين محمد الشيال نشر هذا الكتاب عام ١٩٤٠ م .

٣٦ - نفائس المجالس السلطانية : ألفه حسين محمد الحسيني للسلطان الغوري . وفيه وصف لمجالس هذا السلطان وبحوثه ومناقشاته مع علمائه في الفقه وغيره . وقد نشره وكتبه السكوكب الدرر في مسائل الغوري ، مختصرين ، عام ١٩٤١ هـ . تولى نشرهما الدكتور عبد الوهاب عزام .

٤٠ - تقويم البلدان : لأبي الفداء اسماعيل وهو الملك المؤيد صاحب حماة المتوفى عام ٧٣٢ هـ .

٤١ - التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية : لشرف الدين يحيى بن المقر المعروف بابن الجيعان الذي كان موجودا عام ٧٧٧ هـ . ذكر فيه بلدان مصر ، ومساحة كل منها بالقدان ، كما كانت حالتها عام ٧٧٧ هـ . أى في عهد الأشرف شعبان .

٤٢ - خريدة العجائب وفريدة الغرائب : لزين الدين بن الوردى ، ٧٤٩ هـ ، تكلم فيه عن الأقاليم ومعادنها إلى غير ذلك من محتوياتها .

م

- ٤٣ — مبدأ النيل على التحرير : للجلال المحلى (٨٦٤ هـ ، وهو فصل فى مبدأ النيل ومنتهاه . ويليه نبذة فى النيل للسيوطى جلال الدين . م
- ٤٥ — الخضر اوات السبعة : للجلال السيوطى (٩١١ هـ ، فى الزراعة . م
- ٤٦ — مباحج الفكر ومناهج العبر : لجمال الدين محمد بن ابراهيم بن يحيى الوراق المعروف بالوطواط المتوفى عام ٨١٨ هـ وهو فى الزراعة . م
- ٤٧ — اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم : لزكريا الانصارى (٩٢٦ هـ . م

الكتب الجامعة

من مميزات عصر الممالك : وضع كتب جامعة واسعة النطاق ، تحدثت فى مواد علمية وأدبية كثيرة . يستطرد فيها إلى هذه المواد حسب المناسبات . فترى فيها أحيانا : التقويم ومرة التاريخ أو الأدب شعرا أو نثرا ، أو الفكاهات الطريفة أو الإشارة إلى الحوادث السالفة ، أو مزايا نوع من النبات أو الحيوان ، أو الحديث عن قوم حديثا يفصح عن عاداتهم ، أو الكلام عن خلق أو الإشارة إلى سياسة أو النزوع إلى طب . . وهكذا . فهى موسوعات علمية أو دوائر معارف جليلة النفع عظيمة الأثر .

وقد ضممتنا فيما سبق ، كل موسوعة إلى باب من أبواب المواد العلمية ، واعتبرنا فى ذلك المادة الأساسية التى وضعت الموسوعة لأجلها ، لا المواد الفرعية التى استطرد إليها .

وتدلنا هذه الكتب الجامعة على سعة جعبة واضعها ، ومقدار اطلاعهم البعيد المدى ، ومقدار كرمهم بما تعى صدورهم من معلومات مفيدة . ضنوا بها على النسيان ، فسطروها أو قنل سجلوها فى هذه الكتب الخالدة ، وتحيلوا فى إيجاد مناسباتها التى تخول لهم ذكرها . وصبروا العمر الطويل على تدوينها بما يدخل فى حيز الخيال ويبعد عما يطيقه الجهد .

ونحن وإن آخذناهم بالخلط بين هذه المواد ، وبعدم العناية بوحدة الموضوع واستقلال الفكرة ، وبسعة الاستطراد حتى ليضيع الزمن على الباحث بسببه ، ثبت لهم يدهم الطولى فى تدوين هذه المعلومات ولا سيما التاريخية والأدبية منها ، فهى ذخيرة ثمينة . بل وبقية المعلومات الأخرى ، لأنها على الأقل ترينا مقدار ما كان يفهمه أهل هذه العصور فى مسائل العلم المختلفة ونظرياته . . . ونشكر لهم مبادرتهم بتعويض العلم عما فقدته فى حوادث التتار والصليبيين والفرنجية . ثم نتجى على أنفسنا بعد ذلك بالملام ، ونؤاخذها بما قصرت فيه من طبع هذه المؤلفات فى وقت مبكر ، وفى تزويدها بالفهارس النافعة المنظمة للاستفادة منها ، وفى تهذيبها هى وتفريغها فى قالب جديد ، وفى البحث فى أبوابها المختلفة واستخلاص النواحي المؤلفة فيها المتفرقة بين صفحاتها ، وحشدها فى صعيد واحد ، تيسر العلم على طالبيه ، وتسهل سبيل الأدب على مجتازيه . وما تلك البحوث التى نقرؤها فى الصحف والمجلات أحيانا يكتبها المتعاملون إلا قشور من ذلك اللباب . وهكذا . ولا أريد أن أقصر هذه الموسوعات على ما قصرها عليه مؤرخو الأدب فى العصر الحديث ، بل أدخل فى عدادها عددا آخر من المؤلفات فى التراجم والتاريخ والتقويم والحديث والتفسير والفقه والأدب ، فى كثير منها استطرادات قيمة جدا فى بحوث شتى .

وقد جدت الأهمية منذ أعوام لطبع هذه المؤلفات طبعاً نافعاً مع العناية بفهارسها . ولكن أقول والأسى يملأ الفؤاد إن العمل فى هذه الناحية بطيء بظناً يدخل اليأس على الأمل . ولا تزال مؤلفات قيمة مقيمة على خطيتها بلا طبع حتى اليوم ، ولا يدرى أهل عصرنا عن أمرها شيئاً . وبعضها طبع طبعاً سقيماً كثير الأخطاء وبعضها مشتمت فى مكاتب الأمم الأخرى لم تبذل إلا عناية جزئية لرد بعضها أو نقله مصوراً . ومن الموسوعات ذات الأهمية مما سبق بيانه أو سيأتى ذكره ما بلى :

١ - لسان العرب : وهو المعجم اللغوى المشهور . مؤلفه ابن منظور الإفريقى

المتوفى عام ٧١١ هـ ، وفيه غير اللغة ومفرداتها أدب وتاريخ وتفسير وحديث . وهو في أكثر من عشرين جزءا .

٢ - طبقات الشافعية الكبرى : وهو في تراجم أعلام الشافعية مؤلفه تاج الدين السبكي المتوفى عام ٧٧١ هـ ، وهو مملوء بالآثار الأدبية ذات القيمة التاريخية ومملوء بالنوادر الطريفة ، ومملوء بمسائل الفقه السكثيرة العدد . وهو في ستة أجزاء .

٣ - تاريخ ابن إياس : وهو المعروف ببدايع الزهور في وقائع الدهور . أو تاريخ مصر . مؤلفه ابن إياس الحنفي المتوفى عام ٩٣٠ هـ وهو كتاب تاريخي جامع ترى في تضاعيفه عادات وتقاليد ونظم إدارة وسياسة .

٤ - إرشاد السارى إلى شرح البخارى : وهو مؤلف جليل الشأن في الحديث . مؤلفه شهاب الدين القسطلاني المتوفى عام ٩٢٣ هـ وفي ثناياه بحوث تاريخية وفقهية . وهو في عشرة مجلدات .

٥ - فتح البارى بشرح البخارى : وهو مؤلف قيم في الحديث . وضعه ابن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢ هـ . وفي ثناياه بحوث فقهية وتاريخية . وهو في عشرة مجلدات ضخام . ومقدمته ثمينة جدا .

٦ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار : كتاب كبير في أكثر من عشرين مجلدا ، وبه بحوث في التقويم والتاريخ وتاريخ الخطوط وتراجم الأعلام وبه النوادر الطريفة والنظريات العلمية في الجغرافيا والتاريخ الطبيعي . مؤلفه شهاب الدين ابن فضل الله العمري المتوفى عام ٧٤٨ هـ . وقد طبع منه حديثا جزء واحد .

٧ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا : مؤلفه شهاب الدين القلقشندي المتوفى عام ٨٢١ هـ وهو في نحو عشرين مجلدا . وفيه استطرادات تاريخية نادرة ، وتراجم ، وتوضوح أدبية ثمينة ، ودراصة للعادات والتقاليد الديوانية ، هذا فوق

موضوعه الأصلي وهو الكلام في صناعة الإنشاء وما يتصل بها من علم وأدب وخط ورسم .

٨ - نهاية الأرب في فنون الأدب : مؤلفه شهاب الدين أحمد النويري المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وهو في نحو ثلاثين جزءاً كبيراً .

٩ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : لأبي المحاسن بن تغرى بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ وهو مجلدات عدة . وقد طبع منه نحو تسعة أجزاء بدار الكتب المصرية ، وهو في التقويم والتاريخ والأدب والنبات والحيران والطب والفلك والسياسة وغير ذلك .

١٠ - النقاية : للسيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ وهو في التنفيذ والحديث والفقه وأصول الدين والطب والتشريح والتصرف والنحو والبلاغة وغير ذلك وتسمى الأصول المهمة في علوم جملة .

وهذا قل من كثير ، ذكرناه على سبيل المثال عما بين أيدينا من الكتب التي تناولها الطبع . فما بالك بما لم يطبع وهو موجود مخطوطاً بدور الكتب ويعرفه المطلعون . ثم ما بالك بما لا يعرفه المطلعون منه ؟ ثم ما بالك بما يقال عنه إنه مفقود كالروضة البهية لمحيي الدين بن عبد الظاهر . أو مشقت كالوافي بالوفيات لصالح الدين الصفدي - ولقد كان مسالك الأبصار غير معروف إلى عهد قريب ، ثم نقله أحمد زكي باشا مصوراً إلى مصر .

والمسألة في نظرنا تحتاج إلى تأليف لجنة عليية كبيرة يكون عملها البحث عن هذه المؤلفات النفيسة ثم طبعها طبعاً حديثاً مزوداً بالفهارس . على أن يكون لها مال خاص .

ثم تكوين لجنة أخرى يكون همها النشاط العلني التأليفي ولا سيما التأليف في تاريخ مصر . فإنه على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلت وتبذل في هذا السبيل ، لا يزال تاريخ مصر مبتوراً ناقصاً . وأعني بتاريخ مصر تاريخ أحداثها السياسية

وأحوالها الاجتماعية ووصف قوانينها وتقاليدها وعاداتها واتجاهاتها الأدبية وجهودها العلمية وتراجم رجالها في كل دور من أدوار حياتها .

خاتمة

أثبتنا فيما سبق ، عددا من مؤلفات العصر ، في كل مادة من المواد العلمية . أثبتناه على سبيل المثال ، لا على سبيل الاستقصاء . أما الاستقصاء فلا مقدرة لنا عليه الآن ، ولا نستطيع ادعاءه اليوم . خير أنه كان بودنا ، لو وقفنا إليه وتغلبنا عليه ، ووجدنا بين صفحات كتابنا هذا متسعاً له ، إذ ألتفت لنا أمنية عزيزة ، وتحققت رغبة غالية . لأننا إنما نقصد من حشد هذه المعلومات في هذا السفر ، وترتيبها وتبويبها ، أن نبرز فيه مفاخر العصر ، ونظهر مآثره ، حتى تكون ماثلة للعيان ، غنية عن الإشارة بالبنان . وبذلك يكون هذا السفر سجلاً لها ، يحد فيه كل ذي حاجة حاجته وكل صاحب ضالة ضالته . ويحد الباني الجديد ، أساساً راسخاً واضح المعالم ، يبنى عليه ، و نخامة ، معدة يتخذ منها غزله ونسيجه . غير أننا خشين أن نرعى بأننا حولنا بعض الكتاب إلى فهرس مكتبية .

وفي الحق ، إنه لآمل أن نعود إلى مراجع هذه الأسفار ، ككتب تراجم الأعلام ، وفهارس دور الكتب بالقاهرة وغيرها ، وكشف الظنون ، وكتب الفهارس الحديثة ، وما إلى ذلك ، فنستخلص منها ما يختص بالعصر المملوكي ، من مؤلفات أبنائه . مع التعريف الموجز المناسب ، بكل مؤلف منها ، ومحتوياته ، والإشارة إلى الموجود منها والمفقود ، وإلى المطبوع منها والمخطوط ، وإلى المغترب منها والمتوطن .

وفي تحقيق هذا الأمل ، نفع - لا ريب - عظيم . فاعل الظروف تسعد ، والآيام تواتي ، والزمان يحود .

وكنا قد استخلصنا من دار السكتب المصرية بالقاهرة ، ما في فهرسها من مؤلفات هذا العصر . وكنا على وشك إثباته في هذه الصفحات لولا أن عنّا لنا الاكتفاء بما أثبتناه فيما مضى من الصفحات ، وما سنذكره في الصفحات التالية بعون الله ، وفي ذلك كله كفاء وغنية .

غير أننا لا نترك هذا المقام ، دون إبداء ملاحظات :

فمنها أن كثيرا من مؤلفات العصر ، بما ورد في تراجم أعلامه ، وأثبتنا بعضه فيما سبق ، مفقود ، لا وجود له في فهرس دور السكتب المصرية — على مقدار اطلاعنا — ، ولا في فهرس دور السكتب الأخرى خارج مصر ، على ضوء مارواه جورجى زيدان في كتابه : تاريخ آداب اللغة العربية . وكتب الفهارس الحديثة الأخرى ، كفهرس سر كيس .

ومنها أن كثيرا من هذه المؤلفات مغترب عن مصر ، يقامى ألم الاغتراب ، في دور السكتب الأجنبية . ولم تؤهل غربته حتى اليوم .

ومنها أن كثيرا من هذه المؤلفات — وإن كان موجودا بدار السكتب المصرية مثلا — لا يزال مخطوطا لم يقدم للطبع ، يعيش في القرن الرابع عشر الهجرى ، كما كان يعيش قبل ذلك في القرن الثامن أو التاسع مثلا .

ولقد أحصينا منها نحو ألف وخمسمائة مؤلف في علوم مختلفة ، بالدار المذكورة ، من بينها نحو ألف مؤلف مخطوط .

وبين هذه الأسفار المغتربة أو المخطوطة ، ما يلقي أضواء ساطعة على تاريخ مصر وآدابها . فلعل الأيام تسعد الغريب بالإياب . والمخطوط بجديد الثياب .

الفضيلة الرابع

تراجم تفصيلية

يضيق نطاق هذا الكتاب ، مهما اتسع ، عن أن نسطر فيه كل ما يعن لنا من الحديث عن علماء العصر ، ومؤلفاتهم . لننوه بآثارهم ، وننصف جهودهم ، ونشهر تاريخهم ، وهم بذلك كله — وأكثر منه — حريون .

ولو أننا ذهبنا نفصل الحديث عنهم جميعاً ، تفصيلاً ، مدونين حوادثهم ، واصفين نشاطهم في نشر العلم والتأليف فيه ، معترفين بآثارهم العلمية ، لما أسعفتنا في ذلك جملة أسفار ضخام .

ولو أننا ذهبنا نوجز الحديث عنهم ، وكان حسبنا منه الإشارة الدالة ، والإشارة المقتضبة ، لصاعت من تاريخهم معالم ، ولحفيت من أعمالهم آثار . ولتضامل أمام القارئ ، ذلك الجمال والجلال الذي نشعر به لمؤلفاتهم .

لهذا كله قسمنا الحديث عنهم إلى ثلاثة أبواب : باب للتراجم التفصيلية ، تتاح لنا فيه الفرصة للتعريف ببعض الرجال وعرض مؤلفاتهم عرضاً مناسباً . وباب للتراجم الموجزة ، نجمل فيه الحديث عن المثات منهم ، قانعين في هذا المقام بالتسجيل . وباب للتعريف ببعض المؤلفات النافعة ، التي لم تسعفنا التراجم التفصيلية بعرضها ، مع أهميتها . وبذلك نستطيع بلوغ مأربنا ، مع الإحاطة المناسبة .

فهذا الباب الرابع ، هو باب الحديث المسهب عن بعض العلماء المؤلفين ذوي الأثر البارز في حياة معاصريهم ، أو في حياة العلم ، ممن زادوا الإنسانية تراثاً ، وأضافوا إلى الزمان مجداً ، وخلدوا على صفحاته مآثر .

فيما يلي ، إذاً ، توضيح لحياة رجال العصر ، وعرض لمؤلفاتهم ، مع ذكر

المراجع التي اعتمدنا عليها ، في أعقاب كل ترجمة .
وسنصف هذه المؤلفات ، وصفا ، اعتمدنا في تقريره ، على اطلاعنا ودراستنا
إذ ناجينا أصحابها فيها ، فناجوننا ، وسامرنا غم فسامرونا ، واستوحيناهم فأوحوا إلينا .
لذلك لا تغلوا إذا قلنا إن القارىء الكريم سيجد خلال حديثنا شيئا جديدا ممتعاً .
ونحب مع هذا كله - وعلى الرغم من هذا كله - أن نذكر القارىء أنه ليس
من غرضنا الاستيعاب والاستقصاء ، ولا النقد بشئ نوازعه واتجاهاته وعمقه
وتحليله وتعليقه . وهذه مسألة نوهنا بها في مقدمة الكتاب . ولو أردنا الاستيعاب
والنقد ، لاحتاج كل رجل من رجال العصر ، إلى سفر خاص ، وهو بذلك قين .
ومع هذا فسيجد محبو الاستيعاب ، ومحبو النقد ، شيئا منهما يروقهما .
وقد أغفلنا راجع بعض الأفاضل ، ممن نبغوا في الشعر أو الكتابة ، مدخرين
الحديث عنها ، إلى الجزء الثالث والرابع من كتابنا هذا . والله الموفق والمعين .
والتراجم الآتية مرتبة حسب الوفيات .

١ - عز الدين بن عبد السلام ٥٧٧ هـ - ٦٦٠ هـ

هو الإمام المجتهد القدوة ، عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسين
ابن محمد بن مذهب السلى . سماه تلميذه ، تقي الدين بن دقيق العيد القشيري ، بسلطان
العلماء ، لعلمه الغزير ، واطلاعه الواسع ، وإيمانه القوى ، وحجته البالغة ، وزهده
وحبه للحق . وكان شافعي المذهب .
مولده ووفاته :

ولد سنة ٥٧٧ هـ ، وقيل سنة ٥٧٨ هـ . ببلاد الشام - وتوفي في ٩ جمادى الأولى
عام ٦٦٠ هـ ^(١) . وقد عاش نحو ٨٣ سنة .

١ - روى السبكي في طبقاته ج ٦ ص ١٠٢ ، أن وفاته كانت في يوم ٩ جمادى الأولى ،
وماد فذكر في ص ١٠٣ أنها كانت يوم ١٠ منها ، وروى السيوطي وفاته يوم ١٠ .

وقد حكى ابن حجة الحموى فى كتابه « ثمرات الأوراق ص ٢٢ » : أن شخصا جاء إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام الشافعى ، سلطان العلماء ، فقال : رأيتك فى المنام تلشد :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت فسكت الشيخ عز الدين ، ثم قال : أعيش ثلاثا وثمانين سنة ... فإن هذا الشعر ، لكثير عزة ، وقد نظرت ، فلم أجد بدنى وبينه نسبة ، فإنى مُسنّى ، وهو شيعى . وطويل وهو قصير . وهو شاعر ، ولست بشاعر . وأنا سلبى ، وهو خزاعى . وشامى وهو حجازى . فلم يبق إلا السن ، فأعيش مثله ، قال : فكان كذلك .
بعض شيوخه :

وقد أغرم بالعلم منذ صغره ، ويفهم من سيرته أنه ولد ببلاد الشام ، وتلمذ لكثير من أفذاذها ، ومن شيوخه : فخر الدين بن عساكر^(١) . وسيف الدين الأمدى والحافظ أبو محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبى القاسم بن عساكر . وشيخ الشيوخ عبد اللطيف بن اسماعيل بن أبى سعد البغدادى ، وعمر بن محمد بن طبرزد ، وحنبل ابن عبد الله الرصافى . والقاضى عبد الصمد بن محمد الحرستانى ، وبركات بن ابراهيم الخشوعى .

طرف من حياته :

عاش الشيخ عز الدين ، زمنا طويلا ، فى أيام حكم الأيوبيين . وطالب العلم حيث كان منشؤه . وقيل إنه سمع هاتفا يقول له : « يا ابن عبد السلام ، أتريد العلم أم العمل ؟ » فقال : « العلم ، لأنه يهذى إلى العمل » .

وقد فتح الله عليه ، وهداه إلى العلم ، وعبد له طريقه ، وذلل سبله . فحفظ منه الشيء الكثير ، فى زمن وجيز . وقد أقبل على عبادة الله ، حتى صار أعبد أهل

١ — لفخر الدين بن عساكر ترجمة فى طبقات السبكي ج ، من ٦٦ ، وقد توفى عام ٦٢٠

زمانه ، وأحد متصوفيه ، الذين يعبدون الله على علم وهدى وبصيرة وحسن معرفة ، وأصبح علما يشار إليه بالبنان .

ولقد برع في الفقه والأصول ، والحديث والتفسير والتوحيد . وتولى كثيرا من المناصب الهامة ، خدمة للعلم ، ورغبة في النفع العام . ومن المناصب : التدريس في الزاوية الغزالية وغيرها بدمشق . والخطابة بالجامع الأموي ، والإمامة به كذلك قال عنه شهاب الدين أبوشامة ، وهو أحد تلاميذه : « وكان أحق الناس بالخطابة والإمامة » .

ولما خرج من الشام إلى مصر ، عام ٦٣٩ هـ تقريبا ، ولاد سلطان مصر ، الصالح نجم الدين الأيوبي الخطابة بجامع عمرو بن العاص ، والقضاء بمصر والوجه القبلي . فلبث في دست القضاء زمنا . ثم ولاد هذا السلطان تدریس فقه الشافعية بمدرسته الصالحية ، التي بناها بين القصرين بالقاهرة . وفوض إليه كذلك ، عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة .

وبما يذكر أنه عزل نفسه مرارا من القضاء ، والسلطان الصالح يعمل على إعادته إليه . وهو بين هذا وذاك ، لا يني ينشر العلم ، ويستكثر من تلاميذه .

واتصل الشيخ عز الدين بعدد من سلاطين عصره ، وعظمت مهامه في نفوسهم ولم يرتفعوا في نظره إلا بمقدار حرصهم على مصالح المسلمين ومحافظتهم على الدين . مع شدة منه في معاملتهم ، وقسوة في إسداء النصيحة إليهم .

حادثة خروجه من دمشق إلى مصر :

ومن اتصل بهم ، سلطان دمشق ، الملك الصالح اسماعيل ، المعروف بأبي الحبيش وهو من سلائل الأيوبيين . وكان هذا السلطان قد استعان بالفرنجة من الصليبيين ، على منازعته في الملك من بني أيوب . كما كان يتوجس خيفة من ملك مصر ، الصالح نجم الدين الأيوبي . فاتفق معهم على أن يعاونوه على غدوه . ويسلم إليهم لقاء هذا ،

مدينتي صيدا والقشيف ، وغيرهما من حصون المسلمين . وسهل لهم دخول دمشق لابتياح السلاح .

شق هذا الاتفاق والنسليم والتفريط ، على الشيخ عز الدين ، وحز في نفسه أن يتعاون سلطان دمشق المسلم ، مع أعداء الدين ، على إخوانه المسلمين ، مهما يكن سبب الخلاف بينهم .

فما يصنع عز الدين ؟ لقد أهمل الدعاء لهذا السلطان ، على المنبر . وجهد معه في هذا الأمر رأس مالسكية زمانه ، أبو عمر بن الحاجب . فكان هذا منهما إيذانا بالعصيان ، وتحريضا للناس . فغضب السلطان عليها واعتقل الشيخ زمنا ، ثم أطلق سراحه ، خوفا من استشراف الفتنة .

عول الشيخ عز الدين على الرحيل من دمشق إلى القاهرة . وكان ذلك في عام ٦٣٩ هـ تقريبا . وخرجت معه دمشق تودعه .

وقد قيل إن ملك دمشق أرسل رسولا خلف الشيخ ، يراوده على العودة . فأدركه وهو ببیت المقدس فقال له الرسول : « بينك وبين أن تعود إلى مناصبك ، وما كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير » . فقال له الشيخ : « والله مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي ، فضلا عن أن أقبل يده . يا قوم أتم في واد ، وأنا في واد . والحمد لله الذي عافاني عما ابتلاكم » . قيل ، فاعتقله الرسول . وكانت هناك حرب بين جيوش مصر ودمشق ، فانهزمت جيوش دمشق ، فأطلق سراح الشيخ وسار إلى مصر في عودة جنودها . وهناك تلقاه صديقه سلطان مصر الصالح نجم الدين الأيوبي . وولاه التدريس والقضاء ، وعاش بهذه البلاد مرموق المكانة مهيب المنزلة ، معترفا له بالفضل .

النزاع بينه وبين مبتدعة الحنابلة :

ومن اتصل بهم ، الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب ، ملك دمشق ، قبل الصالح إسماعيل . وكان هذا الملك — موسى — يحل الشيخ ويعظمه

ويضممر له في نفسه مكانة سامية . غير أنه كان ميالا إلى جماعة من مبتدعة الحنابلة الذين يقولون بأن لله سبحانه وتعالى ، حرفا وصوتا ، ويعتقد معتقدهم . وهذا المذهب غير مذهب الأشاعرة . مع أن المبتدعين أفهموه أن مذهبهم هو مذهب السلف الصالح ، وأنه رأى ابن حنبل .

وقد هال جماعة المبتدعين من الحنابلة ، مالم يشيخ عز الدين ، من منزلة لدى السلطان الأشرف . فحقدوا عليه ، وخشوا على منزلتهم منه . فسعوا لديه بالوشاية ، وقالوا للسلطان الأشرف : إن الشيخ أشعري العقيدة ، يخطيء من يعتقد الحرف والصوت ، ويعده مبتدعا . وأنه يقول كما يقول الأشعري : إن الخبز لا يشبع ، والماء لا يروى ، والنار لا تحرق .

وانتهى الأمر بهذه الوشاية ، أن كتبت فتيا في هذه المسائل ، ودفعت إلى الشيخ ليبدى فيها رأيه . فكتب الشيخ رأيه في هذه المسألة ، ببيان واضح ، وأسلوب جميل ، مقرر مذهب السلف وابن حنبل والأشاعرة ، وبين أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة . وقد حمل في بيانه هذا ، حملة شعواء على المبتدعين .

وقد أثبت تاج الدين السبكي في طبقاته ، نص هذا البيان . فلما اطلع عليه السلطان ، هاله الأمر . ووقعت بينه وبين الشيخ مشادات ومراسلات ، أدت إلى أن أصدر أمره بمنع الشيخ من الفتيا ، وعدم الاجتماع بالناس ، وأن يلزم بيته .

وقد فرح الشيخ بهذا الأمر ، وقال لرسول السلطان :

« إن هذه الشروط من نعم الله الجزيلة عليّ ، الموجبة للشكر لله تعالى ، على الدوام . أما الفتيا فإني كنت والله متبرما منها ، وأكرهها . وأعتقد أن المفتي على سفير جهنم . ولو لا أنني أعتقد أن الله أوجبها عليّ ، لتعيّنتها عليّ في هذا الزمان ، لما كنت تلوثت بها . والآن ، فقد عذرتني الحق ، وسقط عني الوجوب ، وتخلصت ذمتي ، والله الحمد والمنة . »

وأما ترك اجتماعي بالناس ، ولزومي لبيتي ، فما أنا في بيتي الآن ، وإنما أنا في بستان .

وكان الشيخ في تلك السنة ، قد استأجر بستانا متطرفا عن البساتين ..

ثم قال الشيخ :

« من سعادتي لزومي لبيتي ، وتفرغي لعبادة ربي . والسعيد من لزم بيته ، وبكى على خطيئته ، واشتغل بطاعة الله تعالى . وهذا تسليية من الحق ، وهديية من الله تعالى ، إلى أجراها ، على يد السلطان ، وهو غضبان ، وأنا بها فرحان . »

ثم قال للرسول : « والله يا غرز لو كانت عندي خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة ، خلعت عليك ، ونحن على الفتوح . خذ هذه السجادة صل عليها . »

وما زال أمر الشيخ أو السلطان على هذه الحال ، حتى أصلح بينهما العلامة جمال الدين الحضيري شيخ الحنفية في زمانه . وأفهم السلطان أن عقيدة الشيخ ، هي عقيدة السلف وأهل السنة والجماعة . ومن ذلك الحين عادت صلة الشيخ بالسلطان إلى ما كانت عليه . وأخذ السلطان في استرضائه ، تكفيرا عما اقترف في حقه فيما سبق وأخذ نفسه بقراءة مؤلف للشيخ اسمه « مقاصد الصلاة » .

ولما مرض السلطان مرض الموت ، استقدم الشيخ إليه ليسدى إليه النصيح الأخير . . فكان مما نصحه به أن يصلح ما بينه وبين أخيه الكامل ملك مصر ، حينذاك ، وأن يبطل المفاسد المنتشرة في عهده من زنا وشرب خمر ، فرسم بإبطال ذلك .

وبعودة المياه إلى مجاريها بين الشيخ والسلطان ، انخزل المبتدعة وأهل الضلال بمن يدعون الحنبلية .

موقفه من السلطان الظاهر بيبرس :

ومن اتصل بهم الشيخ ، السلطان الظاهر بيبرس ، ملك مصر . وكان بيبرس يهاب الشيخ ، ويحمله ويخشاه ، ويستشيره في أموره . ولم يبايع خليفة من الخليفين اللذين بايعهما من بنى العباس ، قبل أن يبايعه الشيخ عز الدين .

ومن مواقفه الرائعة مع بيبرس أنه حينما أراد أن يأخذ البيعة لنفسه بالسلطنة ، جمع الناس من الأمراء والقضاة والعلمية ، وكادت البيعة تنعقد له ، لولا أن امتنع الشيخ عز الدين عن مبايعته . لأنه لم يثبت لديه عتق بيبرس وحرية . وقال له : « ياركن الدين ! أنا أعرفك بملوك البندقدار . . . » .

فاستحضر بيبرس شهودا شهدوا بخروجه من ملك البندقدار ، وأنه صار حرا فبايعه الشيخ . . . قيل : إن الشيخ لما توفي ، ومرت جنازته تحت القلعة ، وشاهد الملك الظاهر كثرة الخلق فيها ، قال لبعض خواصه : « اليوم استقر أمرى في الملك ، لأن هذا الشيخ ، لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه . لانزع الملك منى . أمثلة من قسوته في الحق :

في سيرة الشيخ حوادث ، تنبى بما كان عليه من قسوة في التمسك بالحق ، وحرص على تنفيذ رأيه ما دام صوابا وعدلا ، فمنها .
بيع الأمراء :

لعل هذه القصة من أبدع قصصه وأروعها . وبخاصة لأنها وقعت في ذلك العصر الذى طغى فيه الأمراء الحاكمون ، فتصدى الشيخ عز الدين ، وهو المحرم الأعزل إلا من قوة إيمانه ، وأشهر بعض كبار هؤلاء الأمراء في مزاد علنى . . . لقد ثبت له أن هؤلاء الأمراء ، لم يعتقدوا ، وأنهم بذلك من حق بيت مال المسلمين . . . وجهر بذلك بين الأمراء وأعلن أن حكم الرق لا يزال مصاحبا لهم ، وينبغى — إذا أرادوا العتق — أن يشهر بيعهم ويحصل ثمنهم ويضم إلى بيت المال ثم أفتى أن تصرفاتهم من بيع وشراء وعقود نكاح ، ونحو ذلك ، لا تنعقد .

فأفسدت هذه الفتوى على الأمراء حياتهم ، فقد توقف الناس عن التعامل معهم ، فعطلت مصالحهم . وكان في جملتهم نائب السلطنة فاستشاط النائب غضبا ، وملا الحنق نفسه ، وعجب من جرأة هذا الشيخ على الحاكمين بأمرهم . وأقسم ليشجئن رأسه ، وليقدن هامته بحد حسامه . وليلقين عليه درسا في معاملة الأمراء . . وقال : وكيف ينادى علينا هذا الشيخ ، ويبيعنا ، ونحن ملوك الأرض . والله لأضربنه بسيفي هذا . .

أسرع الأمير إلى دار الشيخ ، ممتطيا صهوة فرسه ، قابضا على قائم سيفه ، وشرر الغضب يتطاير من عينيه . وطرق الباب ...

نزل الشيخ للقاء الأمير . وابنه يرتعد فرقا على أبيه . وأبوه يقول له : « يا ولدي ! أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله . »

بهذا الإيمان الراسخ ، وبذلك العزيمة الثابتة ، لقي الشيخ هذا الأمير الناثر . هنا ، وقعت المعجزة ، وظهرت كرامة الشيخ ! فقد دبست يد الأمير ، وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله . . . فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعو له . . . واستطلعه رأيه في مسألتهم . . .

فطلب الشيخ أن يباعوا ويضم ثمنهم إلى بيت المال ، فكان له ما أراد ، وأشهروا في مزاد علني ، وقف الشيخ فيه ، وغالى في ثمنهم ، وأضاف الثمن إلى بيت المال .

وسواء أكانت يد الأمير قد دبست رهبة من الشيخ وهيبة ، أم هي كرامة من كراماته أيبستها ، فإنما يعيننا تحاذل الأمير وجبنه عن أن يلحق أى أذى بالشيخ ، كما يعيننا ثبات الشيخ وقوة نفسه التي أذلت له هؤلاء الطغاة .

يروى السبكي في طبقاته هذه القصة رواية الواثق بما يروى ، الحريص على تفاصيلها ، بما لا يدع لإنسان مجالا للشك في صحتها .

وقد قيل بصدها إن الشيخ سمع أن السلطان أنكر عليه تدخله فيما لا يعنيه . فعول الشيخ على الرحيل من مصر ، عائدا إلى بلاد الشام ، فلاحق به كثير من

المسلمين ، حتى خشى السلطان مغبة الأمر ، وأسرع باسترضائه فعاد .

إسقاط الأستاذ نجر الدين^(١) عثمان :

وهذا الأستاذ ، كان ذا حول وطول في عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي وكان الشيخ حينذاك ، قاضيا بمصر والوجه القبلي . فعلم أن نجر الدين هذا ، قد بنى « طبلخاناه » - مكانا للموسيقا - فوق سطح أحد المساجد بمصر . فحكم بهدم هذا البناء ، ومضى بنفسه ومعه أولاده ، وهدمه . وعزل نفسه من القضاء ، بعد أن أفتى بإسقاط نجر الدين الأستاذ ، - أي أنه أصبح غير عدل .

وقد قيل إن السلطان الصالح أرسل بعد ذلك ، رسولا إلى خليفة بغداد ، في أمر ما ، فسئل الرسول عن شافيه في هذا الأمر ، فقال : إنه الأستاذ نجر الدين عثمان . « فقيل له : إن رسالته لا تقبل ، لأن المذكور أسقطه ابن عبد السلام ، فلا تقبل روايته . . . »

عظته للسلطان :

وكان ذلك في يوم عيد وأبهة . قيل : دخل الشيخ على السلطان الصالح أيوب ، في يوم عيد بالقلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة حافل ، والسلطان قد خرج على القوم في زيلته ، وأخذ الأمراء يقبلون الأرض بين يديه والتفت الشيخ إليه وناداه : يا أيوب ! ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوى لك ملك مصر ؟ ثم تبيع الخمر ؟ ، فقال : « هل جرى هذا ، فقال : نعم ! الخانة الفلانية ، يباع فيها الخمر ، وغيرها من المنكرات ، وأنت تنقأ في نعمة هذه المملكة . . . » وكان الشيخ يناديه بهذا بأعلى صوته ، والعساكر واقفون .

فقال السلطان : « ياسيدي ؛ هذا ما أنا عملته . هذا من زمان أبي . » فقال الشيخ : « أنت من الذين يقولون « إنا وجدنا آباءنا على أمة » ؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الخانة . »

(١) في السلوك ج ١ ص ٣١٢ ، أن اسمه « معين الدين » وأنه كان وزير الصالح نجم الدين

قيل إن أحد تلاميذ الشيخ سأل عن هذه الحادثة وقال : كيف الحال ؟ فقال له الشيخ : يا بني ! رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ، لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه . فقال : يا سيدي أما خفته ، فقال : ، والله يا بني ، استحضرت هبة الله تعالى ، فصار السلطان قدامي كالقط .

آثاره وأقوال المؤرخين فيه :

للشيخ مواقف عدة على غرار ما سبق . وتذهب إليه كرامات كثيرة . ويقال إنه لبس خلعة التصوف . وكان يستثيره الوجد في مجلس أبي العباس المرسى الصوفي المشهور .

واشتغل بالتدريس زمنا طويلا وتتلذذ له جماعة ببيضوا من الزمان صفحته ، وجددوا للعلم برده ، وكانوا من بعده أمناء على الدين . وعلى رأسهم : تقي الدين ابن دقيق العيد القشيري .

ولما يم شطر مصر ، هاجرا بلاد الشام ، أكرمه حافظها الكبير ، وزاهاها ، الشيخ عبد العظيم المنذرى ، وامتنع عن الفتيا ، تعظيما له . قائلا : « كنا نفق قبل حضور الشيخ عن الدين ، وأما بعد حضوره ، فنصب الفتيا متعين فيه ، » .

وقال عنه السبكي في طبقاته : « شيخ الإسلام والمسلمين ، وأحد الأئمة الأعلام سلطان العلماء ، إمام عصره بلا مدافعة ، القائم بالأمر المعروف ، والنهي عن المنكر في زمانه ، المطلع على حقائق الشريعة وغوامضها ، العارف بمقاصدها ، لم ير مثل نفسه ، ولا رأى من رآه ، مثله علما وورعا ، وقياما في الحق ، وشجاعة ، وقوة جنان وسلاطة لسان . »

وقال فيه الذهبي في كتابه : العبر : « انتهت إليه معرفة المذهب مع الزهد والورع ، وبلغ رتبة الاجتهاد ، وقدم مصر ، فأقام بها أكثر من عشرين سنة ، ناشرا للعلم ، أمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر . »

وقال فيه ابن كثير في تاريخه : « انتهت إليه رئاسة المذهب ، وقصد بالفتوى من سائر الآفاق ، ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب ، بل اتسع نطاقه ، وأقنى بما أدى إليه اجتهاده ،

وقال تليذه ابن دقيق : « كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء ، وابن دقيق هو الذي أطلق عليه : سلطان العلماء .

وقال عنه جمال الدين بن الحاجب : « ابن عبد السلام أفقه من الغزالي . هذا وللشيخ عز الدين جملة من الفتاوى والمؤلفات . ومن محاسنه أنه كان إذا أفتى برأى مرة ، ثم تبين له فساد ، نادى على نفسه في مصر والقاهرة بألا يعمل أحد بفتواه .

من مؤلفاته ورسائله : (١)

- ١ - الفتاوى الموصلية . ٢ - مختصر النهاية واسمه « الغاية » . ٣ - تجرة المعارف . ٤ - القواعد الكبرى في الشريعة . ٥ - القواعد الصغرى وهى مختصر الكبرى . ٦ - كتاب مجاز القرآن ، في الشريعة . ٧ - الدلائل المتعلقة بالملائكة والنبين . ٨ - تفسير القرآن في مجلد مختصر . ٩ - مختصر صحيح مسلم . ١٠ - مختصر الرعاية ، والرعاية للحاسبى ، ١١ - بداية السؤل في تفضيل الرسول . ١٢ - الفرق بين الإيمان والإسلام . ١٣ - فوائد البلوى والمحن . ١٤ - الجمع بين الحاوى والنهاية . يبدو أنه لم يتمه . ١٥ - الإمام في أدلة الأحكام . ١٦ - بيان أحوال الناس يوم القيامة . ١٧ - الفتاوى المصرية . ١٨ - مقالة في الرد على الحشوية والمبتدعة من مدعى الحنبلية . ١٩ - مقاصد الصلاة . ٢٠ - مسائل الطريقة في علم الحقيقة ويعرف « بالسنتين » ، ٢١ - حل الرموز ومفاتيح الكنوز .

بعض هذه الرسائل موجود بدار الكتب . منه مخطوط كالفتاوى الموصلية .
والغاية والقواعد الكبرى . ومطبوع مثل حل الرموز ومسائل الطريقة ، ومجاز
القرآن واسم الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز .
التعريف ببعض هذه الرسائل :

١ - مقالاته في الرد على الحشوية ومبتدعة الحنابلة :

قد بينا فيما سبق ، ما يخص النزاع بينه وبين الحنابلة المبتدعة ، وردة عليهم ، بما
أدى إلى وقوع النفرة بينه وبين الملك الأشرف موسى . وناخص هنا ما قال في رده .
تقول الحشوية ومبتدعة الحنابلة أن كلام الله سبحانه وتعالى ، بحرف وصوت ،
وأن الأشياء لها فعل مؤثر في غيرها بنفسها ، كالنار فهي محرقة ، وكالماء فهو مزيل
للعطش ، وكالخبز فهو مزيل للجوع . وهكذا . وينكرون أن الإحراق والرى
والشبع ، وما مائلها ، من الله سبحانه وتعالى .
وقد فند الشيخ عز الدين في هذا المقال مزاعم هذه الفئة ، وقرر مذهب
الاشاعرة .

بدأ في مقاله ، بحمد الله وتنزيهه عن الولد ، وعن مماثلة الحوادث ، وتعالیه
عن الزمان والمكان ، وعن الاستواء الحسى على العرش ، وبين أنه مطلع على
هواجس الضمائر ، محيط بكل شيء علماء ، قديم متكلم ، لا بصوت ولا بحرف .
وبين أن أسماءه مندرجة في أربع كلمات هن الباقيات الصالحات ، وهن :
« سبحانه الله » . اندرج تحتها نحو القدوس والسلام ، وهى تتضمن تنزيهه
سبحانه عن كل نقص وعيب .

« والحمد لله » : ويندرج تحتها نحو العليم والقدير والسميع والبصير ، وتتضمن
إثبات كل كمال له وكل جلال .

« الله أكبر » : بمعنى أنه أجل مما نؤمن عنه ، وبما أثبت له . ويندرج تحتها
نحو الأعلى والمتعالى .

و لا إله إلا الله . . . وهي تدل على أن من كان في الوجود هذا شأنه ، فلا يوجد من يشاكله أو يناظره ، فهو مستحق للعبودية . ويندرج تحتها نحو الواحد والآخر وذو الجلال والإكرام .

ثم قال : « فسبحان من عظم شأنه وعز سلطانه ، يسأله من في السموات والأرض لافتقارهم إليه . كل يوم هو في شأن ، لا تقتداره عليه ، له الخلق والأمر ، والسلطان والقهر . فالخلائق مقهورون في قبضته ، والسموات مطويات بيمينه . يعذب من يشاء ، ويرحم من يشاء ، وإليه تقلبون . فسبحان أزلى الذات والصفات ، وبحي الأموات ، وجامع الرفات ، العالم بما كان وما هو آت . »

وبين بعد ذلك ، ما يجب على العلماء عمله ، وأن السلف لم يقتصروا في الدعوة ، والنهي عن المنكر . ومن أفضل المعروف التوحيد والتنزيه .

وتطرق إلى التفرقة بين كلام الله القديم ، والكلام المدون في المصاحف بالمداد وقال إن كل شيء مصدره الله سبحانه وتعالى ، وهو الخالق المسبب ، وما المأم والنار وأمثالهما إلا أسباب . وقد قال تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى . » وقال : « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أमत وأحيا . »

هذا وقد كتبت المقالة بأسلوب سهل لطيف واضح كثير الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآيات الشعرية المناسبة . وقد استغرقت نحو ثلاث ورقات متوسطة الحجم .

٢ — مسائل الطريقة في علم الحقيقة المشهور بالسنتين :

تصفحت مجموعة محتوية على ما يأتي :

١ - تحفة الأخوان في آداب الطريق : تأليف العارف بالله أحمد بن محمد

الدردير .

٢ - مسائل الطريقة في علم الحقيقة ، وهو المشهور بالسنتين . تأليف عز الدين

ابن عبد السلام .

(٣) منظومة في آداب الطريق للعارف بالله أبي يزيد البسطامي .
 ويهمننا هنا الكلام عن «مسائل الطريقة» لعز الدين بن عبد السلام فنقول:
 مسائل الطريقة أو الستون ، عبارة عن ستين مسألة أو سؤال في أمور تصوفية
 خلقية ، مع جواب كل منها . والأسئلة والأجوبة كلاهما مختصر موجز . والأجوبة
 طريقة كأنسائها . ومنها سؤال في الإيمان . وسؤال في تأويل «لا حول ولا قوة
 إلا بالله» ، وسؤال في الفرق بين الإسلام والإيمان . وهكذا . ولم يزد هذا
 الكتيب عن ثلاث ورقات .

ومن أمثلة ذلك قوله :

١ — «مسألة» : إذا قيل لك : «ما الإيمان» . وما رأس الإيمان . وما
 وسط الإيمان . وما شجرة الإيمان ، وما ماء الإيمان . وما نهر الإيمان ،
 «فالجواب» : أن تقول : «الإيمان هو الصدق . ورأسه التقوى . ووسطه
 الطاعة واليقين . وعروقه الصلاة والإخلاص . وشجرته الأمر بالمعروف والنهي
 عن المنكر . وغصنه التوحيد . وثمرته الزكاة . وأرضه المؤمنون . وماءه كلام
 الله . ونهره العلم .»

٢ — «مسألة» : إن قيل لك : «لكل شيء جوهر» ، وجوهر الإنسان
 العقل . وما جوهر العقل . فقل : «جوهرة العقل الصبر ، والعمل بحركات
 القلوب عند مطالعة الغيوب . وأصل الطاعة الورع . وأصل الورع التقوى .
 وأصل التقوى محاسبة النفس بالخوف والرجاء من الله تعالى .»

هذا وكثير من الأجوبة — على طرافته — في حاجة إلى شرح وإبانة . ولعل هذا
 نتيجة للإيجاز الشديد ووجود ألفاظ اصطلاحية صوفية في عبارته . ومثال ذلك :

١ — «مسألة» : إن قيل لك : «ما الذي يجب على الشيخ في حق المريد» .
 وما الذي يجب على المريد في حق الشيخ .»

« فالجواب » : أن تقول : « على الشيخ ثلاثة أشياء : التسليك في البداية ، والتبليغ في النهاية والحفظ في الرعاية - والمريد يجب عليه ثلاثة أشياء : « امتثال أمره وكتمان سره وتعظيم قدره » .

٢ - « مسألة » : إن قيل لك : « الجهل على كم قسم » . فقل : « على قسمين : جهل مركب وجهل بسيط . فالجهل المركب هو اعتقاد أمر على خلاف ما هو عليه والجهل البسيط هو عدم إدراك أمر من الأمور بخلاف المركب . وهكذا ،

٣ - حل الرموز ومفاتيح السكنوز :

للشيخ عز الدين كتاب في التصوف بهذا الاسم ، مطبوع مع كتاب للشيخ زكريا الأنصاري اسمه « فتح الرحمن بشرح رسالة اللولى رسلان » ، بمطبعة جريدة الإسلام بمصر عام ١٣١٧ هـ . وقد مُجلدا في مجلد واحد وهو تحت رقم ١٨٤ باب التسوف والأخلاق بدار الكتب بالمنصورة .

وكتاب « حل الرموز ومفاتيح السكنوز » لعز الدين بن عبد السلام يقع في نحو ٨٦ صفحة من القطع المتوسط .

وقد تصفحت هذا الكتاب . وموضوعه تصوفى خلقى إسلامى . وقد دفع المؤلف إلى تأليفه ما رآه من بعض المعترضين على الصوفية ، وعلى من تأخذهم أحوالها ، فيتموهون بعبارات غريبة المجاز خفية الكناية بعيدة التأويل ، أو يظهرهم بمظهر مضطرب يأباه الذوق وترفضه الكياسة ، أو قد يناقض الشريعة وظاهرها . — فأحب أن يبين لهؤلاء المعترضين سبب هذا التجوز أو الاضطراب أو التناقض وأن يفصح لهم عن كنه هذه الرموز ويحملهم حلها حتى لا يتورطوا في شيء لا يعلمون حقيقته ، وينزلقوا إلى حكم جائر على مظهر لا يدركون سره ، ولا يسيرون غوره ، ولم يطلعوا على باطنه .

وقد قال في المقدمة في معرض الاستدلال ، الحكاية التالية :

« وقد بلغنى عن « قضيب البان » ، بالموصل ، وكان عظيم الشأن ، وكان قد برز للناس بالوله والاختلال وترك الصلاة لا يأوى إلا المزابل ، ولا يتوقى النجاسة .

والناس متحيرون في حاله مختلفون في أمره . فقوم يقولون : زنديق . وقوم يقولون : صديق . فبينما يوم من الأيام ، كان قاضي المدينة مارا إذ رآه على مزبلة ، وقد بال على ساقيه . فقال الغاضي في نفسه . « تبا لمن جعلك صديقا ، وما أنت إلا زنديق ، فما استقم الخاطر ، حتى قال قضيب البان : « يا قاضي ! قد أحطت بجميع علم الله ، ؟ قال له : « لا والله . قال : « فأنامن ذلك العلم الذي لا تعلمه ، وما عليك إن كنت صديقا أو زنديقا . »

فلهذه الحالة وأشباهاها ، وما يكتنفها عادة من غموض وما يلابسها من عبارات مبهمه على أهل الظاهر ألف الشيخ عز الدين كتابه هذا . وقد قال بعد أن سرد القصة السالفة :

« فلما رأيت هذه الأقوال الصادرة عن أهل الأحوال ، وقد أشكل على الأفهام تعليلها ، وعزب عن الأوهام تأويلها ، أحببت أن أشرح منها ما اشرح له صدرى ، وسنح به فكبرى ، وبلغ إليه قدرى . وذكرت فيه من العبارة ما ليس فيه استعارة ، وقدمت ذكر هذه الأحاديث وما معها من الألفاظ المأثورة عن الرجال ، وجعلتها أسا للكلام وبينت لثبوت الأحكام لتكون منوالا أنسج عليها ما كان حالا لا محالا ، وسميتها « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » وإنما سميتها بهذه التسمية لأنها تشير إلى المقام الأشرف المعروف منه « كنت كنزا لا أعرف » .

ويشتمل الكتاب على عدة فصول مكتوبة بأسلوب جذاب واضح وضوحا نسبيا ، على الرغم من خطورة موضوعاته وصعوبتها على أهل الظاهر أمثالنا . . . وهو يسجع أحيانا إذا صفا له السجع ، ويسترسل إذا طاوعه اللفظ ، وسهل به توضيح المعنى . ويستشهد بآى القرآن أو كلام النبي عليه السلام ، ويفسر ويشرح أحيانا ، ويستنبط أحيانا أخرى ، كما يستشهد ببعض العبارات والأشعار المأثورة وقد يسوقه وجد ما هو بصدد شرحه من معانى فيأدب ويخف ويظرف ، ويسوق لنفسه الأبيات الشعرية الطريفة من باب الاستشهاد والتدليل . وهو - مع ذلك - بعض الأحيان تغلبه العبارات المنطقية .

وأهم ما تناول الكلام عنه في الفصل الأول : بيان الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان . وشرح معنى التوبة وأقسامها .

وتكلم في فصل عن العقبات الستة التي لا بد من قطعها حتى يصل المرء إلى منازل القربات . وبين ما يترتب على تخطي كل عقبة من فتوح . . وهي على التوالي : فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية ، وفطم النفس عن المألوفات العادية ، وفطم القلب عن الرعونات البشرية ، وفطم السر عن السكذورات الطبيعية ، وفطم الروح عن التجارات الحسية ، وفطم العقل عن الخيالات الوهمية . .

وتكلم في فصل عن فناء المحب في المحبوب وطريقة ذلك وعمما تبعه من فيض ، مفسرا قول النبي عليه السلام . نخبأ عن الله سبحانه . لا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحبيته كنت له سمعا وبصرا وفؤادا . .

وقد سار في بقية الفصول موضحا ضروبا من عقائد الصوفية . وكلها تدور على تحليل الصلة بين العبد وربّه وبين حقيقةً وكيفيتها — ولا يمكننا تفصيل كل ذلك في هذا المقام .

مختارات مما قاله في هذا الكتاب :

١ — في بيان الفرق بين العلم والعمل والحال :

اعلم أن العلم مقدمة، نتيجتها العمل . والعمل مقدمة نتيجتها الحال . فالعلم والعمل كسبي ، والحال وهي . قال الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، فالجاهدات بالعلم والعمل . والهداية مواهب الله تعالى في الأحوال . وهذا معنى قوله عليه السلام . « من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لا يعلم . فالذي أورثه الله عبده لم يكن من كسبه ، بل بفضل الله وبرحمته . وبذلك من الله على نبيه عليه السلام ، فقال : « وعليك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما . »

٢ — في بيان الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان .

« ثم اعلم أن مراتب السلوك إلى منازل الملوك ثلاثة : الإسلام والإيمان والإحسان . فالإسلام أو مراتب الدين لعامة المؤمنين . ثم الإيمان أول مدارج

القلب الخاصة المؤمنين . ثم الإحسان أول معارج الروح الخاصة المقربين . . .
وقد أورد بعد هذه العبارة ، تدليلاً عليها ، حديث عمر رضى الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم ، لما أتاه جبريل على هيئة رجل شديد بياض الثياب ، شديد
سواد الشعر . . . وجلس إليه يسأل عن الإسلام فقال له النبي عليه السلام : « أن
تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة
وتصوم رمضان ، وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً ، . . . » ثم سأله عن
الإيمان فقال النبي عليه السلام : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر والقدر خيره وشره » : ثم سأله عن الإحسان فقال له عليه السلام : « أن
تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

ثم قال في موضع آخر : « فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث
أن أدب السلوك في خدم الملوك ثلاثة ، فالإسلام قيام البدن بوظائف الأحكام .
والإيمان قيام القلب بوظائف الاستسلام . والإحسان قيام الروح بمشاهدة
الملك العلام . . . »

٣ — وقال من فصل يوضح بعض الحالات عند من تخطى العقبات الست :
« هنا لك تغيب بما تشاهد من اللطائف الأنسية عن السكثائف الحسية . فإذا
أرادك لخصر صبية الاصطفائية ، سقاك بكأس محبته شربة تزداد بذلك ظمأ ،
وبالذوق شوقاً والقرب طلباً وبالسكون قلقاً . . . » — وبعد أن روى أرباباً شعرياً
مناسبة قال — وعباراته هنا تحتاج إلى روية في فهمها — « فإذا تمكن منك هذا
السكر أدهشك . فإذا أدهشك حيرك . فأنت ههنا مُريد . فإذا أدام لك تحريك
أخذك منك وسلبك عنك . فتبقى ثم مسلوباً مجذوباً ، فأنت حينئذ مُمراد . إذ أنت
معه بلا أنت وعنده بلا أين . مشاهدُه بلا كيف . فإذا فنيت ذاتك وذهبت
صفاتك قام بصفاته عن صفاتك ، وببقائه عن فناءك . وخلع عليك خلعة « في
يسمع وبني يبصر » . فيكون هو متوليك ومواليك . فإن نطقك فبأذكاره ، وإن
نظرت فبأنواره ، وإن تحركت فبقاداره . فهنا لك ذهبت الاثنية ، واستحالت

البينية . فإذا رسخ قدمك وتمسكن سرك ، وحر سكرك قلت : « هو » . وإن غلب وجدك وتجاوز بك سكرك عن حد الثبوت قلت : « أنا » . فأنت في الأول متمكن وفي الثاني متلون . ومن هنا أشكل على الأفهام حل رمز هذا الكلام . فقائل يقول : « زنديق فيقتل » . وقائل يقول : « صديق فيحمل » وقائل يقول ، مغلوب عليه فيهمل . فهو من حيث تحقيق حاله محقق في علمه . والذي حكم في قتله مصيب في حكمه . إذ الشريعة لها حدود ، من تعداها أقيمت عليه الحدود . قال الله تعالى « تلك حدود الله فلا تعتدوها » ، والحقيقة لها شهود خارج عن طور هذا الوجود ، إلى آخره . . — وفي هذا ما يكفي .

قبل أن نترك الكلام عن هذا العالم الجليل نذكر أن الروح الأدبية تبدو من خلال عباراته ، وإن كان ذلك بمقدار يسير . غير أن له نفس الأديب وطرب الأديب . ألا ترى أنه كان يسجع ويطابق ويحانس في كلامه ويستشهد بالأشعار .. ثم ألا تسمع ما قاله فيه القطب البوني :

« وكان مع شدته وصلابته حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار يحضر السماع ويرقص فيه ،

هذا مع أنه صوفي وهـ ولف في التصوف وكان يحضر مجالس علماء الصوفية ويستمتع من أبي العباس المرسى وأبي الحسن الشاذلي . ثم لعل الصوفي الخالص هو الأديب في أسمى مراتبه ..

ولقد قال فيه ابن كثير أيضا : « كان لطيفا ظريفا يستشهد بالأشعار » . هذا ، وقد ذكر السبكي في طبقاته في سياق ترجمة هذا الرجل أنه أنشد لنفسه بيتا على تلاميذه وطلب إليهم أن يحيزوه . وهو :

لو كان فيهم من عراه غرام ما عنفوني في هواه ولا مـوا
فأجازه شمس الدين عمر بن عبدالعزيز بن الفضل الأسواني قاضي أسوان
فقال أبياتا منها .

لكنهم جهلوا لذاذة حسنه وعلمتها ولذا سهرت وناموا
لو يعلمون كما علمت حقيقة جنحوا إلى ذاك الجنب وهاموا
إلى آخرها . —

وقد قال السبكي بصدد البيت المذكور ، ولم يكن له من النظم غيره ، ولا أدري
هل نفهم من هذه العبارة أن ليس له شعر غيره مطلقا ، أو إلى ذلك الحين فقط أى
حين إنشاد البيت لتلاميذه . . . نقول ذلك لأن للشيخ عز الدين شعرا كثيرا
في كتابه ، حل الرموز ومفاتيح السكنوز ، . ومنه قوله في ص ١٦ بعد أن شرح
كيفية اتصال النار بالماء فيصبح حارا مع بقاء حقيقته السائلة . قال ، ولقد أشرت
إلى ذلك فقلت ، :

نار المحبة أحترقت أحشائي ومسدا معي تنهل كالأنواء
فأنا الحريق بأضلعي وأنا الغريق بأدمعي يا منقذ الغرقاء
ومن العجائب أن نار تحرقى تزداد وقداء عند فرط بكائي
فالنار والماء القراح تألفا هذا لعمري أعجب الأشياء

وله في الكتاب المذكور أشعار كثيرة على هذا النمط وهي متوسطة الجودة
وكلها في التصوف ، ولذلك تراها كثيرة المجازات خفية الكنايات كثيرة
الزمر والاشارات .

للشيخ ابن اسمه ، عبد اللطيف ، ذكره السبكي في طبقاته ج ٥ ص ١٢١ —
توفي عام ٦٩٥ هـ .

« ترجمت في طبقات السبكي الكبرى ج ٥ ص ٨٠ ، فوات الوفيات ج ١ ص ٣٦٦ ، وحسن
المحاضرة ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٩٢ ، ج ٢ ص ١٠٩ ، ح ١ من ابن أبياس ص ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١١٢ ،
وسلوك المقرئ في موضع عدة »

٢ - محي الدين النووى ٥٦٣١ - ٥٦٧٦ هـ

وهذا قطب آخر من أقطاب العلم ، ومثل عال من أمثلة الورع والزهد ، والدأب فى سبيل إحياء مآثر الدين وعلوم الإسلام ، والعكوف على الدرس والتحصيل ، والبحث والاستقصاء ، والانكباب على التصنيف والتدوين .

وهو من وهبوا النفس للعمل الصالح ، ووقفوا الجهد على خير الناس ، حتى أصبح قدوة يقتدى بها ، وسراجا يستضاء به ، ورأسا متبعا فى جيله ، وما بعده جيله .

اسمه : محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرى بن حسن بن حسين بن حزام ابن محمد بن جمعة الحراى النووى ، شيخ الإسلام .

مولده ووفاته : ولد بنوى إحدى قرى الشام ، قرب دمشق . فى المحرم سنة ٥٦٣١ هـ وتوفى بها كذلك فى ٢٤ رجب سنة ٥٦٧٦ هـ ودفن بها .

طرف من حياته :

يستخلص من سيرته ، أن أباه كان مستوطنا بنوى . فولد محي الدين بها . وقيل إنه لما بلغ السابعة ، انتبه من رقده فى إحدى ليالى رمضان - وكان نائما بجوار أبيه - فقال . يا أبت ! ما هذا الضوء الذى ملأ الدار ؟ فأدرك والده أنها ليلة القدر ، واستيقظ أهله جميعا ، ولم يروا من الضوء شيئا .

لعل أبسط ما ندرك من قصة الضوء ، أن النووى كان مبروك الطالع ميمون الحظ ، موفقا ، منذ صغره .

ويفهم من سيرته كذلك ، أنه وهو صبي ، كان عازفا عن ملاحى الصبيان ،

أبياً على مشاركتهم في مسلياتهم ، عيوافاً عن أن ينغمروا في لغوهم ، مفضلاً جانب الهدوء والسكينة ، على اللجاج معهم في ألعابهم ، حتى كانوا يضطرون إزاء صمته وجموده ، إلى إكراهه على اللعب معهم . . . فكان يفر منهم باكياً . . . ولكن إلى أى شيء كان يفر ؟ كان يفر إلى قراءة القرآن . . .

هذه حالة تدعو — بلاريب — إلى الإعجاب بهذا الطفل الصغير . وتسوق المشاهدين إلى أن يتوسموا فيه الخير ، ويتوقعوا له المستقبل الكريم . فكان منهم من يتقدم إلى أبيه ، فيبشره ويوصيه به خيراً .

وهكذا حرص أبوه على العناية به ، حتى حفظ القرآن الكريم ، وختمه وقد ناهز البلوغ . فكان ذلك معيناً له — بلاريب — في حياته الدينية الجليلة .

أخذ نفسه بالدرس والاطلاع ، والمواظبة على مجالس العلم ، والعودة إلى الأساندة . مع رغبة ملحة في التحصيل والفهم . غير مبالي في سبيل ذلك بتعب أو إجهاد . قيل إنه كان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على مشايخه شرحاً وتصحيحاً ، درسين في الوسيط ودرساً في المذهب ، ودرساً في الجمع بين الصحيحين ، ودرساً في صحيح مسلم ، ودرساً في اللمع لابن جني ، ودرساً في إصلاح المنطق ، ودرساً في التصريف ودرساً في أصول الفقه ، ودرساً في أسماء الرجال ، ودرساً في أصول الدين^(١) وقد قال عن نفسه . « وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ، ووضوح عبارة ، وضبط لغة ، وبارك الله في وقتي ،

لم يجد النوى عناء وجهداً في توجيه نفسه هذه الوجهة ، وفي انتحائه هذا المسلك بل كان يجد لذة وسعادة ، لاتفاق هذا النهج مع ميوله وآماله .

وكان يستعين على نفسه وادخار وقته ، بالإقلال من الطعام ، والقناعة بالضئيل الحشن منه ومن الثياب . لا يثقلها بالترف ، أو يشغلها بمضا عفاته . . .

١ — هذه عبارة الذهبي ، وهي تنقص درساً .

ثم كان لا بد له من الطواف والرحيل من مكان إلى مكان ، طلباً للحديث والفقہ - وقد كان شافعي المذهب - فقدم إلى دمشق عام ٦٤٩ هـ ، وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، فسكن في الرواحية ، واكتفى بنخب المدرسة . وحفظ كتاب التلخيص في أربعة أشهر ونصف . وربع كتاب المذهب ، في بقية السنة ، وقرأه على شيخه كمال الدين بن أحمد . ثم يم شطر الحجاز مع أبيه ، فأقام بالمدينة شهراً ونصفاً ، مرض خلالها زمناً ، ثم عاد إلى الشام . وقد ولي عدة مناصب ، منها مشيخة دار الحديث عام ٦٦٥ هـ ، فلبث بها حتى توفي .

وقبل وفاته زار بيت المقدس ، وعاد إلى نوى ، ففرض عند والده ، وحضرته منيته في ٢٤ رجب عام ٦٧٦ هـ ، وهو في نحو الخامسة والأربعين من عمره . قال الذهبي نقلاً عن بعضهم : إن قبره ظاهر بنوى يزار . - كان ذلك على عهد الذهبي .

بعض صفاته وعلمه :

تطالعنا من سيرته جملة صفات ، تحلى بها ، منها : الورع والزهد ، والعيوف عن الدنيا وملاذها ، والصبر على مشقات الحياة ، وما يتطلبه طلب العلم من ريث وجهد ورغبة جامحة في التزود للدار الآخرة بالعلم والعمل .

ولقد امتلأ رأسه بمعارف عصره من حديث وفقه وغيرهما ، فكان حافظ عصره وفقه جيله ، ورأساً من شافعية زمانه .

وكان جريئاً في الحق ، وفي الدعوة إليه ، سريعاً إلى إرشاد الظالم ولو كان غشوماً ، وقيل إنه أرسل إلى الملك الظاهر بيبرس ، شكوى ، يصف له فيها ما يعانيه أهل الشام من ضيق وضنك ، وفيها يطلب إليه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . واشتط في نصيحته له ، حتى اضطرب بيبرس إلى نفيه زمناً . وحكى عن الظاهر أنه قال : « أنا أفزع منه » .

هذا ، مع دأب في العبادة ، والتزام للذكر والحمد ، واشتغال بالتصنيف والتدوين

وقد نبه — كما أشرنا — في الحديث والفقه ، وأضاف إليهما اللغة والمنطق والأصول . وخطر له الاشتغال بالطب وغيره من السكونيات ، فلم يجد في نفسه إقبالا عليه ، فهجره إلى ما شغف به من علوم الدين واللغة . فسمع وتفقه ، حتى حدث وروى وأفتى ، وصنف وجمع وشرح . فكان آية في كل خطوة يخطوها ، وقدوة في كل مرحلة يرتحل إليها . حتى أحبه الناس ، وتبركوا به .

قال الذهبي ما مؤداه : « إن شيخه ابن فرح ، قال مرة : « إن الشيخ محي الدين قد صار إلى ثلاث مراتب ، كل مرتبة لو كانت لشخص ، لشدت إليه الرحال : العلم والزهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . »

وروى تاج الدين السبكي في الطائفات ، أن أباه تقي الدين السبكي ، لما سكن في قاعة الحديث الأشرفية ، كان يخرج في الليل إلى إيوانها ، فيتهجد تجاه الأثر الشريف ، ويمرغ وجهه على بساطه ، حيث كان يجلس النواوي وقت درسه . وأنشد لنفسه :

وفي دار الحديث لطيف معنى على بسط لها أصبو وآوى
عسى أنى أمس بحر وجهي مكانا مسسه قدم النواوي

بعض شيوخه :

سمع الحديث من الرضى بن البرهان ، وشيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصارى ، وزين الدين بن عبد الدايم ، وعماد الدين بن عبد الكريم . وشرح أحاديث الصحيحين على المحدث أبى إسحق إبراهيم المرادى . وأخذ الأصول عن القاضى التفليسى ، وتفقه على الكمال إسحق المعرى ، وشمس الدين عبد الرحمن الإربلى . وقرأ اللغة على الشيخ أحمد المصرى . وقرأ على ابن مالك النحوى كتابا من تصنيفه .

بعض تلاميذه :

تخرج به تلاميذ فضلاء ، كانوا علماء عصرهم ، منهم : الخطيب صدر الدين سليمان

الجعفرى ، وشهاب الدين أحمد بن جهمان ، وعلام الدين بن العطار . وحدث عنه ابن أبى الفتح ، والمزى ، وابن العطار .

أقوال المؤرخين فيه :

قال الذهبي : « قال الشيخ قطب الدين اليونينى : كان أوحده زمانه فى العلم والورع والعبادة والتقليل وخشونة العيش — وقال الشيخ شمس الدين بن الفخر الحنبلى : كان إماماً بارعاً حافظاً متقناً ، أتقن علوماً جمّة وصنف التصانيف الجمّة ، وكان شديد الورع والزهد . وقال ابن العطار : ذكر لى شيخنا — رحمه الله تعالى — يعنى النواوى — أنه كان لا يضيع له وقتاً ، لا فى ليل ولا نهار ، حتى فى الطريق . وأنه داوم ست سنين ، ثم أخذ فى التصنيف والإفادة والنصيحة وقول الحق . قلت : مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه ، والعمل بدقائق الورع ، والمراقبة وتصفية النفس من الشوائب ، ومحقها من أغراضها . وقال التاج السبكى عنه : « الشيخ العلامة شيخ الإسلام ، أستاذ المتأخرين وحجة الله على اللاحقين ، والداعى إلى سبيل السالفين ،

استدراك على السبكى :

قال تاج الدين السبكى فى طبقاته يصف النواوى ومؤلفاته ، فى سياق ترجمته له ، فقال بالنص :

« لا يخفى على ذى بصيرة ، أن الله تبارك وتعالى ، عناية بالنواوى وبمصنفاته . ويستدل على ذلك بما يقع فى ضمنه من فرائد حتى لا تخلو ترجمته من فوائد . فنقول : « ربما غيّر لفظاً من ألفاظ الراعى ، إذا تأمله المتأمل ، استدركه عليه . وقال : لم يف بالاختصار ولا جاء بالمراد . ثم نجمده عند التثقيب قد وافق الصواب ونطق بفصل الخطاب . وما يكون من ذلك عن قصد منه ، لا يعجب منه ، فإن المختصر ربما غيّر كلام من يختصر كلامه لمثل ذلك . وإنما العجب من تغيير يشهد العقل بأن لم يقصد إليه . ثم وقع فيه على الصواب . »

ثم ضرب السبكي لذلك مثلاً ، ما قاله الرافعي في كتاب « الشهادات » في فصل « التوبة عن المعاصي الفعلية في التائب » قال الرافعي : « إنه يُختبر مدة يغلب على الظن فيها أنه أصلح عمله وسريته ، وأنه صادق في توبته » ثم قال : « وهل تُقدر تلك المدة ؟ » ثم أورد خلافاً بين أصحاب المذهب على ذلك . فمنهم من لا يقدرها والمُعتبر فيها غلبة الظن بصدق التائب فتختلف باختلاف الأشخاص والظروف ومنهم من يقدرها ، وأكثر هؤلاء يقدرونها بستة أشهر .

ثم أورد السبكي كلام النووي في هذه المسألة ، في كتابه « الروضة » حيث قال : « إن الأكثرين على تقدير المدة بستة » . ووضح أن هناك خلافاً بين تقريرى الرافعي والنووي .

ثم أورد السبكي جملة من آراء أهل المذهب ، خلاص منها بأن أكثرهم على تقدير المدة بستة . وهو مطابق لما قرره النووي . ثم عقب السبكي على ذلك بقوله : فظهر حسن صنع النووي ، وإن لم يقصده ، عناية من الله تعالى به . . .

اعتقادنا أن السبكي لم يوفق تماماً في عباراته التي وصف بها النووي . وعناية الله غاية ما يتمناه المرء لنفسه ، ولكن ذكرها في مقام البحث العلمي الذي مرجعه إلى ذهن الباحث وإحاطته بمتفرقات بحثه ، ودقة جمعها وملاءمته بينها ، وصواب استنباطه منها ، ودقة التعبير عن رأيه فيها ، يستر تحته غضا من هذا الذكاء .

ولعل كثيرين من الشافعية ، وكثيرين من غيرهم أيضاً ، يدفعهم إلى مثل هذا الضرب من التقدير — وهم بصدد الحديث عن النووي — كثرة مؤلفاته ، وسعة محيطه ، وعمق نظراته ، وحضور بديته ، وتوفيقه في تعبيره . وهي مزايا لا يتسع لها مثل هذا العمر القصير ، الذي عاشه النووي ، وهو خمس وأربعون سنة .

مؤلفاته :

لنووي جملة من المؤلفات ، تعتبر في طليعة المؤلفات الدينية في الفقه والحديث وهي أسس ودعائم في فقه الشافعية ، بنى عليها أئمة المذهب من بعده . فتناولها كبارون منهم بالشرح والتفصيل ، أو الاختصار ، وبخاصة كتاباه : المنهاج والروضة

وقد عني هو نفسه ، بكتب المتقدمين من أئمة مذهبه ، فتناول بعضها ، تصحيحاً أو شرحاً أو اختصاراً ، مثل كتب الرافعي وأبي إسحق الشيرازي .

هذا عدا ما كتبه في التصوف ونحوه .

وفي دار السكتب المصرية عدد من مؤلفات النووي ، منها مخطوطات طبعت ، ومخطوطات لا تزال بدون طبع . فمن المطبوع ، اعتماداً على فهرس الدار ، ومعجم سر كيس ، ما يلي :

- ١ — الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار في التصوف . ٢ — الأربعون حديثاً النووية ٣ — الإيضاح في المناسك ٤ — التبيان في آداب حملة القرآن في التصوف ٥ — الترخيص والقيام لذوى الفضل والمزية من أهل السلام ، ٦ — تصحيح التنبيه ، ويسمى « عمدة المفتي والطالب النبيه في تصحيح التنبيه » . والتنبيه كتاب لأبي إسحق الشيرازي في الفقه ٧ — التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير ، في أصول الحديث ، لخص به كتابه الذي اختصره من كتاب علوم الحديث لابن الصلاح . ٨ — تهذيب الأسماء واللغات . ٩ — حلية الأبرار وشعار الأخيار في تلخيص الدعوات والأذكار ، ويعرف بأذكار النواوي في التصوف . ١٠ — روضة الطالبين وعمدة المفتين : في الفقه . ١١ — رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين : أحاديث صحيحة في الترغيب والترهيب والزهد ورياضة النفس . ١٢ — مقاصد النووي : في التصوف ونحوه ١٣ — منهاج الطالبين وعمدة المفتين : مختصر لكتاب المحرر في فقه الشافعي . ومعه كتاب « الدقائق » للمؤلف في شرح منهاجه . ١٤ — المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج : في الحديث وهو مطبوع على هامش شرح البخاري للقسطلاني . ١٥ — المجموع وهو في شرح تهذيب الرافعي ، في الفقه ، لم يتمه . « سنشير إليه عند ترجمة التقي السبكي » ، ومن المخطوط .

١ — بستان العارفين : في التصوف ، ٢ — حزب النووي : في التصوف

— ولعله حلية الأبرار . ٣ — التحرير : في الفقه ، وشرح فيه ألفاظ كتاب التنبيه ،

لأبي إسحق الشيرازي — ولعله « تصحيح التنبيه » . ٤ — شرح المذهب : في
الفقه . والمذهب لأبي إسحق الشيرازي . ٥ — فتاوى النووى : في الفقه .
٦ — المنثورات وعيون المسائل المهمات : في الفقه — لعلها الفتاوى المذكورة .
٧ — مقدمة شرح المذهب للشيرازي . ٨ — خلاصة الأحكام من مهمات السنة
وقواعد الإسلام : في الحديث .

وذكر له الذهبي جملة من المؤلفات ، لم يرد ذكرها فيما سبق ، وهي :

١ — الإرشاد في علوم الحديث . ٢ — التقريب مختصر الإرشاد
٣ — المهمات ٤ — المناسك ، وله ثلاثة كتب في المناسك ، غير كتابه الأول
المسمى « الإيضاح في المناسك » . ٥ — شرح قطعة من صحيح البخارى ٦ — شرح
قطعة من الوسيط ٧ — قطعة في الأحكام . لعلها « خلاصة الأحكام » ، المذكورة
فيما سبق : ٨ — مسودة في طبقات الفقهاء .

ملحوظة : توجد مؤلفات كثيرة تتصل بمؤلفات النواوى ، شرحها أو اختصارا
أو تعليقا أو نحو ذلك . وضعها علماء أفاضل منهم التقي السبكي والبدر الغزى وابن
قاضى شعبة والسيوطى . فنلفت إليها النظر . وكثير منها مطبوع ، وموجود بدار
الكتب المصرية ، راجع الفهرس ، باب الحديث والفقه والتصوف .

التعريف ببعض مؤلفاته :

١ — رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين :

تصفحت نسخة من هذا الكتاب ، بمكتبة معهد الاسكندرية الدينى ، وهي مطبوعة
بمكة عام ١٣٠٣ هـ ، في حجم كبير وورق أصفر تبلغ صفحاته نحو ٢٣٩ .
أما موضوع هذا الكتاب ، فكما ذكره النواوى في مقدمته إذ قال : « رأيت
أن أجمع مختصرا من الأحاديث الصحيحة ، مشتملا على ما يكون طريقا لأصحابه
إلى الآخرة ، وعصلا لأدابه الباطنة والظاهرة ، جامعا للترغيب والترهيب ، وسائر
أنواع آداب السالكين ، من أحاديث الزهد ، ورياضات النفوس ، وتهذيب

الأخلاق، وطهارات القلوب، وصيانة الجوارح وإزالة اعوجاجها، وغير ذلك من مقاصد العارفين... الخ.

فهو كتاب جامع لكثير من أحاديث الرسول عليه السلام، في موضوعات مختلفة يجمعها كلها أنها تروض النفوس وتهذب الأخلاق وتبصر المرء بخير مسالك الحياة وأبرها وأشرفها، حتى ينجو من شرورها، ويحظى بالنعيم في آخرته.

وقد التزم المؤلف، ألا يذكر فيه، إلا حديثاً صحيحاً منسوباً إلى مصدره من كتب الحديث الصحيحة. ولم يُعن بتدوين الإسناد، وذكر الرواة، إلا الأقربين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد أكثر من النقل من صحيح البخاري ومسلم. وكثيراً ما يفتتح الفصل بذكر ما اتصل به من آيات قرآنية، فيروى آية أو أكثر، ثم يثنى برواية الأحاديث المتصلة بهذا الفصل، وكثيراً ما يخلل ذلك بشروح قيمة من عنده في الموضوع.

والرجل بجانب أنه محدث، فقيه وزاهد. لهذا ظهرت خصوصياته الثلاث في كتاب «رياض الصالحين»، ولعل أمراً يظن أنه يرسم للناس طريق الزهادة، على نهج الصوفية. والواقع أنه كان في كتابه هذا، محدثاً أولاً فالكتاب، لهذا، كتاب حديث. يخلله بشروح شتى تفصل مسائل عدة من الأحكام الشرعية. فهو بعد، كتاب فقه. وإذا نظرنا إلى موضوعه، وهو الحديث في الزهد عن الدنيا والعبوف عن مباحها ومتاعها، رأيناه في النهاية كتاب تصوف ولكن تصوف من النوع الشرعي السهل الانساني، الذي لا تعقيد فيه.

وأسلوب الكتاب سهل لطيف واضح المعاني، يحلو للقارئ أن يخلو بنفسه حيناً، ويقرأ فصوله للعظة المسلية، والتعليم المحبوب.

وفيه فصول كثيرة، منها فصول في العبادات والأخلاق: كالطهارة والصبر، والصدق، والتعاون على البر والتقوى، والوصية بالنساء، وحق الزوج على امرأته، والنفقة على الأولاد، وحق الجار، وبر الوالدين، والخوف والرجاء، والزهد والقناعة والسكرم، واستحباب العزلة. ومنها فصول في الطعام وتناوله، والضياف وما يتصل بها، وآداب السفر، والاستئذان. إلى غير ذلك.

٢ - الأربعون حديثاً النووي :

من الكتب المشهورة طبع ، ومنه نسخ مخطوطة بدار الكتب .
وقد ألفه النووي استجابة لقول الرسول صلوات الله عليه : « من حفظ على
أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها ، بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء
والعلماء » . فدوّن أربعين حديثاً من الأحاديث النبوية الشريفة التي يحفظها .
وقد استجاب لهذه الدعوة كثير من العلماء غير النووي ، ولهذا ترى عدداً محدوداً
من كتب « الأربعين حديثاً » ، تزدان بها مكتبة الحديث . وفي مقدمتها كتاب
النووي ، وليس أول كتاب من نوعه . فقد تقدمته كتب عدة .
غير أن النووي خالف من تقدموه فيما سجله من الأحاديث . فقد رأى
بعضهم جمع أحاديثه في الأصول ، وبعضهم في الفروع ، وبعضهم في الجهاد ، وبعضهم
في الزهد ، وبعضهم في الآداب ، إلى غير ذلك . أما هو فقد رأى أن تكون
أحاديثه عامة شاملة لأنواع كثيرة . وكل حديث منها قاعدة جلية من قواعد
الدين .

وقد ألزم النووي في أحاديثه الأربعين أن تكون صحيحة ، معظمها بما رواه
البخاري ومسلم ، ذكرها بلا أسانيد ، إلا رواها الأول عن الرسول عليه السلام .
وأول هذه الأربعين قول الرسول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

٣ - منهاج الطالبين وعمدة المفتين :

توجد من هذا الكتاب ، في دار الكتب المصرية عدة نسخ مخطوطة ، وأخرى
مطبوعة ، منها المطبوع في مصر ، والمطبوع في غيرها .
تصفحت نسخة مطبوعة في بتيافيا عام ١٨٨٢ م ، ٨٣ ، ٨٤ ، في ثلاثة مجلدات ،
كل مجلد في سنة ، على التوالي ، بإشراف أحد الإفرنج وهو « فاندنبرج » ، وحروفها
العربية ضخمة . وبها ترجمتها وتعليقات عليها باللغة الفرنسية .

والسكتاب — كما قال مؤلفه — مختصر لسكتاب آخر هو « المحرر » للإمام أبي القاسم الرافعي ، في فقه الشافعية . وقد رأى النواوى أن كتاب الرافعي المذكور ، على أهميته العظيمة ، ضخم الحجم يحتاج إلى الاختصار . فاختصره ، وسكنه راعى في اختصاره جملة أمور ، منها أنه ضم إليه بعض النفائس المستجادة ، التي لا توجد في الأصل ، ومنها التنبيه على قيود في بعض المسائل ، وكانت هذه القيود محذوفة من الأصل . ومنها النص على بعض مواضع ذكرها الرافعي في محرره ، مخالفا فيها المختار من المذهب . ومنها إبدال بعض ألفاظ « المحرر » ، بما يُعد غريباً أو موهماً غير الصواب . ووضع مكانها ألفاظاً وعبارات ، أكثر وضوحاً ، وأشد اختصاراً . وقد وضع النزوى بجوار هذا جملة من الألفاظ الاصلاحية التي تعبر عن وجهات النظر المختلفة في الأحكام .

وقد سار في كتابه وفق المجهود في كتب الفقه ترتيباً للأبواب والفصول ، فأولها مثلاً : كتاب الطهارة وأسباب الحدث ، فباب الوضوء فالمسح على الخفين ، فالغسل ... الخ .

وأسلوب السكتاب سهل ميسور الفهم ، وإن كان محتاجاً إلى شيء من المراتبة والمعالجة ، من بعض القراء ، لما فيه من مصطلحات في اللفظ والأسلوب .

٤ — كتاب الأذكار المنتخب من كلام سيد الأبرار :

ويعرف « بالأذكار النووية » ، وهو كتاب في حديث رسول الله عليه السلام ، مما يتعبد به أحيانا ، أو مما يستحسن قوله ، أو عمله في مناسبات الحياة ، غير العبادات المفروضة . كاستقبال النوم أو الذهاب إلى دار الخلاء ، أو التطهر أو الإملاك ، أو الدخول بالزوجة أو نحو ذلك من الشئون الخاصة . يصف النواوى ما ينبغي انتباهه من العمل ، أو التفوه به من القول ، في كل مناسبة من هذه المناسبات . ثم يتبع هذا الوصف بالمأثور عن الرسول من قول أو عمل ، في مثلها .

وقد اعتمد النواوى على كتب الحديث الخمسة : البخارى ومسلم وأبى داود ،
والترمذى والذهاوى ، فاستخرج من صحيحها أحاديثه المختارة فى كل مقام .
وهذا الكتاب مطبوع على ورق أصفر ، وهو كثير الأبواب لطيف الأسلوب
جم النفع جليل الإرشاد .

٥ - بستان العارفين :

هذا كتاب لا يزال مخطوطا ، وهو موجود بدار الكتب المصرية . ولكنه
قليل الحجم .

أما موضوعه ، فيخيل لقارىء العنوان أنه فى التصوف ، يرشد إلى طريقه ،
وينبه إلى أحواله ، ويسير به إلى الشهود . والحق أنه كتاب يمتزج فيه تفسير القرآن
الكريم مدعما بالحديث النبوى وشرحه .

وقد رأى المؤلف أن الدنيا دار فناء لا بقاء ، ومرحلة نفاد لا خلاص . فالعاقل
من تزود منها إلى آخرته ، وزهد فى متاعها ورغب عن زخارفها الخادعة .
وأراد أن يرسم للعابد الزاهد طريق السلوك . ويدله على سبيل التخلق بالأخلاق
الجميلة الفاضلة . ويزوده بحمل من نفائس اللطائف وحقائق المعارف ، تعينه على
بلوغ أربه ، والوصول إلى طلبته .

وقد سلك المؤلف بأسلوبه سبيل الوضوح ، فلا معازلة ولا تعقيد
ولا مصطلحات . ويسوق الآيات القرآنية فى مناسباتها مصحوبة بتفسيرها ،
والأحاديث النبوية فى معناها ، مرفقة بأقوال السلف والمأثور عن الأخيار من
حكايات وأشعار . وعنى فى السياق عناية خاصة بالأحاديث يبين صحيحها وحسنها
وأحوال روايتها والخفى من مراميها ، والمشكل من معانيها ، إلى غير ذلك . على أنه
لم يلتزم ذكر الإسناد فى كل حال . ويستطرد إلى مسائل ومشاكل كلامية يوضحها
مثل مسألة كسب العبد .

فهو كتاب يهدي إلى الطاعة ، ويعالج أدواء النفس ، ويسموها مستعملا التعاليم
الشرعية . ومن أبوابه على سبيل المثال : ١٠ ، باب في الاخلاص وإحضار النية
في جميع الأعمال الظاهرة والباطنة . ٢٠ ، باب في كرامات الأولياء .

« ترجمته في : (١) طبقات السبكي ج ٥ (٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٤ (٣) صدر كتابه
« رياض الصالحين » (٤) في ذيل الروضتين لأبي شامة « مخطوط بدار الكتب المصرية »
(٥) المنهاج السوي في ترجمة النووي للجلال السيوطي « لم نطعم عليه » (٦) طبقات الاسدي
(٧) الفوائد البهية . (٨) مفتاح السعادة ج ١ . »

٣- تقى الدين بن دقيق العيد^(١) ٥٦٢٥-٥٧٠٢ هـ

هو أحد رجال العصر البارزين الممتازين في نواحي متعددة ، علمية وأدبية .
ويعتبر أحد الأئمة المجتهدين .

وهو قاضى القضاة العالم العامل الراوية الخطيب الأديب ، الكاتب الشاعر
المؤلف الفقيه ، الورع الزاهد العف ، أبو الفتح تقى الدين محمد بن على بن وهب
ابن مطيع بن أبى الطاعة القشيري ، المعروف بابن دقيق العيد .

ولد بجهة ينبع يوم السبت ٢٥ شعبان عام ٦٢٥ هـ ، وتوفي يوم الجمعة ١١ صفر
عام ٥٧٠٢ هـ .

ولد من أبوين كريمين . وأبوه الشيخ العالم مجد الدين بن دقيق العيد ، كان أحد
فقهاء قوص . وقد توفي في عهد الظاهر بيبرس .

نفر والده هذا من قوص بلده إلى الحجاز ، ليؤدى فريضة الحج ، فولد له
ابنه تقى الدين فى طريقه بجهة ينبع . ولما بلغ مكة ، حمله وطاف به حول الكعبة
داعيا له الله أن يجعله من العلماء العاملين . فاستجاب الله دعاءه .

نشأ تقى الدين بمدينة قوص ، ببلاد الصعيد . وكانت ذات صيت على ذائع
فى تلك السنين . نشأ جم العفاف ورعا مواظبا على الدرس والتحصيل ، دقيقا فى
فهم القول وأداء العمل . وتفقه على مذهب مالك ، وكان مذهب أبيه . ثم عدل
عنه إلى مذهب الشافعى ، حتى أصبح فيه حجة يقتدى به .

لم يقتصر نبوغ ابن دقيق العيد ، على الفقه فحسب ، بل تناول الحديث
والأصول والنحو . وكذلك كان شاعرا محمود الشعر ، وكاتباً حسن الكتابة ،
وواعظاً بليغ العظة . كما يعتبر أحد فقهاء المؤلفين فى عصره . وكان كثير الاطلاع
والتلاوة والتهجد ، يبلى فى ذلك ، جدة لياليه .

ولشدة ورعه وعفته ، مُطلب إليه تولى منصب قاضى قضاة الشافعية ، بعد وفاة

(١) كتبنا عنه كلمة فى باب القضاء ، بالجزء الاول من هذا الكتاب .

قاضيا تقي الدين بن بنت الأعز عام ٦٩٥ هـ ، فأبى إباء شديدا ، فهدد بأن يولى القضاء من لا يحسنه ولا يصلح له ، فرأى حينئذ أن العدالة تقضى عليه بأن يتقدم لحمايتها وولايتها . . غير أنه عزل نفسه من القضاء مرات عدة ثم يعاد إليه . فلبث على ذلك زمنا ، حتى توفي عام ٧٠٢ هـ .^(١)

وقد تثقف ابن دقيق العيد ، على عدد من كبار العلماء ، منهم أبوه ، ومنهم ابن المقير ، وابن رواح ، وابن الجيزي ، والسبط ، وابن عبد الدائم ، والزين المنذرى وقد سمع الحديث من هؤلاء .

وفى مقدمة شيوخه : عز الدين بن عبد السلام ، الفقيه المجتهد . ونشر أن ابن دقيق ، كان أنبه تلاميذ الشيخ ، ووارث علمه واجتهاده وتقواه . ويعتبره بعضهم « العالم المبعوث على رأس السبعائة » . وينسبون إليه كرامات كثيرة ، ذكر السبكي بعضها فى طبقاته .

وتخرج بابن دقيق كثير من الأئمة .

أقوال المؤرخين فيه :

قال فيه صاحب الطبقات : « الإمام شيخ الإسلام ، الحافظ الزاهد ، الورع الناسك ، المجتهد المطلق ، ذو الخبرة التامة بعلوم الشريعة ، الجامع بين العلم والدين ، والسالك سبيل السادة الأقدمين ، أكمل المتأخرين ، وبحر العلم الذى لا تسكدره الدلاء ، ومعدن الفضل الذى لقاصده منه ما يشاء . وإمام المتأخرين ، كلبه لا يجحدونها ، وشهادة على أنفسهم يؤدونها ، مع وقار عليه سيما الجلال ، وهيبة لا يقوم الضرغام عندها لنزال . هذا مع ما أضيف إليه من أدب أزهى من الأزهار . وألعب بالعقول — لا أدرى بين يدي هذا الشيخ ما أقول ، أستغفر الله — من العقار . »

وقال عنه أبو الفتح بن سيد الناس اليعربى ما ملخصه : « لم أر مثله فيمن رأيت ، ولا حملت عن أجل منه فيما رأيت ورويت . وكان للعلوم جامعا ، وفى

(١) ذكر ابن إياس أنه توفي عام ٧٠٤ هـ .

فنونها بارعا . مقدما في معرفة علل الحديث على أقرانه ، منفردا بهذا الفن النفيس في زمانه ، لا يشق له غبار ، ولا يجري معه سواه في مضمار . إذا قال لم يترك مقالا لقائل . وكان حسن الاستنباط للأحكام والمعاني من السنة والكتاب ، مبرزاً في العلوم النقاية والعقلية ، والمسالك الأثرية والمدارك النظرية .

وقال عنه الشهاب محمود الحلبي : « لم ترعيني آدب منه »
ومدحه العلامة ركن الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن التونسي المعروف بابن القوبع بقصيدة قال فيها :

صبا للعلم صبا في صباه فأعل بهمة الصب الصبي
وألقن والشباب له لباس أدلة مالك والشافعي

هذا . وما يذكر في سيرته أنه لما ولي القضاء ، امتنع عن أن يلبس الخلعة الخيرية التي اعتاد القضاء ارتداها بهذه المناسبة ، وأمر بتغييرها إلى الصوف ، فاستمر ذلك تقليدا من بعده في القضاء

كان الرؤساء يعظمونه . حضر مرة عند السلطان لاچين ، فقام إليه السلطان وقبل يده . فلم يزد ابن دقيق عن قوله له : أرجوها لك بين يدي الله .
وكان ابن دقيق معنيا بشئون منصبه ، وبنواب حكمه في الأقاليم . وكان يكتب إليهم الرسائل المطولة يعظمهم ويوصيهم بالعدل بين الناس ومراعاة الشريعة . وكان كثير السكينة يفضل الصمت على الكلام ، حتى إنه لم يتصد لابن تيمية إشارا للصمت على مناظرته ، وأنفة من اللجاج في الحجاج .

ولما مات ابن دقيق ، رثاه الشريف محمد بن محمد بن عيسى القوصي ، بقصيدة طويلة ، مطلعها :

سيطول بعدك في الطول وقوفي أروى الثرى من مدمعي المذروف
ومن أبياتها :

لو كان يقبل فيك حتفك فدية لفديت من علمائنا بألوف
أو كان من حمر المنيا مانع منمتك سمر قننا وببيض سيوف

ومنها :

يا مرشد الفتيا إذا ما أشكلت طرق الصواب ، ومنجد الملهوف
من للضعيف يعينه أنى أتى مستصرخا يا غوث كل ضعيف
من لليتامى والأرامل كافل يرجونه فى شتوة ومصيف
هذا ، وللتقى بن دقيق العيد ، ولد يسمى « محب الدين » ، توفى عام ٥٧١٦ هـ ، كان
مشتغلا بالعلم ، ودرس ببعض مدارس القاهرة ^(١)
مؤلفاته . « كما ذكرها السبكي وغيره » ، ويبدو لنا أن أغلبها مفقود . ومنها .

(١) الإمام : كتاب جليل فى الحديث . (٢) الإمام ، وقد شرحه ولم يتم
شرحه . (٣) إحكام الأحكام . وهو شرح لكتاب (عمدة الأحكام) تأليف
عبد الغنى المقدسى . فى الحديث والفقه . (٤) شرح كتاب العنوان . فى أصول
الفقه ، (٥) شرح مختصر ابن الحاجب فى فقه المالكية ، ولم يتمه . (٦) شرح
مختصر التبريزى . فى فقه الشافعية . (٧) علوم الحديث . (٨) شرح مقدمة
المطرزى . فى أصول الفقه . (٩) كتاب الأربعين فى الرواية عن رب العالمين
(١٠) ديوان خطبه .

التعريف ببعض مؤلفاته :

١ - إحكام الأحكام :

هذا الكتاب شرح لكتاب آخر هو « عمدة الأحكام » ، مؤلفه العلامة الحافظ
عبد الغنى بن على بن مسرور المقدسى الجماعلى الدمشقى الشافعى ، المتوفى عام ٥٦٠ هـ .
وهذا العمدة ، يحتوى على مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة ، مذكورة
برواتها . مبوبة أبواب الفقه . مثل باب الطهارة ، وباب الوضوء ، وباب التيمم .
وقد تناوله كثير من الشراح بالشرح والبيان . ومنهم ابن دقيق العيد .

١ - ذكره السبكي فى الطبقات ج ٦ ص ٢٤١ ، والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٧

وقد شرحه ابن دقيق في كتابه «الإحكام» المذكور بأسلوب سهل واضح ،
حسن التقسيم لطيف الترتيب . إذا تصدى الحديث ، أوضح ألفاظه ومعانيها ،
وتكلم عن ضروب البيان فيه ، وما يستنبط منه من الأحكام . وذكر أقوال الفقهاء
فيه ، واتفاقاتهم أو اختلافاتهم حياله ، وانجاهاتهم في الاستنباط منه . وهكذا .

وعند إبداء رأيه في مسألة ما ، يستشهد بكثير من الأدلة ولا سيما آيات القرآن
الكريم وتفسيرها ، وما فهمه منها رجال السلف الصالح .

وأسلوب الكتاب مرسل لا قيود فيه ، سوى ألفاظ اصطلاحية قليلة ، لم تخرجه
عن وضوحه وسهولة تناوله .

وقد أملى ابن دقيق العيد ، هذا الكتاب على تلميذه الشيخ عماد الدين بن الأثير
الحلبى الشافعى ، بطلب منه .

ويقع فى أربعة أجزاء ، عني بنشره للمرة الأولى إدارة الطباعة المنيرية بمصر
عام ١٣٤٢ هـ . وعلق عليه « محمد منير عيده » ، أغا النقلي الدمشقى الأزهرى .

٢ - فتاوى ابن دقيق :

لابن دقيق جملة من الفتاوى والمباحث ، والفوائد القصيرة ، ولكنها على
ما يبدو ليست بالكثيرة التى تنهض بها مذهباً ، أو حتى تجتمع فى كتاب محبوب فى
أبواب فقهية كاملة على نمط فتاوى ابن تيمية مثلاً ، فهى لا تعدو أن تكون آراء
فى الفقه والأصول والحديث ، أكثر فيها من إيراد آراء الفقهاء ، والترجيح بينها ،
والإدلاء برأى فيها .

وقد أورد السبكى فى طبقاته نموذجاً لها ، بعضها فى مسائل الطلاق . وقد قال
فى أولها : « فوائد الشيخ تقي الدين ومباحثه أكثر من أن نحصى ، ولكنها غالباً
متعلقة بالعلم من حيث هو حديثاً وأصولاً وقواعد كلية ،

ابن دقيق الأديب :

من يقرأ عن ابن دقيق ، ويسمع عن شهرته فى عالم الفقه والقضاء ، وفى عالم

الزهد والنسك ، تروعه هذه الشهرة عن أن يعي أن لابن دقيق الفقيه الشافعي الضليع ، نشاطا محمودا في عالم الأدب والكتابة ، والشعر . ولو لم يتجه ابن دقيق هذا الاتجاه العلى الدينى ، وينفق فيه جل مجهوده ، لجرفه الأدب في تياره ولأصبح رأسا من رموس الأدب شعراً وكتابة في عصره . وما ذلك إلا لأن فيه روح الأديب وظرفه وكياسته ، وخفته ورقته وحساسيته وإنتاجه .

ولعل أظهر ضروب أدبه ، خطابه فقد كان خطيباً منشئاً ينزع في خطابه إلى العبارات المؤثرة التى تثير فى النفس حماسة وعاطفة . وطبيعى أن يكون متجهاً فى هذه الخطابة إلى الناحية الدينية ، لذلك يعتبر واعظاً دينياً ممتازاً . فإذا ارتقى منبرا فى يوم جمعة ، مثلاً سمعت منه العظة البالغة والمثل الأخاذ والحكمة العالية ، مع توجيه النظر إلى المساوىء العامة وبيان طرق تلافيها ، والدعوة إلى الله واتباع دينه الكريم والإشادة بما يلقاه العبد المؤمن من مولاة من حسن الثواب وجمال العاقبة ، وما يلقاه العاصى من عذاب وسوء مصير . وقد ذكر السبكي أن لابن دقيق ديوان خطب معروف .

ومن مظاهر نزعة الخطابية تلك الرسائل البليغة التى كان يدبجها إلى نواب حكمه بالأقاليم حينما كان قاضياً يعظهم فيها ويدعوهم إلى مراعاة العدل وتلافي الظلم ، ومراقبة الله فى الأحكام ، والفصل بين الناس بالحسنى .

وقد قلنا إنه نزاع إلى اللهجة الخطابية المثيرة للعاطفة ، وكان إلى جانب ذلك يعتمد على الأسلوب الأدبى السكتابى المرعى فى عصره ذى السجع المقصود والفقر الطويلة ، والذى يكثر فيه الاستشهاد والاقتباس والتضمين وما إلى ذلك من بديع . ومع ذلك لم أجد فيه إلا ما يشوق غير مستشعر مللاً لبدو الإيمان منه والإخلاص . ومن مظاهر نزعة الخطابية أيضاً وحب لبيت العظة والعبرة للناس ، ما كتبه فى صدور مؤلفاته من خطب عظيمة القيمة جليلة النفع يبين فيها مزايا العلم ومنزلة الرسول عليه السلام ومزايا الدين ، ثم الحاجة التى دعت إلى التأليف . . وإليك بعض نماذج من نثره تدل على هذا كله .

١ - ذكر السيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٣ ابن دقيق العيد وقال بما ذكره : « ومن لطائفه ما كتب إلى نائبه باخميم :

صدرت هذه المكاتبة إلى مجلس مخلص الدين ، وفقه الله تعالى لقبول النصيحة ، وأتاه لما يقربه إليه قصدا صحيحا ، ونية صحيحة . أصدرناه إليه بعد حمد الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويمهل حتى لا يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور . ونذكره بأيام الله . وإن يوما عند ربك كآلف سنة مما تعدون . ونحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون . عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه ، وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار فإني أخاف أن يتردى فيختر من ولده معه والعياذ بالله . والمقتضى لإصدارها ما لمخناه من الغفلة المستحكمة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم بما يجب للرب على المربوب . ومن أنسهم بهذه الدار وهم يزعمون عنها ، وعلمهم بما بين أيديهم من عقبة كشود وهم يتخففون منها . ولا سيما القضاة الذين تحملوا أعباء الأمانة على كواهل ضعيفة ، وظهروا بصور كبار وهمم نحيفة . والله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ولا أرى مع ذلك أمنا ولا إقرارا ، ولا راحة ولا استمرارا . اللهم إلا رجلا نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصر همه وهمته على حظ نفسه ودنياه ، إلى آخر ما قال .

« وسنوردها بتمامها في باب الوعظ بعون الله في الجزء الرابع

٢ - وذكر السبكي في طبقاته ج ٦ ص ١٣ ، خطبة ابن دقيق في صدر كتابه شرح مختصر ابن الحاجب . فمنها :

« الحمد لله منزل الكتاب ، ومفصل الخطاب وفتاح أبواب الصواب . وما منح أسباب الثواب . أحمدوه وهبنا بركه بغير حساب . وأعبدوه وإليه المرجع والمآب . وأرجوه وأخافه فبيده الثواب والعقاب . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقدمات دلائلها مبينة الأسباب . ونتيجة اعتقادها جنة مفتحة الأبواب . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله ، وقد طال زمن الفترة ونسيت الآداب . وبمعد عهد النبوة فزال الحق وانجأ . فننازل الهدى خراب . ومعهده لا تعناد

ولا تنتاب . ولتناس بالشهوات والشبهات إجماع . حتى أفرد النظر بالدنيا وادعى
تعدد الأرباب . فاختار الله محمداً في أشرف الأنساب وخيرة الأحساب . نذيراً
بين يدي العذاب . وبشيراً لمن أطاع الحق وأجاب . وأيده بمعجزات تدفع عارض
الارتباب . وتكشف أنوار اليقين ليس دونها حجاب . وتدع القلوب مطمئنة
لا ترتاع من جانب الشهاب ولا ترتاب . فصلى الله على سيدنا محمد صلاة وسلاماً
يدخل فيهما الآل والأصحاب . ، إلى آخرها وهي طويلة .

شعره :

ولم لا يكون ابن دقيق شاعراً ، أليس له نفس الأديب وطرب الأديب .
إن إيفاله في أحراج العلم لم يمنع خياله من السراح ، ولم يقف دون عاطفته أن تمتد
إلى ما وراء الأفق . . ولم تقف خشونة ما أخذ به نفسه من العلم ووعورة مراض
نفسه عليه من الفلسك ، عتمة في سبيل ظهور شاعريته . فكان شاعراً لا بأس بشعره
وشعره إلى الملاحاة والطلاوة أقرب .

وأهم أغراضه مدح النبي عليه الصلاة والسلام . والغزل والتذكير والفخر
والشكوى ، وهو أحد الذين تمنوا الشيب وأنسوا به لما فيه من جلال ووقار . وله
أشعار في العظة وذم الخمر ، وإن كانت معانيه تقليدية .
وأسلوبه الشعري وسط بين الجودة والركاكة . وفيه إثارة من البديع ولوثة
من المصطلحات التعليمية وألفاظ الفقهاء . وله المقطوعات والمطولات والموشحات
والدوبيت وله شعر كثير في طبقات الشافعية ج ٦ .

ومن نماذجه :

١ — قال يذكر النبي عليه السلام ويمدحه :

يا سائراً نحو الحجاز مشمراً أجهد فديتك في المسير وفي السرى
وإذا سهرت الليل في طلب العلا فحذار ثم حذار من خدع السكرى
فالقصد حيث النور يشرق ساطعاً والطرف حيث ترى الثرى متعطراً

قف بالمنازل والمناهل من لدن وادى قباه إلى حمى أم القرى
وتوخ آثار النبي فضع بها متشرفا خديك في عفر الثرى
وإذا رأيت مهابط الوحي التي نشرت على الآفاق نورا أنورا
فاعلم بأنك ما رأيت شبيهها مذكنت في ماضى الزمان ولا ترى
ولقد أقول إذا السكواكب أشرقت وترفعت في منتهى شرف الذرا
لا تفخرى زهوا فإن محمدا أعلى علا منها وأشرف جوهرها
نلنا به ما قد رأينا من علا مع ما نؤمل في القيامة أن نرى
« الفوات ج ٢ ص ٣٠٥ »

٢ - وقال يتغزل :

بالذى استعبد أرواح المحبين لذكائك
وبلطف من معانيك يرى من حركاتك
وبنور الحسن إذ يحويك من كل جهاتك
وبسر فوق ما يدرك طرفي (١) من صفاتك
لا تذقني الموت في صدك عني بحياتك
« الطبقات ج ٦ ص ١٠ »

٣ - وقال يتذكر :

دقت معاني حسنكم في الملاح عن نظر الواشى وفهم اللواح
لله أيام مضت لى بكم بين ربا نجد وتلك البطواح
أيام وصل نلت فيها الذى أهوى وأكثر من الإقتراح
وقد بقيت اليوم من بعدها كطائر قد قص منه الجناح
ومنها :

أبيت أرعى من نجوم الدجى أسير ليل ماله من براح
علمت يا ظالم بعد اللقاء وقسوة القلب حال الصباح
« الطبقات ج ٦ ص ٩ »

(١) فى الأصل ، ينقص البيت كلمة « طرفى » فاضفناها للوزن والمعنى .

٤ — وقال يتغزل ويشكو في صدر قصيدة لعلها من مدائحه النبوية، قال :

لقد بعدت ليلي وعز وصالها كما عز بين العالمين مثالها
فمن لي بنوق لا تزال تمدها قواها ولا يدنو إلى كلالها
والكنها جسم يذوب وصبره يحول وأرواح يخاف زوالها
لعمري لقد كلفتها في مسيرها بلوغ مدى قد قل فيه احتمالها
وتسألني رفقا بها وبضعفها ولو خف من شوقي أجبت سؤالها
وللعيش آمال بليلي تعلقت أخاف المنايا قبل كوني أناها
يقرب لي من وصلها حسن لطفها ويبعد عنها استغناؤها ودلالها
وإني لأرضى اليوم بعد تشوقي إلى أن أراها أن يزور خيالها

الح (الطبقات ج ٦ ص ١١)

٥ — وقال يتمنى الشيب ويعلل لذلك :

تمنيت أن الشيب عاجل لمتي وقرب مني في صباى مزاره
فأخذ من عصر الشباب نشاطه وآخذ من عصر المشيب وقاره

(الفوات ج ٢ ص ٣٠٦)

٦ — وقال يشكو الحياة :

أفكر في حالي وقرب منيتي وسيرى حثيثا في مصيري إلى القبر
فينشئ لي فكري سحاب للأسى تسح هموما دونها وابل القطر
إلى الله أشكو من وجودي فإني تعبته به مذكنت في مُبتدا العمر
نروح ونغدو والمنايا فحسانع تسكدره والموت خاتمة العمر ..

٧ — وقال يذكر عهد شبابه وهو من الدوييت ، :

يا عصر شببتي ولهوى رأيت ما أسرع ما انقضيت عني ومضيت
قد كنت مساعدى على كيت وكيت واليوم فلو رأيت حالي لبكيت

(الفوات ج ٢ ص ٣٠٧)

٨ - ومن جناسه قوله :

تهيم نفسي طربا عندما أستملح البرق الحجازيا
ويستخف الوجد عقلي وقد لبست أثواب الحجا زيا
يا هل أقضى حاجتي من منى وأنحر البزل المهاريا
وأرتوى من زمزم فهي لي أرق من ريق المها ريا

« الفوات ج ٢ ص ٣٠٦ »

ترجمه: في ١٠، طبقات الشافعية للسبكي ج ٦ ض ٢ ، ٢٠، فوات الوفيات

ج ٢ ص ٣٠٥، ٣٠، حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٣ ، ١٦٧ - ج ٢ ص ١١٣

٤٠، بدائع الزهور لابن عباس ج ١ ص ١١٢ ، ٥٠، تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٤

رقم ٩ في الطبقة العشرين ، ٦٠، الطالع السعيد للإدقوى رقم ٤٦٢ ،

تقى الدين بن تيمية الحراني ٦٦١ هـ - ٧٢٨ هـ

تتصدى الآن للحديث عن عيلم بعيد الغور ، وجهيز في مقدمة الفحول .
ورجل من ذوى الآراء الحرة ، والنزعات المستقلة . سما إلى مرتبة الإمامة بعد أن
ذاد عنها وشاكس ، ودافع ونافس ، بقوة شكيمة ، وحدة عزيمة . فشق إليها سبيله
وقدم حجته ودليله . لا رائد له إلا الحق ، ولا سائق إلا الإيمان والصدق .
رجل قوى النفس عظيم الروح ، امتلأ صدره بالعلم ، وماجت فيه الآمال ، أن
يصلح بالعلم قومه ، وأن يهديهم سبيل الرشاد ، وأن يبلغ بهم طريق الدين الحق ،
وأن يبصرهم بمواطن السعادة ، وأن يكون لهم عوناً على ما يصلحهم في الدارين .
ليس له من وراء ذلك ، هم في الدنيا يصيبه ، ولا نزوة نفس يتلبس إليها ، إلا أن
يرى قومه على حال من التوفيق ، تهدأ له نفسه وتقر بها عينه . فهو رجل من أهل
الرسالات في الناس . تزوده الأقدار بثقوب بصرها وبعيد نظرها ، بأدوات الجهاد
من علم راسخ وأدب جم وخلق كريم وذكاء وفطنة . ثم تنفث في نفسه ، أشبه
ما يكون الوحي أو الإلهام ، فتنتلق شعلة متقدة لا تهدأ حتى ينزل الناس عليها ،
يقبسون من نورها ، ويسيرون على سراجها ، بعد أن ينفي عنهم الزيف ، ويخجنهم
مهاوى الباطل .

ذلك الرجل ، هو ابن تيمية الحراني ، الذي شغل الناس في عصره ، وانقسموا
فيه إلى فريقين : متعصب له ، ومتعصب عليه . وأوقد بوجوده حركة فكرية جليلة
كان له فيها الانتصار الأخيار ، والأعداء الألداء . وهو لا يبالي وسط ذلك كله
إلا بالحق الذي يعتقده ، والرأى الذي يدين به ، ولو أودى في سبيله أشد الأذى ،
وجوهده من أجله أشق الجهاد . غير عابئ بالكائدين يكيدون له ، ولا بالحاقدين
يتآمرون عليه ، ولا بالحرمان يُصب فوقه ، ولا بالسجن يقذف فيه ، فهذه كلها من
أوضاع الجهاد ، لا ينجو مجاهد من خبثها ، ولا يفر مجاهد من عبثها وعبثها .

اسمه ونسبه :

وهو تقي الدين أبو العباس : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي .

مولده ووفاته :

ولد ابن تيمية في حران قرب دمشق ، يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول عام ٦٦١ هـ - وقيل في ١٢ منه - وعاش نحواً من سبع وستين سنة ، وتوفي في سجنه بدمشق ليلة الاثنين ٢٠ من ذي القعدة عام ٧٢٨ هـ .

أسرته :

ولد ابن تيمية في أسرة مليئة بعلمائها ، غنية برجالها وفضلائها . ففهم الفقيه الجليل ، والواعظ القدير ، والزاهد العيوف الأبى . وتصدّر منهم من تصدّر ، للدرس والفتوى والتأليف والتصنيف .

فهذا نخر الدين بن تيمية : كان عالماً زاهداً خطيباً مفسراً ، ومات عام ٦٣٩ هـ . وهذا مجد الدين بن تيمية : ابن أخي نخر الدين ، وهو أيضاً جد تقي الدين بن تيمية صاحب الترجمة . كان مجد الدين عبد السلام ، عالماً فقيهاً مؤلفاً . قال عنه جمال الدين بن مالك النحوي : « ألين الفقه للشيخ المجد ، كما ألين الحديد لداود ، وقد توفي عام ٦٥٣ هـ .

وهذا شهاب الدين بن تيمية : وهو عبد الحليم بن عبد السلام ، والد تقي الدين ابن تيمية ، ولد بجران عام ٦٢٧ هـ ، وسمع حديث الرسول عليه السلام ، من والده ومن غيره . ودرس الفقه وعالج الأدب ، وكان شيخ حران وخطيبها ، وله يد طول في علم الفرائض والحساب والهيئة . مع دين وتواضع ودماثة خلق . قال عنه شمس الدين الذهبي : « وكان شهاب الدين من أنجم الهدى . وإنما اختفى بين نور القمر وضوء الشمس » . يشير بذلك إلى أبيه مجد الدين ، وإلى ابنه تقي الدين

وقد هاجر شهاب الدين من حران إلى دمشق عام ٦٦٧ هـ . واتخذها موطنه
ولأولاده . وكانت هذه الهجرة فرارا من وجه التتار الذين اجترحوا ما اجترحوا
في العراق ، وأخذوا يهرمون نحو الشام من أطرافها . فلما استقر شهاب الدين
بدمشق ، باشر مشيخة دار الحديث السكرية بالقضاة ، وكان يسكن بها ، وخصص
له بالجامع كرسى يلقي عليه دروسه للناس في أيام الجمع . وقد توفي عام ٦٨٢ هـ .
بعد أن سجل لنفسه عدة تعاليق ومصنفات في جملة علوم .

وهذا شرف الدين بن تيمية : وهو أخو تقي الدين ، ولد بجران عام ٦٦٦ هـ
وتوفي عام ٧٢٧ هـ ، وبرع في فقه الحنابلة ، وفي الفرائض والحساب والهيئة وعلوم
العربية والحديث .

وبعد فهذه أسرة ابن تيمية ، له أن يباهى بها الزمان ، ويزهو بها على الأقران
وبنافس بحليل علمهم وجميل فضلهم ، ويقول لمن يفاخره : أولئك آبائي فجئني بمثلهم .
كلمة تيمية :

هي نسبة إلى تيماء . وتيماء موضع قرب تبوك . وقد قيل إن أحد أجداد
تقي الدين ، ذهب للحج ، وكانت امرأته حاملا . فلما كان بتيماء ، رأى جارية
حسنة الوجه . فلما وضعت امرأته ، وضعت أنثى جميلة ذكرته بجارية تيماء . فقال
لها : يا تيمية يا تيمية . . تشبهها لها بها . ثم كان من نسلها آباء تقي الدين .
وقيل إن أم جده هذا ، كانت تسمى « تيمية » ، وكانت واعظة ، فنسب أبناؤها
إليها .

عصره وبيئته ، وطرف من حياته :

ولد ابن تيمية — كما رأينا — في أسرة كريمة ، اتخذت الدين هداية ، والعلم غاية .
حتى صار ذلك في بيتها سنة متبعة وخلة موروثة . فلو لم يكن لتقي الدين ، ما كان
له من ذكاء ونفس ورهافة حس ، وكبير قلب ، وعظيم لب ، مما شغله بالعلم شغلا ،

وحمله إلى المجد حملاً ، لكان حسب ما تُقدّر من دوافع الوراثة والبيئة المنزلية معاً . عاش تقي الدين نحواً من ثلاثين سنة ، في القرن السابع الهجري ، ونحواً من ثلاثين أخرى في القرن الثامن . أما الثلاثين الأولى فاستطيع أن يقول إنه جعلها سني درس وتحصيل . قضى منها عهد طفولته في حران أولاً ، ثم في دمشق ثانياً ، حيث هاجر مع أبيه ، وهو في نحو السادسة من عمره . فشب في دمشق ، وهو يشعر بما للقتار من خطر ، وبما ابتلى به المسلمون على أيديهم من فزع وسوء .

أكب تقي الدين على طلب العلم ، وتمذهب بمذهب أبيه وأسرته ، وهو مذهب الإمام ابن حنبل . وتعلم على أبيه ، وعلى أكابر علماء عصره ، ومنهم : شمس الدين ابن قدامة . وزين الدين بن المنجا . ومجد الدين بن عساكر . كما أخذ علوم العربية عن ابن عبد القوي . وقرأ كتاب سيبويه ، وكتب الحديث الستة . وأقبل على التفسير والأصول والفرائض والحساب والجبر والمقابلة . وقرأ كتباً في المذاهب كلها ، حتى أصبح ملماً بمسائلها وضروب الخلاف بينها . ونظر في كتب الفلاسفة وقرأ ما ترجم منها عن اليونانية ، وطالع كتب الطبقات وغير ذلك .

وهو في كل ما يدرس ، يسلط منظار ذكائه ، ومجهر عقله ، ليستبين وجه الحق ويستوضح جانب الصواب . وسواء في ذلك ، درسه تلقيناً عن شيخ ، أو قراءة في كتاب ، أم مشافهة وتجربة .

وكان العالم الإسلامي حينذاك يموج موجاً بما فيه من طوائف تختلف في عقائدها اختلافاً أدى بها إلى التحاقد والتنابد والتفرق . فمن شيعة ذات شعب وفرق . وجهمية ومعتلة ومن أشاعرة وصفاتية ، ومن مبتدعة حنابلة وصوفية ، إلى غير هؤلاء . وكل حزب بما لديهم فرحون .

وأمام هؤلاء عدوان لدودان ، يكيدان للدين ، ويتربصان بالمسلمين ، هما التتار الوثنيون بالشرق ، والفرنجة المسيحيون المتعصبون بالمغرب .

ولكي تعرف مقدار الخطر على المسلمين من جراء هذا التفرق في العقيدة ،

والتخاذل عن درء الأعداء ، نقول إن هذه الخلافات المذهبية كان لها في ذلك الحين أثرها الكبير في توجيه الأفكار في الشعوب ، وتلوين اتجاهاتها . ومن ثم كان تعصب كل فريق لعقيدته ، قائما على قدم وساق . فالعقائد المذهبية والاختلافات الدينية في تلك العصور الوسطى ، شبيهة بما لدينا اليوم من عقائد سياسية ومبادئ حزبية ، ومذاهب اقتصادية واجتماعية ، لها أثرها الهام في صبغ الأفكار والعقول ، والأخذ بناصية النفوس وتوجيهها وجهات خاصة . ومن ثم ، أصبح لهذه العقائد والمذاهب أثرها الأول البارز في سياسة الشعوب وعلاقات بعضها ببعض ، وعلاقة كل طائفة في الشعب الواحد بغيرها من الطوائف .

رأى ابن تيمية ما رأى من حال قومه : جهل وضلال ، وأهواء وتفرق . وخور وتخاذل . فهاهنا ما رأى . فأقسم أو كائنما أقسم ، بينه وبين ربه ، أن يبذل قصاره في رأب الصدع ، ونفى الزيف ، ونشر الحق ، لايهمه من دنياه إلا زاده لآخرته . وإلا كلمة ينطلق بها فمه ، أو يخطها قلبه ، فيرضى عنها ربه ومولاه .

قضى تقي الدين الثلاثين سنة الأولى في تحصيل العلم ، وكائنما كان يعجز فيها قواه ، ويستجمع جنده . ومع هذا فقد روى أنه تصدى للفتوى في سن السابعة عشرة ، وللتدريس في الحادية والعشرين .

ثم حج عام ٦٩١ هـ ، وسنه ثلاثون سنة وكائنما أراد بذلك أن يستكمل قوى نفسه ويحتفل بسن تحصيله . ثم عاد وهو مشروع القناة ، مسنون الشبابة . ففتح من سجل حياته ، صفحته الخالدة ، صفحة الجهاد والجلاد . وأخذ في التعرض لأرباب المذاهب والمعتقدات الدينية ، ممن يرى فيهم الانحراف عن عقيدة السلف ، يرجو من وراء ذلك أن يهديهم الله سواء السبيل ، غير عابئ بما لهم من حول وطول ، وجاه وسلطان ، لدى العامة وبين الأمراء الحاكمين . — وشرع كذلك يضع الفتاوى في الأحكام الشرعية ، لا يبالى في ذلك بما تقرر منها في المذاهب الأربعة ، وما تواضع عليه الأئمة ، وكل همه أن تكون فتاواه مناسبة لحاجات عصره متشعبة

مع عقول الناس فيه ، مادامت موافقة للعدل ، غير خارجة عن أقوال السلف ، متمشية مع روح الكتاب والسنة . حتى لا يشق على الناس في حياتهم ، ويسر لهم سبيل الحلال ، ويجنبهم سبيل الباطل .

بهذا ألّب تقي الدين على نفسه ، كثيرا من الطوائف ، من الكلاميين والصوفية حتى فقهاء المذاهب . وكان لا بد له ، وقد وضع نفسه هذا الموضع ، أن يستعد للنضال والمصاولة ، والنزال والمطاول ، والمناظرة والمخاطرة . لذلك كانت حياته في الثلاثين سنة الأخيرة ، صورة رائعة من صور الجهاد ، عقد له فيها علم الظفر والانتصار .

غير أنه لم يكن في نضال سلبى فسكرى لحسب . فن شأن رجل مثله ، أن يكثر حساده ، والناقون عليه ، والكائدون له ، والمؤتمرون به ، والزاعمون فيه . فلقى من ذلك كله كثيرا من الأذى والعذاب ، ولكنه كان في كل حالة ، الرجل يستعذب الأذى في نضاله ، والبطل يستجلى العذاب في نزاله . لقد حوكم تقي الدين وشرد ، وسجن . فماذا قال ؟ قال : « ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا بستاني في صدرى ، أين رحت فهو معى . أنا حبسى خلوة وقتلى شهادة وإخراجى من بلدى سياحة . » صور من كفاحه :

ولتقى الدين بن تيمية آراء في العقيدة ، وأحكام في الشريعة ، متعددة . سنعرض لذكر بعضها فيما بعد . غير أننا نشير هنا إلى أهمها ، مما كان سببا مباشرا لاستشراء النضال بينه وبين مخالفيه ، وسببا مباشرا لمحاكماته وسجنه .

١ - فمنها حديثه عن صفات الله سبحانه وتعالى مثل الاستواء ، والنزول وإثبات الصورة والعين واليد وحديثه عن القرآن وأنه قديم ، إلى غير ذلك من المسائل والمشاكل ، التي تدور عليها كلاميات علماء العقائد من المسلمين .

وقد تكلم عن هذه الموضوعات ، بما لا يخرج عن نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف ، ومعتقد السلف الصالح الأولين . فأثبت لله سبحانه وتعالى ،

الاستواء والنزول والصورة والعين واليد إلى غير ذلك ، كما وصف الله نفسه به في القرآن ، وكما وصفه به رسوله الكريم ، ولكن بدون كيفية ولا تمثيل ولا تشبيه بالمخلوقات . فلم يحنح ابن تيمية إلى التجسيم كما جنح بعض مبتدعة الحنابلة أو متأخري الأشاعرة ، أو غيرهم ، إذ في ذلك تشبيه له بمخلوقاته ، كما أنه لم يعطل الصفات ، فإن الله قد أثبتنا لنفسه في قرآنه المنزل ، وكذلك لم يؤول في فهم الآيات كما أول المعتزلة ومن لف لفهم ، ممن قالوا في الاستواء : الاستيلاء . وفي اليد : القدرة ، وفي العين : الرعاية ، ونحو ذلك . إذ لا يصح صرف ظاهر الآيات القرآنية ومدلولاتها اللفظية ، إلى معاني أخرى ، لغير حاجة وبدون دليل ، فإن الله سبحانه وتعالى خاطب الناس بما يفهمونه من مدلولات لفظية ، دون تعمية أو تعمديهم .

هذه المسائل ونحوها مما يسمى في علم الكلام : المتشابهات ، كانت مثار الجدل بين ابن تيمية وخصومه . فهو — كما يقول الثقات — إنما كان يقرر مذهب السلف الصالح في فهم القرآن والحديث .

وقد اتضحت آراؤه هذه واحتجاجاته لها في كثير من كتبه ورسائله ، كرسائله والعقيدة الحموية الكبرى .

كتب ابن تيمية هذه الرسالة ، إجابة على سؤال ورد عليه من حماة — وكانت الرسائل والاستفتاءات ترد عليه تباعا من بلاد المسلمين تستوضحه وتستهديه في المعتقدات والأحكام — كتب ابن تيمية رسالته الحموية . بين الظاهر والعصر في ست كراريس . فرجع مذهب السلف — كما قلنا — واحتج له وبين أن السلف أثبت قولاً وأصدق فعلاً وأرجح نظراً وأعلم خبراً . وبالمقالة موازنات عدة بين المذاهب المختلفة في الصفات ، ودحض للخالف لرأى السلف منها . وقد صدرت منه هذه المقالة الحموية في ربيع الأول عام ٦٩٨ هـ .

وكانه كان يرمى من وراء ذلك — فضلاً عن أنه الحق الذي يراه — إلى جمع فرق المسلمين على كلمة واحدة في عقائدهم . ومذهب السلف — في الواقع —

صریح ومریح فی الوقت نفسه ، وحسبه أنه یثبت الصفات لله سبحانه وتعالى كما أثبتها الله ورسوله ، ويعنی المرء من الوقوع فی التجسیم ، أو الجنوح إلى التأویل . وأحسب من السهل — إذا تصافت القلوب وخلصت النوايا — أن يتلاقى المختلفون فی هذا المعتقد السليم .

ثارت نائرة الكلامیین والفقهاء ، وأولوا فی كلام ابن تیمیة ، ونسبوه إلى القول بالتجسیم ، كسائر المبتدعة من الحنابلة ، وهو من ذلك براء . وتحزب قوم علیه وأرادوا إیذامه . فعاونهم علی ذلك قاضی الحنفیة بدهشق آتئذ وهو جلال الدین الحنفی ، ومشى مع المتأمرین إلى دار الحدیث الأشرفیة ، وطلب إليه المثول بین یدیه ، — باعتباره قاضیا — لیحاكمه علی مقاله . فرفض ابن تیمیة المثول والجلوس للمحاكمة ، وقال للقاضی : « إن العقائد لیس أمرها إلیك . وإن السلطان إنما ولاك لتحکم بین الناس . وإن إنكار المنكرات لیس مما یختص به القاضی ، فزاد حنق القاضی علیه . وأمر بالنداء علی بطلان عقیدته فی المدینة . فنودی . ثم تصدى للمنادین بعض أعوان الشیخ تقی الدین ، فاخطفوا . .

وقیل بخصوص هذه الحادثة : إن بعضهم حمل الشیخ تقی الدین وطافوا به فی المدینة ینادون الناس بألا یستفتوه . . .

وقیل أیضا إن ابن تیمیة قرأ رسالته الحمویة بعد قلیل فی شهر کتابتها ، أمام جمع حاشد ، بینهم القاضی « إمام الدین الشافعی » . وظل فی قراءتها یومین ، وهو یوضح للناس ما أشكل علیهم من مرامیها . حتی اقتنعوا بصحة رأیه وصواب معتقده ، وقال القاضی إمام الدین : « كل من تكلم فی الشیخ ، فأنا خصمه » .

٢ — ومنها تعرضه للصوفیة الذین ینتمون إلى ابن عربی وابن سبعین ، ممن یقولون بوحدة الوجود ، والاتحاد ، وهی أقوال تشعر بأن العبد یصل من وراء عبادته إلى مرحلة تتجلی فیها به الذات الإلهیة ، ویزول العبد ولا یبقى إلا الذات ، أو یصیر العبد والذات شیئا واحدا . وهذا كله معناه الحلول والتجسیم والتشبیه .

وكان بمصر حينذاك رجل من الصوفية ذو سطوة وجاه لدى الأمراء ، وبخاصة الأمير ، ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، الذي كان أتابكا ، ثم ملك البلاد سنة ٧٠٨ هـ وتلقب بالظافر . هذا الرجل اسمه ، الشيخ نصر المنبجي ، وقد علم ابن تيمية ، وهو بدمشق ، أن المنبجي هذا وأتباعه يدينون بمعتقد ابن عربي وابن سبعين ، فكتب إليه مقالا في ثلثمائة سطر ، أنكر فيها مذهبه وأوضح له خطأه . وكان ذلك عام ٧٠٥ هـ . في عهد الناصر محمد بن قلاوون .

حنق المنبجي على ابن تيمية وجراته ، وأذاع القالة عنه إنه مبتدع مجسد يخشى منه على الناس . واستعان في ذلك بالأمير بيبرس المذكور . وأقنعوا قضاة مصر بهذا الاتهام ، فكتب السلطان الناصر أمراً إلى نائبه على الشام ، بامتحان الشيخ تقي الدين وسؤاله عن معتقده . فجمع له النائب مجلساً من القضاة والعلماء بدمشق في رجب عام ٧٠٥ هـ ، وقرئت فيه رسالته ، والعقيدة الواسطية ، ونوقش فيها ، وناظره فيها بعض مخالفيه في الرأي ومنهم الشيخ صفي الدين الهندي وقاضى قضاة الشافعية كمال الدين بن الزملاكي . وانتهى المجلس على أن معتقد الشيخ صحيح ، ولم يخرج عن مذاهب السلف .

ويبدو أن ذلك الحكم الذي وصل إليه المجلس ، لم يصادف ارتياحاً من أعداء الشيخ بمصر ، وكانهم أرادوا من وراء محاكمته إيذاؤه وكتبته ، فلما لم يظفروا بذلك في دمشق ، أكثروا من الدعوى عليه والقالة ، في مصر ، وكان في مقدمة الضالعين ضده قاضى المالكية بمصر ، ابن مخلوف ، فأرسل السلطان الناصر إلى دمشق في رمضان عام ٧٠٥ هـ ، باستحضار الشيخ إلى مصر لسؤاله ثانية عن معتقده ومحاكمته فأبى نائب الشاب ، ثم رضخ في النهاية ، وأرسل الشيخ إلى مصر . وخرجت دمشق فودعته وداعاً حراً ، مقدرة فيه الجرأة والحرية والذود عن العقيدة الصحيحة ، ومناوئة أهل الضلال والفساد .

دُفع الشيخ إلى مجلس القضاء حيث تصدر القاضى ابن مخلوف . ونذب لرفع الدعوى عليه ، شمس الدين بن عدلان ، فادعى أن الشيخ يقول : إن الله فوق

العرش حقيقة . وأنه يتكلم بحرف وصوت ، وأنه يشار إليه إشارة حسية ، وطلب إلى المجلس عقابه . فسأله القاضي عما يقول في ذلك . فبدأ ابن تيمية في الإجابة ، فحمد الله وأثنى عليه . . فقال له القاضي : « ما جئنا بك لتخطب ، . فقال : « ومن الحاكم في ؟ » . فقليل له : « القاضي المالكي » . قال : « كيف يحكم في » وهو خصمي ؟ . وغضب غضبا شديدا ، وبدأ عليه الانزعاج والفرع والثورة . فاقنيد إلى البرج فحبس به أياما ، ثم نُقل إلى الحب ، فحبس به ومعه أخواه شرف الدين عبد الله ، وزين الدين عبد الرحيم . .

وظلوا يستخضرونه للإجابة مرة بعد مرة ، وهو في كل مرة يناظر وياتصر على على خصومه . غير أن ذلك لم يكن شافعا له في إطلاق سراحه . فلبث في سجنه نحو ثمانية عشر شهرا . ثم أطلق سراحه في ربيع الأول عام ٧٠٧ هـ بشفاعة الأمير العربي ، حسام الدين بن مهنا ،

وبما يذكر أنه عقدت مناظرة بينه وبين فئة من العلماء ، قبيل خروجه من سجنه وذلك في صفر عام ٧٠٧ هـ . فنأظره منهم : بدر الدين جماعة ، ونجم الدين بن الرفعة وعلاء الدين الباجي ، وفخر الدين بن بنت أبي سعد ، وعز الدين النمراوى ، وشمس الدين بن عدلان .

ثم أخذ بعد خروجه من السجن ، ينشر العلم بمصر ويفتى الناس ويعظمهم . ويفسر لهم كتاب الله . قيل إنه صلى يوم الجمعة في مسجد الحاكم ، فطلب إليه الناس بعد الصلاة ، أن يعظمهم . فأخذ في تفسير قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » حتى حانت صلاة العصر ، والناس يزدحمون على سماعه .

٣ - لم يهدأ ابن تيمية ، وأخذ يتنقص الحلوليين والاتحاديين القائلين بوحدة الوجود كابن عربي وابن سبعين والقونوى وغيرهم من أرباب الطرق ، ومدعى الصوفية ، وعاب عليهم كثيرا من الحيل التي يمتثلون بها على الناس مدعين أنها كرامات . وشدد النكير . فيما خالف ظاهر الكتاب والسنة . فشكاه الصوفية إلى السلطان في نفس عام ٧٠٧ هـ ، الذي أطلق سراحه فيه . وكان على رأس الشاكين

د كرم الدين الآملى ، شيخ الصوفية بالقاهرة . فخير ابن تيمية بين السفر إلى دمشق أو الإسكندرية ، حتى تهدأ فتنته ، أو السجن . فاختر السجن . غير أنه حُمل إلى دمشق ، ثم أعيد من الطريق ، وسُجن في سجن القضاة بحارة الديلم بالقاهرة . — فلعلهم خشوا فتنته على بلاد الشام .

لم يجرؤ أحد من القضاة في هذه المرة أن يحكم عليه ، بل هو الذى اختار السجن من تلقاء نفسه . وقعد فيه يعظ الناس ويشرح لهم أمور دينهم ومعتقداته الصحيحة . فقصد الناس السجن من مختلف النواحي لسماع عظاته ، وتحول السجن بفضلها إلى جامعة علمية كبرى . . ولعل ذلك كان سبباً في نقله بعد مدة ، إلى سجن الاسكندرية .

في هذه الأثناء كان السلطان الناصر محمد ، قد خلع من عرشه ، ووثب على السلطنة دبيرس الجاشنكير ، فلبث ابن تيمية في سجنه ، حتى عاد الناصر إلى عرشه عودته الثانية عام ٧٠٩ هـ . فاستقدم الشيخ من السجن ، وتلطف به ، وأكرمه ، وأطلعه على بعض ما تقدم به إليه أعداؤه من الشكاية رغبة منهم في استعدائه عليه . ولعل الناصر كان يرى من وراء ذلك إلى تصريح من الشيخ بالبطش بهؤلاء ، حتى يبطش بهم . ويبدو أنهم ضاعوا مع الجاشنكير ضد الناصر إبان خلعه . فلم يزد ابن تيمية على أن هدأ نائرة الناصر عليهم ، وتلطف به حتى عفا عنهم . وهكذا تكون أخلاق الرجال . . وقد عجب ابن مخلوف نفسه وقال : « ما رأينا أعفى من ابن تيمية ، لم نبق ممكناً في السعى عليه . ولما قدر علينا عفا ،

٤ — ظل ابن تيمية مطلق السراح بمصر حتى عام ٧١٢ هـ ، فعاد إلى دمشق في ذلك العام ، فسر الناس بمقدمه . وظل على سجيته يلشر العلم ويعلم الناس . ويؤلف رسائله ويكتب مقالاته . ظل كذلك حتى عام ٧١٨ هـ وكان قد أفتى بأن الطلاق بالثلاث يقع واحدة فقط . ^(١) فهاج عليه الفقهاء ، حتى أمر الناصر بن قلاوون بمنعه من الفتوى . وكان بعض أنصاره قد نصحه بترك الفتوى بذلك ،

(١) أصبح مقتضى هذه الفتوى أخيراً قانوناً رسمياً تنفى به المحاكم الشرعية في مصر .

فلم ينتصح قائلاً : لا يسعني كتمان العلم . ويبدو أن ابن تيمية راعى في ذلك ، منطق أهل عصر ، إذ هم يطلقون بالثلاث لفظاً ، ولا يقصدون منها غير طلبة واحدة . وذلك لجريان الثلاث على اللسان ، وأكثر الناس من العامة والديهماء ، لا يفرقون ولا يميزون . والدين يسر لا عسر ، غاية الكبري سعادة الناس فيما لا معصية لربهم فيه . والفتوى بواحدة خير على كل حال من اللجوء إلى المحلل . وابن تيمية في فتواه — كما يقول الثقات أيضاً — لم يخرج عن روح الكتاب والسنة ، وآراء بعض السلف ، غير أنه رجح رأى هذا البعض — ولو لم يأخذ به الأئمة — لظروف العصر وحاجة الناس .

وقد عقد لابن تيمية مجلس جديد نحاكمته وسؤاله عن فتواه في الطلاق عام ٧٢٠ هـ . وعلى إثره سجن ، فلبث خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ، ثم أطلق سراحه يوم عاشوراء عام ٧٢١ هـ .

٥ — وبعد زمن ، صدرت فتواه بتحريم السفر إلى قبور الأنبياء والصالحين قصداً في زيارتها . وقد تسكلم بهذه المناسبة في مسألة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور ، وله رسالة قيمة في هذا الموضوع . وهو يرى من وراء ذلك إلى رد المسلمين إلى روح الشريعة الصحيحة ، وتعليمهم أنه لا تشدد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد . ويريد أن يقف حجر عثرة دون الانحدار نحو الوثنية ، فإن من مظاهر الوثنية تقديس القبور والتمسح بها ، والاعتقاد في الصالحاء والقديسين أن لهم من الأمر شيئاً . وهكذا أراد ابن تيمية من فتواه تطهير العقيدة من أضرارها وشيائها .

غير أن القضاة لم تعجبهم هذه الفتوى ، فأفتوا بحبس ابن تيمية بسببها ، فأمر السلطان الناصر بذلك ، في شعبان عام ٧٢٦ هـ بعد أن سعى أعداؤه لديه بقتله . كان هذا السجن آخر عهد ابن تيمية بالحرية وبالناس . فقد أقام في قلعة دمشق من عام ٧٢٦ هـ إلى ليلة الاثنين ٢٠ من ذي القعدة عام ٧٢٨ هـ مسجوناً ، ومعه تلميذه الوفي شمس الدين بن القيم . وقد مرض قبل ذلك بنحو عشرين يوماً . ثم

وأفاه أجله المحتوم في تلك الليلة المذكورة ، بعد حياة حافلة بالجهاد في سبيل الله ودينه وكتبته .

وكان في سجنه مداوما على الكتابة والتأليف . ثم خيف مما يكتبه فمنعوا عنه أدوات الكتابة ، فعكف على الذكر والتلاوة والعبادة والتهجد . ومات ابن تيمية بعد شغل الناس في عصره بفتاواه وآرائه ورسائله ومحاضراته . وانبرى للرد عليه علماء أجلاء كتقى الدين بن السبكي .

ومات ابن تيمية ، ولكن هل وضع الموت حدا بينه وبين منازعيه . كلا ! فلم يزل يأتي في الناس من بعده من يتنقصه ويحمل عليه . كما أنه لم يعدم في كل جيل عددا من التلاميذ والأتباع ، وهكذا شأن العظماء وقادة الأفكار .
وفاته :

مات عام ٧٢٨ هـ — كما أشرنا — فاجتمع في جنازته خلق كثير ، وأغلقت حوانيت دمشق ، وصلى عليه عدة مرات . وبكاه الناس باحتفال رهيب ، ودفن بمدافن الصوفية ، أولئك الذين ناوأم في حياته . وقد رثاه بعض أحيابه وعارفي فضله في الشام ومصر والحجاز والعراق والغرب منهم ابن فضل الله العمري ، ومحمود بن الأثير الحلي . وابن الحصري — ومنهم زين الدين بن الوردي حيث يقول :

عشا في عرضه قوم سلاط لهم من نثر جواهره التقاط
تقى الدين أحمد خير حبر خروق المعضلات به تخاط
توفى وهو مجبوس فريد وليس له إلى الدنيا انبساط

بعض أخلاقه :

كان ابن تيمية مناضلا من الطراز الأول ، وفيما للحق ، صبوراً على الأذى مادام في سبيل الله . متعافياً ، لا مطلب له في الدنيا ، ولذلك لم يعرف المحاباة ولا المجاملة ، ولا السعى إلى أبواب الرؤساء ، ولا التطلع إلى منصب . ولو أراد لسمعت إليه الدنيا ، وأغدقت عليه الأموال .

ويبدو لنا أنه كانت به حدة . ونزوع أصيل إلى الهجوم ، لا يبالي في سبيل ذلك ، وفي سبيل بلوغ غايته ، بأن يجامل صديقا ، أو يدهن رفيقا . ومن كان هذا شأنه ، ولد الهيبة لنفسه في نفوس الناس ، ولكن ولد بجوارها شيئا من الحقد والبغضة .

قيل إنه في رجب عام ٧٠٤ هـ ذهب في جمع من تلاميذه إلى مسجد التاريخ بدمشق . وقطعوا بأيدهم صخرة هناك كانت تزار وينذر لها . فأراح الناس من أحد مظاهر الشرك .

وكان أبو حيان النحوى الأندلسى يحبه ، فلما وفد ابن تيمية على مصر ، تلاقيا وعقدت الصداقة أو أصرها بين الرجلين ، حتى لقد امتدحه أبو حيان بأبيات شعرية . ثم تناظرا في مسائل نحوية ، فاختلفا ، فاحتج عليه أبو حيان بكتاب سيديويه فقال له ابن تيمية : « ما كان سيديويه بنى النحو ، ولا مضموما .. بل أخطأ في الكتاب » ، في ثمانين موضعا لا تفهمها أنت . فكان هذا الهجوم العنيف سيديا في الفرقة بينهما . حتى إن أبا حيان حمل حملة شعواء على ابن تيمية وعلى آرائه في تفسير « البحر » ، وفي مختصر « النهر » .

هذا وقد قيل عنه إنه كان قليل المأكل خشن الملبس بلا شذوذ ، كأنه من أواسط الناس حتى لا يلفتهم إليه بملبسه . يعود المريض ، ويغيث الملهوف . جريئا على الملوك ، دخل على غازان ملك التتار ، حينما ظهر بدمشق ووعظه ألا يريق دماء الناس . وقد أطلق غازان بسبييه عددا من الأسرى .

وهو على جراته هذه ، كان جم التأدب في حضرة من يعترف لهم بالعلم . وقد روى السبكي في طبقاته — ج ٦ ص ٢٢٨ — في ترجمة العلاء الباجي ، وهو عالم زمانه . قال : « إن ابن تيمية جلس مرة في حضرته ، ولم يتكلم بلفظ . والشيخ يقول له تكلم نبحت معك . وابن تيمية يقول له : مثلى لا يتكلم بين يديك . أنا وظيفتي الاستفادة منك . » .

أقوال بعض العلماء فيه :

قال عنه ابن الوردي : « كان لابن تيمية خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديليهم وطبقاتهم ، ومعرفة فنون الحديث مع حفظه لمتونه حفظا انفرد به . وهو عجيب في استحضاره ، واستخراج الحجج منه — وكان يكتب في اليوم واللييلة من التفسير أو الفقه أو من الأصول ، أو من الرد على الفلاسفة ، نحواً من أربعة كراريس — وله الباع الطويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين . قل أن يتكلم في مسألة ، إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة . وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة ، وصنف فيها ، واحتج لها بالكتاب والسنة وبقي سنين يفتي بما قام الدليل عليه عنده . »

وقال عنه تقي الدين بن دقيق العيد : « رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه ، يأخذ ماشاء منها . ويترك ما شاء ، فقليل له : لم لا تناظران ؟ . فقال : « لأنه يحب الكلام وأحب السكوت . »

وقال العلامة كمال الدين بن الزمكاني : « كان إذا سئل عن فن من الفنون ، ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحداً لا يعرف مثله . وكان الفقهاء من سائر الطوائف ، إذا جلسوا معه ، استفادوا في سائر مذاهبهم منه ، ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك . ولا يعرف أنه ناظر أحداً ، فانقطع معه ، ولا تكلم في علم من العلوم ، سواء كان من علوم الشرح أو غيرها ، إلا فاق فيه أهله ، والمنسوب إليه . وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين . »

وقال الذهبي : « له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديليهم وطبقاتهم ، ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالي وبالنازل ، وبالصحيح وبالسقيم ، مع حفظه لمتونه التي انفرد بها . فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ، ولا يقاربه . وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة ، والمسنند ، بحيث يصدق عليه أن يقال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث . واسكن الإحاطة لله . غير أنه يغترف فيه من بحر ، وغيره يغترف من السواقي . »

وبعد فإن تيمية الكاتب القدير ، والخطيب الموهوب ، وله بجانب هذا شيء من الشعر سنشير إلى شيء منه في الجزء الثالث .

بعض فتاواه وآرائه ومؤلفاته :

رأينا ابن تيمية عالماً حراً مجتهداً . فهو وإن كان مقلداً لمذهب الإمام بن حنبل ، لم يتقيد به في بعض آرائه وفتاواه ، كما أنه لم يتقيد برأي غيره من الأئمة . فقد رأى - وقد كملت له أدوات الاجتهاد - أنه خرف أن يبدى من الرأي ما يشاء ، مما يراه مناسباً وضرورياً لحاجة عصره . مادام غير خارج فيما يذهب إليه عن كتاب الله وسنة نبيه ، ورأى السلف الصالح .

ولم يألف الناس ، منذ زمن بعيد ، عالماً حراً جريئاً مجدداً صريحاً صارم الحجّة ، كابن تيمية ، ولم تشهد الطوائف مدارساً مناضلاً ماعاً في فضاله ومعارضته قوى البرهان ، لا يعرف المهادنة ولا المصاهرة ، كابن تيمية . فكان طبيعياً أن يُرمى من أعدائه بكل كبيرة وصغيرة ، وأقرب ما اتهموه به ، السكفر والزندقة . وهي تهمة الجاهلاء يوجهونها جزافاً إلى العلماء . وكان طبيعياً أن هذا الرجل الذي ملأ آذان الناس بآرائه وفتاواه ، وشغلهم بما جدد من الأفكار ، وشغل العلماء بمناظراته ومحاوراته ، أن يكون له عدد ضخم من الرسائل والمؤلفات ، ولا سيما أنه عُدّ بطواعية قلبه وخاطره . فسجل في مؤلفاته هذه ما ذهب إليه من رأي ، وما أبرزه من فتوى مدعماً بحججه وبراهينه .

وقد كتب ابن تيمية أكثر ما كتب في المعتقدات ومسائل علم الكلام . وفي حديث رسول الله ، وفي تفسير كتاب الله . وأحكام شريعته الغرام ، وذلك على مذهب ابن حنبل ، وإن كان قد خالفه في بعض آرائه ، وخالف المذاهب الثلاثة الأخرى .

فمن فتاواه التي خالف فيها الأئمة الأربعة :

١ - توريث المسلم من الكافر ٢ - المفطر في رمضان عمداً ، أو تارك الصلاة

بلا عذر ، لا قضاء عليه ٣ - سجود التلاوة لا يشترط فيه وضوء ٤ - تقصر الصلاة في السفر مطلقا ، طويلا كان أو قصيرا ٥ - جواز بيع الفضة بالفضة مع التفاضل ، والفضل نظير الصناعة ٦ - من أكل في رمضان معتقدا وجود الليل ، ثم بان أنه النهار ، لا قضاء عليه ٧ - إباحة وطء الوثنيات بملك اليمين ٨ - الحلف بالطلاق يصح التكفير عنه ٩ - طلاق الثلاث لا يقع إلا واحدة وهي إحدى فتاواه التي جرت عليه المحن . وقد ألف فيها كتابه ، الفرق المبين بين الطلاق واليمين ، . ١٠ - تحريم تعمد السفر لزيارة قبور الموتى ، وأن الرجال لا تشد إلا لثلاثة مساجد وهي إحدى فتاواه أيضا التي جرت إلى السجن .

أما مؤلفاته :

فقد روى منها ، جميل العظم ، في كتابه « عقود الجواهر » ، أكثر من مائتي كتاب وفتوى ورسالة وقاعدة . وذكر له كل من جورجى زيدان ومحمد جميل الشطى ، عددا منها . وكذلك كتب تراجمه ، وفي دور الكتب بالقاهرة والمنصورة ودمهور ، لحسن الحظ عدد كبير منها . وكثير منها مطبوع . ونذكر للقارىء عددا منها على سبيل المثال لا الحصر . فمن ذلك :

فتاوى ابن تيمية : وهو خمسة مجلدات . منتقى الأخبار في ثمان مجلدات . الإيمان : وهو من أهم كتبه . الجمع بين العقل والنقل . منهاج السنة النبوية في نقض الشيعة القدريّة . الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان . الواسطة بين الحق والخلق وفي أوله ترجمة للؤلؤف . الصارم المسلول على شاتم الرسول . بمجموع الرسائل السكبرى . التحفة العراقية في الأعمال القلبية . تفسير سورة الإخلاص . تفسير سورة النور . معارج الوصول إلى أن أصول الدين وفروعه قد بينها الرسول ، ومعه رسالة له في « المظالم المشتركة » . قاعدة جلية في التوسل والوسيلة . تفسير المعوذتين . رسالة في معنى القياس . رسالة في الكلام على الفطرة . رسالة في حكم السماع والرقص . رسالة في القصاص . رسالة في مناسك الحج . التبيان في نزول القرآن . فتوى في قوله عليه السلام : أنزل القرآن على سبعة

أحرف . العبودية . زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور . الرسالة البعلبكية .
الرد على النصيرية . تنوع العبادات . رفع الملام عن لائحة الأعلام . رسالة في
توحيد الله والشرائع وتنوعها وتوحيد الدين الملى دون الشرعى . رسالة في
خلاف الأمة في العبادات ومذهب أهل السنة والجماعة . الوصية الصغرى في الدين
والدنيا . النية في العبادات . الرسالة العرشية . الإرادة والأمر . الوصية الكبرى
بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان فضل أمته على سائر الأمم . رسالة
في قوله عليه السلام : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد . الاستقامة . مراتب
الإرادة . رسالة القضاء والقدر . بيان العقود المحرمة . رسالة في سنة الجمعة .
العقيدة الحموية الكبرى وهى من بواعث محنة . العقيدة الواسطية وكانت أيضاً محل
نقاش ومناظرة . الأكاليل المتشابهة والتأويل . المناظرة في العقيدة . رسالة في
الجواب عن قول القائل : أكل الحلال متعذر لا يمكن وجوده في هذا الزمان .
رسالة تتضمن السؤال عن الاستغاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم . الإيمان .
الحسبة في الإسلام . شرح حديث النزول . اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب
الاجهيم . بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية وتعرف بالسبعينية ،
بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، وهو في نقض كلام الشيعة
والقدرية ، في أربعة أجزاء . شرح حديث أبي ذر . شرح العقيدة الاصفهانية .
الفتاوى الحديثة . الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . تعارض العقل والنقل
في أربع مجلدات . شرح العمدة لابن قدامة ، في الفقه . جواب الاعتراضات على
الفتاوى الحموية في أربع مجلدات . بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ،
في ست مجلدات ضخمة المحنة المصرية . المسائل الاسكندرية . الفتاوى المصرية ،
في سبع مجلدات . بيان الدليل على بطلان التحليل ، في مجلد . تحقيق الفرقان بين
الطلاق والإيمان . . . إلى غير ذلك

التعريف ببعض مؤلفاته :

١ - فتاوى ابن تيمية :

من أهم كتب ابن تيمية . تصفحت منه نسخة مطبوعة في عام ١٣٢٦ هـ ،
بمطبعة كردستان بمصر . ويقع في خمسة أجزاء كبار . ويحتوى على مئات من
الفتاوى في موضوعات مختلفة ، بعضها في الفقه ، وبعضها في الأصول ، أو الحديث ،
أو التفسير ، أو العقائد ، أو التاريخ أو غير ذلك ، فهو موسوعة علمية عظيمة القدر .
وهذه الفتاوى هي ردود ابن تيمية على بعض ما ورد إليه من الأسئلة في الدين .
جمعها بعض فضلاء العلماء . وقد وضع كل سؤال في مقدمة الجواب عنه . وأيدت
الإجابة - على عادة ابن تيمية - بآيات القرآن والحديث ، وما أثر عن الصحابة
والتابعين .

ومن الفتاوى ما هو في الطهارة والوضوء والتميم والصلاة وقراءة القرآن .
وفي العقائد والأدعية . ومنها في الحلف والطلاق ، وفي المعاملات . ومنها في الوقف ،
واللقطة ، والوصية ، وأبواب النكاح ، والولاء ، والطلاق ، والعدة ، والرضاع ،
إلى غير ذلك .

وقد تخلل الجزء الثالث كتاب مستقل اعتبر ملحقا له ، وهو كتابه « إقامة الدلائل
على إبطال التحليل » ، كما أن الجزء الخامس يحتوى على ثلاثة كتب مختلفة في الفتاوى .
وبعد فهذا الكتاب من أهم كتبه كما ذكرنا ، ويستطيع المطالع الباحث فيه ،
أن يكون لابن تيمية منه - بالإضافة إلى ما عُرف من المذهب - مذهبا خاصا .

٢ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم :

كتاب مطبوع كذلك في عام ١٣٢٦ هـ . يتحدث عن موضوعات دينية عدة ،
أهمها النهى عن التشبه بالكفار . ويحتوى على جملة فصول منها : فصل فيما دل من
الكتاب والسنة والإجماع ، على الأمر بمخالفة الكفار ، والنهى عن مشابهتهم

في الجملة ، ومنها . فصل في أن ما يشبه الأمر بمخالفة الكفار ، الأمر بمخالفة الشياطين . ومنها : فصل في دحض الأدلة التي تقول إن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد شرعنا بخلافه ، اعتمادا على قوله تعالى : « فهداهم اقتده » وقوله « واتبع ملة ابراهيم حنيفا » . الخ .

وقد بين المؤلف في فصول عدة كيفية المشابهة للكفار وموضعها وزمنها . والكتاب في فصوله ، غزير المادة قوى الحجة واضح المنطق جلي الأسلوب ، يدل على علم راسخ وعقل سليم . وقد زوده مؤلفه — على عادته — بالمناسب من الآيات القرآن والأحاديث النبوية ، يستنبط منهما ويستشهد بهما ، وابن تيمية في هذا الضرب من الحديث فياض العبارة يتدفق تدفق السبل الغامر ، تواتيه حججه أرسالا دون جهد .

٣ — الإيمان :

كتاب مطبوع في مجلد ، مع كتابه السابق . وموضوعه الحديث عن : الإيمان وقد وفي المؤلف الكلام عن كل ما يتصل بمعنى الإيمان في عدة فصول . منها في الفرق بين الإسلام والإيمان . الفرق بين الحقيقة والمجاز . مذهب الأشعري في الإيمان . الإيمان عند الجهمية وحجج من نصرهم . معنى الإيمان إذا ما قرن بالإسلام والعمل الصالح . معنى الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة . غلط الجهمية في الإيمان . . . الخ .

وأسلوب الكتاب من الوضوح والقوة والحجة والاستشهاد بالآيات والأحاديث ، على نمط من كتابه السابق . مع تفسير مستشهداته وشرحها .

٤ — الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان :

كتاب صغير ، ولكنه متمتع . خاص بالترقية بين أولياء الشيطان ، وتمييز كل فريق عن الآخر . وقد معنى المؤلف في مقدمة كتابه بإيراد الآيات القرآنية الدالة على وجود كل نوع منهما . كقوله تعالى : « إلا إن أولياء الله لا خوف

عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . وكقوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون . »

وقد بسط في الفصل الأول ، صفات أولياء الرحمن فيها : التقوى والایمان الكامل بمحمد عليه السلام . وبما جاء به . وبأنه الوساطة بين الله وخلقه في تمييز حلاله من حرامه . . . إلى غير ذلك .

ودعم ما بسطه بأسلوبه الواضح وحجته المتينة المستمدة من القرآن والحديث . متعرضا لتزييف بعض الأحاديث غير الصحيحة ، مبينا بطلان مزاعم من يدعون الولاية ولا يتبعون محمدا عليه السلام . ودلل على أن أسمى الأولياء هم الرسل والأنبياء : محمد وإبراهيم ونوح وموسى وعيسى ، وهم الرسل أهل العزم ، وأسمائهم جميعا محمد صلى الله عليه وسلم .

وزيّف من يزعم ولاية أهل الصّفة ، ولو لم يتبعوا الرسول ، بدعوى أنهم في غنى عن رسالته ، وأنه لم يرسل إليهم . وبين أن أهل الصّفة أنفسهم ، كان منهم حقا المؤمن الحسن الإيمان مثل سعد بن أبي وقاص وأبي هريرة . ولكن كان منهم غير ذلك . بل كان منهم من ارتد وقتله النبي عليه السلام .

وأنكر الأحاديث التي يدعى فيها واضعوها أن الأولياء بالشام . وما قيل في الأبدال والنقباء والنجباء والأوتار والأقطاب وهم جرا من مدعيات الصوفية . وأبطال قول القائلين بأن النبي له شريعتان : ظاهرة وباطنة .

وتحدث عن أنواع شتى من الإيمان . وقال « فبحسب إيمان العبد وتقواه تسكون ولايته لله تعالى ، الخ

وقد نفي في بعض فصوله ، أن يكون المجنون وليا لله وأن يكون للولي لباس

مختصيص ، أو مظهر مخصوص . ونفى أن يكون الولي معصوما ، وجوز أن يكون جاهلا ببعض أمور الشريعة .

وأخذ في بعض الفصول يعرف « الحقيقة » ، وقال إنها شريعة الله رب العالمين ، وأنها دين محمد عليه السلام .

وبعد ، فهذا كتاب مليء بالحديث عن المسائل الكلامية كالإرادة والامر والقضاء والإذن ، وفيه تسفيه كثير لمن أدعى الولاية ولا يملك أدائها من علم أو دين أو استقامة أو خلق ، وفيه حملة على الصوفية ومدعى الوصول . ودحض شبه الملاحدة والمتفلسفة . إلى غير ذلك .

٥ - الواسطة بين الخلق والحق :

هذه رسالة قيمة ، وإن تكن صغيرة . موضوعها « الواسطة » بين الله والناس . وهي من الموضوعات الهامة التي لا تزال تشغل بال الناس حتى اليوم . كتب ابن تيمية رسالته فيها ردا على مسألة في هذا الموضوع . ويتلخص رده فيما يأتي :

أ - أثبت أن « الواسطة » بين الله والناس موجودة ، إذا كان المراد منها هذه المخلوقات من الرسل أو الملائكة الذين يبلغون رسالته . وقد قال تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس » ، إلى غير ذلك .

ب - أما الواسطة بمعنى الأشياء التي تجلب النفع وتدفع الضر ، فالاعتقاد بها شرك بالله . فقد قال تعالى : « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون . » ، إلى غير ذلك .

ج - وهذا لا يمنع اعتقاد الشفاعة ، لمن أذن الله له تعالى ، لقوله « لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن . » ، إلى غير ذلك من الآيات .

د - وإن كان المراد بالواسطة أو الوسائط ، أنهم بالنسبة لله كالحجاب بالنسبة للملوك ، يتقرب الناس إليهم بهم ، لأنهم أقرب الناس إلى الملوك . فهو كفر بالله

وشرك . والله يرزق الخلق ويقضى الحوائج بغير حاجة إلى هذا الضرب من الوساطة .
ومن قال بذلك فهو مشبهه كافر يجب أن يستتاب ، وإلا قُتل .

وقد نزه ابن تيمية الله سبحانه وتعالى عن هذه الوساطة . إذ يفهم منها أن الله لا يدرى من أمر خلقه إلا ما تقدمه له وسائطه . وأنه لا يستطيع تدبير خلقه إلا بهم ، وأنه لا يرحم عباده ولا يرزقهم إلا إذا دعوه إلى ذلك . فتعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً .

وقد تسكلم ابن تيمية عن شفاعة الرسول عليه السلام ، كلاماً مسهباً فأثبتها وبين الفارق بينها وبين الوساطة كما يفهمها العامة وأشباه العامة .

نسكتفي إلى هنا بهذا القدر من الحديث عن ابن تيمية وحياته وعلمه . ونقول للمرة الثانية إن من حسن الحظ أن كثيراً من رسائله موجود ومطبوع . والله أعلم .

« ترجمته في (١) الدرر الكامنة ، (٢) تاريخ ابن الوردي ، (٣) فوات الوفيات ج ١ ص ٤٤ و ٣٥٠ ، (٤) طبقات ابن مفلح ، (٥) شذرات الذهب وتذكرة حفاظه أيضاً ، (٦) مقدمة رسالته « الوساطة بين الخلق والحق » ، (٧) مختصر طبقات الختابة للشطبي ص ٥٤ ، (٨) جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٤٣ (٩) عقود الجواهر لجليل المعظم ج ١ ص ١٦٦ ، (١٠) الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص ٣٤ (١١) تحفة الاحباب للسخاوى على هامش فتح العليب ص ٣٢ (١٢) الرد لوافر شمس الدين الشافعى المتوفى عام ٨٤٢هـ ، (١٣) القول الحلى للسيد صفى الدين الحنفى (١٤) الكواكب الدرية للشيخ مرعى بن يوسف الكرمى . وذكر فيه أن ابن فضل العمرى ترجم لابن تيمية في مسالك الابصار . وأن الشيخ سراج الدين أباً حفص البزاز ترجم له أيضاً في كتابه « الاعلام العلية في مناقب ابن تيمية » ، (١٤) ذكره السبكي في طبقاته في أكثر من موضع منها في سياق ترجمته لوالده ج ٦ ص ١٥٦ وما بعدها ، وفي ترجمة العلماء الباحى ج ٦ ص ٢٢٨ ، (١٥) جلاء العينين بقضاء الدين فى محاكمة الاحدين : مؤلفه السيد نعمان خير الدين بن الآكوسى من علماء القرن الثالث عشر الهجرى . »

٥ - أبو الفداء «الملك المؤيد» صاحب حماة ٦٧٢ هـ - ٧٣٢ هـ

مدينة حماة :

بمناسبة الكلام عن هذا الرجل الجليل الشأن، وأعنى به الملك المؤيد أبا الفداء اسماعيل العالم المؤلف، الذي اقترن اسمه باسم مدينة حماة، حتى أصبح معروفا بصاحب حماة، نلخص كلمة هنا عن هذه المدينة وتاريخها استطرادا للفائدة^(١). فنقول :

يقال : إن هذه المدينة قديمة، يرجع تاريخها إلى ما قبل ميلاد المسيح بنحو ألفين وخمسمائة عام. إذ سكنها قوم من الكنعانيين الآتين من ناحية الخليج الفارسي يسمون «الحثيين». وكان الكنعانيون المذكورون أربع فرق هم : الإسرائيليون والفينيقيون والعماليقة والحثيون، تغلبوا على الآراميين سكان سوريا الأصليين وتوطنوها. وكان الحثيون أعظم هذه الفرق. وهم الذين أسسوا حماة، على نهر العاصي، وكذلك مدينة صور وإرصاد وقادس وحمص وكركيش و «إربوليس»، وذلك في الناحية الشمالية من الشام. وإليها تنسب التوراة جميع هذه البلاد إذ تسميها «حمث».

ودخلت «حماة» في حكم المصريين مع سائر بلاد الشام، في عهد تحتمس الأول قبل الميلاد بنحو ١٨٠٠ سنة. ولما نما ملك الآشوريين، خضعت «حماة» لسيطرتهم مرارا. وتغلب الآشوريون على الحثيين، وأبادوهم حوالي سنة ٧١٧ ق. م. واندثر في حماة من بعدهم، عدد من الآراميين سكان دمشق الأوائل المنسوين إلى سام. فتسكون جيل جديد في حماة من بقايا الحثيين ومن الآراميين والآشوريين، الممتزجين جميعا معا. وخضعت حماة من بعد، لحكم الإسرائيليين ثم المصريين. وهكذا، حتى ملكها الإسكندر المقدوني قبل الميلاد بنحو ٣٣٢ سنة. ثم ملكها ملك سوريا «سلوقس»، حوالي سنة ٣١٢ ق. م. وبني قلعتها.

(١) راجع كتاب «تاريخ حماة» لأحمد بن إبراهيم الصابوني.

ثم استولى عليها الرومان سنة ٦٤ ميلادية . ثم ملكها العرب ودخلها الإسلام سنة ١٨ هجرية . ثم تدارلتها حكومات العرب . ودخلت في حكم السلاجقة من بعد . ثم تبعت ملك دمشق « طغتكين » . وصارت بين هذين حتى حكمها « نور الدين محمود ابن زنكي » ، عام ٥٤١ هـ . فجددها . ثم حكمها في جملة بلاد الشام صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٠ هـ ، فأصبحت تابعة لمصر من ذلك الحين . وولى أمرها أحد أمراء الأيوبيين وهو ابن أخى صلاح الدين ، وسُمى « الملك المظفر » . ثم ورثه فيها أبناؤه ، واتسع نطاقها الإدارى . ولما آل الحكم إلى سلاطين المماليك المصريين ، انضوت تحت لوائهم ، وجعلوها نيابة من نياباتهم ، وبعثوا إليها بأمرائهم : الأمير تلو الأمير ، نوابا عنهم . وصارت لها إداة مستقلة ، كأنها مملكة تابعة . ومن بين نوابها في ذلك الحين عدد من أبناء المظفر الأيوبي ومنهم « الملك المؤيد أبو الفداء اسماعيل » .

وظلت حماة تابعة لمصر كبقية نيابات الشام ، حتى دخلت الشام ومصر في حكم العثمانيين . ثم آل حكم الشام إلى الفرنسيين على ما هو معروف .

وحماة كثيرة الخيرات جهة المبانى والمؤسسات ، أنجبت كثيرا من المبرزين في أدوار حياتها المختلفة . منهم : أبو الفداء . ومنهم بدر الدين بن جماعة . وشيخ الشيوخ عبدالعزيز الانصارى . وتقى الدين بن حجة الحموى . وأفراد أسرة البارزى . وغيرهم .

الملك المؤيد أبو الفداء اسماعيل :

هو عماد الدين صاحب حماة . ابن السلطان الأفضل نور الدين أبى الحسن على ابن السلطان الملك المظفر تقى الدين أبى الفتح محمود ، ابن السلطان المنصور محمد ، ابن السلطان المظفر تقى الدين عمر ، ابن شاهنشاه بن أيوب بن شادى ، وأيوب هذا هو والد السلطان صلاح الدين الأيوبي .

لما ملك صلاح الدين الأيوبي بلاد الشام ، أناب عنه في مملكة حماة ابن أخيه ، وهو المظفر عمر بن شاهنشاه . وتلقب بالملك . وورث مملكته من بعده على التوالى

ابنه الملك المنصور محمد بن عمر . ثم ابن المنصور هذا ، وهو الملك الناصر قليج أرسلان بن محمد ثم الابن الثاني للمنصور ، وهو أخو الناصر . واسمه الملك المظفر محمود بن محمد . ثم ابن المظفر محمود ، وهو الملك المنصور محمد . بدأ حكمه صغيراً عام ٦٤٢ هـ . وفي عهده خرب هولاكو ، الترى بلاد الشام ، واستسلم له أهل حماة . ففر ملكها المنصور محمد إلى مصر ، وكان الحكم فيها قد انتقل إلى سلاطين المماليك . وكان ملكها إذ ذاك المظفر قطز . فأعد العدة للقاء التتار . وسار إليهم ومعه المنصور محمد فبرزهم في بلاد الشام ، وأعاد المنصور محمد إلى مملكته حماة . وجعله نائباً عليها من قبله . فظل في منصبه نحو إحدى وأربعين سنة حتى عام ٦٨٣ هـ . فأقام المنصور قلاوون ملك مصر ، ابن المتوفى ، ملكاً على حماة مكان أبيه ، وهو الملك المظفر محمود . فلبث حتى توفي عام ٦٩٨ هـ . فرأى سلطان مصر أن يُعين أحد أمرائه نائباً على حماة . وبذلك انقطع ملك هؤلاء الأيوبيين عن حماة . وتولاها أمراء من المصريين حتى كانت سنة ٧١٠ هـ ، في هذه السنة مات نائب حلب الأمير سيف الدين قبيق . وكان نائب حماة الأمير استدر ، ولم تسكن له رغبة في الانتقال منها . ولما سكن سلطان مصر إذ ذاك ، الناصر محمد بن قلاوون ، نقله إلى حلب ، وعين مكانه في حماة ، أبا الفداء اسماعيل مترجمنا ، وهو من بقايا الأيوبيين .

كان أبو الفداء ، قبيل هذا ، مقبلاً بدمشق . ثم انضم إلى الملك الناصر محمد وقت مقامه في الكرك معزولاً ، وبالغ في العناية به وخدمته . فوعده الناصر بنبابة حماة ، إذا عاد إلى الملك . فلما عاد وفي له بذلك ، وعينه نائباً عنه بها ، وذلك عام ٧١٠ هـ . ومنحه لقب سلطان وملك ، وجعلها مملكة له ، كما كانت في عهد أسلافه . وهكذا عادت حماة إلى سلالة الأيوبيين ، بعد ما قبضت عنهم قرابة اثني عشر عاماً .

قيل : وجعله سلطاناً يفعل فيها ما يشاء ، من إقطاع وغيره . وليس لأحد من الدولة بمصر من نائب ووزير معه حكم . وأركبه في القاهرة بشعار الملك وأبهة السلطنة ، ومشى الأمراء والناس في خدمته ؛ حتى الأمير سيف الدين أرغون

النائب . وقام له القاضي كريم الدين بكل ما يحتاج إليه في ذلك المهم من النشاريف والإنعامات على وجوه الدولة وغيرهم . ولقبوه الملك الصالح ثم بعد قليل لقبه الملك بالمؤيد .

وكان كل سنة يتوجه إلى مصر بأنواع من الخيل والرقيق والجواهر وسائر الأصناف الغريبة . هذا إلى ما هو مستمر طول السنة بما يهديه من التحف والطرف . وتقدم السلطان الملك الناصر إلى نوابه ، بأن يكتبوا إليه : « يقبل الأرض » ، وكان الأمير سيف الدين يشكر ، رحمه الله تعالى يكتب إليه « يقبل الأرض » ، و « بالمقام العالي الشريف المؤيدى السلطانى الملكى المولوى العمادى » . وفي العوان « صاحب حماة » . ويكتب إليه السلطان الناصر « أخوه محمد بن قلاوون » ، و « أعز الله أنصار المقام الشريف العالي السلطانى الملكى المؤيدى العمادى — بلا مولوى » . وهذه المخاطبات كلها تدل على تعظيمه ، وعلى ماله من الحرمة في نفوسهم . وقد لبث في منصبه هذا حتى مات عام ٧٣٢ هـ . في سن الستين تقريبا . وخلفه ابنه الأفضل في ملكه . وبقيت مملكة حماة في عقبه زمنا ، ثم تقلص ظلها عنهم وعادت نيابة كما كانت .

بعض أخباره :

أبو الفداء — كما شهدنا — من بقايا الأيوبيين حكام حماة . ولما أخذ سيل التار يتدفق على هذه المملكة ، فرأه إلى دمشق . وفي هذه المدينة ولد أبو الفداء في شهر جمادى الأولى عام ٦٧٢ هـ ، بدار النجلى .

ولما عاد ملك حماة إلى أسرته ، عاد معها ، وترقى في سلك الإمارة حتى صار أمير عشرة عام ٦٩٠ هـ في عهد ملكها المظفر محمود . واشترك مع الجنود المجتمة لفتح عكا ، يوم أن حاصرها سلطان مصر الأشرف خليل بن قلاوون وفي عام ٦٩٢ هـ ، ترقى أمير طبليخانة « أمير أربعين فارسا » . واشترك عام ٦٩٧ هـ ، مع جنود المظفر ، في فتح بلاد الأرمن زمن المنصور لاچين ، سلطان مصر . ولما انتطعت نيابة حماة عن بقايا الأيوبيين أجداد المؤيد ، ظل هو في خدمة

نائبها الجديد الأمير ، قراسنقر ، . ومع ذلك لقي من هذا الأمير بعض الحيف ،
ثم آل أمره أخيراً إلى أن صار نائباً للناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر ،
على حماة ، عام ٧١٠ هـ

ولما عين في نيابة حماة . نقل منها نائبها ، استدمر ، . وكان ذلك على الرغم
منه ، ورفض الانتفال منها ، وكادت الحرب تقع بين الأميرين بسببها . لولا أن
قدمت نصيحة إلى استدمر بالإقلاع عن هذه المناجزة ، والانصياع لأوامر السلطان
— على أن استدمر حارل ، من بعد ، أن يكيد المؤيد ، فلم يفلح .

استقل المؤيد بذيابته ، فطلب إلى الناصر بن قلاوون ، أن يفد عليه في مصر ،
فأذن له .

خرج المؤيد من حماة في مستهل شوال عام ٧١٠ هـ ، فبلغ القاهرة ولقي السلطان ،
في أول القعدة ، وقدم إليه الهدايا الحافلة ، ولبث مدة في جواره ، ثم عاد من لدنه
مكرماً . فبلغ حماة في الثلاثاء السابع من ذي الحجة من نفس العام .

وفي عام ٧١٢ هـ ، وفد ثانية على مصر . فخرج من حماة يوم الاثنين ١٨ ربيع
الأول ، فلقى السلطان في ١٠ ربيع الآخر ، وقدم هداياه إليه فأكرمه السلطان
وخلع عليه وأعطاه ثلاثين ألف درهم وقطع أقمشة وفرسا مطهمة . وكتب له تقليداً
بولاية حماة والمعرة وبارين . ثم خرج من القاهرة يوم الثلاثاء ٢ جمادى الأولى
عام ٧١٢ هـ ماراً بدمشق ، فبلغ حماة في نفس الشهر وقرى تقليده على الناس . .
وبعد قليل خرجت المعرة من إدارته ، وضمت إلى حلب ، بسبب طمع أمرائها في
المعرة ، بل وفي حماة نفسها . وثار نزاع بسبب ذلك . فنزل المؤيد عن المعرة حسماً
له . وذلك عام ٧١٣ هـ .

وفي نفس العام استأذن المؤيد سلطان مصر الناصر في الذهاب إلى الحج .
فأذن له وأهدى إليه ألف دينار . فخرج من حماة في ١٤ شوال على الخيل والبغال
حتى السكرك . ثم ركب الجمال منها إلى المدينة سابقاً ركب المحمل الشامي . فزار ثم

يتم مكة وأدى فريضة الحج وعاد إلى حماة في ١١ المحرم عام ٧١٤ هـ ، وزار في طريقه مدنا عدة . وهذه هي حجته الثانية . — أما حجته الأولى فكانت عام ٧٠٣ هـ أيام أن كان أميرا .

وقد سافر إلى مصر مرة أخرى عام ٧١٥ هـ فبلغ القاهرة مساء الأحد ١٨ جمادى الأولى ، فلقى السلطان ولقى لديه ما تطيب له نفسه من الإكرام . وأعاد إليه مدينة المعرة ، وكتب له تقليد أبذلك . ومدحه بهذه المناسبة كاتب الإنشاء شهاب الدين الحلبي بتقصيدة ذكر فيها كرم السلطان ، وعود المعرة إلى المؤيد ومن هذه القصيدة :

بك نزهى مواكب وأسرة ولك الشمس والقواضب أسرة
وبأيامك التي هي روض للأمانى تجنى ثمار المسرة
بك كل الدنيا تمهى ويضحى قدرها عاليا وكيف المعرة

ثم عاد إلى حماة ويده مملوءتان بالأعطيات الوفيرة والمنح الكثيرة عام ٧١٥ هـ . ولكن ما لبثت المعرة أن خرجت من يده مرة أخرى في ذى القعدة من العام المذكور .

وخرج في عام ٧١٩ هـ صحبة سلطان مصر الناصر إلى الحج . فقدم أولا إلى مصر في أواخر شوال ، وظل بها حتى خرج في ركب السلطان . ثم عاد معه إلى مصر . وحينئذ منحه السلطان الناصر لقب « سلطان » وأركبه بشعار السلطنة . ويفهم من هذا أنه كان إلى عام ٧١٩ هـ نائبا فقط . ثم عاد إلى حماة ودخلها صباح السبت ٢٦ المحرم عام ٧٢٠ هـ

وتدزار مصر زورة أخرى عام ٧٢١ هـ ثم عاد إلى حماة . وزارها مرة عام ٧٢٢ هـ وزار الأهرام بصحبة السلطان وعاد عام ٧٢٣ هـ وزارها مرة أخرى دام ٧٢٤ هـ وعاد عام ٧٢٥ هـ وزارها مرة أخرى في عام ٧٢٧ هـ ليشارك في الصيد مع السلطان .

وقد تردد المؤيد على مصر مرارا . وكان في كل مرة يجد ما تطيب له نفسه من إكرام السلطان واحتفائه به وهدايا له . كما كان يقدم إلى السلطان هدايا عدة ثمينة في كل مرة . وكان يشترك بجنوده في الحروب حسب أمر الناصر محمد .

وبما يذكر هنا أن المؤيد حينما كان يتناول سيرة الملك الناصر محمد ويذكر حروبه وتنقلاته ، وذلك في كتاب تاريخه ، المختصر ، كان يعبر عنه بأرق الألفاظ وأعذبها وأكثرها إشعارا بالحب والتعظيم .

عليه وأخلاقه :

يتضح من سيرة هذا الرجل أنه كان وديع الأخلاق جم التواضع . ولذلك أحبه من حوله وكرمه عارفوه ، وعلى رأسهم سلطان مصر العظيم الشأن الناصر ابن قلاوون . ولا يخلو مثله من دهاء وتحيل ، لحفظ هذه المنزلة العظيمة التي بلغها وفضل بها سائر نواب الدولة ، حتى صار سلطانا وملكاً . وهذه الحالة كان من الطبيعي أن تخلق له بعض الأعداء الغيورين الحاسدين . غير أن ثقة الناصر به وحبه له لسابقة يده عنده ، كانت تدرك عنه نتائج الغيرة وعواقب الحسد .

ويظهر أن وداعته وتواضعه ، ودهاءه وتحيله في هذه الدولة الشاسعة الأطراف التي تعج بالطامعين المتنازعين من الأمراء ، حتى استطاع أن يستديم لنفسه منصبه قرابة ثلثين وعشرين سنة ، وهي مدة قل أن ترى أميراً من هؤلاء الأمراء احتفظ بمركزه الممتاز في مدة تساويها . — أقول إن هذه الأخلاق لا بد أن اكتسبها من ممارستها للعلم ومن حبه للاطلاع ومن ولعه بالأدب . فقد اشتهر هذا الرجل بحبه للعلم والأدب ، وعطفه على العلماء والأدباء ، وإحاطة نفسه بعدد منهم يشجعهم ويعينهم ، ولأنه ليعيد إلى الذاكرة في هذا العصر الكردي التركي صوراً من أمراء العرب في العصور الماضية ، ممن يُراحون للشعر ، ويهتمون للأدب ، ويهتمون بالمواد الطريفة ومجالس العلم .

وبما يذكر أنه آوى إليه د أمين الدين الأبهري ^(١) ، فاقام عنده ورتب له ما يكفيه . وأقام في كنفه ردحا طويلا أمير شعراء عصره جمال الدين بن نباتة المصري ورتب له كذلك ما يكفيه . ولما أقام ابن نباتة في دمشق رتب له كل سنة ستمائة درهم غير ما يتحفه به من الهدايا . وكان ابن نباتة يخرج معه أحيانا للصيد . وله فيه وفي ابنه الأفاضل قصائد مدح طنانة خالدة أبقت ذكرى هذا الملك عاطرة مؤرجة . - وكذلك فعل مع الشاعر صفي الدين الحلبي فرتب له مثل ما رتب لابن نباتة . ولصفي الدين فيه أمداع أخرى وتجده هذه القصائد في ديوانى الشعارين : ^(٢)

وبما شغل به تعمير مدينة حماة وإنشاء الرباع والحمامات والمؤسسات المختلفة بها . وبني بظاهرها د جامع الدهيشة ، وزوده بمكتبة حافلة . واشتغل الملك المؤيد بعلوم عدة . وله فيها مؤلفات ذات أثر وقيمة . كما اشتغل بالأدب ونظم الشعر وله فيه أبيات رائعة . كما كان ولوعا بالرحلات والطواف ، زار مصر مرارا وطوف كثيرا في آفاق بلاد الشام وزار القدس وبارين وبلبك والسكر وبيروت وغيرها . قيل : د وكان الملك المؤيد فيه مكارم وفضيلة تامة من فقه وطب وحكمة وغير ذلك . وأجود ما كان يعرفه علم الهيئة لأنه أتقنه . وإن كان قد شارك في سائر العلوم مشاركة جيدة .

ويقهم من سيرته أنه كان مشاركا في الفقه الشافعى ، وإن لم يبرز فيه تبرزاً يُعده من فقهاء . وكان مشاركا كذلك في النحو والأدب ونظم الشعر . وكان كثير النظر في كتب التاريخ محبا له ، ولذلك ألف كتابه النافع المختصر . . وكان ذا علم

(١) أمين الدين الأبهري ذكره ابن حجر في الدرر . رحل بعد موت أبي الفداء إلى حلب ومات بها عام ٧٣٣ هـ . وذكر بعض المراجع أنه أمير الدين الأبهري وسكن أمير الدين هذا توفي عام ٦٦٣ هـ وهو مؤلف إيساغوجي وهداية الحكمة ، راجع جورجى زيدان ج ٣ ص ١٠٥ .
(٢) انظر ترجمة الحلبي وابن نباتة ، وشعرهما في المؤيد ، فى الجزء الثالث من كتابنا هذا .

محمود بتقويم البلدان ، فألف كتابه فيه . هذا كله فوق ما عُرف عنه من ميله إلى الطب ومعاطاته . ويحكى عنه أنه : توجه في بعض السنين إلى مصر ومعه ابنه الملك الأفضل محمد . فرض ولده وجهر إليه السلطان الناصر ، الطبيب جمال الدين ابن المغربي ، رئيس الأطباء . فكان يحى إليه بكرة وعشيرة فيراه ، ويبعث عنه في مرضه ، ويقدر الدواء ويطبخ الشراب بيده في دست فضة — أى المؤيد يصنع هذا — فقال له ابن المغربي : يا خوند ! والله ما تحتاج إلى وما أجيء إلا امتثالاً لأمر السلطان . ولما عوفي ، أعطاه بغلة بسرج وكنبرش مزركش وأفشة وعشرة آلاف درهم والدست الفضة وقال يا مولاي ! اعذرني فإني لما خرجت من حماة ما حسبت مرض هذا الابن .

وهكذا كان الرجل خيراً محسناً بجانب علمه وأدبه . وقد قيل إنه لما حانت منيته فرّق بعضاً من كتبه على أصحابه ووقف البعض الآخر .

ولما مات المؤيد رثاه الشعراء وفي طليعهم ابن نباتة والصفى الحلي . ومطلع قصيدة ابن نباتة .

ما للندى لا يلبي صوت داعيه أظن أن ابن شاذى قام ناعيه

ما للرجاء قد استدت مذاهبه ما للزمان قد اسودت نواحيه

شعره :

قلنا إنه كان شاعراً ، سماعاً للشعر ، مثيباً للشعراء ، فيه أريحية أدبية كأنه سيف الدولة بن حمدان العربى . وشعره متوسط الجودة رقيق اللفظ واضح المعنى قليل التكلف تشوبه أحياناً أخطاء لغوية أو ضرورات شعرية . يقوله فى أغراض نفسية كغزل أو شكوى ومنه قوله فى الشوق :

اقرأ على طيب الحبيب سلام صب مات حزنا

واعلم بذاك أحبة بخل الزمان بهم وضنا

لو كان بشرى قربهم بالمسال والأرواح جسدنا

متجرعاً كأس الفراق ق يبيت للأشواق رهنا

صب قضي رجدا ولا يتضي له ما قد نمني

ومن موشحة له يعارض بها موشحة ابن سناء الملك .

عسى ويا قلبا تفيد عسى أرى لنفسى من الهوى نفسا
مذبان عنى من قد كلفت به قلبي قد لج في قلبه
وبى أذى . شوق عانى ومدعى يوم شاتى
لا أترك اللهو والهوى أبدا وإن أطلت الغرام والفندا
إن شئت فاعذل فلست أسمع أنا الذى فى الغرام أتبع
وتحتذى . صباباتى وتدعبنى . عاداتى
بى ملك فى الجمال لا بشر يُظلم إن قيل إنه قر
يحسن فيه الولوع والوله وعز قلبي فى أن أذل له
خذى حذا . أن بأتى ويرتمى حشاشاتى

مؤلفاته :

له مؤلفات هامة تعتبر مراجع فى بابها ولا سيما « المختصر » و « التقويم » وقد
اهتم بها الأجانب وترجموها إلى عدة لغات . فمن مؤلفاته :

- ١ - المختصر فى أخبار البشر : وهو فى التاريخ العام . وهو المعروف بتاريخ
أبى الفداء . ٢ - تقويم البلدان : وهو فى الجغرافيا ووصف الأقاليم . ٣ - الكناش :
وهو فى النحو ، فى عدة مجلدات . ٤ - نظم الحاوى : وهو فى فقه الشافعية .
٥ - كتاب الموازين . ٦ - التبر المسبوك فى تواريخ الملوك : به أخبار عن
السلاطين والملوك فى مصر والشام . ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب
المصرية ، ولنتكلم الآن عن بعض هذه المؤلفات .

١ - المختصر فى أخبار البشر :

كتاب مشهور متداول بين رواة التاريخ ومحبيه . طبع منذ أمد . تصفهحته وهو

في أربعة أجزاء مختصرة . وهو في التاريخ العام من بدء الخليقة إلى عام ٧٢٩ هـ .
— وقد ألحق به تذييل في الجزء الرابع نقلا عن كتاب زين الدين عمر بن الوردي
المعروف ، بتمة المختصر ، وهذا التذييل من سنة ٧٣٠ هـ إلى سنة ٧٤٩ هـ . أما
، التمة ، نفسها فمن سنة ٧٥٩ هـ .

وكتاب المختصر شبيه بكتاب بدائع الزهور لابن إياس وشبيه ببعض كتب
التاريخ الأخرى التي وضعت في هذا العصر ، من ناحية سرد حوادث كل عام على
حدة ، مع ذكر ما يتصل بهذا العام ، من تعيين ولاية أو عزل عمال أو تنصيب قضاة
أو نحو ذلك . وكذلك وصف حالة النيل أحيانا ، ووصف النواحي الاجتماعية
أحيانا أخرى .

وقد عني المؤلف بإيراد حوادث مصر ، وحوادث الدول المعاصرة لها كل عام
متتابعة ، وكل حادث منها تحت عنوان خاص . وكتاب ، العبر ، لابن خلدون
شبيه بكتاب ، المختصر ، من هذه الناحية .

وقد صرح المؤلف في مقدمة كتابه أنه رتب حوادثه على السنين حسب تأليف
، الكامل ، لابن الأثير . — واعتمد كذلك على كتب كثيرة نقل عنها . وليسكنه
قل أن نسب إليها في صلب كتابه شيئا ، بل أغفلها مكتفيا بالنص عليها في مقدمة
الكتاب . ومنها : الكامل لابن الأثير الجزري . تجريب الأمم لابن مسكويه .
وكتاب البيان لأبي عيسى أحمد بن علي المنجم . والتاريخ المظفر للقاضي
شهاب الدين بن أبي الدم الحموي . ووفيات الأعيان لابن خلكان . وتاريخ اليمن لعلمارة
البحري . وغير ذلك .

وقد قسمه إلى مقدمة وخمسة فصول .

أما المقدمة فتتضمن ثلاثة أمور : تكلم في الأمر الأول عن اختلاف التواريخ
القديمة وضرب الأمثلة لذلك . وتكلم في الأمر الثاني عن معرفة نسخ التوراة الثلاث
وهي السامرية والعبرانية واليونانية . وبين ما في تواريخها من متناقضات . وقد اعتمد

المؤلف التوراة اليونانية ، وقال إنها هي التي اختارها المؤرخون . وليس فيها ما يفتنى
الإنكار من جهة الماضي من عمر الزمان .

وعرض في الأمر الثالث ، جدولا طريفا ، يتضمن التواريخ المشهورة ، والمدة بين
كل تاريخ منها وآخر . وبين فيه الفروق الزمنية بين الأحداث التاريخية العظمى ،
كهيوط آدم ، والطوفان ، ومولد إبراهيم ، و وفاة موسى ، وابتداء ملك بختنصر ،
وغلبة الأسكندر المقدوني ، وظهور أغسطس على كليوبترا ، وحكم دقلديانوس ،
ثم الهجرة .

وقد حقق هذه الأمور تحقيقا نافعا ، يدل على خبرة وروية ودراية وحسن
نظر . ونحن وإن أهمتنا النتائج التي وصل إليها ، يهملنا فيها حبه للبحث والموازنة ،
وتحرى الدقة ، وبغية الوصول إلى الصواب .

أما الفصول : فالأول في التواريخ القديمة وذكر الأنبياء ، وحكام بني اسرائيل ،
والثاني في ملوك الفرس وما يتصل بهم . والثالث في فراعنة مصر وملوك اليونان
والروم والقيصرية . والرابع في ملوك العرب قبل الإسلام في الحيرة واليمن أو الشام
أو غيرها . والخامس في ذكر أمم العالم ، وهو أوسع فصوله استغرق أكثر الجزء
الأول والأجزاء الثلاثة الأخرى .

وقد أورد المؤرخ حوادث السيرة النبوية في الفصل الخامس ، وسلسلة حوادث
دول العرب منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى نهاية الدول العباسية . متبعا
أخبار مصر ودولها ودول التتار والمماليك لعهدده حتى سنة ٧٢٩ هـ . كما ذكرنا .
وذكر في سياق حديثه تواريخ الدول المعاصرة كبلاد اليمن والمغرب والاندلس
وغیرها .

ولا ريب أن ما أورده المؤرخ من حديث عن العصور القديمة البائدة ، اعتمد
فيه على كتب التاريخ السالفة الذكر . أما الجزء الأخير الذي عاش فيه ، فإنه أرخه
تأريخ شاهد سامع مبصر مشترك في حوادثه . لذلك يعد في هذا الجزء مرجعا من
خير المراجع وأدقها .

ولانفس أن نذكر أنه أورد في سياق الحوادث ميلاد كثير من العلماء والأفذاذ ووفاتهم ، ويعتبر أحد المراجع في ذلك أيضاً . وقد اهتم كثير من المؤرخين بهذا الكتاب . وقال عنه جورجى زيدان : « ولهذا الكتاب منزلة رفيعة عند علماء أوروبا وهو من أقدم كتب التاريخ الإسلامى التى اهتموا بنشرها وترجمتها . »
أسلوبه :

أسلوب المختصر سهل لطيف رقيق واضح قليل الاستطراد قريب المأخذ ، متوسط الجردة نادر العامية ، قليل الابتذال ، حديث مسرود لا تكلف فيه ، قل أن سقط إلى مستوى العامية ، كما سقط من بعده بعض المؤرخين . لا يلتزم البديع إلا لما . وقد يستطرد إلى ذكر حوادث أدبية طريفة يروى فيها بعض المنشور أو المنظوم . وهكذا ترى ما لهذا الكتاب من أهمية في التاريخ والأدب .

هذا وقد ألف أبو الفداء كتابه « المختصر » ، وذكر فيه الحوادث حتى أواخر عام ٧٢٩ هـ ، ولبت يتحدث فيه عن نفسه وعن تنقلاته وأعماله . ويقول مثلاً :
وصل إلى . وسافرت ، وتوجهت . الخ

وقد طبع الكتاب ، وزيدت عليه حوادث أواخر عام ٧٢٩ هـ إلى أواخر عام ٧٤٩ هـ ، نقلاً عن كتاب « تنمة المختصر » لابن الوردى ، الذى اختصر فيه كتاب أبى الفداء ، وذيل له .

وقد صرح ابن الوردى فى « التتمة » ، أن أبى الفداء وقف فى « مختصره » ، عند أواخر سنة ٧٠٩ هـ ، - فيما علم - ، ولهذا وضع تتمته على المختصر ، من أواخر سنة ٧٠٩ هـ ، إلى أواخر عام ٧٤٩ هـ .

ويبدو أن أبى الفداء أكمل مختصره حتى عام ٧٢٩ هـ ، ولم يطلع عليه ابن الوردى ، وعثر عليه الناشر فأضافه ، فأصبح كتاب المختصر كاملاً .

٢ - تقويم البلدان :

طبع هذا الكتاب بأشراف المستشرق رينود ، والبارون ماك كوكيندى سلان فى باريس عام ١٨٤٠ م

تصفحت منه نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية، على ورق جيد وبحروف واضحة،
وإن كانت من النوع القديم .

وقد قدمه المؤلف بمقدمة وجيزة بين فيها الدافع له على تأليفه، فقال: « لما طالعت
الكتب المؤلفة في البلاد ونواحي الأرض من الجبال والبحار وغيرها لم أجد فيها
كتاباً موفياً بغرضي » ثم تعرض لذكر عدة من هذه المؤلفات وبين نواحي النقص
فيها . ومنها ما لم يذكر الطول والعرض ومنها ما لم يضبط الأسماء ولم يبين الطول
والعرض . ومن بين هذه الكتب : كتاب ابن حوقل وفيه صفات البلاد ولم
يضبط فيه الأسماء ولم يذكر الأطوال ولا العروض . ومنها كتاب الشريف
الإدريسي في الممالك والمسالك ، وكتاب ابن خرداذبة ، وهما مثل ابن حوقل في
في كتابه . ومنها كتاب الأنساب للسمعاني . والمشارك لياقوت الحموي . وكتاب
مزيل الارتباب عن مشتهر الأنساب، وكتاب الفيصل ، كلاهما لأبي المجد اسماعيل
ابن هبة الله الموصل ولم يتعرض لتحقيق الأطوال والعروض . الخ . . فأحب
المؤلف أن يجمع في كتابه هذا ما تفرق في الكتب المختلفة مع ضبط الأسماء
وذكر الأطوال والعروض . ولم يدع الإحاطة .

وقارئ الكتاب يشعر شعوراً جلياً بعدة أمور، منها : دقة المؤلف في التعبير عن
الحقائق العلمية المعروفة في عهده ، دقة تشعيراً أيضاً بالحكمة وحسن الفهم واكتمال
الملكية العلمية . ثم يشعر بإحاطة المؤلف بكل ما يختص بموضوعه مع عنايته بالتحقيق
والضبط . هذا إلى أنه بغير شك ، قد تقدم علم التقويم في زماننا تقدماً كبيراً جداً
وأحاط بالكثير من المجهولات ، ووصل إلى الكثير من القوانين ، فأحدث ذلك
تغيراً في النظريات القديمة . فإذا كان المؤلف أورد ضرباً من هذه النظريات
والقوانين والتقاسيم ، فليس ثمة ما يؤخذ به ، ولا غبار عليه ، فهو لسان عصره ،
وكتابه مرآة له . وأحد الحدود التي بلغها علم التقويم فيه من تقدم ورقى . ومع هذا
كله ، فلا يزال عدد كبير من نظرياته صحيحاً . فمن النظريات الصحيحة كروية الأرض

والبراهين عليها . ونقص أيام السائر نحو المغرب عن أيام السائر نحو المشرق ، وحديثه عن خط الاستواء والجهات المسكونة من الأرض في حينه . وبلوغ الشمس منزلة الأوج وهي عمودية على مدار الجدى ، ومنزلة الحضيض وهي عمودية على مدار السرطان . وكلامه عن البحر المحيط إلى حد ما وغير ذلك . ومن النظريات التي تطرق إليها الوهن ، قصر العمار على الأقاليم السبعة ، لأن أمريكا لم تكن كشفت إلى ذلك الحين . كما قد تغيرت أسماء كثير من الأماكن ، مدنا وبحارا وخليجانا الخ . وكذلك تغيرت طريقة التحديد وقياس الأطوال الآن عنها في الزمن القديم . والمعلومات الجغرافية إلى ذلك الحين ، كان يفتأها — إلى حد ما — الخدس والتخمين . فلم تكن كلها وليدة المشاهدة والرحلة . وما تغير بلا شك ، ما كان يُزعم عن منابع النيل وفيضانه ، وهنا نقول إن المؤلف قال عنه « ومبتداه وأوله الخراب الذي هو جنوب خط الاستواء ، ولذلك تعسر الوقوف عليه ، ولم يتصل بنا من أخباره إلا ما نقل عن اليونان ونسب إلى بطليموس ، أنه ينحدر من جبل القمر من عشرة مسيلات منه ، بين كل نهر منها والآخر درجة في الطول ، الخ . ويعجبنا من المؤلف أنه لم يتورط بكثرة الكلام عن النيل ، واعترف بتلة ما اتصل به من أخباره ، إلا ماروى عن اليونان . ثم إن ما رواه عن النيل قليل ، وهو دليل على قصر المعلومات عن هذا النهر الكبير في ذلك الحين — هذا كله في المقدمة . ثم تحدث المؤلف عن بعض النواحي المعمورة واصفا وصفا إقليميا فيذكر الحدود والبلاد المتاخمة ، والأنهار والجبال والمدن والنواحي المختلفة ، والأجناس واللغات أحيانا ، إلى غير ذلك ، ضابطا الأسماء ضبط اللغويين ، مستطردا أحيانا إلى بعض الطرائف التاريخية ، معقبا على شروحه واستطراداته ، بمجداول مقسمة ، يذكر فيها أسماء الجهات والمدن ، وأمامها عروضها وأطوالها ، وضبطها بالحروف على نمط ضبط ابن خلكان في وفياته ، ثم أوصافها وأخبارها العامة ، كل في نهر خاص من الجداول المذكور . ناقلًا عن كثير من السكتب السالفة ، ذاكرًا لكل من نقل عنه . ومن الديار التي تكلم عنها : جزيرة العرب ، ومصر ، والشام ، والمغرب ، والسودان

والأندلس ، والعراق ، وفارس ، والهند ، والصين ، وبلاد الروم ، وأرمينية ،
وخراسان ، وما والاها إلى بلاد ما وراء الهند .
ومها يكن من شيء ، فكتاب التقويم يعد مفخرة من مفاخر مصر في العصر
المملوكي ، وعمدة من عمد التقويم في العصور الوسطى .
وحسبنا هذا في التنويه بقدر أبي الفداء .

« توجد ترجمته في فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠ - وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج ٦
ص ٨٤ - وتاريخ آداب اللغة ج ٣ ص ١٨٧ - وتاريخ حماة للصابوني وابن أبياس ج ١
ص ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ - والدرر الكامنة ج ١ - وفي كتابه « المختصر » في أوله وفي الجزء
الرابع منه في مواضع كثيرة . - وذكره ابن حجة في ثمرات الأوراق وتأهيل الغريب » .

٦- شمس الدين بن قيم الجوزية ٥٦٩١-٥٧٥١

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية، أحد العلماء الأعلام، الذين كشف الله عن بصيرتهم، وآتاهم من العلم حظا عظيما. وليس في علماء هذا العصر من هو أقرب شهابا بن تيمية، من تلميذه ابن القيم، الذي تأدب على ما نُدته، وتناول كأس العلم من يده. ولازمه زمنا طويلا، وابتلى مثله بكثير من الأعداء كما ابتلى، وسجن مرارا كما سجن. ومن بينها مرة سجن فيها بسببه، وهي آخر مرة سجن فيها ابن تيمية بقلعة دمشق. فسجن كذلك ابن القيم في ناحية بعيدة عن أستاذه، ولم يطلق سراحه إلا بعد وفاة ابن تيمية.

فابن القيم شبيه أستاذه في العلم والمذهب وحوادث الحياة. وحتى في الأسلوب الكتابي، ترى كلا منهما فياضا كالسيل، واضح الآراء، ثبت اللفظ كثير الاستشهاد بالآيات والأحاديث وأقوال السلف، حاضر البديهة، وحتى في الاتجاه العلمي، فقد كان كل منهما بحرا زخارا في الفقه الحنبلي، كثير التعرض للفرق الخارجة ذات المذاهب المتلوية غير المستقيمة، كالرافضة والجهمية والخالوية، يفند مذاهبهم ويكذب مزاعمهم، ويفرى براهينهم ويقطع حججهم، ويوضح مذهب أهل الكتاب والسنة بحجة فارعة وبرهان قوى.

وكثيرا ما وافق ابن القيم أستاذه ابن تيمية، في مسائل عدة مما أفتى بها، كتحریم السفر إلى زيارة بعض القبور. كما أن بين الاثنين شهابا كبيرا في الورع والتقوى وزهادة الدنيا، والميل الطبيعي إلى التقشف والصلابة في الحق. وبين الاثنين شبه في الشغف بالعلم وحب التأليف فيه، فكما ترك لنا ابن تيمية بضع مئات من المصنفات ترك لنا تلميذه ابن القيم، الكثير منها في فروع دينية عدة.

ولعل من الفروق بينهما، أن ابن تيمية - وهو في مظهره ومخبره متصوف حقيقة - لم يَلجَ في الطريق كما يلج الصوفية، ولم يدع الأحوال كما يدعون، ولم يتحیل

كما يتحيلون . بل حمل عليهم أحيانا في عداد من حمل عليه . وفند بعض ما يقولون وما يصنعون . وقد عرفنا ما أصابه من جراء تصديه للشيخ نصر المبنجي ولغيره من رجال الطرق .

أما ابن القيم — وهو على غرار أستاذه علما وتصوفا ومعرفة وإيمانا — فقد خاض في التصوف وكتب بعض المؤلفات فيه وشرحها ، وعرف مصطلحاته معرفة الخبير بها ، وكتب عنها كتابة أهل العلم ، ولكنه لم يحد قط عما يسنه القرآن والحديث . ومما تناوله من هذا القليل كتاب « منازل السائرين » للهرودي المتصوف ، فقد شرحه ابن القيم شرحا جليلا ، في ثلاثة مجلدات سماه : « مدارج السالكين » . وهو في ذلك طراز من حجة الإسلام الغزالي .

اسمه وشيء من حياته :

هو العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ثم الدمشقي الفقيه الحنبلي المفسر النحوي الأصولي المتكلم الشهير بابن قيم الجوزية . —

قال الآلوسي في كتابه « جلاء العينين » ما يلي : « قال ابن رجب : ولد شيخنا سنة إحدى وتسعين وستمائة . ولازم الشيخ تقي الدين بن تيمية ، وأخذ عنه ، وتفنى في كافة علوم الإسلام . وكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى . وبالحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك . وبالفقه والعربية ، وله فيها اليد الطولى . وبعلم الكلام والتصوف .

حبس مرة لإنكاره شد الرحيل إلى قبر الخليل . وكان ذاعبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى . ولم أشاهد مثله في عبادته وعلمه بالقرآن والحديث وحقائق الإيمان . وليس هو بالمعصوم ، ولكن لم أر في معناه مثله . وقد امتحن وأوذى مرات ، وحبس مع شيخه شيخ الإسلام تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة — أي قلعة دمشق — منفردا عنه . ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ . وكان في مدة حبسه مشغلا بتلاوة القرآن ، والتدبر والتفكير ، ففتح

عليه من ذلك خير كثير . وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة .
وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف ، والخوض في غوامضهم .
وتصانيفه ممتلئة بذلك . وحجج مرات كثيرة ، وجاور بمكة . وكان أهل مكة يتعجبون
من كثرة طوافه وعبادته . وسمعت عليه قصيدته النونية في السنة ، وأشياء من
تصانيفه غيرها . وأخذ عنه العلم خاق كثير في حياة شيخه ، وإلى أن مات ،
فا نتفعوا به .

قال القاضي برهان الدين الزرعي : « وما تحت أديم السماء أوسع علما منه ،
ودرس بالصدرية ، وأمّ بالجوزية ، وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة . وصنف
تصانيف كثيرة جدا في أنواع العلوم ، وحصل له من الكتب ما لم يحصل لغيره . »
وقال السيد رشيد رضا - من علماء العصر الحديث - وناشر كتاب « مدارج
السالكين » ، في تقديمه ، بعد أن تحدث عن أهل الحق : « وأجدر هؤلاء المهديين
ببيان التحقيق الذي يزيل الخلاف من كان جامعا بين المنقول والمعقول ، غير
متعصب لمذهب من المذاهب التي تعزى إلى أفراد العلماء . ولم نر في هذا الصنف
أوسع علما وأنقض حجة وأقوى عارضة من شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، وتليذه
الإمام المحقق محمد بن أبي بكر الشهير بابن القيم أو ابن قيم الجوزية . فقد جمع الله
لكل منهما بين الرسوخ في علوم السنة حفظا وفهما واستحضارا واستنباطا ، وبين
التمكن من سائر العلوم التي دونت بالعربية ومذاهب الفرق وأدلتها ، فبينافي كتبهما
الممتعة ، ما أخطأ فيه الذين انحرفوا عن الكتاب والسنة من أهل هذه المذاهب .
وقد كان ابن تيمية السابق إلى تحرير تلك المسائل ، وتلاه ابن القيم ، فكان الموضح
المكمل لها ، والمستدرك المدرك لما فاته منها . وأهم ما انفرد به ابن القيم فيما نعلمه
الإطالة بتحرير علوم الصوفية ، ووضع الموازين القسط لمعارفهم ، وأذواقهم
ومقاماتهم وأحوالهم ، بشرحه لكتاب « منازل السائرين » ، لشيخ الإسلام أبي
إسماعيل الهروي . »

وقال ابن كثير : كان يقصد للإفتاء بمسألة الطلاق ، حتى جرت له بسببها ، أمور يطول بسطها ، مع ابن السبكي ، وغيره .

وكان جماعاً للكتب . فحصل له منها ما لا يحصر ، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرًا طويلاً ، سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم .

وهو طويل النفس في مصنفاته يتعانى الإيضاح جهده ، فيسهب جدا ، وله في ذلك ملكة قوية . وكان كثير العبادة ، لا أعرف في زماننا من أهل العلم من هو أكثر عبادة منه . . . ونوه ابن حجر أيضاً بحبه للكتب .

وقال عنه ابن حجر كذلك : « كان جرى الجنان واسع العلم ، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف : وغلب عليه حب ابن تيمية ، حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله ، بل ينتصر له في جميع ذلك . وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه . »

شيوخه :

تلمذ ابن القيم لكثيرين من جلة علماء جيله ، وعلى رأسهم شيخه الأول تقي الدين بن تيمية ، وقد لا زمه منذ عودته من مصر إلى دمشق عام ٧١٢ هـ . وقد سمع الحديث من التقي سليمان ، وأبي بكر بن عبد الدائم ، وابن الشيرازي ، والمطعم ، وإسماعيل بن مكتوم . ودرس العربية على ابن أبي الفتح ، والمجد التونسي . وقرأ الفقه على المجد الحرائي ، والتقي بن تيمية . وقرأ في الأصول على الصفي الهندي ، وابن تيمية أيضاً .

عمله وتلاميذه :

اشتغل ابن القيم بتحصيل العلم ، ثم قام بنشره فصنف المصنفات النافعة في جدال الكلاميين ، والمنحرفين في نظره عن مذهب السلف وعقيدتهم . وفي تفسير كلام الله وحديث رسوله الكريم . واشتغل بالتدريس والإمامة والفتوى . وتخرج به تلاميذ أحلاء ، منهم : الحافظ زين الدين أبو الفرح عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ، صاحب طبعات الحنابلة ، — وقد نقلنا كلمته في شيخه ، فيما سبق —

ومنهم شمس الدين محمد بن عبد القادر النابلسي صاحب مختصر طبقات الحنابلة ،
 لأبي يعلى . ومنهم والده الحافظ ابراهيم ، وعبد الله ، وغيرهم .
 وله في حياته جهاد وكفاح شبيهان بجهاد شيخه ابن تيمية وكفاحه ، فقد أفتى
 وصودر في فتاواه ، وسجن بسببها ، وبسبب فتاوى ابن تيمية ، واعتقل معه في قلعة
 دمشق . — قال ابن حجر عنه : « اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة بعد أن أهيئ وطيف
 به على جمل ، مضروبا بالدرة » . وتعتبر حركة ابن القيم تنمة لحركة شيخه ، في تحرير
 الفكر والرأى ، وفي الدعوة إلى عقيدة السلف . وفي توضيح مذهب ابن حنبل .
 مولده ووفاته :

ولد ابن القيم في دمشق عام ٦٩١ هـ ، ويبدو أنه أقام بها معظم حياته ، كما قيل
 إنه صحب ابن تيمية حين وفد على مصر ، وقد توفي في ٢٣ رجب عام ٧٥١ هـ ^(١) .
 ودفن بجنازة حافلة ، بمقبرة الباب الصغير ، عند والديه ، بعد أن مُصلي عليه في مواضع
 عدة ، منها الجامع الأموي .

مؤلفاته :

تدور مؤلفات ابن القيم — كما أشرنا — حول الرد على المبتدعين والكلاميين
 والمنحرفين في العقيدة عن مذهب السلف . وكذلك ألف في التصوف ، تأليف
 العارفين — وفي هذا يفارق شيخه ابن تيمية . وكتب في تفسير القرآن . وشرح
 الحديث ، وصنف في فقه الحنابلة . وقد يمتاز ابن القيم عن شيخه بطول نفسه ،
 وإسهابه في بعض مصنفاته ، على أنه فيض من بحره وقبس من نوره . وتعد مؤلفاته
 بالعشرات . ومنها كثير موجود ، وكثير مطبوع ومتداول . ومنها :

- ١ — تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته . ٢ — سفر الحجرتين وباب
 السعادتين ٣ — مراحل السائرين ٤ — السكك الطيب والعمل الصالح
 ٥ — زاد المسافرين ٦ — زاد المعاد في هدى خير العباد ٧ — نقد المنقول ،

(١) روى ابن حجر أن وفاته كانت في ١٣ رجب عام ٧٥١ هـ ، وذكر ابن إياس أن
 وفاته كانت سنة ٧٥٢ هـ .

في مجلد ٨ — نزهة المشتاقين : في مجلد (١) ٩ — أعلام الموقعين عن رب العالمين
 في ثلاثة مجلدات . ١٠ — بدائع الفوائد ، في مجلدين ١١ — الصواعق المرسلة
 على الجهمية والمعتلة ١٢ — حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح . ١٣ — كتاب
 الداء والدواء ، في مجلد ١٤ — مفتاح دار السعادة ، في مجلد كبير . ١٥ اجتماع
 الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية ، في مجلد . ١٦ — كتاب الطرق
 الحكمية في السياسة الشرعية ، ١٧ — عدة الصابرين ١٨ — إغاثة اللهفان من
 مكائد الشيطان . ١٩ — كتاب الروح ٢٠ — الصراط المستقيم في أحكام أهل
 الجحيم . ٢١ — الفتح القدسي . ٢٢ — التحفة الملسكية ٢٣ — الفتاوى
 ٢٤ — هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى . ٢٥ — تحفة الودود
 في أحكام المولود ، في مجلد . ٢٦ — القصيدة النونية ، الشهيرة بالشفافية
 الكافية في الانتصار للفرقة الناجية وتبلغ نحو ستة آلاف بيت ، وقيل سبعة
 آلاف . ذكرها ابن حجر في الدرر . ٢٧ — رفع اليدين في الصلاة وهو مجلد
 واحد . ٢٨ — تفضيل مكة على المدينة في مجلد واحد . ٢٩ — فضل العلم
 وهو في مجلد واحد . ٣٠ — كتاب الكبائر وهو في مجلد . ٣١ — حكم
 تارك الصلاة وهو مجلد واحد . ٣٢ — موت المؤمن وحياته وهو في مجلد
 واحد . ٣٣ — التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير . ٣٤ — جوابات
 عابدى الصليبان . ٣٥ — بطلان الكيمياء من أربعين وجها .

(١) يوجد لابن القيم كتاب اسمه « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » مطبوع في دمشق
 ومنه نسخة بدار الكتب المصرية « فهرس الاداب » . تكلم فيه عن لغة الحب وفلسفته ومذاهب
 الناس فيه ، ولغة الشريعة وحكمتها وأدبها ، وبه مزايا خلقية وفقهية وأدبية ولغوية . — فقله
 هو كتابه « نزهة المشتاقين » .

- ٣٦ — الفرق بين الخلعة والمحبة . ٣٧ — أمثال القرآن . ٣٨ — إيمان القرآن .
 ٣٩ — المسائل الطرابلسية . ٤٠ — كتاب الطاعون . ٤١ — جلاء الأفهام
 في فضل الصلاة والسلام على خير الأنام . ٤٢ — عقد الإخاء بين الكرم الطيب
 والعمل الصالح المرفوع إلى السماء . ٤٣ — بيان الدليل على استغناء المسابقة عن
 التحليل . ٤٤ — نكاح المحرم . ٤٥ — إغمام الهلال في رمضان . ٤٦ — شرح
 على الأسماء الحسنى . ٤٧ — شرح على ألفية ابن مالك . ٤٨ — أخبار النساء
 ويشتمل على أخبارهن وأوصافهن وما قيل في التحذير منهن وغدرهن .
 ٤٩ — شفاء الغليل في مسائل القضاء والقدر والحكم والتعليل . ٥٠ — مدارج
 السالكين . وهو في التصوف، شرح لكتاب « منازل السائرين » ، ٥١ — الجواب
 النكافي لمن سأل عن الدواء الشافي . ٥٢ — الفوائد ^(١) . ٥٣ — الفروسية .
 ٥٤ — تفسير الفاتحة . ٥٥ — تفسير المعوذتين .

التعريف ببعض هذه الكتب:

١ — مدارج السالكين :

أطلعت على نسخة منه مطبوعة بمطبعة المنار عام ١٣٣١ هـ ، في حجم كبير ،

(١) في دار الكتب المصرية كتاب لابن القيم اسمه كتاب « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن
 وعلم البيان » في فهرس البلاغة — مطبوع : فتلته كتاب الفوائد المذكور .

وفي ثلاثة أجزاء . واسمه الكامل « مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » . وهو شرح لكتاب « منازل السائرين » ، للهروى .

وقد عُنِيَ بطبعه ونشره المرحوم السيد رشيد رضا صاحب المنار المعروف . وجمع لذلك عدة نسخ خطية ، بعضها من الكويت ، وبعضها مكتوب بأيدي نساخ نجديين . وجهد في التصحيح حتى أخرجه محمود المظهر .

وقد وضع السيد رشيد مقدمة لهذا الكتاب ، طريقة ممتعة ، تحدث فيها بعض الحديث عن مؤلفه ابن القيم ، وتحدث فيه بعض الحديث عن التصوف الصحيح وأهله ، ومركز ابن القيم منه ومنهم . وقد نقلنا بعض هذه المقدمة في صدر الكلام السالف عن ابن القيم .

أما كتاب « منازل السائرين » ، فهو عبارة عن متن مختصر اختصاراً شديداً ، وضعه شيخ الإسلام ، أبو اسماعيل الأنصارى الحنبلى وهو عبد الله بن محمد بن علي الهروى الصوفى المتوفى عام ٤٨١ هـ في ذى الحجة .^(١)

ويقع هذا الكتاب في ثمانى صفحات . وموضوعه التصوف الإسلامى والعقائد الإسلامية . وصفها وذكرها بغير كثير جدال ، ولا رد لغيرها من المذاهب . وهو فوق اختصاره ، مملوء بالعبارات المهمة والجمل الغامضة والمفردات المصطلح عليها عند الصوفية ، مما له معانى خاصة عرفية لديهم ، لا يُعِين على فهمها عادة ، معرفةً بمتن ولا تذوق لتجوّز . وقد يضيق بفهمها غير العارفين .

أما كتاب ابن القيم « مدارج السالكين » ، فهو شرح لكتاب الهروى . وإن لم يشر ابن القيم إلى ذلك فى مقدمته . وهو شرح مستفيض جامع بين السنة والعقل والفقه ، أو بين المنقول والمعقول . فلا هو إلى جماعة أهل الأثر ، ولا هو إلى غلاة المتصوفة والمتأولين . فهو بينهما وسط صالح . وهذا الكتاب لا ستفاضة بحوثه وزامى أطرافها ، لا يشعر المرء معه بوجود الماتن الذى تصدى لشرحه . ويقع فى ثلاثة أجزاء :

(١) ترجمة الهروى بتفصيل فى تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٣ الطبعة ٤ .

أما الجزء الأول، فقد بذل المؤلف مجهودا فيه ضخما . إذ تناول فاتحة القرآن الكريم، وطفق يفسر آياتها تفسيرا شائقا، ساق في خلاله مسائل خلقية كثيرة، فصل فيها الكلام تفصيلا وبين ما تحويه الفاتحة من أنواع التوحيد ومن المعاني الكثيرة المنشورة في القرآن الكريم، والتي اكتنزت في هذه الفاتحة . - وتكلم كذلك عن الهداية والوحي والرقية بالفاتحة . ورد على كثير من أهل الفرق المبتدعة . وتحدث عن الذنب والمعصية والتوبة والاستغفار وغير ذلك .

أما الجزء الثاني، فقد شرح فيه معنى الإخبات والورع والزهد والتبخل والرياسة والرعاية والمراقبة والاعتراض والإخلاص والتوكل المحمود والمذموم، والاستقامة والشكر والإيثار والبخل والجود والمروءة وغير ذلك .

وفي الجزء الثالث، عرّف بالهمة والمحبة والغيرة والشوق والوجد والأمل والذوق والاعتراب والغيبة والمشاهدة، والمعاشاة والحياة والقبض والبسط والسكر والصحو والاتصال والمعرفة والفناء والبقاء وغير ذلك .

وهكذا ترى أن السكتاب كتاب خاقى نفسى عظيم الشأن جليل الأثر . ويظهر أن ابن القيم أراد - كما أراد صاحب المتن - أن يتدرج بالسالك من حالته الأولى إلى الحالة العليا . فرفق به في الجزء الأول مبينا له كيفية رياضة النفس . ثم بين له في الجزء الثاني المقامات الحسنى والأخلاق النافعة التي إن ثبت عليها وثابر، بلغ المرتبة الثالثة، وهي الأخيرة التي يعي فيها أشياء، ويتذوق أشياء، ما كان يعيها ولا يتذوقها من قبل، ولا يستطيع أن يعيها ولا أن يتذوقها رجل آخر سلك في حياته السبيل العادية .

وأهم ما دار حوله كلامه، ما تتضمنه الآية السكرية : إياك نعبد وإياك نستعين، وبين بروح إسلامية ما فيها من الحقائق الرائعة والمعارف الجامعة . وقد بين ابن القيم غرضه من تأليف هذا السكتاب في خطبته . ونقتبس منها ما يلي . قال :

« ونحن بعون الله ننبه على هذا الكلام على فاتحة السكتاب، وهي أم القرآن .

وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة من هذه المطالب . وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال وما تضمنته من منازل السائرين ، ومقامات العارفين . والفرق بين وسائلها وغاياتها ، ومواهبها وكسبياتها . وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها ولا يسد مسدها . ولذلك لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلاً . والله المستعان وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أسلوب هذا الكتاب :

لا بن القيم فيه أسلوبان أدبي وعلمي . ويتمثل الأدبي في خطبة الكتاب وقليل من فصوله . ويتمثل العلمي في معظم فصوله . ولنتكلم عن كل منهما .

أسلوبه الأدبي :

كما أن أراد ابن القيم في خطبة الكتاب أن يتابع رجال عصره الأدباء . لذلك تقيّد بالسجع وبالفقرات الطويلة والاعتباس والتضمين وضروب أخرى من البدع مع حسن عبارة وجودة رصف ، ودقة تناسق وغزارة معنى وكثرة علم . وإنك لترى فيه هنا النزعة الخطابية والروح العاطفية . — ومن قوله في تلك الخطبة يُعَرِّضُ ببعض الذين لم يفهموا كتاب الله حق الفهم ، ويتهم بهم تهكما مرا :
« أنزلوا النصوص منزلة الخليفة في هذا الزمان ، له السكّة والخطبة ، وما له حكم نافذ ولا سلطان . المتمسك عندهم بالكتاب والسنة ، صاحب ظواهر مبخوس حظه من المعقول ، والمقلد للآراء المتناقضة المتعارضة ، والأفكار المتهافّة لديهم هو الفاضل المقبول . وأهل المكتاب والسنة المقدّمون لنصوصها على غيرها ، جهال لديهم منقوصون . » وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . حُرِّمُوا — والله — الوصول ، بعدوهم عن منهج الوحي وتضييعهم الأصول . وتمسكوا بأعجاز لا صدور لها . نخافتهم أحرّص ما كانوا عليها . وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها . حتى إذا بُعِثَ

ما في القبور ، وحصل ما في الصدور . وتميز لكل قوم حاصلهم الذي حصلوه ، وانكشف لهم حقيقة ما اعتقدوه ، وقدموا على ما قدموه . « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » . وسقط في أيديهم عند الحصاد ، لما عاينوا غلة ما بذروه . فيا شدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباء منثورا . ويا عظم المصيبة عندما يتبين بوارق أمانيه خلبا ، وآماله كاذبة غرورا . فما ظن من انطوت سريره على البدعة والهوى والتعصب للآراء ، بربه ، يوم تبلى السرائر . وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره في يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر ، . إلى آخره .

أسلوبه العلي :

أكثر فصول الكتاب كتب بهذا الأسلوب . وقد انقسم الكلام فيه إلى فصول كثير منها موجز يقع في سطور . ويُعنى المؤلف بتوضيح المعنى في كل فصل ، وبيان الحقائق العلية ، والى كن دون جفاف ، وفي كثير من التقسيم ، والإجمال ثم التفصيل ، والتقديم ثم الاستنباط ، والاستشهاد بالآيات والأحاديث والأقوال المأثورة . كل ذلك في جمل هيئة لينه قايلة اللبس نادرة الغموض ، تشوبها أحيانا عبارات ومفردات مصطلح عليها ، وأكثر ما تبدو عند رده على الكلامين ، كما ترى فيها الأقيسة المنطقية على نمط يسير مما كان يكتب به ابن تيمية والعلامة الغزالي ، هذا وقد يعرض الغموض لعبارة ، وقد يعتمد السجع أحيانا ويتكلفه . وأكثر ما يبدو منه إذا غلبه الوجد ونال منه التحنن ، فيهنز متكلما عن عاطفة ، ويهزج كما يهزج المشتاق ، فيسجع طورا ويشعر طورا آخر .

ويضع المؤلف أحيانا عبارة المتن بين قوسين ، ثم يأخذ في شرحها ويفيض . ومن محاسنه ، أن يستطرد إلى تفسيرات لغوية نافعة ، وذكر شروح طريفة منقولة ومندوبة إلى قائلها ، وتدوين أدبيات مأثورة قيمة . وتاريخيات ثمينة . وما أخذه به الناشر ، عدم إرجاع ما استشهد به من الأحاديث النبوية إلى دواوينها

في كتب الحديث ، تثبيتها للقول وتمكيناً للحجة كما هو شأن ابن تيمية . ثم عقيب الناشر بعد ذلك بأن نفي عنه أن ينزل إلى الأحاديث الموضوعية أو الضعيفة أو المنسكرة لأنه من حفاظ الحديث . - أقول ومع ذلك أراه ذكر في كثير من الأحاديث عددا من رواها .

وبما يحذر ذكره أن المؤلف كثيرا ما استشهد بأقوال أستاذه ابن تيمية ، وهذه النزعة فيها معنى الوفاء ، فوق ما فيها من الأمانة العلمية . وبهذه المناسبة نقول إن الذي يدرس أحد الرجلين لاغنى له عن دراسة الآخر .

وإلى القارىء نموذجا من كتابته العلمية : كتب فصلا حينما تكلم بصدد سورة الفاتحة ومزاياها وما اشتملت عليه ، فقال منه : ص ٢٣ ج أول ، يرد على من يقول بوحدة الوجود .

« ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار . ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته ، فليتهمها . وإذا بطل قول هؤلاء ، بطل قول أهل الألحاد القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ما ثم وجود قديم خالق ، ووجود حادث مخلوق . بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله ، وهو حقيقة هذا العالم . فليس عند القوم رب وعبد ، ولا مالك ولا مملوك ، ولا راحم ولا مرحوم ، ولا عابد ولا معبود ، ولا مستعين ومستعان به . ولا هادي ولا مهدي ، ولا منعم ولا منعم عليه . ولا غضبان ومغضوب عليه . بل الرب هو نفس العبد وحقيقته ، والمالك هو عين المملوك ، والراحم هو عين المرحوم والعابد نفس المعبود . وإنما التغاير أمر اعتباري بحسب مظاهر الذات وتجلياتها . فتظهر تارة في صورة معبود كما ظهرت في صورة فرعون . وفي عبد كما ظهرت في صورة العبيد . وفي صورة هاد كما ظهرت في صورة الأنبياء والرسل والعلماء ، والكل من عين واحدة ، بل هو العين الواحدة . حقيقة العابد ووجوده ، أو أبنيته هي حقيقة المعبود ، ووجوده وأبنيته .

والفاتحة من أولها إلى آخرها ، تبين بطلان قول هؤلاء الملاحدة وضلالهم . .

وبعد ، فيضيّق نطاق القول عن إيفاء هذا الكتاب قدره من الوصف .

٢ - كتاب الفروسية :

طبع هذا الكتاب عام ١٣٦٠ هـ بمطبعة الأنوار ، وموضوعه ينطق به عنوانه ، فهو في د الفروسية ، ويُقصد بها ضروب الألعاب والرياضة البدنية ، التي اشتهر بها الرسول عليه السلام .

وقد عقد المؤلف لذلك جملة فصول ، تكلم في كل منها عن نوع من هذه الألعاب ، كالسباق والمصارعة ، راوياً ما ورد في كل نوع من الأحاديث التي ثبتت مزاوله الرسول عليه السلام ، له . أو مشاركته فيه مشاركة ما .

وقد أشار في فاتحة كتابه إلى هذه الأنواع حيث قال : ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق بالأقدام ، وثبت عنه أنه سابق بين الإبل ، وثبت عنه أنه سابق بين الخيل ، وثبت عنه أنه حضر نهضال السهام ، وصار مع إحدى الطائفتين ، فأمسكت الأخرى ، وصار مع الطائفتين كلتيهما ، وثبت عنه أنه رمى بالقوس ، وثبت عن الصادق أنه راهن كنفارمكة على غلبة الروم للفرس ، وراهنوه على ألا يكون ذلك ، ووضعوا الحظ بين الجانبين ، وكان ذلك بعلم النبي عليه السلام وإذنه . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه طعن بالرمح وركب الخيل مسرعة ومعراة ، وتقلد السيف ، الخ .

وأخذ يذكر كل نوع وبؤيده بالأحاديث التي تدل على مشاركة النبي عليه السلام فيه وكثيراً ما رواها بأسانيدها . ولم يخل الكتاب من استطرادات نافعة وأدبيات وأشعار طريفة .

وكثيراً ما أيد كلامه بالحوادث التاريخية والآيات القرآنية وأقوال العلماء . وزى من هذا كله أن الكتاب شاهد بفضل ابن القيم وغازاة عليه ، وإحاطته بمثل هذه الموضوعات الفريدة .

ولدراسة هذا الموضوع ، ومثله ، أهمية كبرى لبيان روح الإسلام ، ومبلغ رقيه ومدنيته . واتجاهه في التربية والتعليم .

٣ — جلاء الأفهام :

واسمه الكامل : « جلاء الأفهام في الصلاة والسلام ، على خير الأنام ، وحججه صغير ، ويقع في أكثر من ٤٠٠ صفحة . ومطبوع في « أمرتسار » .

تصفحت نسخة منه بدار الكتب بالمنصورة ، وقد وضع بفهرس التصوف ، ولكنه في الحديث ورجال الحديث . وموضوع من الموضوعات الشائقة ، التي فطن لها ذهن ابن القيم ، فهو من هذه الناحية شبيه بالكتاب السابق : « الفروسية » ، أما هذا الموضوع فهو التكلم في « الصلاة والسلام على النبي » ، وما يتصل بها ، وذكر الأحاديث المروية فيها . وقد روى المؤلف كل حديث منها ، برواياته العدة المختلفة موازنا بين كل رواية ورواية ، مجرحا للرجال أو معدلا ، مستشهدا على ما يقول بما ورد عنهم ، من كلام ثقات الرواة والحفاظ والفقهاء وعلماء الحديث .

وهذا الكتاب منقطع النظير في بابيه — فيما أعلم^(١) — إذ خصصه المؤلف في نوع واحد من الأحاديث دون سواه ، وأعنى به بابا واحدا من باب الحديث . وهو باب الصلاة على النبي عليه السلام . ووفاه حقه ، من إيراد أحاديثه ، وتاريخ رجاله . وبين في أحد أبوابه ، من روى أحاديث الصلاة على النبي . وفي باب آخر ، أحاديثها المرسلة والموقوفة ، وفي باب ثالث : معنى الصلاة على النبي ، والصلاة على آله . وتفسير الآل . ووجه الشبه بين الصلاة على النبي ، والصلاة على إبراهيم وآله من بين سائر الأنبياء . « وهو ما يقرأ في التشهد » . ومعنى ختام الصلاة بالحמיד المجيد . إلى غير ذلك .

(١) ختم تقي الدين السبكي كتابه « شفاء السقام » بمجملة من أحاديث الصلاة على النبي . وذكر في مقدمتها أن أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن النيرى ، جمع تلك الأحاديث والروايات في كتابه المسمى : « كتاب الاعلام بفضل الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام » .

وفي الكتاب بحوث في اللغة ونحوها، وبخاصة ما دار حول كلمة «الهم»، مستطردا منها إلى مسائل صوفية، وضروب من الرياضة النفسية، مع استشهادات وتحقيقات تاريخية. وقد ذكر خصائص سامية لآل النبي عليه السلام. فهو كتاب ممتع لعشاق الرسول عليه الصلاة والسلام، وآله الكرام.

٤ — الفوائد :

هذا كتاب آخر لابن القيم تصفحت نسخة منه مطبوعة في حجم متوسط يقع في أكثر من مائتي صفحة، طبعة حسنة، بإدارة الطباعة المنيرية، ظهر بالسكة حكيين عام ١٣٤٤ هـ نقلا عن نسخة خطية.

ويحتوي على جملة فصول متنوعة، يحتوي كل منها على الكلام عن مسألة من المسائل الدينية الخاصة بالعقائد. وذلك كمسألة البعث وصفات أهل الجنة. وقرب الله سبحانه وتعالى إلى كل نفس، وهو أقرب إليكم من جبل الوريد. والسعادة والشقاء. والقدر والظلم والعدل.

وبه فصول جلية تحدث فيها عن الأخلاق فوصفها وبين الطريق الموصل إلى الحسن منها. وبه فصول أخرى قيمة معقودة لتفسير بعض آيات الذكر الحكيم، وشرح بعض الأحاديث النبوية. ومن ذلك تفسير الفاتحة، وتفسير قوله تعالى «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد». وكلام عن سورة «ق»، وغير ذلك مع استنباطات كثيرة مفيدة منقولة عن السلف.

وتبدو الروح الصوفية الصحيحة في خلال الكتاب فهو كتاب تصوف وأخلاق وتفسير وشرح حديث، وتربية وتهذيب عال. ولننقل منه فصلا في الأخلاق المذمومة والفاضلة لتبين منه ما نقول. قال في ص ١٤٣ ما يلي :

«أصل الأخلاق المذمومة كلها السكبر والمهابة والدناءة. وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة. فالفخر والبطار والأشر والعجب والحسد والبغى والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والإعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو وحب الجاه والرياسة. وأن يحمد بما لم يفعل. وأمثال ذلك كلها ناشئة من السكبر.

وأما الكذب والخسة والخيانة والرياء والمسكر والخديعة والطمع والفرع والجبين والبخل والعجز والكسل والذل لغير الله ، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ونحو ذلك ، فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس .

وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجلود والحلم والعفو والصفح ، والاحتمال والإيثار وعزة النفس عن الدناءات ، والتواضع والقناعة والصدق والأخلاق والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل ، والتغافل عن زلات الناس ، وترك الاشتغال بما لا يعنيه ، وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك . فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة . والله سبحانه أخبر عن الأرض بأنها تكون خاشعة ثم ينزل عليها الماء فتتهز وتربو ، وتأخذ زينتها وبهجتها . فكذلك المخلوق منها إذا أصابه حظه من التوفيق .

أما النار فطبعها العلو والإفساد ثم تخمد فتصير أصغر شيء . وأردله . . . وكذلك المخلوق منها . فهي دائماً بين العلو إذا هاجت واضطربت ، وبين الخسة والدناءة إذا خمدت وسكنت .

والأخلاق المذمومة تابعة للنار والمخلوق منها . والأخلاق الفاضلة تابعة للأرض والمخلوق منها . فمن علت همته وخشعت نفسه اتصفت بكل خلق جميل . ومن دنت همته وطغت نفسه اتصفت بكل خلق رذيل .

٥ - مفتاح دار السعادة :

اسمه الكامل : « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » . تصفحت منه نسخة مطبوعة في حجم متوسط بمطبعة السعادة من عام ١٣٢٣ هـ إلى عام ١٣٢٥ هـ ، بعد تصحيحه على نسختين خطيتين . وهذه طبعته الأولى وهو جزآن في مجلد واحد يقع كل منهما في نحو ٣٠٠ صفحة .

وهو كتاب ذو عبارة مرسلة ومعاني واضحة ومفردات مفهومة ، وتراكيب سهلة جيدة ، تتخللها أحياناً روح منطقية ومفردات اصطلاحية واستقضاء للجزئيات ، وسير خلف المعاني حتى يستوفى ، إذا عرض لتفسير آية أو شرح حديث ، أو رد على

أهل مذهب . ويدور الكتاب - في رأينا - حول موضوع كلى واحد ، هو توجيه نظر الإنسان إلى كثير من الحكم التي اتضحت فيما خلقه الله وما قدره وما نظمه ، لتبدو من وراء ظهوره قدرة الله العلى ، وإرادته وحسن صنعه ونظام سيطرته وجمال تقديره ، وهذا حرى بأن يدفع الإنسان اليقظ البصير المتدبر إلى عبادة الله سبحانه وتعالى عبادة نقية صافية لا تشوبها شائبة . ولا يحوم حولها ريب . وفي هذا سعادة لا تحصى .

هذا الموضوع الكلى هو أساس الكتاب . والكلام فيه مشعب النواحي . وقد يظهر للمطلع عليه أنه لا جامع فيه يجمع بين فصوله . ويخيل إليه أنها فصول منشورة في موضوعات شتى تختلف طولاً وقصراً حسب . فمن بينها فصل في « بيان الأسرار التي بدت في هبوط آدم من الجنة ، ومن بينها فصل في « وصف الجبال وبيان مزاياها » . ومن بينها فصل في « علم المنطق واختلاف العلماء فيه » . ومن بينها فصل في « بيان الحكمة في كثرة بكاء الأطفال » . وفصل في « بيان حاجة الناس إلى الشريعة » . وفصل في « المنجمين » وهكذا .

من أجل ذلك يشعر من يتصفح الكتاب لأول وهلة أن فصوله متناثرة لا رابطة بينها ولا جامع يجمعها - والحقيقة أن بينها ارتباطاً تاماً وصلة وثيقة . وهو ما أشرنا إليه من أن المؤلف يتوخى أن يبدى للناس الحكمة ووجه الصواب فيما خاق الله ، وما شرع لخلقهم ، وما قدر عليهم ، مع بيان قدرته وسيطرته . حتى إذا ما نبصروا وتذكروا ، كان في ذلك عبرة لهم تهديهم إلى العبادة الحقة والخضوع التام لله سبحانه وتعالى .

ومن العبث أن نحصى المواضع التي تعرض المؤلف للكلام عنها في مؤلفه هذا لأنها كثيرة جداً . وإذا قلنا إننا قلنا أن نجد مظهراً من مظاهر الكون لم يتناوله المؤلف بالبحث والبيان ، لم نتمكن مبالغين . وهو يدعم كلامه عادة بآى الذكر الحكيم والحديث الشريف مستطرداً إلى تفسير ما يذكر من ذلك .

وفي الكتاب كلام عن الجنة ، وعن العلم وشرفه . وعن الإنسان وما أودعه

الله فيه من مميزات . وعن الأجرام السماوية . وعن مظاهر الطبيعة من ريح وزلزال وغيرهما . وعن التضاريس الأرضية ومزاياها وما في الأرض من المعادن والنبات والماء والحيوان والإنسان . وعن الفروق بين الرجل والمرأة . وفيه حديث عن الصورت وغيره في الإنسان . وعن بعض الأخلاق والصفات فيه . وعن علم الساعة واستئثار الله سبحانه به وفائدة ذلك للإنسان . وفيه تتبع لكلام المنجمين مع الرد عليهم وتزييفهم . وهكذا .

فالقارىء يرى أن الكتاب به فقه وتشريع وتفسير وشرح حديث وتاريخ وكلام عن العقائد ، وتصوف . وهو كتاب تحلى به نفسى وكتاب تربية وأخلاق فوق ما به من استطرادات أدبية نافعة يروى فيها بعض المأثور من الشعر أو النثر . وقد لا يُعجب علماء التقويم اليوم بما كتبه ابن القيم في كتابه هذا عن الأرض والجبال وغيرهما مما يدخل في علم التقويم ، لأنها ليست بذات دقة علمية يرتضيها العلماء الآن ، ولا تتلاقى مع جدة العبارات وحنكته في وصف خواص الأشياء في عصرنا الحديث . والمؤلف على كل حال له عذره في ذلك . وبعد فحسبنا ما أثبتنا تعريفاً بهذا الرجل ومؤلفاته .

« ترجمته في : (١) جورجى زيدان ج ٣ ، (٢) طبقات الخبابة للشطلى ص ٦١ - (٣) الدرر السكاينة ج ٣ رقم ١٠٦٧ - (٤) جلاء العينين للسيد نعمان الأسى - (٥) بدائع ابن إياس ج ١ ص ١٩٥ - (٦) في صدر كتبه : مدارج السالكين ، وحادى الأرواح ، والفروسية . »

٧- تقى الدين السبكي ٦٨٣ هـ - ٧٥٦ هـ

علم من أعلام مصر، وأحد أئمة العصر . جهيد فقيه ، وفاضل نبيه . اجتمع فيه الذكاء والزهادة ، والورع والعبادة ، كما اجتمع العلم والأدب . وقد ترجم له ابنه تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى ترجمة مستفيضة اقتبسنا منها واعتمدنا عليها .
اسمه :

علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد بن يحيى ابن عمر بن عثمان بن علي بن مسوار بن سوار بن سليم السبكي .
مولده ووفاته :

ولد بمصر في قرية « سبك العبد »^(١) ، في صفر عام ٦٨٣ هـ . وتوفي في ليلة الاثنين ٤ جمادى الآخرة عام ٧٥٦ هـ .^(٢) ، بجزيرة الفيل على شاطئ النيل بظاهر القاهرة . ودفن بباب النصر .
طرف من حياته :

شب تقى الدين زاهدا بفطرته ، عفا ، مكبوح النفس عن لذات الحياة . خالص القلب لله . لم يكن يشغله شاغل عن عبادته سبحانه ، وعن طالب العلم . قيل إنه تزوج في مبكر شبابه ، فلم تدم هذه الزيجة بسبب انصرافه إلى العلم .
رضى تقى الدين من الدنيا بالكفاف ، فكان ذلك خير معين له على الاحتفاظ بعزة نفسه وكرامته ، فزادت مهابته في العيون . وسمت منزلته في القلوب . وكان متقللا من أكل اللحم ، ندر أن صام إلا في رمضان والأيام الستة . ويعزو ولده ذلك ، إلى ضعف جسمه عن مجالدة الصوم ، لاشتغال ذهنه بتحصيل العلم .

١ - هذه رواية ابن حجر في الدرر الكامنة .

٢ - وقيل توفي عام ٧٥٥ هـ .

وكان ذا حياء جم ، وتواضع وكرم . عكف على طلب العلم بالقاهرة أولا ، ثم رحل إلى الاسكندرية ، وزار بلادا عدة منها : دمشق والقدس والخليل ، كما حج إلى مكة .

وسعد تقي الدين في مطلع حياته العلمية بعدد من جلة العلماء . تتقف بثقافتهم وتهذب بأدبهم وتخرج بعلمهم وفتحوا أمام ذهنه الوقاد فجاج المعرفة ، حتى بلغ منها حدا لم يبلغوه ، ووصل إلى مدى لم يخطوا إليه . حتى أصبح إمام الشافعية في زمانه ، كما كان من قبله . العز بن عبد السلام ، والتقي بن دقيق العيد .

ولم يقتصر نبوغه على الفقه ، بل تناول كثيرا من علوم زمانه ، كالأصول والحديث شرحا ورواية ، والتفسير والكلام والجدال ، والنحو واللغة والمنطق والكتابة والشعر .

ومن أساتذته :

أبوه القاضي زين الدين ، تفقه عليه . ثم تفقه على فقيه زمانه نجم الدين بن الرفعة . وأخذ الأصول والمعقولات عن علاء الدين الباجي . والمنطق عن شرف الدين البغدادي . والتفسير عن علم الدين العراقي . والقراءات عن تقي الدين بن الصائغ . والفرائض عن عبد الله الغماري المالكي . والحديث عن الحافظ شرف الدين الدمياطي ، وسعد الدين الحارثي وغيرهما . وأخذ النحو عن أبي حيان ، والتصوف عن تاج الدين بن عطاء الله . وكثيرون غيرهم .

ولما استوى عليه ، واعتدل منطقته ، واتزن فكره ، وعذب لسانه ، وانطلق جنانته ، انبرى للفتيا والتدريس والإفادة ، وجنح للتأليف والتصنيف . وازدحم الطلاب على دروسه .

وقد ربطت الصداقة أواصرها بينه وبين كثير من أفذاذ عصره ، وقرّبه تواضعه إلى قلوب الناس ، فأتسع جاهه ، ونفذت كلمته . وقل أن تجد من وقعت

بينه وبين هذا الشيخ ، عداوة أو ملاحاة . وإن تكن ، فبسبب من العلم وثيق . أو بسبب وظيفة في يد الشيخ ، امتدت إليها الأبصار .

ومن وقعت بينه وبين الشيخ ، الوقائع ، الشهاب بن فضل الله العمرى ، الكاتب المشهور — ولم يذكر ابنه سديها — ومنهم التقى بن تيمية ، وقد كانت بينهما مناظرات ، بسبب رأى ابن تيمية في الطلاق وزيارة القبور ، وقد قرر فيها السبكي مذهب الشافعية .

وقال ولده في الطبقات ^(١) في ترجمة عمر بن أبي الحمراء السكتاني ، وكانت بينهما مجادلات : « وكان ابن السكتاني أسن من الشيخ الإمام . ثم حصل للشيخ الإمام من الرواج والشهرة والعظمة في أنفس الناس ، ما هو جدير بأضعافه . فصار بهذا السبب عند الثلاثة : ابن السكتاني وابن عدلان وابن الأنصاري ، ما يكون بين أهل العصر . ولم يكن فيهم إلا من هو أعلى سنا من الشيخ الإمام رحمهم الله . وهذه المناسبة نذكر أن حياة تقي الدين السبكي كانت موزعة بين مصر والشام . ويفهم مما كتبه عنه ولده أنه دخل القاهرة قادما من بلده قرب وفاة الشيخ ابن دقيق العيد أي في نحو عام ٧٠٢ هـ أي وسنه في نحو العشرين . وكانت هذه هي المرة الثانية . أما المرة الأولى فقبل هذه بزمان طويل . ثم رحل إلى الشام عام ٧٠٦ هـ . طلبا للحديث وعاد إلى القاهرة عام ٧٠٧ هـ . وذهب إلى الحجاز حاجا عام ٧١٦ هـ ثم عاد واستقر بمصر زمنا طويلا زاول فيه الإفتاء والتدريس والتأليف ، وازدهر فيه بصفة خاصة تأليفه ، ورد في تلك الحقبة على ابن تيمية . وكان بيده من الوظائف في ذلك الحين مشيخة جامع ابن طولون ، ثم نزعته منه عام ٧١٩ هـ . ثم عادت إليه عام ٧٢٧ هـ فاستمرت في يده إلى سنة ٧٣٩ هـ . ثم ولى قضاء الشام وذلك في عهد الناصر محمد بن قلاوون . طلبه السلطان المذكور في تلك السنة بعد وفاة قاضي الشام جلال الدين القزويني وأراد على ولاية منصبه ، فأبى . فإزال به السلطان حتى ألزمه قبوله . فظل به حتى عام ٧٥٦ هـ : وهناك في الشام جلس في دار للحديث

تدعى ، الكلاسة ، وطفق يقرأ الحديث فيها . وولى دار الحديث الأشرفية بعد وفاة شيخها الحافظ المزي . ثم ولى التدريس بالمدرسة الشامية البرانية ، لمات مدرسها الشيخ شمس الدين بن النقيب . ووكّل إليه أيضاً تدريس المدرسة المنصورية بعد عزل شيخها قاضى القضاة جمال الدين الزرعى . وبسبب هذه المدرسة وقعت الأحقاد بين الشيخ وبين نائب الشام الأمير أرغون فإنه كان صديقاً للزرعى . وكان وقت تولية الشيخ بالحجاز يحج . فلما عاد عزم على إعادة الزرعى إليها ولكنه فوجئ بمؤامرات ضده لم تمكنه من تنفيذ عزمه .

ظل القاضى تقي الدين السبكي زمناً طويلاً ببلاد الشام . وكان يفضّلها عن مصر نظراً لتوافق هواها ومزاجه الجسماني . حتى وافى سنة ٧٥٥ هـ فضعف جسده ولحقه هزال الكبر ، فأعد العدة للرحيل إلى الديار المصرية فسار عام ٧٥٦ هـ فلبث بها أياماً انتابه بعدها الموت المحتوم ^(١) . فدفن بجمنازة حافلة قال ابنه تاج الدين يصفها مانصه :

« أجمع من شاهد جنازته على أنه لم ير جنازة أكثر جمعاً منها ، قالوا إنه لمات ليلاً بالجزيرة ، ما انفلق الفجر إلا وقد ملأ الخلق ما بين الجزيرة إلى باب النصر . ونادت المنادية : « مات آخر المجتهدين ، مات حجة الله فى الأرض . مات عالم الزمان . وهكذا . ثم حمل العلماء نعشه . وازدحم الخلق بحيث كان أولهم على باب منزل وفاته وآخرهم فى باب النصر . وقيل لم يحاك ما يقال على جنازة الإمام أحمد ابن حنبل سوى جنازة الشيخ الإمام فى كثرة اجتماع الناس تغمده الله برحمته ، . ولمات رثاه كثيرون من أدباء زمانه ومنهم الأديب ابن نباتة ، وصلاح الدين الصفدى وكاننا صديقين له . ومنهم برهان الدين القيراطى :

فن قصيدة ابن نباتة جمال الدين فى المطلع :

نعاه للفضل والعلياء والنسب ناعيه للأرض والأفلاك والشهب

(١) روى جورجى زيدان قال إن تقي الدين انقطع فى آخر حياته بقرية على شاطئ النيل ، بسبب حزن أصابه على موت ابنه ، حتى دفن سنة ٧٥٦ هـ

وكما رثاه الشعراء في وفاته ، مدحه المكثيرون منهم في حياته ، وفي هذا دلالة على ماله من سمو المنزلة وعلو الجاه .

أقوال المؤرخين فيه (١) :

١ - ذكره شمس الدين الذهبي في معجمه المختصر ، وفي معجم شيوخه ، وفي تذكرة الحفاظ . وما قاله عنه وهو من شهوده : « القاضي الإمام العلامة الفقيه المحدث الحافظ فخر العلماء . . . وكان صادقا ثبوتا خيرا دينيا متواضعا حسن السمعة من أوعية العلم يدرى الفقه ويتمرره ، وعلم الحديث ويحرره . والأصول ويقرررها ، والعربية ويحققها . ثم قرأ بالروايات دلي تقى الدين بن الصائغ ، وصنف التصانيف المتقنة ، وقد بقي في زمانه المملووظ إليه بالتحقيق والفضل . سمعت منه وسمعت مني وحكم بالشام وحدثت أحكامه . فآله يؤيده ويسدده . سمعنا معجمه بالكلاسة . »
٢ - وذكره ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار . وكانت بينهما وحشة فلما قال :

« حجة المذاهب ، مفتي الفرق ، قدوة الحفاظ آخر المجتهدين ، قاضي الفضاة تقى الدين أبو الحسن صاحب التصانيف التقى البر العلى القدر ، سمى على كرم الله وجهه الذى هو باب العلم ، ولا غرو إن كان هذا المدخل إلى ذلك الباب . والمستخرج من دقيق ذلك الفضل هذا اللباب . والمستدير من تلك المدينة إلى ذلك الباب . »
وكلمته فيه مطولة مكتوبة بأسلوبه الأدبي المسجوع . . وقال فى آخرها : « انتهت إليه رياسة العلم فى القرآن والحديث والأصليين والفقه . »

٣ - وذكره صلاح الدين الصفدى خليل بن أيبك فى كتابه أعيان العصر . وكانت بينهما مودة . وما قاله : « الإمام العالم العامل الزاهد العابد الورع الخاشع البارح العلامة ، شيخ الإسلام حبر الأمة مفتي الفرق المقرئ المحدث الرحلة المفسر الفقيه الأصولى البليغ الأديب المنطقى الجدلى النظار جامع الفنون علامة

(١) نقلا عن طبقات السبكي وحسن المحاضرة .

الزمان قاضى القضية أوجد المجتهدين . ، وكتبته فيه مطولة أيضاً على أسلوبه السكتاني
الفاضلى وعلى نمط كتابة ابن فضل الله .

وبما قال له فيه الصفدى أيضاً : الناس يقولون : ما جاء بعد الغزالي مثله ،
وعندى أنهم يظلمونه بهذا وما هو عندى إلا مثل سفيان الثورى . ،

٤ — وقال عنه شهاب الدين بن النقيب صاحب مختصر الكفاية :

« جلست بمكة بين طائفة من العلماء ، وقعدنا نقول : لو قدر الله تعالى بعد الأئمة
الأربعة فى هذا الزمان مجتهداً عارفاً بمذاهبهم أجمعين ، يركب لنفسه مذهباً من
الأربعة ، بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة كلها ، لا زدان الزمان به ، وانقاد
الناس له . فاتفق رأينا على أن هذه الرتبة ، لا تعدو الشيخ تقي الدين السبكي
ولا ينتهى لها سواه . . . »

بحوثه ومؤلفاته :

لتقى الدين السبكي بحوث كثيرة العدد ، وفتاوى لا تحصى فى مسائل شرعية
وغير شرعية ، وقد أثبت ابنه تاج الدين فى طبقاته كثيراً من مقالاته وفتاويه .
ومن بين فتاويه الشرعية ما وافق مذهب الشافعية ، ومنها ما صدر عنه باجتهاده .
وله عدد من المؤلفات والرسائل ضخمة ، فى التفسير والحديث والفقه والنحو
والأصول وغير ذلك . وكثير منها لم يكمله ، كما أن منها رسائل صغيرة فى ورقات .
وعبئى — كعناية علماء عصره ومنطق اتجاهاهم — بشرح الكتب المتقدمة
أو اختصارها .

ومما ذكره ولده من مؤلفاته ما يلى :

- ١ — الدر النظيم فى تفسير القرآن العظيم ، لم يكمل . ٢ — تكملة المجموع فى
شرح المذهب . وهو تكملة لشرح السكتاب المذكور مبني على ما شرحه منه النووى .
وصل فيه السبكي من باب الربا إلى أثناء التفليس : فى خمس مجلدات ٣٠ — التحبير
المذهب فى تحرير المذهب ، وهو شرح مبسوط على المنهاج . كتب بعضه .
٤ — الابتهاج فى شرح منهاج النووى ، وصل فيه إلى أوائل الطلاق ٥٠ — الابتهاج

في شرح المنهاج في أصول الفقه . كتب بعضه ، وأكمله ابنه تاج الدين ٦ — رفع
الحاجب عن مختصر ابن الحاجب : كتب بعضه ، ولم يعثر ابنه له على أثر . فوضع
من عنده كتابا جديدا سماه نفس الامم ، وكتاب تاج الدين موجود بدار الكتب
المصرية . في أصول الفقه . ٧ — كتاب التحقيق في مسألة التعليق : وهو رد على
ابن تيمية في مسألة الطلاق . ٨ — شفاء السقام في زيارة خير الانام ، وهو رد على
ابن تيمية في إنكار السفر للزيارة . ٩ — السيف المسلول على من سب الرسول
صلى الله عليه وسلم . ١٠ — التعظيم والمنة في التوهمين به ولتنصرته ، ١١ — نور
الربيع من كتاب الربيع ، وهو حافل ، وضعه على كتاب الام للشافعي : كتب
بعضه . ١٢ — الإقناع في الكلام على أن دلو ، للامتناع . ١٣ — وشي الحسلي في
أكد النفي بلا . وهو رد على ابن السكنتاني . ١٤ — الاعتبار ببقاء الجنة والنار .
١٥ — ضرورة التقدير في تقويم الخمر والخنزير . ١٦ — السهم الصائب في قبض
دين الغائب . ١٧ — فصل المقال في هدايا العمال . ١٨ — إبراز الحكم من حديث
رفع القلم . ١٩ — القول الصحيح في تعيين الذبيح . ٢٠ — الإقناع في تفسير
قوله تعالى « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » . ٢١ — الإغريض في الحقيقة
والجواز والسكنانية والتعريض . ٢٢ — المواهب الضرورية في الموارد الصفدية .
٢٣ — الطريقة النافعة في المساقاة والمخابرة والمزارعة . ٢٤ — الغيث المفدق في
ميراث ابن المعتق . ٢٥ — نور المصابيح في صلاة التراويح . ٢٦ — الكلام على حديث :
« إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث » . ٢٨ — القول المحمود في تنزيه
داود . ٢٩ — عقود الجمان في عقود الرهان والضمان . ٣٠ — تفسير قوله تعالى :
« يأياها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا » . ٣١ — كشف الدسائس في هدم
السكنائس . ٣٢ — معنى قول الإمام المطليبي : « إذا صح الحديث فهو مذهبي » .
وله غير ذلك .

وكثير من رسائله ومصنفاته مفقود ، والموجود منها أكثره مخطوط . وبما له
في دار الكتب المصرية : إبراز الحكم من حديث رفع القلم ، وشرح قول الشافعي

• إذا صح الحديث فهو مذهبي . • وهما في الحديث . وشفاء السقام في زيارة خير الأنام . وهو في علم الكلام : رسالة في العام المخصوص ، والعام الذي أريد به الخصوص ، وهو في أصول الفقه . والقول المحمود في تبرئة سيدنا داود : في الحديث . وأحكام كل وما تدل عليه : في النحو . وكنز الدخائر وهدية المسافر .

التعريف ببعض مؤلفاته :

١ — إذا صح الحديث فهو مذهبي :

هذه العبارة مأثورة عن الإمام الشافعي رضي الله عنه . وقد كتب تقي الدين السبكي رسالة تنفع في نحو ثمانى صفحات ، في توضيحها وبيان مراد الإمام منها . وذلك ردا على سائل سأل في هذا الموضوع .

قرأت هذه الرسالة مطبوعة ، بدار السكتب بالمنصورة . وهي مجلدة مع عدة رسائل أخرى لعلماء آخرين ، منهم التقي بن تيمية .

وقد بدأ الرسالة بذكر جميع الروايات — أو كثير من الروايات — التي روى بها هذا القول المأثور ، عن الإمام الشافعي ، على نمط من ذكر روايات الأحاديث النبوية .

وقد بدأ الحديث بقوله مخاطباً من سأل : « سألت وفقك الله عن قول إمامنا الشافعي رضي الله عنه : « إذا صح الحديث فهو مذهبي » . وهو قول مشهور عنه ، لم يختلف الناس في أنه قاله . وروى عنه معناه أيضاً بالفاظ مختلفة ، . وطفق الشيخ بعد ذلك ، يذكر روايات هذا القول بأسانيدها .

ثم عقد فصلاً أورد فيه كيفية العمل بقول الشافعي المذكور . وأنه قد يعمل تابع الشافعي بحديث صح عنده ، ويترك رأى الشافعي في مسأله ، إذا كان مخالفاً للحديث . وبين أن الشافعي قد يكون لديه من الأسباب ما منعه من الأخذ بهذا الحديث فتركه . وهكذا . وأخذ يضرب لذلك أمثالا عدة بأحاديث وحوادث معينة ذكرها برجالها .

وقد عقد بعد هذا الفصل ، فصولاً أخرى تدور على ما دار عليه الفصل الأول ، مع استشهادات جديدة ، ومع استطرادات موضحة .

٢ - تكملة المجموع (١) :

يعتبر رجال الفقه الشافعي ، كتابي الوسيط ، الإمام أبي حامد الغزالي ، المتوفى عام ٥٠٥ هـ ، والمهذب ، لأبي إسحق الشيرازي المتوفى عام ٤٧٦ هـ ، من أمهات كتب مذهبهم . وقد حظي الكتابان بعناية الشافعية دراسة وشرحاً ، وما إلى ذلك .

وقد كان من نصيب المهذب ، أن تناوله فيمن تناول ، رجلاً من رموس الشافعية في العصر المملوكي ، هما : محي الدين النووي ، وتقي الدين السبكي . فشرح كل واحد منهما جانباً من كتاب المهذب . أما النووي فهو أسبق من السبكي في الشرح ، وقد سمي شرحه « المجموع » ، وهو في شرح المهذب من أول أبوابه إلى الربا . وفي دار الكتب المصرية ، يوجد هذا الشرح مخطوطاً في خمسة مجلدات .

أما السبكي فقد بنى على ما شرحه النووي ، وأراد أن يكمل على نمطه شرح المهذب ، فبدأ حيث انتهى النووي ، من باب الربا . غير أنه وصل إلى أثناء التفائيس . ولم يتم شرحه إلى نهاية المهذب . ويسمى شرح السبكي « تكملة المجموع » ، وفي دار الكتب المصرية ، يوجد من هذا الشرح أربعة مجلدات مخطوطة .

وقد تكونت في عام ١٩٢٥ م لجنة كبيرة من أفاضل علماء الأزهر ، وبذلوا الهمة في طبع المجموع والتكملة . وهو محمود مشكور . وبإحسان لو بذلوا الهمة في إكمال شرح المهذب إلى نهايته ، على نمط من شرح النووي والسبكي . إذن أتم للشافعية كتاب ضخم قيم في فقه مذهبهم . ونرجو أن يوفقوا في القريب .

وقد بدءوا في طبع « المجموع » ، للنووي ، فباغ تسعة أجزاء ضخمة . ثم بالتكملة

(١) استدرارك هام : وعدنا في ص ٢٠٢ ، في سياق ترجمة النووي أننا سنشير إلى كتابه (المجموع) عند ترجمة تقي السبكي ، وهذا خطأ . وبهذا المناسبة نقول : إننا روينا بالصفحة المذكورة أن المجموع هو شرح تهمذ الرافعي . والصواب أنه شرح مهذب أبي إسحق الشيرازي . وقلنا في ص ٢٠٣ ، أن شرح التهمذ للنووي لم يطبع . والصواب أنه مطبوع ، كما بينا في أعلى هذا الكلام .

فبلغت ثلاثة أجزاء على نمطها ، وقد جعلوا شرحي هذين الفاضلين في أعلى الصفحات
أما أسفلها فقد طبع فيه كتاب « فتح العزيز في شرح الوجيز » وهو لأبي القاسم
الرافعي المتوفى عام ٦٢٣ هـ . ويليه كتاب « التلخيص الحبير في تخريج أحاديث
الرافعي الكبير » وهو لابن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢ هـ .

ويعتبر كتابا المجموع والتكملة مجتمعاً لزيد آراء أصحاب المذهب . فهما لذلك
عمدة فيه . وعبارة الكتّابين سهلة واضحة ، وإن احتاجت إلى مرآة للانسياب
وقت مطالعتها مع أساليب الفقهاء .

وبدهى أن الشارحين الجليلين اعتمدا على عشرات من كتب أصحاب المذهب
المتقدمين ، وما اتصل بهما من كتب الحديث والتاريخ والطبقات ونحو ذلك ،
للإفادة منها . وقد ذكر بعض هذه المؤلفات في التقديم .

ونحن وإن شدنا هنا بمجهود تقي الدين السبكي ، لانفسى فضل النووى وتوفيقه
السريع في شرحه وضبط عباراته ودقة ألفاظه ، حتى عبرت — كما قال التاج السبكي —
عن خلاصة آراء أصحاب المذهب ، حتى كأنه ألهم معرفتها عن غير قصد . . .

٣ — شفاء السقام في زيارة خير الأنام :

وهذا كتاب قيم لطيف للتقى السبكي ، دفعه إلى تأليفه ، ما أثاره تقي الدين
ابن تيمية ، بشأن تحريم زيارة القبور فهو — كما أنه ورد على بعض ما ذهب إليه
ابن تيمية . وقد أورد فيه المؤلف كثيرا من الأحاديث المروية في زيارة قبر
الرسول عليه السلام ، واستجابها ، سواء أكانت مروية عن الرسول أم عن غيره
من فضلاء الصحابة ، ذا كرا نصوص العلماء الأجلاء القاطعة باستحباب زيارة قبر
الرسول عليه السلام . مبينا أن الزيارة والسفر إليها قريبة من القربات ، داحضا أقوال
المشكرين المحرمين للزيارة الذين يدعون أن أحاديث الزيارة موضوعة ، وأن السفر
إليها بدعة غير مشروعة . وتناول بالحديث عدة موضوعات منها التوسل والاستعانة
والشفاعة .

واختتم كتابه بخاتمة في الصلاة والسلام على النبي الكريم . فصلى عليه بجملة من الأحاديث المروية في طريقة الصلاة عليه .

والكتاب سهل هين الأسلوب واضح المعاني تفتتح فصوله غالباً بآيات من القرآن الكريم مناسبة لموضوع الفصل ، ويأخذ المؤلف في شرحها ، مستنبطاً منها الحجج والأدلة على صدق ما ذهب إليه من الرأي . ويدعم ذلك بالمناسب أيضاً من الحديث النبوي ، والمأثور من أقوال العلماء ، وآراء الساف الصالح .

وقد افتتح أحد فصوله بالآية الشريفة : « ولو أنهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله تواباً رحيماً » . والظاهر من الآية أن الكلام ، فيمن يجيئون إلى النبي عليه السلام ، وهو حي . فيستغفرون لديه الله سبحانه وتعالى . ويستغفر لهم الرسول . حينذاك يجدون الله تواباً رحيماً . وهذه منزلة للنبي عليه السلام لا تلتئم بموته . بل تبقى له بعد وفاته . تكريماً له وإعلاء لشأنه . ومن هنا يتضح استحباب زيارة قبره الشريف . وعلى نسق من هذا سار السبكي في هذا الكتاب النافع . وقد طبع منذ أمد بمطبعة بولاق الأميرية .

فتاواه :

للتقى السبكي فتاوى كثيرة ، أورد ابنه تاج الدين في طبقاته ، كثيراً منها . وقد ذهب ابنه ، إلى أن الفتاوى التي اجتهد فيها الشيخ ، ولو خالف فيها النووي - وهو المعمول برأيه - يلزم المقلد في المذهب ، العمل بها ، ولا ينبغي له الخروج عنها . ما لم يصل إلى رتبة الاجتهاد . وعلل ابنه رأيه هذا بقوله في أبيه : « لأنه إمام مطلع على مأخذ الرافعي والنووي ، ونصوص الشافعي ، وكلام الأصحاب . وكانت له القدرة التامة على الترجيح ، فن لم يفته إلى رتبته . وحسبه من الفتيا النقل المحض ، حق عليه أن يتقيد بما قاله » . الخ .

ونورد هنا بعض هذه الفتاوى التي خالف فيها النووي ، وقد يخالف فيها الرافعي نوردوها باختصار فيها : (١) أن المني ينقض الوضوء (٢) أن فضلات النبي عليه السلام طاهرة . (٣) أن تحلية الكعبة وسائر المسجد بالذهب والفضة حلال .

(٤) أن العاصي بسفره ، لا يتيمم ، لأن سفره معصية ، فلا يتعلق به رخصة .
فعليه أن يعود ، لا سيما إذا أمكنه الرجوع والصلاة بالماء ، قبل خروج الوقت .
(٥) أن الحائض والجنب لا يجيبان المؤذن إذا سمعاه . (٦) أن وقت الأذان
الأول للصبح قبل طلوع الفجر — قال وهو وقت السحر . (٧) أن العبد الفقيه في
إمامة الصلاة ، أولى من غير الفقيه ، وإن كان حراً . (٨) أنه لا يجوز جمعتان في
بلد واحد ، وإن عظم وعسر اجتماع أهله في جامع واحد . الخ .

أدبه :

كان تقي الدين السبكي أديباً على مثال ابن دقيق العيد . فيه روح الأديب ، وإن
غلبت عليه النزعة العلمية . وحسبنا ما دبحته يراعيه من المؤلفات العلمية دليلاً على
كتابته . وله فضلاً عن ذلك شعر رائع . روى منه ابنه في طبقاته شيئاً ، وتدور
أغراضه الشعرية حول : الحكمة وإسداء النصيحة ، وإظهار الزهد ، وإعلان
التوكل على الله ، وشيء من التصوف ومن الفخر والمدح والتهكم والغزل . وله أراجيز
علمية ، وقصائد علمية كثيرة ، في النحو ، وعلم الكلام ونحوهما . وقد مدح النبي عليه
السلام بقصيدة لطيفة تائية تزيد على مائتي بيت تعرف بكنز الذخائر . وهي مخطوطة
بدار الكتب . ولها شرح مخطوط جليل منسوب إلى الجلال المحلى ، بالدار أيضاً .
وترى الروح الدينية سارية في أشعاره ، ولفظه سهل لطيف واضح المعاني ،
وإن خالطته مصطلحات وأفيسة منطقية وتقاسيم علمية . ومن شعره مما روى
في الطبقات :

١ — قال في وصف الرافضة (١) ، وكان قد وقف على كتاب لابن تيمية في
الرد على ابن المطهر الرافضي : فذكرهم وذكره معهم :

(١) الرافضة : فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن علي ، ثم قالوا له : تبرأ من الشيخين (أبي بكر
وعمر) ، فأبى وقال : كانا وزيرى جدى ، فتركوه — المحيط .

فقال :

إن الروافض قوم لا خلاق لهم من أجهل الخلق في علم وأكذبه
والناس في غنية عن رد إفسكهم لهجنة الرفض واستقباح مذهبه
وإن المطهر لم تطهر خلائقه داع إلى الرفض غال في تعصبه
لقد تقول في الصحب السكرام ولم يستحي مما افتراه غير منجبه
ولابن تيمية رد عليه وما بمقصد الرد واستيفاء أضربه
لكنه خلط الحق المبين بما يشوبه كدرا في صفو مشربه ... الخ
٢ - وقال في الغزل :

قلبي ملكت فما به مرمى لواش أو رقيب
قد حزت من أعشاره سهم المعلى والرقيب
يحبيه قربك إن منذت ولو بمقدار تغيب
يا متلني ببعاده عني أما خفت الرقيب

٣ - وقال في الحكمة والدعوة إلى طلب العلم :

كمال الفتي بالعلم لا بالمناصب ورتبة أهل العلم أسنى المراتب
هم ورثوا علم النبين فاهتدى بهم كل سار في الظلام وسارب
ولا انفرد إلا إرث شرعة أحمد ولا فضل إلا باكتساب المناقب
وبحث وتدقيق وإيضاح مشكل وتحرير برهان وقطع مغالب ... الخ

هذا وقد بارك الله سبحانه وتعالى في أسرة السبكي ، فمنها الإمام تقي الدين ،
وابناه تاج الدين صاحب الطبقات ، وبهاء الدين أبو حامد . وقد طبع حديثاً أحد
الفضلاء كتاباً في تاريخ هذه الأسرة ، ورجاها .

(ترجمته في (١) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ج ٦ ص ١٤٦ ، وفي مواضع
كثيرة من هذا الجزء ، وبخاصة في تراجم المعاصرين . (٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٥ ،
١٦٧ (٣) عقود الجواهر لجيل العظم ج ١ ص ١٨١ (٤) جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٤٠ (٥) الدرر
السكينة ج ٣ رقم ١٤٨ . (٦) وفي دار الكتب مخطوط مستقل في ترجمته ، جمعه ابنه تاج الدين
من طبقاته (تاريخ : ١٦٣)

٧- ولي الدين بن خلدون ٧٣٢هـ - ٨٠٨هـ

لم يطاوعني ضميري في أن أترك ترجمة هذا الرجل الفذ النادر المثال ، دون أن أبرزها بين تراجم رجال مصر وجهابذتها ، في العصر المملوكي ، ودون أن أضيف مجده إلى مجدها .

وحقا يضاف هذا الرجل إلى بلاد المغرب ، حيث موطنه وموطن أجداده ، وحيث ملثوه ، ومرابعه ومراتعه في شبابه وصباه . تلك البلاد التي تناول رحيق العلم من ينابيعها ، وكتوس الأدب من مناهلها . ولا بس أهلها وعاشرهم ، واتصل بدولها وملوكها ورجالها ، وتربع في كثير من مناصبها الرفيعة .

ولكن للرجل بمصر صلة وثيقة ، تؤهله لأن يكون رجلا من رجالها ، وبطلا من أبطالها . فقد وفد عليها ، وتوطنها نحو ثلاث وعشرين سنة . وتقلد منصب قضاء المالكية فيها عدة مرات . وخرج مع سلطانها مرة ، في حربه مع التتار ببلاد الشام ، وأسره التتار فيمن أسروا من علماء مصر . وأخيرا مات ودفن في أرضها .
اسمه :

هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر ابن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون التونسي الحضرمي الأشييلي المالكي .
مولده ووفاته :

ولد ابن خلدون في تونس ، في أول رمضان عام ٧٣٢ هـ ، وتوفي بمصر في ٢٦ رمضان عام ٨٠٨ هـ ، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر .

أسرته :

ولد ابن خلدون من أسرة عريقة في المجد ، اشترك كثير من أفرادها في العلم والسياسة . ووصلوا إلى الرياسة في بعض الأحيان .

ويرجع نسبها إلى أصل عربي ، فهم ينتسبون إلى وائل بن حجر ، من عرب

اليمانية المقيمين في حضر موت في الزمن القديم . وكان قبلا من أقيالها ، وفد على النبي عليه السلام ، فبسط له رداءه ، ودعا لولده .

ولما فتح العرب بلاد الأندلس ، وجلت إليها قبائل عدة ، كان فيمن جلا إليها في القرن الثالث الهجري ، خلدون بن عثمان بن الخطاب ، من نسل وائل المذكور . وهو أول جد لهذه الأسرة ، نزل ببلاد الأندلس . وقد وفد إليها في عداد جنود اليمانية . فنزل في مدينة « قرمونة » ، واستقر بها حيناً ، ثم نزع إلى « أشبيلية » . وهناك عرفت أسرته واشتهر أمرها . وعلا جدها . واشترك منهم رجال ذوو همة في سياسة الدولة وقيادة الجند ، وما إلى ذلك ، في أيام حكم بني أمية ، وأواخر القرن الثالث الهجري .

وقد اطردت مشاركتهم هذه ، وارتقى بعضهم إلى مرتبة الوزارة في عهد بني عباد ملوك أشبيلية ، زمن الطوائف ، ثم في عهد المرابطين والموحدين من ملوك البربر . وحظوا — بخاصة — لدى أبي حفص زعيم هنتانة ، ووالى أشبيلية من قبيل الموحدين .

ولما ضعف أمر الموحدين بالأندلس ، واشتد أزر الفرنجة ، ولم يستطع بنو الأحمر ، أن يحتفظوا بأشبيلية ، فاضطرب الأمر فيها ، وساء العيش في رحابها ، رحل بنو خلدون منها إلى سبتة . ثم نزع كبيرهم ، وهو الحسن بن محمد بن خلدون — الجد الرابع للترجم — إلى مدينة بونة مقيما في كنف أبي زكريا الحفصي أمير إفريقية « تونس » ، وأسس بيتاً جديداً لبني خلدون ، وذلك في القرن السابع الهجري وتمتع بنو خلدون في دولة الحفصيين ، بنفوذ وجاه عريض .

ومن بني خلدون : أبو بكر ، الجد الثاني للترجم . وقد ولى أمور الدولة الحفصية في عهد سلطانها أبي اسحق ، ثم اعتقل في بعض الحوادث . ثم هجر الاشتغال بالشئون العامة .

ومنهم ابنه ، وهو الجلد الأول المترجم ، وقد ولى منصب الحجابة في ولاية بجاية ، لأبي فارس الحفصى بن أبي اسحق ، وكان مستقلاً بهذه الولاية ، ثم مازال ، حتى هجر الحياة العامة كذلك .

ومنهم والد المؤرخ ، وهو محمد ، وقد غيّر نهج أجداده ، وعاف الاشتغال بالسياسة والإدارة ، وعكف على تحصيل العلم ، حتى صار أحد فقهاء زمانه ، وأدبائه ، وقد توفي عام ٧٤٩ هـ .

وهكذا ترى أن ابن خلدون انحدر من أسرة عريقة في العلم والسياسة ، وهما قوام ما يتمنى المرء لنفسه من شرف ، فلا غرابة أن برز فيهما ابن خلدون ، ونزع منزعه أهله ، إلى طلب المجد والسيادة . وعاوناه على بلوغهما ذكاه فطري ، وميل طبعي إلى العلم والأدب .

تعلبه وشيوخه :

ولد ابن خلدون بتونس ، وكانت حينذاك تموج بجملة من العلماء ، ممن نشثوا فيها ، أو جلوا إليها من المغرب الأقصى والأندلس لكثرة ما كان فيهما من ثورات وفتن . فانتفع بهم ابن خلدون . وأول ما تعلم على أبيه ، وحفظ القرآن الكريم ، ومبادئ اللغة ودرس الأدب والفقه ، وحفظ المعانيات وديوان الحماسة ، وأتقن القراءات السبع ، وأجاد النحو والأصول ، وتمذهب بمذهب مالك . وقرأ كتب الحديث والتفسير ، ودرس المنطق والفلسفة والكلام على مذهب الأشاعرة ، وغير ذلك من العلوم .

ومن أجل شيوخه : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحياتي ، وأبو القسم محمد بن القصير ، وأبو سعيد البراذعي ، وقاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد السلام ، وأبو عبد الله الوادياشي ، وأبو البركات البلقيني ، وأبو عبد الله محمد بن سعد بن بزال الأنصاري وغيرهم كثيرون .

طرف من حياته :

١ - ابن خلدون في تونس :

ظل ابن خلدون في تونس يطلب العلم ، ويجد في التحصيل ، حتى أصيبت بلاده - كما أصيب غيرها - بذلك الطاعون الجارف عام ٧٤٩ هـ . فهلك فيه أبوه وكثير من شيوخه وذوى قرابته ، فامتلاً حزناً عليهم . ولعل هذا الحادث قد عجّل به إلى الاندماج في سلك الوظائف الإدارية ، يجرب فيها حظه ، ويدرج فيها نحو آماله .

وكان أول عمل تولاه هو كتابة العلامة ، لسلطان تونس أبي اسحق الخفصى . وهى الحمد لله والشكر لله ، وكانت تكتب بالخط الغليظ بين البسملة وما بعدها . ولما كان هذا العمل تافها بالنسبة لمواهب ابن خلدون الممتازة ، وآماله الواسعة فقد تطلع إلى عمل سواه .

٢ - ابن خلدون في المغرب الأقصى :

وكان المغرب الأقصى حينذاك يحكمه أبو عنان المرينى ، الذى انتهز فرصة ، فأغار على تونس ، فتسلل إليه ابن خلدون فاحتفل أبو عنان بقدومه . واستدعاه من لدن أمير بجاية الخاضع له ، فوفد عليه بحاضرتة فاس عام ٧٥٥ هـ . وكان أبو عنان مولعاً بالعلم والعلماء ، وحشدهم في بلاطه . فضم ابن خلدون عضواً بمجلسه العلى وولت إليه بعض المناصب الإنشائية .

انتهز ابن خلدون فرصة لقائه بفضلاء علماء المغرب ، وأخذ يتلقن عنهم العلم تارة ، وينظرهم فيه تارة أخرى ، ففضى بذلك مرحلة علمية هامة ، كان لها أكبر الأثر في ثقافته ، كما كانت سبباً في تقدم منزلته لدى أبي عنان .

غير أنه أثار بذلك ثائرة الحقد والحسد ، في نفوس بعضهم . فغيّروا خاطر السلطان عليه . ولا سيما أنه علم بتآمره ضده ، مع أمير بجاية . فوضعها في السجن وأخذ ابن خلدون يستعطفه بشعره ، حتى وعد بإطلاقه . غير أن المنية عاجلت

أيا عنان ، وتولى السلطنة بعده ابنه الطنمل ، فاستبد بدولته وزيره الحسن بن عمر .
فأطلق سراح ابن خلدون ، ورد عليه وظائفه .

ثار أبو سالم المريني أخو أبي عنان ، على ابن أخيه ووزيره . فانضم .
ابن خلدون إلى الثائر ، وعاوناه حتى بايعت البلاد أبا سالم سلطانا عليها . فانخذ ابن
خلدون كاتباً لسره ، ومنشئاً لرسائله ، ومستشاراً . وبعد عامين ولاء خطة المظالم
وهي منصب قضائي جليل الشأن .

أخذ الحقد والحسد يدب ديبهما من جديد ، في نفوس نظرائه ، فوشوا به
إلى السلطان أبي سالم . حتى تغيرت عليه نفسه . فشعر بذلك ابن خلدون فسارع
بالتآمر ضده ، مع الناقمين عليه . ونجح في خلعه ، وتولية أخيه « تاشفين » المريني .
غير أن ابن خلدون لم يجد في هذا الانقلاب الجديد ما يحقق مأربه ، وخشى على
نفسه مغامرة مغامراته ، فرحل عن البلاد بعد مشقة ، ويمم شطر الأندلس .
٣ - ابن خلدون في بلاد الأندلس :

كان السلطان أبو عبد الله محمد بن الأحمر ملك غرناطة ، ووزيره لسان الدين
ابن الخطيب ، قد فرا إلى المغرب الأقصى ، عقب ثورة جاحظة استولى بسببها أخو
السلطان ، وهو إسماعيل ، على سلطنة غرناطة . وهناك في بلاد المغرب تعرف
بهما ابن خلدون ، وعاونهما على حياتهما .

فلما نجا به المقام ببلاد المغرب - كما تقدم - وكان أبو عبد الله محمد بن الأحمر
قد استرد عرشه ، ولحق به وزيره ابن الخطيب ، رأى ابن خلدون أن يقصدهما في
غرناطة . فتموّل هناك بحفاوة نادرة واستخدمه ابن الأحمر لبعض شؤنه ، وضمه
إلى حاشيته ، وبعثه سفيراً بينه وبين « بيدرو » ملك قشتالة ، فنجح في سفارته ،
وأعجب به بيدرو ، حتى عرض عليه البقاء معه ، فأبى .

غير أنه ما لبث أن شعر بتغير السلطان عليه ، وكان يخشى ابن الخطيب ، بينه
وبين نفسه ، ويعلم أن ابن الخطيب ممن يحبون الانفراد بالمجد . وفعلاً أحس بتدبير

ابن الخطيب ضده ، على الرغم من أنهما صديقان . فتعجل ابن خلدون ، مستأذنا في الرحيل . ويمم شطر بجاية مكرما ، في منتصف عام ٧٦٦ هـ .

٤ - ابن خلدون بين إمارة بجاية ومملكة فاس :

كان أمير بجاية قد استرد إمارته ، بعد أن خلاص من سجنه ، فاستدعى صديقه ابن خلدون من الأندلس ، ولقيه خير لقاء ، ووكل إليه أمر حجابته ، فأصبح المتصرف في شئون الإمارة . غير أنه لعب لعبة خاسرة ، إذ أنه تراخى عن نصره أميره وصديقه ، حيثما ثار عليه ابن عمه أمير قسنطينة وانتزع منه إمارته وقتله . وكان ابن خلدون يأمل في أن يجد مركزا أرفع وجاها أوسع في عهد الأمير المعتدى الجديد ، غير أنه ما لبث أن رأى أمه سرابا ، وأيقن بالشر ، ففر . فقبض الأمير على أخى ابن خلدون ، وصادر بمتلكات أسرتهما .

ثم اتصل ابن خلدون بأبي حمو سلطان تلمسان ، واتفقا على الانتقام من أبي العباس مغتصب بجاية ، فلم يفلحا . وسرعان ما تحول ابن خلدون تحولا جديدا إذ انضم إلى السلطان عبد العزيز المريني ملك المغرب الأقصى ، وعدو سلطان تلمسان - وكانت قد خرجت من يده -

غير أن عبد العزيز توفى ، ووثب أبو حمو ، فاستعاد تلمسان ، ففر ابن خلدون من وجهه إلى مدينة فاس ، فلبث بها مكرما ، في عهد سلطانها السعيد ، ووزيرها ابن غازى .

وكانت الأمور قد تخرجت بين حكومة فاس بالمغرب ، وحكومة غرناطة بالأندلس ، بسبب لسان الدين بن الخطيب . حتى أدى ذلك إلى انقلاب جديد في حكومة فاس ، فتولى أمرها سلطان جديد ووزير جديد . فسلما ابن الخطيب لحكومة غرناطة ، وسجنا ابن خلدون . ثم أطلق سراحه بعد حين .

٥ - ابن خلدون في عزلته :

إن الظروف الشائكة والمواقف الحرجة التي مرت بابن خلدون ، وطول

كفاحه ومغامراته ، ونجاحه طوراً ، وإخفاقه طوراً آخر ، قد دفعته إلى طلب الراحة والاستجمام . وكثيراً ما تدعو مثل هذه الظروف إلى لون من ألوان اليأس والملل ، يوجه المرء وجهة في الحياة جديدة . وهذا هو ما وقع لابن خلدون ، فقد طفر في هذه اللحظة ، حبه للعلم ورغبته في مزاولته والانقطاع إليه ، على أنقاض تلك الحياة السياسية البالية . فخرج إلى العزلة والتأمل ، على الرغم من أن الدنيا حوله كانت صاخبة ، تدعوه إلى معاودة مغامراته .

اتصل ابن خلدون حينذاك ، ببعض أصدقائه من بني عريف بقلعة سلامة في غرب تونس . وانتحى ناحية بأحد قصورهم ، ناجياً من دنيا السياسة إلى دنيا العلم . وأخذ يبحث ويقرأ ويتأمل ، وينظر في حوادث التاريخ ، ويطوف بين قبائل المغرب يتحسس أخبارها ويستطلع عاداتها وتقاليدها . ويستنبط من كل أولئك - بمعونة تجاربه الماضية - ما لاح لناظره من قوانين اجتماعية شاملة .

هنا دون ابن خلدون كتابه الخالد في التاريخ ، ومقدمته الفريدة في فلسفة التاريخ . وهما له وللناس ، خير من حياته السياسية ومغامراته وسط عواصفها . وقد تحول بكتابته من أن يخصصه على تاريخ دول المغرب ، إلى تعميمه وجعله في التاريخ العام ، يتكلم فيه على جميع الأمم المعاصرة له ، من مغربية وعربية وغيرهما .

وبعد أن لبث ابن خلدون في عزله أربع سنوات من ٧٧٦ هـ إلى ٧٨٠ هـ ، عاد إلى تونس ليستكمل بحوثه ، ويستتم مراجعته في كتب التاريخ بمكتباتها .

٦ - ابن خلدون في تونس :

عاد ابن خلدون إلى مسقط رأسه تونس ، بعد أن زایلها زمناً طويلاً . وكانت قد دخلت في طاعة أبي العباس الحفصي أمير قسنطينة وبجاية ، ذلك الذي فر ابن خلدون من وجهه . فاستعاد ابن خلدون رضاه ، ووفد عليه فرحاً بمقدمه وما إن علم بما يقوم به ، حتى بادر بتشجيعه ومعاونته .

جنح ابن خلدون إلى الاطلاع ، وتردد على مجالس العلماء . ووجد فيه أبو العباس مستشارا نافعا في بعض أموره . وفي وسط هذه البيئة زادت شهرته ، ووفد عليه الطلاب من الآفاق يتزودون من علمه ويقطفون من ثمار معارفه .

والزمان الذي دأب على محاربة ابن خلدون ، أخذ ينثر الأشواك من جديد في طريقه . فغصت به نفوس ، وشرقت به حلوق ، وبدأت السعايات تزحف زحف الرقطاء . وكان ابن خلدون قد قصر في زيارته للسلطان ، لاهيا في مراجعته ومدارسته ، فوجد الواشون سبيلهم معبدة مذلة .

شعر ابن خلدون بما يدبر له ، أو يراد به . فعمّج بالإفلات قبل الإطباق ، ولاذ بعد القرب ، بأسباب الفراق مدعياً أنه يخرج من تونس إلى حج بيت الله الحرام . فودعه محبوه وداعا حارا . وركب منها البحر عام ٧٨٤ هـ .

٧ — ابن خلدون في مصر :

يم ابن خلدون في هذه المرة ، البلاد المصرية . وكانت شهرته قد سبقته إليها وكان برقوق سلطانها . وهي توج في عهده بنوابع العلماء والأدباء ، وبينهم الوافدون منهم من أبناء الأمم الإسلامية . فما بلغها ابن خلدون حتى بهرته محاسنها وجذبتة مفاتيها ، فحببت له الإقامة في ربوعها .

تصدى ابن خلدون للتدريس بالجامع الأزهر ، وأقبل عليه الطلاب والعلماء من كل فج ، فاتسعت معرفته بالناس ، وزادت مكاتبتهم لديه . وتلمذ له من أبناء مصر ، فحول نابهون ، منهم ابن حجر العسقلاني ، وتقي الدين المقرئ .

واتصل برجال مصر ، وعلى رأسهم سلطانها برقوق . فأكرم مشواه ، وأرغد عيشه ، وأسند إليه الوظائف الجليلة . ومنها التدريس بالمدرسة القمحجة بجوار جامع عمرو بن العاص . ثم أسند إليه منصب قاضي المالكية في جمادى الآخرة عام ٧٨٦ هـ . ثم عزل في جمادى الأولى عام ٧٨٧ هـ . ثم أسند إليه التدريس في المدرسة الظاهرية التي أنشأها برقوق . ثم انتقل منها إلى المدرسة الصرختمشية

فدُرُس فيها موطأ مالك . ثم أسندت إليه مشيخة الخانقاه البيبرسية . ثم عاد إلى تولي قضاء المالكية ولبت أمره في القضاء بين تولية وعزل ، حتى تولاه ست مرات . وشهد ابن خلدون عصر السلطان فرج بن برقوق . وخرج معه في جملة القضاة ، لمحاربة تيمور لئلا الترى ، ببلاد الشام . ولما سكن الخلف دب ديبه في صفوف المصريين — ويا للأسف — نخشى السلطان مغبة الأمر ، وأسرع بالعودة إلى مصر ، تاركا معظم جيشه بالشام . فغامر ابن خلدون مغامرة جديدة وسعى إلى لقاء تيمور لئلا . فلقبه هذا بحفاوة وإعجاب . وتوسط ابن خلدون لديه فيمن توسط ، أن يدخل دمشق دون إراقة دماء . ولما سكن — ويا للأسف أيضاً — بعد أن سلمت المدينة لجنوده عاثوا فيها فسادا ، وأتوا بها من الشر ما تفشع منه الأبدان .

تحيل ابن خلدون على تيمور لئلا ، مستأذنا منه في العودة لمصر ، ليستحضر مؤلفه وماله ، ثم يعود . فأذن له فسار وهو يحمد الله على النجاة . وكان ذلك عام ٨٠٣ هـ .

أرسل ابن خلدون إلى أسرته ، أثناء إقامته بمصر ، يستقدمها من تونس . فركبت إليه البحر ، فغرقت بها السفينة ، فكان ذلك ماثرا لهما وألمه . ولم يسلم ابن خلدون في هذه المرحلة الأخيرة من حياته ، من حساد يحسدونه على ما آتاه الله من فضل ، وعذال يشيعون حوله الأراجيف . وقد ذهب بعض السكتيين إلى أن ذلك كان بسبب أنه مغربي . وهذه تهمة — في الواقع — موجهة إلى مصر ، أكثر من توجيهها إلى شيء آخر . ومصر بريئة منها ، ففصر التي رحبت بأبناء الأمم الإسلامية ، في ذلك الوقت العسير ، ووطأت لهم من كنفها ، ومهدت لهم في خيراتها — والأدلة كثيرة على ذلك كما تقدم — لم تضق بابن خلدون قط . أما الحساد العذال فلقد لقيهم ابن خلدون في كل مكان حل فيها ، وجددهم في تونس وفي الأندلس ، وفي المغرب الأقصى . وهو نفسه سبب ذلك ، فليس بحسود فتي وله ند .

لبث ابن خلدون في مصر قرابة ثلاث وعشرين سنة ، يحاضر ويناضر ويؤلى ويُعزل ، حتى وافته منيته - وكان في دست القضاء - في ٢٦ رمضان عام ٨٠٨ هـ . فدفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة .
أخلاقه وعلمه :

ابن خلدون أحد أفذاذ العالم ، الذين تزدهى بهم الإنسانية ، وتفخر ، يوم تسأل عن أنجب . وقد أخذ يتعلم منذ فجر حياته ، علوم زمانه ، من فقه وحديث وتفسير ، وأصول ، وكلام ، وقرآن ، وأشعار ، ولغة . ويدرس كتب الأولين في المنطق والفلسفة والتاريخ . وقد وهب الله له ذكاء خارقا ، ولسانا ناطقا ، فأحسن فهم هذه العلوم ، كما أحسن التعبير عن آثارها في نفسه .

وكان لذكائه وعلمه وبيئته ، أثر في علو نفسه وسمو همته . فاندفع يفسح لهذه النفس ، المنزلة اللائقة بها ، والمكانة التي تصبو إليها . ويخترق طريق المجد ، وإن خفت بالأشواك . وينافس في سبيل السؤدد وإن امتلأت بالمكاره . وانساق إلى الكيد ليصل إلى الظفر ، واندفع إلى الائتار ليبلغ الانتصار وكان طبعيا أن يَبْغُضَ وَيُبْغِضَ ، وأن يطمئن به العيش والمقام طورا ، وينبو به طورا آخر . وقد اتضحت لنا هذه الظاهرة جليلة في ثنايا الحديث عن قصة حياته .

وما لاريب فيه أنه كان يتغلب على مشاقه بسلاح علمه ، ويفتح آفاقه بسلطان قلمه . حتى وصل بعلمه وأدبه ومغامراته ، إلى الصفوف الأولى من صفوف رجال عصره . واستطاع أن يخلد اسمه في أهم سجلات ما يشرف به الرجل ، وأعنى به سجل السياسة والعلم .

ومهما يكن من أمر ، فإن ابن خلدون قد ترك للعلم ولتاريخ التفكير والإنسانية ، ما تفخر به ، ترك مقدمته المشهورة التي سماها ، وبطريقة وضعها ، وبموضوعها ، على أقرانه . وابتكر بها من العلم ما لم يسبق إليه : ونظر في المجتمع وأخبار الدول وتقاليدها ونشوتها وتحولها ، حتى استخلص منها قوانين كاملة . واستدرج جزئياتها حتى لاحت له كلياتها . فسجل كل ذلك ، وأنشأ علم الاجتماع .

هذا فضلاً عما دونه في تاريخه الكبير من سير البربر وغيرهم مما ندر أن نجد له مرجعاً سواه . وفضلاً عما له من رسائل وشعر .

عناية المؤرخين به :

أبدى كثير من المؤرخين قديماً وحديثاً آرائهم في ابن خلدون . فمن القدماء : جمال البشبيشي ، ولسان الدين بن الخطيب ، وابن حجر العسقلاني ، والركراكي ، وابن عمار ، والعيني والمقرئزي ، وغيرهم . وقد لخص السخاوي في كتابه « الضوء اللامع » آراء كثير منهم .

وقد حظى ابن خلدون في عصرنا الحديث ، بعناية ملحوظة من بعض الفضلاء ودرس في بعض دور التعليم دراسة موفقة . ومن كتب في تاريخه وأدبه وفلسفته : أستاذي المرحوم الشيخ أحمد الاسكندري . والشيخ محمد الخضر حسين . والدكتور طه حسين ، والأستاذ عبد الله عنان .

وأهم ابن خلدون كثير آ من الباحثين والدارسين ، وترجمت مقدمته إلى اللغات الأجنبية فكان لها أثر محمود في تفكير الأوروبيين .

ومن مساوئه في نظر بعضهم ، ما نسب إليه من محبة الأحداث ، ولينه وتواضعه خلال عزله عن المناصب وبعده عن الوظيفة ، ثم شموخه وصلفه إذا عاد إليها . وما ينسبه له البعض من كراهيته لآل علي . ولهذا جهد في نسبة الفاطميين إليهم . لا حبا في الفاطميين ، وإنما ليضيف مساوئهم إلى آل علي . وما ينسبه له بعضهم من ضعف في الفقه ، ولهذا كان لا يستحق — في نظرهم — ولاية القضاء . وقد قال الفقيه ابن عرفة المالكي مفتي تونس — وكان من أعداء ابن خلدون — حينما بلغه أن ابن خلدون قد ولي منصب القضاء بمصر ، قال : « كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب ، فلما بلغنا أن ابن خلدون ولي القضاء ، عدنا بالصد من ذلك . » ومن محاسنه في نظر بعضهم : أنه ولي القضاء بعفة ونزاهة ، وكان جم الفضائل فصيحاً مفوهاً كثير الحفظ ، قوى البأس متقدماً في الفنون العقلية والنقلية جيد

النبيل . وأن له مؤلفات قيمة ، وأنه كان يسلك في إقراء الأصول مسلك الأقدمين كالغزالي والفخر الرازي . وينبغي على طريقة المتأخرين التي تعنى بمناقشة الألفاظ ، والوقوف طويلاً في التعاريف عند الحد والرسم . هذا . وقد أعجب المقرئ بابن خلدون كل الإعجاب ، لأنه أثبت نسب الفاطميين - والمقرئ ينسب نفسه إليهم . فقال عن مقدمة ابن خلدون : إنه لم يُعمل مثلها .

وأحب أن أختتم هذه الكلمة بما قاله أستاذي المرحوم الشيخ أحمد الإسكندري عن ابن خلدون في إحدى مذكراته لطلاب دار العلوم . قال :

« كان ابن خلدون أحد نوابغ العالم الذين عاشوا أفذاذاً في عصور مظلمة ، لم يعصدهم فيها مشاكل . أو تعرف قدرهم أمهم . فكانت حياتهم بين الأمة التي عاشوا فيها ، كلها شقاء ومحنة . فتمد أداه نفوذ خاطره وصدق نظره ، إلى الاهتمام إلى كثير من علل الحوادث ، التي تلتاب الاجتماع البشري . وعرف ما بينها من الارتباط والنشابة ، حتى وقرت في نفسه بصور قوانين عامة وأقيسة مطردة . سال بها قلبه دون أن يفطن لها أهل قرنه . ولم ينكشف سرها ويتضح للباحثين صدق انطباقها على سنن العمران والاجتماع ، إلا بعد انقضاء عدة قرون .

وهذا الذكاء الفائق في ابن خلدون ، مراتب الذكاء المعتاد ، فيمن نشأ على نظام التربية والتعليم المتبع في عصره ، هو الذي جعل تفكيره يتسامى إلى أفق أعلى من أفق التفكير عند أهل عصره . فبعدت الشقة بينه وبينهم . فزالت المؤالفة والتراضي وحسن الاغتياب بالصحبة . وإلى هذا يرجع شقاء كثير من أذكىاء العالم ، على أيدي أهل القرن الذي نشئوا بين ظهرانيهم ، فلم تشر أعمالهم في عصرهم ، وقد يحفظها التاريخ لمن يفطن لها من يأتي بعدهم ، ويفتسبون من نورها في حياتهم وآرائهم ، كما فطن هو بشاغب نظره إلى آراء كثير من فحول التفكير الذين سبوه بقرون ، وبأحوا بما جاشت به نفوسهم من قوانين وحقائق ، لم يشعر بها أهل زمانهم . فخصها واستخرج منها زبدة من آراء لم يعرفها العلماء إلا بعد تهذيب العلوم وترقية

شئون التعليم والتثقيف . فكان وجوده سابقا بذكائه المتوقد ، للعصر الذي يلاهم .
تفسيكه بنحو أربعة قرون .

مؤلفاته :

تبين من سيرته أنه ألف في عدة علوم منها : الفقه والأصول وعلم الكلام
والتاريخ وفلسفته ، والاجتماع . ومن مؤلفاته :

(١) تاريخه الكبير ومقدمته المشهورة . (٢) التعريف : وهو ترجمته كتبها
بنفسه وصنف فيها ما عاناه في حياته . ومنه نسخة خطية بدار السكتب المصرية .
(٣) شرح بردة البوصيري . (٤) تلخيص بعض كتب ابن رشد (٥) تعليق في
المنطق رفعه إلى السلطان محمد بن الأحمر ملك غرناطة . (٦) تلخيص كتاب
محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، للإمام الرازي في علم الكلام على طريقة
الاشاعرة . (٧) كتاب في الحساب (٨) شرح رجز ابن الخطيب في أصول الفقه .
(٩) كتيب في تاريخ المغرب ودوله ، رفعه إلى تيمورلنك بأمر منه . (١٠) شعره
ورسائله .

التعريف بتاريخه ومقدمته :

ذكر ابن خلدون في خطبة كتابه ما نصه :

« ورتبته على مقدمة وثلاث كتب :

المقدمة : في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والإلماع بمخاطب المؤرخين .

الكتاب الأول : في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من
الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع ، والعلوم ، وما لذلك من العلل
والأسباب .

الكتاب الثاني : في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم ، منذ مبدأ الخليفة إلى هذا
العهد ، وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ، ودولهم ، مثل النبط
والسريانيين والفرس وبني إسرائيل والقبط ويونان والروم والترك والافرنجة .

الكتاب الثالث : في أخبار البربر ومن إليهم زناتة ، وذكر أوليتهم وأجيا لهم
وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول . . الخ .

وقد سمي كتابه : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم
والبربر ، ومن عاصرهم من ذى السلطان الأكبر .

أما المقدمة التي يشير إليها ، فهي فصل إجمالي شائق ، بيّن فيه مزايا علم التاريخ
وفوائده . وأشار فيه إلى مسلك المؤرخين القدامى في تدوين حوادثه ، وقص رواياته
وأخباره . وما يعترى نقلهم من نقص ، وعدم تحرر للحقيقة ، ودون فحص للمعلومات
بعقل ناقد بصير يميز الغث من السمين ، والصحيح من الفاسد . ونقد بعض الأخبار
على سبيل المثال . فمنها ما نقله المسعودي وغيره من أن عدد جيوش بني إسرائيل
الذي أحصاه موسى ، بعد خروجهم من مصر ، ستمائة ألف أو يزيدون . وبين
أن هذا وهم وغلط ، لذهول المؤرخين عن تقدير مصر والشام ، وسعتيها لمثل هذا
العدد من الجيوش لكل مملكة . واستبعاد أن يقع بين مثل هذا العدد ، زحف أو
قتال ، لضيق مساحة الأرض ، وبعد ما بين طرفي الجيش والمتحاربين . وله أدلة
أخرى — ومنها ما ذكره بعضهم من أن قبائل صنهاجة وكتامة البربر يتين أصلهما
من العرب الحميريين ، تخلفوا ببلاد المغرب ، بعد أن استعمرها الينيون زمنا .
وأبطلها ابن خلدون ذلك معللا بصعوبة الطريق بين اليمن والمغرب ، وأن الآتي
من اليمن إلى المغرب لابد من أن يهبط إلى السويس ، ويمر بأعمال مصر ، وأن
تصبح هذه الممرات تابعة له ، قبل أن يغزو بلاد المغرب . ليضمن الميرة والأذودة
إلى غير ذلك . — ومنها ما فسر به المفسرون لفظ « إرم » ، في قوله تعالى : « ألم
تركيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد » فقالوا إنها مدينة عظيمة الصنع بناها
شداد بن عاد . وقد أبطل ذلك التفسير ، مبينا أن عاد إرم من باب إضافة الفصيصة
إلى القبيلة ، كما تقول قريش كنانة ، وإلياس مضر . أو أن العماد هي عماد الأخبية
بل الخيام . أو العماد الأساطين للدلالة على قوة عاد ، وأنهم أهل بناء وأساطين .

ومنها ما نقله المؤرخون عن نسكية البرامكة ، وما قالوه في سببها ، من أنه حَقَّقَ
 الرشيد على جعفر البرمكي ، لا اتصاله بأخته العباسية . وقد دافع ابن خلدون عن
 العباسية دفاعاً حاراً معززاً ذلك بمكانها من الدين والأبوة ، واستبعد أن يُصهر
 الرشيد إلى العجم ، مع بعد همته وعظم إباطه . وعال نسكية البرامكة باستبدادهم
 على الدولة واحتجابهم أموال الجباية ، إلى غير ذلك . ثم تكلم عن نسب العبيديين
 « الفاطميين » ، وأبطل الروايات التي تزيف نسبهم إلى علي ، وأثبت صحة هذا النسب .
 وعلى هذا النحو سار ابن خلدون في نقد كثير من المغالط التاريخية ، وأوهام
 المؤرخين . بأدلة قوية وحجج منطقية . ثم ختم مقدمته هذه ، ببند يسيرة في الحروف
 وتسكينها ورسمها ، واختلاف ذلك في لغة عن لغة . ثم أشار إلى طريقته في كتابة
 ما يعرض له من كلمات بربرية ، فيها حروف لا نظير لها في العربية . وذلك بأن
 استعان على كتابة الحرف البربرى ، بحرفين عربيين يكتنفانه ، أى يكون نطقه ،
 وسطاً بين نطقيهما . في رسم أحدهما . ثم يضع عليه ما يشير إلى الحرف الثانى ،
 كالنقط ، أو رسم الحرف نفسه . وبذلك يفتن القارئ إلى أن الحرف البربرى
 المراد وسط بين هذين الحرفين العربيين . وذلك كالكاف البربرية ، التي ينطق بها
 وسطاً بين الكاف والجيم العربيتين . فإنها يرسمها كافاً ، ويضع تحتها نقطة الجيم .
 وهكذا .

أما الكتاب الأول : فهو أول السكتب الثلاثة ، التي يتكون منها مؤلفه العظيم
 « العبر » . وهذا الكتاب هو المشهور « بالمقدمة » . وهو غير المقدمة السابقة التي
 هي بمثابة خطبة للكتاب . أما هذه ، فهي التي بنت مجد ابن خلدون وهي التي ضمنها
 فصوله ونظرياته عن العمران البشرى . وهو بلا ريب ، قد استفاد مما قرأه من
 كتب المتقدمين ، حين كتبها وحرر فصولها . واعتمد في النقل على بعض منها . وكما
 قال أستاذى الإسكندري ، إنه اعتمد في كلامه عن العمران البشرى ، على رسائل
 إخوان الصفا وكتب الجغرافيين العرب ، الذين نقلوا عن بطليموس . وفي كلامه
 عن إدراك البشر للغيب ، على كتب التصوف وعلم الكلام والفلسفة . وفي كلامه

عن الخلافة والإمامة والمذاهب ، على كتب الكلام والملل والنحل للشهرستاني وابن حزم ، وكتاب الفرق بين الفرق ، والكامل للمبرد ، والعقد لا ابن عبد ربه . وفي كلامه في تاريخ العلوم والصناعات ، على أمثال كتاب الفهرست لا ابن النديم . وهكذا .

ومهما يكن من شيء ، فالمقدمة دالة على حدة ذهنه وشمول نظراته ، ووحدة تفكيره . وهذه سمات ضرب من العقلية العربية نادر الوجود . وهو بلا ريب ، استفاد بجوار ما استفاد منه ، من تجاربه ، وخواصه الأعمال العليا ، وصلاته ببلاط الحاكين ، مما مكن له من الاطلاع المباشر ، على كثير من أسرار الاجتماع .

وتحتوى المقدمة ، أو الكتاب الأول على ستة فصول كبار :

الفصل الأول : موضوعه « العمران البشرى » وقد كتب فيه ست مقدمات ، بين فيها أن الاجتماع الإنسانى ضرورى ، وأن الإنسان مدنى بالطبع ، وأن بعض بنى الإنسان محتاج إلى البعض الآخر ، لاختلاف الصناعات والحاصلات ، فى بيئة عن الأخرى ، ولاحتياج أصحاب البيئة الواحدة إلى ما لدى أصحاب الأخرى من صناعات وحاصلات . ثم تسكلم عن جغرافية الأرض وأن شكلها كروى ، وأشار إلى ما فيها من أشجار وأنهار وأقاليم ، وإلى أيها أكثر سكانا ، وفصل الكلام على أقاليمها السبعة وحسب الجغرافية القديمة وتقاسيمها واصطلاحاتها ، وتحدث عن الهواء وتأثيره فى لون الإنسان وخالقه ، ومظاهر الحياة وأسباب اختلافها فى ناحية عن أخرى ، وما ينشأ عن ذلك فى الأبدان والأخلاق . واختتم هذا الفصل بمقدمته السادسة ، فى أصناف المدركين للغيب من البشر . وهنا تناول الكلام عن الوحى والرؤيا والنبوة والكهانة والعرافة والولاية والتصوف وما إلى ذلك .

الفصل الثانى : موضوعه : « العمران فى البادية والامم المتوحشة والقبائل » . ويحتوى هذا الفصل على نحو تسعة وعشرين فصلا ، تصيرة غالبا ، أبدع فى كتابتها

إنما إبداع . تناول فيها نشوء العمران في البوادي ، وعلى أى أساس يقوم ، وأنه طبعى ويقوم على العصبية ، وبين أخلاق أهل البادية ، واستطرد في هذه الفصول إلى أمور كثيرة ، وإلى حقائق واقعة ، منها : أن الصراع من الفسب إنما يوجد للوحشين ، وأن الرياسة تكون لأهل العصبية ، وأن الأمم الوحشية أقدر على التغلب عن سواها ، وأن من عوائق الملك الترف والنعيم والمذلة ، ومن علاماته التنافس في الخلال الحميدة ، وأن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب ، وأن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء . وقد حمل في بعض هذه الفصول على العرب ، وقال إنهم لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية ، وأنهم أبعد الأمم عن سياسة الملك .

الفصل الثالث : موضوعه : الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية .
تكلم فيه عن صلة الملك والدولة بالعصبية ، والقبيل والدعوة الدينية ، وصلة كل من هذه بالآخرى . ويحتوى هذا الفصل على زهاء ستين فصلا ، منها : فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد ، وفصل في أن من طبيعة الملك الترف . وهكذا . ومنها فصل في أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة ، أقبلت الدولة على الهرم . ومنها فصل في أن الدولة لها أعمال طبيعية كاللأشخاص . وفصل في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة .

وهكذا تكلم عن الدولة ، وكل ما يمت إليها بصلة من طبيعة تكوينها ، وأسباب بقائها وزوالها وأعمالها ، ومراتبها وشاراتها وحروبها وأخلاق أهائها . وفي عداد هذه الفصول ، عقد فصلا في معنى الخلافة والإمامة ، وفصولا في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه ، وبين رأى المذاهب المختلفة فيها ومعنى البيعة وولاية العهد ، وغير ذلك مما يمت إلى الخلافة بصلة كالألقاب والأعمال والمشاكلة ، كاسم البابا والبطرك والكوهن .

الفصل الرابع : موضوعه : البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في

ذلك من الأحوال ، ويحتوى على نحو ٢٢ فصلا منها الموجز والمطول . تناول فيها الكلام عن نشأة المدن والأحصار ، وصلة ذلك بوجود المُلْك . ومنها فصل فيما يجب مراعاة في أوضاع المدن ، وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة ، ، وذلك كإقامة الأسوار ، أو إقامتها فوق هضبة أو في حماية جبل أو باستدارة بحر أو نهر . وكانتقام بقمعها طيبة الهواء صالحة لحياة الإنسان والحيوان . وكقربها من الماء الصالح للشرب ومن المرعى . وهكذا .

ومن بينها : فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم . تكلم فيه عن المدينة المنورة ، وعن مكة وبيت المقدس ملحا إلى طرف من تاريخ كل منها .
وتكلم عما يتصل بالمدن والأحصار من أسباب الازدهار أو الدمار ، واختلاف أحوال سكانها وما لديهم من الصنائع ، وما لهم من العvisية وما بينهم من اللغات وغير ذلك .

الفصل الخامس : موضوعه : في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال ، وبه نحو ثلاثة وثلاثين فصلا . بين في أولها حقيقة الرزق والكسب ، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية .
وقد تناول فيها الكلام عن طبيعة كثير من الصناعات المعروفة . وتحدث عن المال والجاه والتجارة والاحتكار وغير ذلك . ومن الصناعات التي تكلم عنها : التجارة والحياكة والخياطة والتوليد والطب والخط والوراقة والغناء .

ومن نظرياته في هذا الباب : أن الجاه مفيد للمال . وأن السعادة والكسب إنما يحصل غالبا لأهل الخضوع والتملق ، وأن هذا الخلق من أسباب السعادة . وأن القائمين بالأمور الدينية كالقضاء والفتيا والتدريس وغيرها ، لا تعظم ثروتهم في الغالب . وأن خلق التجار نازل عن خلق الأشراف والملوك وأن العرب أبعد الناس عن الصنائع . وغير ذلك .

الفصل السادس : موضوعه : العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه ،

وما يعرض في ذلك كله من الأحوال ، . وفصوله أكثر من خمسين . وقد استغرقت نحو مائة وخمسين صفحة من المقدمة ، أى ما يقرب من ثلثها . تكلم فيها عن أن العلم والتعليم في العمران البشرى طبعى . وفرق بين العلم وبين صناعة التعليم ، وكيف تختلف هذه الصناعة ، بدليل اختلاف مصطلحاتها في كل بيئة . وأشار في الفصل الثانى إشارة إجمالية إلى مبلغ العلم في بلاد المغرب ، ونصيب هذه البلاد من صناعة التعليم مبيناً أسباب ذلك . مشيراً أيضاً إلى الصلات العلمية إذ ذاك بين دول المغرب والأندلس والمشرق ، ومدنها ، ووازن بينها جملة . متكلماً خلال ذلك عن كيفية تكوين الملكية العلمية التى بها يستطيع المرء حذق العلم والإحاطة بمبادئه وقواعده ، مع القدرة على استنباط فروعه من أصوله . وله زعمات طريفة على التعليم في عصره ، تترامى الفينة بعد الفينة في خلال كلامه هذا .

ومن لطيف ما ذهب إليه ابن خلدون في الفصل المذكور ، قضيتان : الأولى أن هناك فرقاً بين صاحب الملكية العلمية وبين غيره ، ولو تساويا في فهم مسألة ما ، من مسائل العلم ووعياها . الثانية : أن مستوى الذكاء فى الحضر والبادية واحد ، وأنه لا تفاوت فى الإنسانية بين حضرى وبدوى ولا تفاوت بينهما فى الفهم والذكاء ، إلا بالنظر والعلم والدأب على التفكير والتزام ضروب من العوائد والتقاليد والآداب الحسنة .

وقد تكلم عن العلوم المعروفة فى عصره ، وعقد لكل منها فصلاً ، ذكر فيها تعريف كل علم وأنواعه وطرق التأليف فيه ، منوها برجاله وأعمالهم ، وهكـذا ومنها : التفسير والحديث وعلومه والفرائض والفقه والجندل والتصوف والعلوم العقلية والعددية واللغوية والسياسية والتنجيم والكيمياء وغير ذلك . وقد اختلط هنا الكلام عن هذه العلوم وتاريخها بالأدب وتاريخ الأدب والتاريخ والنقد والتربية . وبما عقده : فصل فى النظم والنثر ، وفصل فى صناعة الشعر ، وفصول أخرى فيما يتصل بذلك . وبها نظريات تدل على خبرة واضطلاع وحسن نظر وصدق حسن . وبها كثير من الأمثلة التى لا تزال معينا للورخين والأدباء فى عصرنا الحديث فى باب الاستشهاد .

وبعد ، فالقارى يرى في هذه المقدمة ، روضة كريمة متنوعة الأزهار كثيرة الثمار ، ذات علوم جمّة ومعارف شتى . ولسنا هنا بصدد نقد المقدمة ، والتعرض لأرائها بالبحث والتحصيل والتعقيب . وإنما هو التعريف بها والتنويه بنفساتها ومحتوياتها .

على أن كثيرا من أدباء الحديث ، تعرضوا لأراء ابن خلدون ونظرياته وهم ما بين معطل ومدلل ، وناقد ومبطل ، وجماع رأيهم : أن لابن خلدون ، نظريات لا تزال سليمة صادقة ، يسير العمران وفق ما قررته ، وأن له نظريات فاسدة ، أو برهن الزمان على فسادها . غير أن له عذرا أو شبه عذر في ذلك ، لأنه استوحى نظرياته من ملابسات زمانه .

فمن نظرياته السليمة : أن الاجتماع البشرى لا يخلو من بداوة وحضارة . وأن البداوة والاختيشان أصل لكل حضارة ، وأن نشوء الحضارة أو اضمحلالها ، لا يكون طفرة ، بل يقتضى انقضاء نصف قرن ، أو أربعين سنة على أقل تقدير ، حتى يكون تأثير كل ، قد شمل النشء والشبان والكهول . وأن تأسيس الدول أو غلبة أمة على أمة ، لا يكون إلا بدافع دينى أو سياسى . وأن المغلوب مولع أبدا بالاقتراد بالغالب ، في شعاره وزيه ونحلته وعاداته . وأن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب ، قل أن تحكم فيها دولة . . إلى غير ذلك .

ومن آرائه غير السليمة : أن الدولة لا يزيد عمرها على مائة وعشرين سنة . وأن التنافس والنزاع ضروريان بين الملك وأشراف الدولة وزعمائها ، وأن ذلك ينتهى بتغلب الملك . وأن العرب أبعد الناس عن سياسة الملك . وأن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط ، وأن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الفناء .. إلى غير ذلك .

ويعلل بعضهم تحامل ابن خلدون على العرب ، وتنقصه إياهم بأن أهل المغرب موتورون منذ القديم ، من العرب . ويعلل بعضهم بأن ابن خلدون إنما وصف

عرب البادية في زمانه ، أما عرب الأمصار ، فلا يعنيه بشيء من قوله . . .

أسلوب المقدمة :

عقد ابن خلدون فصلا في مقدمته وهو الخامس والأربعون من فصول القسم السادس بعنوان . « فصل في انقسام الكلام إلى فني النظم والنثر » . وقد حمل فيه على كتاب عصره من أهل البديع الذين أدخلوا في النثر ، الأساليب الشعرية من كثرة الأسجاع والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدي الأغراض ، وغير ذلك . حتى أصبحت أساليبهم بعيدة عن الروح البلاغية ، إذ أنها غير مطابقة لمقتضى الحال . إلى آخر ما قال . وقد انتقل ابن خلدون من نقده إلى استملاح الترسيل وعدم التقيد في إيراد الحديث والاسترسال بغير بديع .

وقد خالف ابن خلدون بهذا النقد ، الروح السارية في عصره ، ولا سيما في مصر والشام والمشرق عامة ، بين جميع الكتاب . إذ كانت هي الروح البديعية ونزعة الزخرف والزينة اللفظية . ويعتبر ابن خلدون لذلك ، فذا بين معاصريه ، ومجددا في الأسلوب الكتابي بهذا الخروج .

ومن البدهي أن ينهج ابن خلدون في كتابته ذلك النهج الذي استماعه ، ودعا إليه . وهو الاسترسال وبند القيود البديعية جانباً . — على أنه لم ينهج هذا النهج بدأب واستمرار ، في كل مؤلفاته ورسائله ، كما نهج في كتابة المقدمة . لأن لابن خلدون كتابة بديعية أخرى دعت إليها ظروف خاصة .

أما أسلوبه في المقدمة ، فقد برى . ، أو كاد ، من المحسنات البديعية والقيود اللفظية ، وأمعن في الاسترسال ، ولم يراع إلا مقتضى الحال على قدر استطاعته ، لذلك برز أسلوبه بليغا سهلا أخذا ، كأنه الحديث المبثوث المرسل ، في غير كلفة إلا رغبة الإفهام والتوضيح . لابن خلدون في مقدمته خصوصية قل أن تجدها لسواه ، وهي حسن إبرازه للبعان الدقيقة بالفاظ وجل غاية في الدقة والكياسة ، والدلالة . — هذا الوصف هو الشائع في أسلوب مقدمته ولا يخلو مع ذلك من مأخذ وهنات نجملها فيما يلي :

فمنها العودة إلى الأسلوب اليدى في خطبة الكتاب بصفة خاصة . بل لقد أمعن في السجع إمعانا . وليته نوع القافية ، ولكنه النزم القافية الواحدة في أكثر من عشر جمل . ويخيل للمرء أنه أراد أن يستعوض عن هجر البديع في سائر مقدمته بما النزمه في هذه الخطبة .

ومنها وقوعه في أخطاء لا يميزها قواعد الإعراب ، ولا قوانين الصرف ولا مسموعات اللغة ^(١) . مثل : إدخال الواو في خبر لا بد ، فيقول : « لا بد وأن » . وجعله الخبر أو جواب الشرط استثناء أو استدراكا ، فيقول : « إنه وإن كان الأمر كذلك إلا أنه أو ، ولكنه » . وتعديته تعود بعلى ، فيقول : « تعود على » . وإدخاله الباء على غير المتروك في فعل استبدل وما شابهه ، والأرجح دخولها على المتروك . واستعماله لفظ « الجليل » ، بمعنى القرن واللغات ، مع أنه الطبقة من الناس المتعاصرة في نحو أربعين عاما . . واستخدامه لفظ « المنحال » ، اسم آلة لرفع الأجسام ، وتأبى ذلك قواعد الصرف . وغير ذلك .

ومن مآخذ الفصل بين جزئى الكلام في الموضوع الواحد ، بكلام آخر مستطرد إليه ، حتى يصعب أحيانا الربط بين هذين الجزئين . ومنها إغفاله خبر المبتدأ أو جواب الشرط ، وذلك لطول عبارته .

ومنها لجوؤه الكثير إلى الجمل الطويلة ، التي تستغرق سطورا ، حتى يشرح بهامنى واحدا . وهذا من شأنه أن يتعب القارئ ويتطلب منه ذهنا يكده لربط أول الكلام بآخره واستخلاص المعنى . ولو لجأ إلى الجمل القصار لكان أجمل . ومنها الإطالة المملة في بعض الموضوعات ، والإيجاز المخمل في بعض آخر . ومنها تداخل جملة بعضها في البعض الآخر ، تداخلا يزيد غموضا ويفسح المجال للتأويلات ، واختلاف وجوه الإعراب ، ويستتبع ذلك غموض المعنى واضطرابه . وأهل هذا ناشئ من لجوئه إلى الجمل الطويلة كما ذكرنا . ومنها إكثاره من استخدام ألفاظ وتراكيب معينة حتى أصبحت كأنها « لوازم » لأسلوبه كقوله : « في الغالب وفي الأقل النادر » . ومنها تداخل الجمل بعضها في البعض الآخر بشكل يصعب معه عود

(١) راجع مذكرات الأستاذ أحمد الإسكندري .

الضمان إلى أصحابها . ومنها أنه منطقي العبارة في بعض الأحيان ذو أقيسة وموازنات ، وهذا نسكوص إلى السكتابة المقيدة .

هذا ، وما يذكّر أنه لاشك ، نقل حملا عدة من كتب أخرى ، وقد يشير إلى ذلك ، ولكنه قليلا ما يشير . وهذا منه اعتداد بالنفس وثقة بالذهن ، وحفظ لوقت القراء من الضياع ، وحرص على أحاديثه أن تطغى عليها الأسانيد . وما يذكّر : أنه النزم غالبا افتتاح فصوله بقوله ، اعلم ، واختتامها بجملة يذكّر فيها اسم الله كقوله ، والله غالب على أمره ، وكقوله ، والله يهدي من يشاء ، وقوله ، والله مصرف الأمور كيف يشاء ، . ولم تذكر هذا الافتتاح والاختتام في مأخذه مع أنها من اللوازم ، لأنها أسلوب مستملح في نظرنا ، ولا مانع منه ولا بأس به . ومهما يكن من شيء فإن لهذه المقدمة وأسلوبها أثرا عميقا في نهضة السكتابة في عصرنا الحديث . ولعل عصرنا من العصور لم ينتفع بما فيها من علم غزير ، وأدب كثير ، وأسلوب كتابي مرسل سهل بليغ ، كما انتفع بهاء عصرنا الحديث . فكانت أستاذنا لسكتابه وأدبائه من مطالع العصر ، وكانت ذات أثر قيم ، في رجوعهم عن الطريفة البديعية ، إلى الاسترسال والأسلوب الفطري والعناية بالمعاني والأفكار .

نماذج من المقدمة :

توخينا في هذه النماذج أن تكون من بيئات مختلفة من أسلوبه ، حتى نعاون القارىء على معرفة ما وصفناه به فيها .

١ - كتب في خطبة المقدمة بعد حمد الله ، والثناء عليه ، والصلاة على نبيه ،
يصف فن التاريخ فقال :

و أما بعد فإن فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الأمم والأجيال . وتشهد إليه الركائب والرحال . وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال . وتتنافس فيه الملوك والأقبال . ويتساوى في فهمه العلماء والجهال . إذ هو في ظاهره ، لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأولى ، تنحى فيها الأقوال . وتضرب فيها الأمثال ،

وتطرف بها الأنديّة إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليفة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال. وفي باطنه نظر وتحقيق. وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق. وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق. وجدير أن يعد في علومها وخليق. الخ.

٢ — كتب في أول فصل من المقدمة د أي من السكتاب الأول، مقالا عاما، قدم به ما يل من الفصول، وذلك في صفحة ٢٦. قال مبينا الأسباب التي تعرض للتاريخ وحوادثه، فاضطر الرواة إلى تشويهاها، والتغيير فيها، وعدم ذكرها على حقيقتها:

« اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ، أنه خبر عن الاجتماع الإنساني، الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر، بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومسايعهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال. ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته، وله أسباب تقتضيه، فمنها: التشيعات والآراء والمذاهب. فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال، في قبول الخبر، أعطته حقه من التحجيص والنظر، حتى تبين صدقه من كذبه. وإذا خامرها تشيع لرأى أو نحلة، قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة. وكان ذلك الميل والتشيع خطأ على عين بصيرتها، عن الانتقاد والتحجيص، فتقع في قبول الكذب ونقله. الخ

٣ — ونختتم نماذجنا بذكر فصل مما حمل فيه على العرب. فمن ذلك الفصل التاسع من الفصل الرابع وهو في صفحة ٢٥٢ قال بعنوان « فصل في أن المباني التي كانت تخطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل »:

« والسبب في ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدمناه. فلا تكون المباني وثيقة في تشييدها. وله — والله أعلم — وجه آخر وهو أمر به. وذلك

قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن — كما قلناه في المسكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى . فإنه بالتفاوت في هذه، تتفاوت جودة المصير ورداءته، من حيث العمران الطبيعى . والعرب بمعزل عن هذا . وإنما يراعون مرعى إبلهم خاصة، لا يبالون بالماء طاب أو خبث، ولا قل أو كثير . ولا يسألون عن ذكاء المزارع والمنابت والاهوية، لا تتقالم في الأرض، ونقلهم الحبوب من البلد البعيد . وأما الرياح، فالقفر مختلف البهاب كلها . والظعن كفيل لهم بطيها . لأن الرياح إنما تختب مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات . وانظر لما اختطوا السكوفة والبصرة والقيروان، كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعى إبلهم، وما يقرب من القفر ومسالك الظعن . فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للبدن، ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم، كما قدمنا أنه يحتاج إليه في حفظ العمران . فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار . ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس . فلاول وهلة من انحلال أمرهم وذهاب عصيتهم التي كانت سياجا لها، أتى عليها الخراب والانحلال، كأن لم تكن والله يحكم لا معقب لحكمه .

أما الكتابان الثانى والثالث : فهما فى التاريخ ، وقد طبعا فى ستة مجلدات .

ويتحدث فى الثانى عن العرب وأجياهم ودولهم . الخ ، ويتحدث فى الثالث عن البربر ومن إليهم من زنائة . الخ ، كما ذكر فى خطبة كتابه ، وأشرنا إليه فيما سبق . وقيل إن ابن خلدون ، كان ينوى قصر تاريخه على دول العرب والبربر ، ولكنّه أكمله على النمط الذى ظهر به ، بعدما وفد على مصر ، وضم إليه أخبار دول الأعاجم ببلاد المشرق .

ويعتبر أكبر موسوعة فى سرد تاريخ أمم البربر ودولها ببلاد المغرب ، ومن اتصل بهم من عرب المشرق ، بمن كانوا يقيمون بالبادية ، وأغاروا على بلادهم مثل قبائل سليم وجشم وبني هلال

وقد سجل حوادث كل دولة فى فصول على حدة ، ويفتحها بعبارات موجزة فى بيان أسباب نشوء الدولة .

وقد عني كثير من الفرنجة بطبع تاريخ ابن خلدون ، وترجمته ، كما عنيوا بطبع
مقدمته وترجمتها .

أدبه :

طغت شهرة ابن خلدون بمقدمته وتاريخه ، على أدبه . مع أنه فني بأن يشتهر
بالآداب كتابة وشعرا ، ويقعد فيهما مقعد الفحول ، ولولم يكن له مقدمة ولاتاريخ .
فقد دمج الرسائل الديوانية أيام أن اشتغل بكتابة السر ، والإنشاء في الدواوين
السلطانية ، وكتب الرسائل الإخوانية في الشوق ونحوه . ونهج في كتابة رسائله
النهج الفاضلي المتبع في المشرق ، فغنى بالسجع والطباق والجناس والتورية والتضمين
وما إليه . واستمر على ذلك زمنا ، حتى رأى أن هذه الطريقة تباعد بين الأدب
وبين مراعاة مقتضى الحال . فهجرها ونمى عليها ، وحمل على الكتاتين بها وكتب في
ذلك في سياق أحد فصوله بالمقدمة . وعاد إلى الاسترسال ونفى عن قلبه قيود البديع ،
فسمت بلاغته ، وحصفت عبارته . وكثرت معانيه ، وكان بذلك كله ، عجبا . في
عصر وُضعت موازين النقد الأدبي فيه على أساس من نهج القاضي الفاضل .
غير أنه لم يخلص جملة من لوئاث طريقته الأولى .

أما في الشعر ، فلم يقل جودة وحذقا عن نظرائه من شعراء جيله ، مثل لسان
الدين بن الخطيب أديب الأندلس ٥٧٧٦ هـ ، ومثل القيراطي ٥٧٨١ هـ ، والفخر بن
مكانس ٥٧٨٩ هـ ، وشهاب الدين بن المطار ٥٧٩٤ هـ ، وغيرهم من شعراء مصر .
والمشرق .

وقد نظم الشعر في جملة أغراض منها المدح النبوي ، ومدح الملوك ، والغزل ،
والإخوانيات . وأسلوبه الشعري سهل لا كلفة فيه ، ولا لجاج بديعي . — وهو
بجانب ذلك — مطيل في قصائده .

ومن إخوانياته ما كتبه إلى صديقه لسان الدين بن الخطيب ، في الشوق ردا
على رسالته ، قال :

« سيدي مهذا وعلموا ، وواحدى ذخرا ومرجوا ، ومحل والدي برا وحسوا ،

ما زال الشوق مذ نأت بي وبك الدار ، واستحكم بيننا البعاد ، يُرعى سمعى أبناءك ،
ويخيّل إلى من أيدى الرياح تناول رسائلك حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع ،
وعهد غير مضاع ، وود ذى أجناس وأنواع . فشر بقلبي ميت الشوق ، وحشر
أنواع المبررات ، وقدح للقائك زنا والأمل . . . الخ

ومن شعره من قصيدة طويلة :

صحا القلب لولا عبرة ونحيب وذكرى تُجدد الوجد حين تثوب
وقلب أبي إلا الوفاء بعهده وإن نزلت دار وبان حبيب
ولله منى بعد حادثة النوى فؤاد بتذكير العهد طروب
يؤرقه طيف الخيال إذا سرى وتذكى حشاه نفحة وهبوب
خليلي لا تستدعيا قد دعا الأسى فإني لما يدعو الأسى لمحيب
ألمّا على الأطلال يقض حقوقها من الدمع فياض الشئون سكوب
ولا تعذلاني في البكاء فإنها حشاشة نفس في الدموع تذوب

فرحم الله ابن خلدون وجزاه عن الإنسانية خيراً .

(ترجمته في (١) مذكرات للألكندري كتبها عام ١٩٢٦ م (٢) حياة ابن خلدون ومثل من
فلسفته الاجتماعية للشيخ محمد الحضر حسين - محاضرة القاها عام ١٣٤٣ هـ - منها نسخة مطبوعة
بدار الكتب (٣) ابن خلدون : حياته وتراثه الفكري للأستاذ محمد عبد الله عنان . (٤) ابن
خلدون وفلسفته الاجتماعية للدكتور طه حسين (٥) جورجى زبدان ج ٣ ص ٢١٠ . (٦) كتابا
المبر والتعريف لابن خلدون (٧) الاحاطة لابن الخطيب (٨) الضوء اللامع للسخاوى ج ٤
رقم ٣٨٧)

٩- تقي الدين المقریزی ٥٧٦٦ - ٥٨٤٥ هـ

هو العلامة الكبير ، والمؤرخ القدير ، وصاحب الخطط الشهير ، أبو العباس تقي الدين ، أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد . ويسمى بنسبه إلى العبيديين الفاطميين حكام مصر ، قبل صلاح الدين . معتمداً على ما قاله له أبوه حينما دخل معه إلى جامع الحاكم بأمر الله : هذا جامع جدك ! ولهذا جهد في إثبات نسبهم والسمو بهم إلى بني هاشم .

ويعرف بالمقریزی ، نسبة إلى حارة المقارزة ببلد الشام . وقد كانت أسرته تقيم ببلدك هذه ، وكان جده بها من كبار المحدثين . ورأى أبوه أن يتحول إلى القاهرة ، حيث ولي بعض المناصب في القضاء ، وفي ديوان الإنشاء . ومن ذلك الوقت اتخذ مصر موطناً .

مولده ووفاته :

ولد المقریزی بالقاهرة عام ٧٦٦ هـ ،^(١) وكانت وفاته بها في عصر يوم الخميس ٢٦ من رمضان عام ٨٤٥ هـ بعد مرض طويل ، ودفن يوم الجمعة بموش الصوفية البيبرسية .

شيء من حياته :

نشأ المقریزی بالقاهرة ، ومال إلى طالب العلم ، لحفظ القرآن الكريم ، وسمع الحديث من جده لأمه شمس الدين بن الصائغ الحنفی ، وتمذهب بمذهبه ، ثم عدل عنه بعد زمن طويل إلى مذهب الشافعی . وسمع من غيره كالبرهان الأمدی والعز بن السكويك والنجم بن رزين . وحج ، وسمع الحديث بمكة وبالشام عن جلة من الحفاظ ، وأجيز بالرواية من كثيرين . كآبي البقاء السبكي وأبي بكر ابن الحب ، ومن أفاضل شيوخه أيضاً : البرهان النشائي ، والناصر الحريري والسراج

(١) هذه رواية السخاوي نقلاً عن ابن حجر ، الذي حقق الوفاة بتلك السنة .

البلقينى والزين القراقى والشهاب الأدرعى والجال الأسنوى . ولم يقتصر علمه على
الفقه والحديث ، بل امتد أفاقه إلى غيره كالنحو . وكان مولعا بالتاريخ ، عكف على
مطالعة أسفاره وجمع أخباره ، حتى استقامت له منه جملة فريدة وطائفة مفيدة ،
أودعها بطون كتبه . هذا فضلا عن نثره وشعره .

وقد ولى جملة من الوظائف منها : النيابة فى الحكم ، وكتابة التوقيع ، وحسبة
القاهرة ، ولها مزارا ، والخطابة فى جامع عمرو بن العاص ، ومدرسة السلطان حسن .
والإمامة بجامع الحاكم ونظره . ودرس الحديث فى جامع المؤيد . وطاف بالبلاد ،
وحج أكثر من مرة ، وتردد على دمشق ، وولى بها بعض المناصب ، من نظروقف ،
وتدريس ، وعرض عليه قضاؤها فى أوائل دولة الناصر فرج ، فأبى ، وقد رحل مع
هذا السلطان إليها فى عام ٨١٦ هـ . ومن قبله حسنت صلته بأبيه برقوق ، وقد صحب
الأمير يشبك الدوادار ، وأصاب منه ثروة نافعة . وبعد تطوافه استقراره فى القاهرة
وانقطع للعلم والتاريخ والتأليف .

وتتلمذ للبقرى كثير من النابهين ، منهم أبو المحاسن بن تغرى بردى صاحب
النجوم الزاهرة ، ومنهم شمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع . وحظى
بدراسة كتبه لطلابه فى حياته . - على أن الزمن أسعده فى العصر الحديث باهتمام
العلماء والمدرسين بدراسة مؤلفاته ، والرجوع إليها ، والعمل على نشرها .

المقرئ فى ميزان السخاوى :

لا يخلو مؤلف ، مهما بلغ من الدقة والضبط والإحاطة ، من هفوات . لذلك
ليس غريبا أن يكون للبقرى مأخذ وهنات . وهو قد جمع إلى لطيف أخباره
وطريف أسماره ، ما يعد فى جانب الأساطير . كما سترى من بعض ما ذكره بعد .
- غير أن هذا وغيره ، لا يدع منصفًا يتحامل عليه ويتجنى ، بل ينبغى أن
يلتمس له المَعذرة ، ويسد الثغرة . ويتفرق حين ذكر العيوب وعدها . ووصف
المأخذ ونقدها .

والسخاوى كما يعرفه رواد التاريخ - ناقد مر ، عظيم الخبرة ، دقيق النظرة ، لامع

الفكرة ، غير أنه سارع إلى التجنى والتحامل بما يشوب جوهر نقده ، وما يعيب خالص تمحيصه . ولم يسلم المقرئ من ضربات لسانه وخفقات بنانه . غير أنه - والحق يقال - قد أورد في ترجمته له ، عددا من محاسنه ، وعددا من مساوئه لهما أهميتهما . وأشنع ما أذاعه عنه ، أنه سطا على مسودات لشهاب الدين الأوحدي ، كتبها في الخطط . فبنى عليها كتابه العظيم ، الخطط المقرئية ، وزاد عليها زيادات قليلة القيمة . ويشعر المرء بتحامل السخاوى عليه حين يقول عنه : « وكان مع ذلك ، يكثر الاعتماد على من لا يوثق به ، من غير عزو إليه ، . ونعجب كيف عرف السخاوى أن من اعتمد عليه المقرئ في كثير مما نقله ، لا يوثق به ، مادام لم يعزه إليه ^(١) . - ومهما يكن من شيء ، فلنلخص هنا بعض هذه المحاسن والمساوى . فنحاسبه : أنه تفقه وتأدب على كثيرين من الأئمة . وأنه كان حسن السيرة في وظائفه . وأنه أبى قضاء دمشق . وأنه عكف على مطالعة التاريخ والتأليف فيه ، حتى بعد صيته . وأنه كان حسن الخلق ، كريم العهد كثير التواضع ، عالى الهمة لقصاده . مداوما على التجدد حسن الصلاة . وأنه جمع في كتابه ، مجمع الفرائد ومنبع الفوائد ، المشتمل على المعقول والمنقول ، وفقى الجدل والهلل ، ما شاهده بنفسه وسمعه ، مما لم ينقله من كتاب آخر .

ومن مساوئه : أنه كان يميل إلى أهل الظاهر ، ونقل السخاوى عن ابن حجر أن المقرئ كان يهتم بمذهب ابن حزم ، ولسكنه كان لا يعرفه . ومنها اتهامه بسرقة مسودات الأوحدي وهذه أشنع تهمة نسبها السخاوى إليه . وأنه كان قليل المعرفة بالمتقدمين ، ولذلك ، وقع له التحريف والسقط في متونهم وأسمائهم وأنسابهم . وضرب أمثلة كثيرة لذلك ، كالسكرجى يجعلها السكرجى . وأنه يكثر من الاعتماد على من لا يوثق به من غير عزو إليه . . ومن ذلك اعتماده على قول أبيه حينما دخل مسجد الحاكم بأمر الله ، فقال له أبوه : هذا مسجد جدك . فاعتمد المقرئ على ذلك ، وانتسب إلى العبيديين . ومنها أنه غير ماهر في استحضار الوقائع الإسلامية ،

(١) كتب الاستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه « مصر الإسلامية » نصلا ممتعا عن المقرئ وخطه ، دافع فيه عنه . ودحض بعض دعاوى السخاوى عليه .

جاهل بالرجال وجرحهم وتعديلهم ودرابهم . الخ . ومنها أنه ضعيف في الفقه
ومعرفة الحديث والنحو ، قليل الإلمام بأقوال السلف ومذهب أهل الكتاب . هذا
ونسب إليه الكذب في بعض أخباره .

وفي اعتقادنا أن نقدرات السخاوى لم تضع من قدر المقرئى ، ولعلمها سمات
السبيل إلى درسه ، وعبدت الطريق إلى الوقوف على مبلغ علمه وفضله ، ومؤلفاته
المتعددة شاهدة بهذا العلم والفضل .
مؤلفاته:

عكف المقرئى على التأليف ، فقد كان من هواته ، وأخرم بالتاريخ غراما
لا حد له ، ولم يقتصر غرامه به على نوع واحد منه ، بل تناول عدة أنواع .
فكتب في الخطط ، وفي التاريخ العام ، وفي تاريخ مصر ، وتاريخ رجالها ، وتاريخ
الدول . وقد عاونه قلبه في الوظائف الإدارية على معرفة النظم الديوانية وأخبارها ،
والولوع بالبحث عنها ، وتطورها ، وجره الحديث عن هذه النظم ، إلى وصف كثير
من العادات والتقاليد الاجتماعية ، فكان بذلك كاه فذا بين مؤرخى مصر .
وأصبحت مؤلفاته من أهم المراجع في تاريخها وتاريخ آثارها وخطوطها . ووضع
سلسلة من مؤلفاته تكون عقدا ثمينا ، متصل الحبات في تاريخ مصر ، وهى على
التوالى : عقد جواهر الأسفاط في تاريخ الفسطاط ، واتعاظ الخنفاء ، فى أخبار
الفاطميين . والسلوك من عهد الأكراد إلى زمنه .

وكان طويل النفس مديد الباع فى بعض مؤلفاته ، التى بلغت — على ما قيل —
نحو مائتى مجلد . من بينها كتابه « المقفى » . وهو تاريخ كبير كتب منه ستة عشر
مجلدا ، ولم يتمه . وروى السخاوى أنه كان يقول ، لو كمل على ما يرومه ، لجاوز
الثمانين مجلدا . ومنها كتابه « مجمع الفرائد ومنبع الفوائد » ، قيل : بلغت مجلداته نحو مائة .
ولم يقتصر تأليفه على التاريخ ، بل ألف فى النقود وتاريخها ، وله مؤلفات تحدث
فيها عن الحديث والفقه والكلام مثل كتابه « تجريد التوحيد المفيد » .

وقد سعد المقرئى بأن شاهد مؤلفاته تقرأ وتدرس فى حياته . وقد قال تليذه أبو الحسن بن تغرى بردى : « قرأت عليه كثيراً من مصنفاته » . وقال أيضاً : « وصنف كتباً كثيرة ، من ذلك : إمتاع الأسماع فيما للنبي صلى الله عليه وسلم من الحفدة والاتباع ، فى ستة مجلدات ، رأيت وطالعت ، وهو كتاب نفيس . وحدث به فى مكة » . هذا ومن حسن الحظ أن كثيراً من مؤلفات المقرئى موجود ، وبعضها فى دار الكتب المصرية وبعضها مطبوع .

ونذكر هنا بعض مؤلفاته فنها (١) :

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . (٢) السلوك لمعرفة دول الملوك . (٣) اتعاظ الخلفاء بأخبار الخلفاء ، وهو فى تاريخ الفاطميين . (٤) عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ، وهو فى تاريخ مصر من الفتح العربى إلى قبيل تأسيس الدولة الفاطمية ، وبه يحمل سيرة النبي عليه السلام . (٥) المقفى ، قال عنه جورجى زيدان : إن المقرئى وصف فيه عيشة الأمراء والمشاهير الذين أقاموا فى مصر . كتب منه ١٦ مجلداً ، منها ثلاثة فى ليدن ، ومجلد فى باريس . كلها بخط المؤلف . (٦) الدرر المضيئة فى تاريخ الدولة الإسلامية : من مقتل عثمان إلى المستعصم آخر خلفاء بغداد . (٧) إمتاع الأسماع فيما للنبي من الحفدة والاتباع : فى ستة مجلدات ، وهو الذى حدث به بمكة أيام مجاورته . وتوجد منه نسخة بدار الكتب . (٨) الخبر عن البشر ، قال عنه : إنه جعله مدخلاً لكتابه « إمتاع الأسماع » ، وتكلم فيه عن المخلوقات وكيفية خلق السموات والكواكب وأشكالها وحركاتها ، والأرض وتقسيمها وكيفية خلق آدم واختلاف لغات ذرياته . وعن ملوك اليمن وقريش وأنسابها ، وآباء النبي عليه السلام . . إلى غير ذلك . ودار الكتب المصرية ، منه ستة أجزاء تقع فى ١٦ مجلداً مصورة تصويراً شمسياً .

(١) اعتمدنا فى ذكر هذه المؤلفات على فهرس دار الكتب المصرية ومعجم سر كس ، وجورجى زيدان . والضوء اللامع للسجوى ، والمنهل الصافى لأبى الحسن . وعلى ما قرأناه فى دور الكتب الأخرى .

(٩) نبذة العقود في أمور النقود^(١) . (١٠) المكايل والموازين الشرعية .
 (١١) ضوء السارى في معرفة خبر تميم الدارى . (١٢) النمل وما فيه من غرائب
 الحكمة . (١٣) الطريقة الغربية في أخبار حضرموت العجيبة، طبعت، ومنها نسخة
 بدار السكتب . (١٤) البيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب وقد طبع
 أكثر من مرة . (١٥) الإمام بمن في أرض الحبشة من ملوك الإسلام ، طبع .
 (١٦) معرفة ما يجب لآل البيت الشريف من الحق على من عداهم . (١٧) الذهب
 المسبوك في ذكر من حج من الملوك . (١٨) النزاع والتخاصم بين بنى أمية وهاشم ،
 ومنه نسخة بدار السكتب طبع ليدن . (١٩) الإشارة والأيمان إلى حل لغز الماء .
 (٢٠) إزالة التعب والعناء في معرفة حال الغناء . (٢١) ذكر ما ورد في بنى أمية
 وبنى العباس من الأقوال . (٢٢) البيان المفيد في الفرق بين الإيمان والتوحيد .
 (٢٣) تراجم ملوك العرب . (٢٤) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة:
 في تراجم أعيان عصره ، يقع في ٣ مجلدات . (٢٥) تجريد التوحيد المفيد ، طبع .
 (٢٦) مختصر قيام الليل ، وقيام رمضان وكتاب الوتر . والسكتب الثلاثة لأبى
 عبد الله المروزى المتوفى عام ٢٩٤ هـ . (٢٧) ذكر دخول قبط مصر في دين
 النصرانية، وبادار السكتب المصرية منه نسخة مطبوعة بأوربا سنة ١٨٢٨م مع مقدمة
 وترجمة باللاتينية . (٢٨) منتخب التذكرة : وفيه جملة من تاريخ الأعيان والملوك
 وأنسابهم وحوادثهم . الخ ، مبتدئا بقصة آدم ، ورتبه على حسب السنين ، منه
 نسخة بدار السكتب بالتصوير الشمسى ، والمنتخب والتذكرة كلاهما للمقرئى .
 (٢٩) النقود القديمة والاسلامية ، ولعله هو كتابه « نبذة العقود » وكتابه « شذور
 العقود في ذكر النقود » . (٣٠) الأخبار عن الأعذار . (٣١) والإشارة
 والكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام ، وله مختصره كذلك . (٣٢) حصول

(١) في دار السكتب كتاب المقرئى اسمه « شذور العقود في ذكر النقود » فله هو

(نبذة العقود) . ولعلها معا كتابه (النقود الاسلامية) .

الأنعام والمير في سؤال خاتمة الخير . (٣٣) المقاصد السنية في معرفة الأجسام المعدنية . (٣٤) شارع النجاة ، ويشتمل على جميع ما اختلف فيه البشر من أصول دياناتهم وفروعها مع أدلتها وتوجيه الحق فيها . (٣٥) قرص سيرة المؤيد لابن ناهض .

التعريف ببعض مؤلفاته :

١ — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار :

هو الخطط المقرزية المشهورة ، وأحد الكتب الخالدة التي اهتم بها الناس قديما وحديثا ، وشرقا وغربا ، واعتمد عليه عدد ضخم من كبار المؤلفين الذين تصدوا للكتابة في تاريخ مصر وآثارها وخططها . وموضوعه قصص أخبار وأوصاف ما في ديار مصر والقاهرة من مباني وآثار ، وطرق ومنشآت مختلفة ، والتنويه بذكر من له صلة من الأعلام بذلك كله . — وقد بين المقرزي في خطبة هذا الكتاب موضوعه فقال :

« أردت أن أخلص منها — أي من الفوائد التي جمعها — أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية . وما بقي بفسطاط مصر من المعاهد ، غير ما كاد يفنيه البلى والقدم . ولم يبق إلا أن يمحور رسمها الفناء والعدم . وأذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة . وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع . وحوته من المباني البديعة الأوضاع . مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأمائل . والتنويه بذكر الذي شاهدها من سراة الأعاظم والأفاضل . وأثر خلال ذلك نسكتا لطيفة . وحكما بديعة شريفة . من غير إطالة ولا إكثار . ولا إجحاف مخل بالغرض ولا اختصار . بل وسط بين الطريقتين ، وطريق بينين ، وقد نجح المقرزي في حبك كتابه وفق الخطة التي رسمها ، نجاحا بعيد المدى . حتى أصبح كتابه هذا واسطة عقد كتب الخطط المصرية . وأغلى حياته وأنفسها .

والكتاب في نظرنا يشتمل على ثلاث نقاط ، الأولى : وصف الأماكن والآثار المصرية . الثانية : تراجم الأعلام . الثالثة : النكت اللطيفة والحكم الشريفة التي أشار إليها .

أما النقطة الأولى : فقد فصل الكلام فيها تفصيلا ، وتحدث عن النيل وخلقها وقناطره . وجبال مصر ووحداتها ومدنها . والإسكندرية وما فيها . وذكر المساجد والجوامع والخوانق والزوايا والربط والمدارس والخانات والأسواق والسجون ، ووصف القاهرة وما تحتويه من ذلك كله ، وشوارعها وطرقها وأزقتها وعمارتها وما إلى ذلك .

أما النقطة الثانية : فإنه لم يستوعب تراجم الأعلام إلا بقدر دعت إليه ضرورة ذكر ما اتصل بهم من آثار وأماكن وأبنية . فمثلا يترجم لمنجك اليوسفي عند ذكر مدرسته ، ويترجم لمحمود الاستادار عند وصف مسجده ، وهلم جرا . لذلك لا نستطيع أن نعده من كتب تراجم الأعلام إلا بمقدار . ومع ذلك فقل أن تعثر على مثل تراجمه بأخبارها في كتاب آخر . ومن أتى بعده من كتاب التراجم استمد منه واعتمد عليه بلا شك . - وما يذكر هنا أنه ذلف إلى ذكر بعض الدول المصرية وملوكها . فقد تحدث عن الفاطميين وعن ملوك بني أيوب ثم سلاطين المماليك حتى عصره ، وحوادثهم . واستطرد إلى حوادث تاريخية أخرى .

أما النقطة الثالثة : فهي من أطرف ما في الكتاب وقل أن نجد من المؤرخين من استطاع أن يسوق في مؤلف واسع كهذا ، ذلك العدد الضخم من الطرائف التاريخية ، التي تصف الأخلاق والعادات والتقاليد والمذاهب الدينية ، ونظام الإدارة والوظائف واختصاصات كل وظيفة ، وتقلب الأحوال بكل منها . ويتغلغل هذا التغلغل في وصف صميم الحياة بين الخواص والعوام ، ووصف ما يحول في نفوسهم من خواطر وأحاسيس . ويعرض ذلك في بعض الأحيان بعبارة وصاف دقيق ، أو بأسلوب لذاع لناقد جم الألم شديد الحزن ، لما طرأ على بيئة عصره من فساد . . .

وبما تكلم فيه من هذا النوع : ذكر الأذان بمصر وما كان فيه من الاختلاف ،
ج ٤ ص ٤٣ - وذكر الأحباس وما كان يعمل فيها ، ج ٤ ص ٨٣ - وذكر مذاهب
أهل مصر ونحلهم ، ج ٤ ص ١٤١ - وذكر فرق الخليفة واختلاف عقائدها وتباينها .
وفرق أهل الإسلام ، ج ٤ ص ١٦٣ - وفصل في أن الله سبحانه طلب من الخلق
معرفة ، ج ٤ ص ١٨٨ - ذكر تاريخ اليهود وأعيادهم ، ج ٤ ص ٣٦١ . ذكر الروك
الناصري ، ج ١ ص ١٤١ . وذكر الديوان وديوان العساكر والخراج . وأراضى
مصر وزراعتها ، ج ١ ص ٧ ، ١٠ . أعياد القبط ، ج ٢ ص ٢٤ تحويل السنة
الخارجية القبطية إلى السنة الهلالية العربية ، ج ٢ ص ٣٩ . أحوال الفاطميين
ودعواتهم ، ج ٢ ص ٢١٤ إلى ٢٣٣ . - الكلام على الدواوين كديوان المجلس
والنظر والتحقيق والجيش والإنشاء وغير ذلك ، ج ٢ ص ٢٣٥ وما بعدها . أعياد
الفاطميين ومواسمهم ، ج ٢ ص ٣٨٤ وما بعدها - وغير هذه الموضوعات كثير ،
ككلامه عن الوظائف الهامة في الدولة في الجزء الثالث . وخاصة كلامه عن الحجوية
ومدشئها ، وعن السياسة وأصلها . وذكر جيوش الدولة التركية وزبيها وعوائدها ،
ج ٣ ص ٣٥٠ . وما ذكره عن الممالك وطرق تعليمهم تحت عنوان : الطباق
بساحة الإيوان ، ج ٣ ص ٢٤٦ .

ومن نقده اللاذع لهم في هذا الفصل ، قوله عن الممالك وعن السلطان الناصر فرج :
« ثم تلاشت الأحوال في أيام الناصر فرج بن برقوق . وانقطعت الرواتب
من اللحوم وغيرها ، حتى عن ممالك الطباق مع قلة عددهم . ورتب لكل واحد
منهم في اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس . فصار غذاؤهم في الغالب الفول
المسلوق ، عجزاً عن شراء اللحم وغيره . هذا . وبقي الجلب من الممالك إنما هم
الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز ، وبحول ماء
في غيط أشجار . . ونحو ذلك . واستقر رأى الناصر على أن تسليم الممالك
للفقيه يتلفهم . بل يتركون وشئونهم . فبدلت الأرض غير الأرض وصارت
الممالك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشجعهم نفساً ، وأجهلهم

بأمر الدنيا وأكثرهم إغراضاً عن الدين . ما فيهم إلا من هو أذن من قرد ،
والص من فأرة ، وأفسد من ذئب . لا جرم أن خربت أرض مصر والشام من
حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات ، بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة ،
وسوء تصرف أولى الأمر ، حتى أنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك
فرطه .

والكتاب أربعة أجزاء كما ذكرنا . ولا يستقل كل جزء بموضوع أو موضوعات
معينة ذات صبغة خاصة أو فكرة مستقلة تميزها عن مثيلتها في الجزء الآخر .
بل الكتاب بأجزائه الأربعة ، ذو صبغة واحدة ، وفكرة واحدة ، تقسمتها هذه
الاجزاء . ومع هذا نذكر أن من أبواب الجزء الأول : مسائل جغرافية خاصة بالأرض
وبمصر . وأخبار النيل ومقياسه ، وخلقها . أحاديث عن أعمال الديار المصرية .
وكورها وخراجها . وذكر الأهرام وأبي الهول والجبال الأخرى . وفصول عدة عن
الإسكندرية ومنشأتها . ثم فصول عن المدن والقرى المصرية الأخرى .
ومن أبواب الجزء الثاني : تاريخ الخليفة . الأقباط وأعيادهم . كلام عن الفسطاط
والقطائع والعسكر . نسب الفاطميين . أبواب القاهرة . قصور الخلفاء الفاطميين
ووصف دعوتهم . الكلام عن الدواوين المختلفة . والخزائن . وبعض المناصب .
ومن أبواب الجزء الثالث : حارات القاهرة وأخطاطها ودورها ورجباتها
ودورها ، وحماماتها وأسواقها وفنادقها ، وأحكارها ، وقناطرها ، وبركها وجسورها ،
وذكر بعض الوظائف الكبيرة . وموجز في تاريخ ملوك الأيوبيين وسلاطين
المماليك إلى عهد برسباي عام ٨٢٥ هـ .

ومن أبواب الجزء الرابع : ذكر المساجد الجامعة والمدارس والخوانق والربط
والزوايا والجواسق .

ومن أهم ما يجب تذليله في هذا الكتاب ، حتى يسهل على المطلعين تناوله والوصول
السريع إلى المواضع التي ينشدونها فيه ، أن توضع فهرس كاملة لما فيه من الحوادث
والاستطرادات ، أو تُعنون هذه الحوادث بعناوين جديدة مناسبة ، ليسهل العثور

عليها . إذ كثيرا ما يجد المرء مسائل طريفة جدا ، وهامة ، تحت عناوين لا تولى إليها . مثال ذلك ، الكلام عن تعليم الجند والماليك ، فقد ورد تحت عنوان «الطباق بساحة الإيوان ، وعلى هذا فقس .

على أن بالكتاب مسائل وموضوعات نحتاج إلى التمهيد والتعليق عليها . وقد اعتمد المقرئ في تأليفه على كثير من تقدموه ، ونسب إليهم الكثير مما نقل . ومنهم ابن عبد الظاهر صاحب الروضة البهية ، ومنهم ابن فضل الله صاحب مسالك الأبصار .

وقبل أن نختم الحديث عن هذا السفر القيم ، نشير إلى ما نسبته السخاوى إلى المقرئ من أنه عثر على مسودات للأوحدى انتفع بها في كتابة خططه . - وقد قال جورجى زيدان بإزاء هذا ما يلي :

« ويظن السخاوى أن السبب في إحرازه هذه الفوائد الكثيرة أن صاحبه ظفر بمسودات كتاب للأوحدى (١) في هذا الموضوع فأخذها وزاد عليها . مع أن المقرئ لم يقصر في ذكر المصادر التي نقل عنها بل هو يسند كل فقرة إلى صاحبها فلو أخذ عن الأوحدى لم يهمل أن يذكره . ولكن السخاوى كان معاصرا . المقرئ ، ويندر أن يخلو المعاصرون من التحاسد . »

ونستدرك هنا فنقول إن المقرئ توفي عام ٨٤٥ هـ ، وأن السخاوى من تلاميذه وقد توفي عام ٩٠٢ هـ .

وقد اقتبسنا فيما مر بعض فقرات من الكتاب ، ومنها يتبين أسلوبه وهو سهل سائغ لا قيود فيه ، بل تندمج فيه كلمات وتعبيرات عامية ، قد يضطر إليها المؤلف اضطرارا ، انسياقا وراء عُرف قررها ، أو رسميات شاعت فيها .

(١) الأوحدى هو شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن بن طوغان بن عبد الله . ينسب جده إلى يبرس الأوحدى الذى كان نائب القلعة . وكان شهاب الدين عالما بفقته الشافعية والحديث وغيرها وكان أدبيا . توفي سنة ٨١١ هـ . ويقال إنه كتب مسودة لخطط مصر ، نقل منها المقرئ (ترجمته فى الضوء اللامع ج ١ ص ٣٥٩)

هذا وقد اعتمدنا في كتابنا هذا ، على كثير من فصول هذا الكتاب . ومن انتفع به واعترف بانتفاعه ، من مؤلفي مصر في العصر الحديث ، على مبارك باشا في خططه التوفيقية ، وجورجي زيدان في تاريخ آداب اللغة . وغيرهما من الأدباء والمؤرخين كثيرون . والكتاب بهد هذا كله ، كتاب تقويم وحديث وفقه وتشريع ونقد وأدب واجتماع ولغة . ولا يخلو من خرافات ومسائل تحتاج إلى التمهيص . — كما أشرنا .

٢ — السلوك لمعرفة دول الملوك :

من أهم كتب المقرئى . وهو أربعة مجلدات . وكان سبب تأليفه — كما قال في مقدمته — أنه وضع كتابه ، عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ، في تاريخ مصر من الفتح العربى إلى قبيل تأسيس الدولة الفاطمية . ثم وضع كتابه ، اتعاظ الخنفا بأخبار الخلفاء ، في تاريخ مصر زمن الخلفاء الفاطميين . فرأى بعد ذلك أن يكمل هذه السلسلة الفريدة بوضع كتاب في تاريخ مصر زمن الأيوبيين ، وزمن سلاطين المماليك ، الأتراك والجرأكسة ، ليتم بذلك تاريخ مصر ، من الفتح العربى إلى عهده .

وقد مهد لذلك بحملة فصول ، كتبها عن الأجناس البشرية ، وأديانها قبل بعثة النبى عليه السلام . ثم تكلم عن الحكومة والخلفاء من بعده ، فتحدث عن الخلفاء الراشدين ثم الأمويين فالعباسيين ، وعن الدول المتفرعة كالبويهية والسلاجقة ، إلى عهد صلاح الدين الأيوبنى . — وهى فصول سريعة خاطفة .

والكتاب بعد هذه الفصول ، موسوعة حافلة بتاريخ مصر وحوادثها فى العصرين الأيوبنى والمملوكى إلى عهد المؤلف أى بين سنتى ٥٧٧ هـ ، ٨٤٤ هـ . ويعتبر من أهم مراجع تاريخها فى الحقبة المذكورة . وقد سرد المؤلف هذه الحوادث وأخبارها من سياسية واجتماعية ونحوهما ، مرتبة حسب السنين ، مترجما فى السياق ، وفى أعقاب كل سنة لأعيان الوفيات .

ولعل المقرئى كان مُلهمًا بعمله العظيم ، لا بن إياس الحنفى مؤرخ مصر ،

وواضع بدائع الزهور . فإنه انتهج نفس النهج وسار عليه ، حتى استوعب حوادث العصر المملوكى وزاد عليها — كما سنشير إليه فى مكانه .

ولعله أيضا كان ملهما لتلميذه أبى المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة » ، فإنه على نسق من السلوك كذلك . هذا وقد وضع السخاوى تذييلا للسلوك سماه « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » .

ومن حسن الحظ أن عنى الأستاذ محمد مصطفى زيادة ، أستاذ التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، بنشر هذا المؤلف الثمين — السلوك — فأصدر منه حتى الآن أكثر من جزء . فى طبعة أنيقة مزودة ببحوث وتعليقات وشروح وفهارس متنوعة ، حديثة ، زادت فى قيمة الكتاب وسهلت الانتفاع به .

٣ — إغاثة الأمة بكشف الغمة :

رسالة طبعت حديثاً فى نحو ثمانين صفحة ، قام بنشرها الأستاذان الفاضلان محمد مصطفى زيادة ، وجمال الدين محمد الشيال عام ١٩٤٠ م والكتاب على ضالة حجمه ، عظيم النفع والقيمة .

وقد صدره ناشره بكلمة قيمة ، وضحا فيها قيمته العلمية ، ونحن نلخص بعضها فيما يلى :

« يمتاز الكتاب بطرافة موضوعه وتفوق مؤلفه . إذ يتناول تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨ هـ . وهى السنة التى ألف فيها . والمقرئ يرى فى هذا السكتيب — فيما نعلم — هو المؤرخ المصرى الوحيد الذى تعرض بالبحث لتلك الناحية الاقتصادية الاجتماعية من تاريخ مصر . فهو فى تدوينه ، يحاول تقصى الأسباب ويقترح العلاج . ويصف طبقات المجتمع المصرى بشئ من التفصيل . — وهو شبيه فى هذا ، بأستاذه ابن خلدون فى مقدمته — مع الفارق فى الموضوع والحجم طبعاً . وكل منهما يعرض موضوعه مع غلبة الصبغة الفلسفية عليه مستشهدا بحوادث التاريخ مختتما الفصل بآية من القرآن الكريم ، أو بيت من الشعر يناسب المقام . »

« والسكتاب » إغاثة الأمة ، وأشباهه من الرسائل الصغرى أهمية خاصة بالنسبة لمؤلفيها من كبار المؤرخين ، تقصر عنها كتبهم الكبرى التي تموج بالتراجم الكثيرة والحوادث الهمة . فهذه الكتب الصغيرة تلقى كثيراً من الضوء على شيء من هوية مؤلفيها ، وتوضح الطريق لفهم الحالة الفكرية بينهم في مختلف العصور والعهود ، ونحن نعقب على ذلك بقولنا إن من المؤرخين المصريين من تعرض لذكر هذه الحوادث وأمثالها وأرخها . ومنهم ابن إياس في تضاعيف بدائمه أخبار عدة لما وقع في مصر من زلازل وطواعين وغلاء ونحو ذلك ، مع ذكر ما صنعه أمراء مصر وأعيانهم ، إزاء هذه الحوادث ، وإن كان لم يذكر العوامل الاقتصادية ، ولا وصف الحياة الاجتماعية ، الملازمة لهذه الحوادث ذكرها مريحاً . وقد استنبطنا منه ، ذلك الفصل الذي كتبناه عن الحوادث المذكورة في الجزء الأول من هذا السكتاب . — وكذلك يوجد فصل في هذه الحوادث في حسن المحاضرة للسيوطي . ولابن حجر المسقلائي كتاب اسمه « بذل الماعون في فضل الطاعون » ، ونحن لم نطلع عليه ، ولكن ابن إياس ذكره ونقل عنه . وأبو المحاسن ابن تيمى برى قد نص في نجومه الزاهرة على هذه الحوادث كذلك .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذا السكتاب الذي وضعه المقرئ في سنة ٨٠٨ هـ . كما يفهم من حديثه في الفصل الثاني ، هو — فيما نعلم — هو الوحيد الذي جمع حوادث الغلاء في مصر ، في صعيد واحد . فيمتاز هذا عن غيره بتسلسل الحوادث واتصالها ، والمعونة على معرفة الحكم عليها وموازاتها . ومن مميزاته أنه ذكر في سياق حوادث الغلاء بمصر ، حوادث الغلاء بغيرها من الأقطار المجاورة ، كالشام وبرقة ، والحجاز ، وغيرها . وفصل الحديث ، أكثر من سواء ، في وصف حالة الناس إبان كل غلاء تقريباً . وما كان يسودهم من الذعر والاضطراب ، وما كان يعرفهم من الهم والحزن والشذوذ ، وما كان يقوم به السلاطين والأمراء والأعيان من معونة للشعب لتفريج أزمته . وتلاعب الطحانين والخبازين ، وتجار الغلال بالأشعار . — وتكلم فيما تكلم عنه ، عن أسباب هذه الأزمات ، وما اكتشفها من عوامل ، ضاعفت

أثرها. ولكنه لم يفصل الكلام عن هذه الناحية الأخيرة تفصيلا شافيا في الفصل الأول. وقصارى هذه العوامل: ضعف السلطنة، واستبداد الأمراء وتلاعب التجار في الأسواق، وخبث الطحانين والخبازين وعرفاء الأسواق، وهبوب الرياح الضارة بالقمح ونقصان ماء النيل. وهذا العامل الأخير هو أهم العوامل تقريباً. إذ كان ارتفاع النيل أو انخفاضه في إبان الوفاء وحوله، أهم مؤثر في أسعار الحاجيات بالسوق ولا سيما في تلك العصور التي كان القمح فيها هو المحصول الرئيسى للبلاد. ولهذا كانت الأسعار تتأثر غالباً، بأخبار المبشرين بارتفاع النيل في فصل الفيضان.

ولم يقصر بحثه على حوادث عصره، أو حوادث عصر الأتراك المماليك والچراكسة. بل نقل أخبار حوادث الغلاء التي وقعت منذ القدم في مصر، نقلها عن كتب تاريخية أخرى، لسكتاب ابن وصيفشاه.

ثم فصل في الفصل الثاني، الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي نجمت عنها حوادث الغلاء، تفصيلاً دقيقاً. وأرجعها إلى ثلاثة لا رابع لها وهي، أولاً: انتشار الرشوة بين طلاب الوظائف، يدفعونها لينالوا مناصبهم، فيستدينون فيظلون الناس، ولا سيما أهل القرى، فيصيب هؤلاء، العجز عن الدفع، فتضطرب زراعتهم، أو يهجرون ديارهم. — ثانياً: ارتفاع أثمان الأراضي الزراعية وإيجارها نتيجة لرغبة خدام الأمراء، في التقرب إليهم بهذا العمل الظالم، فهجرها الفلاحون وقلت المحاصيل. — ثالثاً: اضطراب العملة.

وقد كتب المقرئى مقالين في النقود، وهما أصل لكتابه «النقود القديمة والإسلامية»، وكتب فصولاً موجزة، في وصف تقلبات الأسعار، وما تنتجه من المحن، وطرق معالجة ذلك. وفي طبقات المجتمع المصرى في عهده^(١) وقد صندّر المقرئى كتابه بفصل ممتع موجز. ضمنه كثيراً من الحكم والنظريات

الاجتماعية والنفسية . بعضها مقبول مسلم ، وبعضها يحتاج إلى تمحيص .
ومن ذلك قوله : « لا تزال الحال المستقبلية تُتصور في الوهم ، خيرا من الحالة
الحاضرة ، لأن ملالة الحالة الحاضرة مُتزين في الوهم ، الحالة المستقبلية ، فلذلك ،
لا يزال الحاضر أبداً منقوصاً حقه ، بحدود قدره . لأن القليل من شره يُرى كثيراً .
إذ القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخير ، .

وقال : « مقاساة اليسير من الشدة ، أشق على النفس من تذكر الكثير مما
سلف منها . مثال ذلك : شخص أرقته البراغيث ليلة .. فتذكر بذلك ليالى ماضية
أرقته فيها حرارة الحمى . فغير ذى شك أن توهم تلك الحمى ، وتذكر تلك الأيام
الماضية أخف عليه من ديب البراغيث ، على جسمه في وقته ذلك
وعجيب أن يكون ديب البراغيث لدى المقرئ ، أشق من تذكر الحمى ...
ومهما يكن من شيء ، فحسبنا ما مر شاهداً بفضل الكتاب ومؤلفه . وقد
استعنا به في أكثر من موضع ، من هذا الكتاب .

المقرئ الكاتب :

المقرئ كاتب مؤلف ، وكاتب أديب . ويجنح في كتابته التأليفية ، إلى
القص وعدم التتميق ، أو التأنيق في اختيار اللفظ ، إلا ما دل على المعنى ، ولو أدى
ذلك إلى استعمال كلمات عامية أو دخيلة ، أو عبارات عربية مضطربة . وأكثر
ما دخل كلامه ، تلك الألفاظ التي شاعت في الرسميات ، أو جرت السنة العامة
بإطلاقها على معاني غير معانيها . ويكرر أحيانا جملة لتثبيتها والتذكير بما فيها . وقد
يختتم فصوله بآية قرآنية مناسبة ، أو بيت شعري .

أما كتابته الأدبية ، فتتضح فيما كتبه في خطب مؤلفاته ، أو في السطور الأولى
من فصوله أحيانا ، أو في تضاعيفها أحيانا أخرى . فيجنح إلى الطريقة الفاضلية ،
فيسجع أو يطابق أو يورى أو يجانس ، وهكذا .

والإليك نموذجاً لكل نوع من كتابتيه :

فن كتابته التأليفية ، ما كتبه تحت عنوان « الطبليخانة تحت القلعة » ، - ج ٣ ص ٣٤٦ ، قال :

« وهذه الطبليخانة الموجودة الآن تحت القلعة ، فيما بين باب السلسلة وباب المدرج ، كانت دار العدل القديمة ، التي عمرها الملك الظاهر بيبرس وتقدم خبرها . فلما كانت سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ، هدمها الناصر محمد بن قلاوون وبنائها . هذه الطبليخانة الموجودة الآن تحت قلعة الجبل ، فيما بين باب السلسلة وباب المدرج . وصار ينزل إلى عمارتها كل قليل . وتولى شد العماره بها ، آق سنقر شاد العماثر : ووجد في أساسها أربعة قبور كبار المقدار ، عليها قطع رخام منقوش عليها أسماء المقبورين ، وتاريخ وفاتهم ، فنبشوا ونقلوا قريباً من القلعة . فكانوا خلقاً كبيراً عظيمها في الطول والعرض على بعضهم ملأه ديبقية ملونة ، ساعة مستها الأيدي ، تمزقت وتطايرت هباء . وفيها اثنان عليها آلة الحرب وعدة الجهاد ، وبهما آثار الدماء والجراحات . وفي وجه أحدهما ضربة سيف بين عينييه . والجرح مسدودة بقطنه . فلما أمسكت القطنه ورفعت عن الجرح فوق الحاجب ، نبع من تحتها دم ، يظن أنه جرح طرى ! فكان في ذلك موعظة وذكرى . . . الخ »
والقصة كما ترى طريفة وتحتاج إلى بحث ونظر . .

ومن كتابته الأدبية ، ما كتبه في مقدمة كتابه الخطط ، يتحدث عن علم التاريخ وعن حبه لتاريخ مصر . قال :

« إن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا . وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطرا . لما يحويه من المواعظ والإنذار ، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار . والاطلاع على مكارم الأخلاق ليقتدى بها . واستعلام مذامّ الفعل ليرغب عنها أولو النهى . لاجرم أن كانت الأنفس الفاضلة به راقية . والهمم العالية إليه مائلة وله عاشقة . وقد صنف فيه الأئمة كثيراً . وضمن الأجلة كتبهم منه شيئاً كثيراً وكانت مصر هي مسقط راسي . وملعب أترابي ومجمع ناسي . ومغنى عشيرتي وحامتي .

وموطن خاصتي وعامي . وجو جوى الذى ربي جناحي في وكره . وعش مأرب
فلا تهوى الأنفـس غير ذكره . لازلت منذ شددت العلم . وآتاني ربي الفطانة والفهم .
أرغب في معرفة أخبارها . وأحب الإشراف على الاعتراف من آبارها . وأهوى
مسألة الركبان عن سكان ديارها . الخ .

وبعد فقد قال السخاوى عنه ، ما يفهم منه أنه كان ينظم الشعر . قال : ومن
شعره في دميـاط :

سقى عهد دميـاط وحيـاه من عهد فقد زادنى ذكراه وجدا على وجدى
ولا زالت الأنواء تسقى سحابها ديارا حكمت من حسنـها جنة الخلد
قال : وهى أكثر من عشرين بيتا .

وقال عنه ابن حجر : وله النظم الفائق والنثر الرائق .
وبعد فقد مضى المقرئى ، وخلد اسمه بترائه العلمى النضر ، الباقي بقاء الدهر .

« ترجمته فى : (١) الضوء اللامع ج ٢ رقم ٦٦ . (٢) المنهل الصافى لإبي المحاسن ،
نقلها على مبارك باشا فى الخطوط التوفيقية ج ٩ - (٣) فى مقدمة كتبه : السلوك وإغاثة الأئمة ،
والبيان والاعزاب ومختصر قيام الليل (٤) التبر المسبوك للسخاوى . (٥) حسن المحاضرة ج ١
من ٢٦٦ (٦) عقد الجواهر (٧) جورجى زيدان ج ٣ (٨) مصر الإسلامية للاستاذ محمد
عبد الله عنان . »

١٠ - شهاب الدين بن حجر العسقلاني ٥٧٧٣ - ٥٨٥٢ هـ

هو قاضى القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد ، المعروف بابن حجر العسقلاني الكنتاني المصري . أصل أسرته من عسقلان ببلاد الشام ، وإليه ينتسب . وابن حجر لقب لبعض آبائه . وقد ولد بمصر الفسطاط ، وأقام بها زمنا طويلا . واشتغل في بادى أمره بطلب الأدب . ومال إلى نظم الشعر ، حتى بلغ في ذلك مبلغا حسنا . ثم أغرم بالحديث ، فطلبه وسمعه من كثيرين من حفاظه ، حتى جاء زمن ، وليس فيه أحفظ منه للحديث ، حتى سُمي حافظ عصره . واشتغل بطلب الفقه ، على مذهب الشافعى ، فدرسه على كبار رجاله في ذلك الحين . ونبغ فيه ، وجنح إلى علم التاريخ ، فقرأ فيه مؤلفات كثيرة العدد ، حتى أغراه حبه للتاريخ بالتأليف فيه ، فألف وأصبح من رجاله المعدودين .

طرف من حياته :

وقد ولد ابن حجر في شعبان عام ٧٧٣ هـ بمصر - كما أشرنا - وتوفي والداه وهو صغير ، فكفله بعض أقاربه وهو الزكى الخروبى ، وكان أحد أوصيائه . وشب وتعلم على جهاذة العصر ، حتى نبغ وأصبح من أعلام مصر المشهورين ، ثم تصدر للإفتاء والتدريس ، والتأليف والخطابة سنين طويلة ، حتى عده بعضهم إمام عصره ووحيد دهره . وحج وهو صغير ، وعاد إلى مصر ، واشتغل بالتجارة ، وتجول في ربوع البلاد المصرية والشامية والحلبية ، والحجازية واليمنية ، فأفاده التجوال علما غزيرا وأدبا جما ، وحنكة نافعة . ولقى عددا من العلماء الآخرين منهم الفير وزابادى . لقيه في زيد . وما زال دائبا في عمله ، حتى وُكل إليه منصب قاضى قضاة الشافعية بمصر ، وهو من أرفع مناصبها . وكان يتابى عليه ، ويقال إنه ندم بعد ذلك على قبوله ندما شديدا . قيل أول ما أسند إليه هذا المنصب في ٢ المحرم عام ٨٢٧ هـ في زمن الأشرف برسباى . . وقيل عام ٨٣٠ هـ ^(١) . ومهما يكن من شيء فقد ملا منصبه

(١) روى السيوطى والسخاوى أن أول ولاية ابن حجر للقضاء ، في سنة ٨٢٧ هـ - ورواها ابن إياس في حوادث عام ٨٣٠ هـ

بقدره وكفامة ومهابة ، حتى عظمه أهل عصره جميعا وعلى رأسهم سلطان مصر حينئذ المؤيد شيخ الحمودى .

ولما أنشأ السلطان المؤيد شيخ ، جامعه الشهير عام ٨١٩ هـ ، جعل ابن حجر العسقلانى فى عداد مدرسيه ، وفى حفلات افتتاح هذا المسجد ، جاس ابن حجر يقرر درسا فى فقه الشافعية ، وأقبل عليه المؤيد ليستمع إليه ، فهم ابن حجر بالقيام تحية له ، فنعى السلطان من القيام . فلم يقم .

ولما ولى القضاء فى المحرم عام ٨٢٧ هـ كما ذكرنا ، كتب له تقي الدين بن حجة الحموى تقليدا عن السلطان بهذا المنصب . ولبث فيه حتى ذى القعدة ثم عزل . وأعيد ثانياً فى رجب عام ٨٢٨ هـ ثم عزل ، وتكرر هذا عدة مرات حتى كان عزله فى آخر جمادى الآخرة عام ٨٥٢ هـ . وهى السنة التى توفى فيها . وهنا صمم على عدم العودة إليه مطلقا ، وصرح بأنه لم تبق فى بدنه شعرة تقبل اسم هذا المنصب . - وهكذا ظل أمره فى هذا المنصب بين عزل وتولية ، قرابة إحدى وعشرين سنة . حتى توفى فى ليلة السبت ٢٨ من ذى الحجة عام ٨٥٢ هـ ، بمنزله بجوار المدرسة المنكوتمرية بجمة حارة بهاء الدين بالقاهرة . ودفن فى احتفال مهيب ، بالقرافة الصغرى ، شهدته الخليفة والسلطان ومن دونهما .

وفى حارة بهاء الدين — كان — مدرسة تعرف بمدرسة ابن حجر العسقلانى بشارع بين السيارج ، ذكرها على مبارك فى خططه وقال أنشئت فى القرن التاسع . تحدث السيوطى عنه فقال : « وختم به الفن — أى فن الحديث — وحدثنى الشهاب المنصورى شاعر العصر ، أنه حضر جنازته ، فأمرت السماء على نعشه ، وقد قرب إلى المصلى ، ولم يكن زمان مطر ، قال فأنشدت فى ذلك الوقت :

قد بكى السحب على قاضى القضاء بالمطر

وانهدم الركن الذى كان مشيدا من حجر

ثم أورد السيوطى قصيدة رثاء فيه طويلة ، من نظم أديب عصره شهاب الدين الحجازى المتوفى فى سنة ٨٧٥ هـ قال فى أولها :

كل البرية المنية سائره وقفولها شيئاً فشيئاً سائره
والنفس إن رضيت بذات ربحت وإن لم ترض كانت عند ذلك خاسره
وأنا الذي راض بأحكام مضت عن ربنا البر المهيم من صادره
لكن سئمت العيش من بعد الذي قد خلف الأفكار منا حائره
هو شيخ الإسلام المعظم قدره من كان أوجد عصره والنادره
قاضي القضاة العسقلاني الذي لم ترفع الدنيا خصيماً ناظره
صفاته وعلبه :

كان ابن حجر ذكي الفؤاد كثير الحفظ ، مكباً على طلب العلم ، محباً للحديث
النبوي ، كثير القراءة في كتبه ، والسمع للمحدثين به ، حافظاً راوياً ، يميز الأهل
الحديث والمشتغلين به . راغباً في الأدب وفنونه ، والعربية وعلومها ، جماعاً لحوادث
التاريخ وأبطاله . — كما كان عادلاً مهيباً متواضعاً حليماً جميل العشرة متخرجاً في
أعماله وأقواله .

حفظ القرآن الكريم وهو ابن تسع ، ثم حفظ مختصر ابن الحاجب والعمدة
والخاوي الصغير والملحة واللفية ابن العراقي . ودرس علومها جمة على كبار مشايخ
عصره . ومنهم زين الدين أبو الفضل الحافظ العراقي في الحديث . والباقي في وابن
الملقن والإبناسي في الفقه وغيره . وعز الدين بن جماعة في الأصول . ومجد الدين
القيروزي أبادي في اللغة . والعماري في فنون العربية . والبدر البشتكي في الأدب
والعروض . وغير هؤلاء كثير .

ثم أذن له في التدريس والإفتاء فزاول التدريس بكثير من مدارس القاهرة ،
كالخسينية والمنصورية ، والبيهرسية والجمالية المستجدة ، والزينية والشيخونية ،
وجامع ابن طولون وغيرها . وكان أهم دروسه بها درس الحديث .

وقد زاول الإفتاء كذلك . وجلس للفتيا بدار العدل . وهدى إليه بالخطابة
في الأزهر مرة وجامع عمرو ، مرة أخرى .

وكانت مجالسه العلمية حافلة ، يفد إليها الأعيان والأئمة والطلاب من كل فج ، يتعاطون عنه حديث الرسول عليه السلام . وأملى على طلابه أكثر من ألف مجلس — كما رواه السيوطي — وقد قال عنه السيوطي أيضاً : « انتهت إليه الرحلة والرياسة في الحديث في الدنيا بأسرها . فلم يكن في عصره حافظ سواه » .

وألقي الدروس في التفسير والفقه ، والخطب في الوعظ والإرشاد ، وانتفع كثيرون بديوان خطبه ، وألقيت منه العظات على الناس — وولى القضاء مزارا كما ذكرنا . وتخرج على يديه كثير من تلاميذه ، فكانوا من بعده أئمة وشيوخا . منهم ذكرنا الأنصاري والشمس السخاوي ، والشهاب الحجازي ، والشهاب المنصوري والكمال السيوطي والد جلال الدين السيوطي .

واشتغل بالتأليف ، فصنف نحواً من مائة وخمسين كتاباً في فنون مختلفة ، منها : الحديث والفقه والتاريخ . ومؤلفاته قيمة انتشرت في حياته وعنى بدراستها وتحصيلها كثير من شيوخه وأقرانه وغيرهم .

وكان على ورعه وتقواه وعلمه وفقهه ، ميالاً إلى الدعابة والفكاهة والنادرة والطفرة . شأن كل أديب طروب . . ولهذا كان محبوباً في كل مجلس ، فتهوى إليه الأفتدة المختلفة ، وتهفو نحوه القلوب المتباعدة . فيجد كل نديه ما يرغب فيه من علم وأدب وفقه ، وفكاهة وملحة ، وتاريخ وشعر ونثر ، وحكمة وعظة .

وكان وفياً لخلصانه ، بداعب الأحياء منهم ، ويرثى من يموت بشعره الرائع . مع وداعة وطيب قلب وتواضع جم .

ويعتبر ابن حجر ، فوق شهرته في عالم التأليف ، أحد كتاب عصر المماليك ، وأحد شعرائه . وهو بذلك كله ، قد جمع فأوعى ضروباً عدة من ضروب الشهرة والأوان الصديت . — قيل إن الأمير تغرى برمش الفقيه ، قال له : أرايت مثل نفسك ؟ فقال : قال الله سبحانه وتعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

مؤلفاته :

لابن حجر مؤلفات عدة في فنون مختلفة أربت على المائة والخمسين . وكثير منها مطبوع متداول واهتمت الهند بطبع عدد منها . وذكر جورجى زيدان بعضا منها . وذكر جميل العظم نحو مائة منها ، وذكر منها ما يلي :

- ١- فتح البارى فى شرح البخارى : وهو فى عشرة أجزاء فى الحديث وشرحه ، وله مقدمة جليلة اسمها هدى السارى ، ٢- نخبة الفسرك : طبع فى الهند ، وهو كتيب فى مصطلح الحديث . وقد شرحه المؤلف بكتاب آخر سماه شرح نخبة الفسرك ، ٣- بلوغ المرام من أدلة الأحكام : وهو فى الحديث أيضا ومقسم إلى جملة أبواب . ٤- الإصابة فى تمييز الصحابة : وهو كتاب فى تراجم صحابة الرسول عليه السلام ، مرتب على حروف الهجاء . ٥- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة : وهو كتاب جليل فى تراجم من عاش فى حدود العام الثامن الهجرى فى أربعة أجزاء . ٦- رفع الإصر عن قضاة مصر : تكلم فيه عن قضاة مصر من فتح العرب إلى نهاية القرن الثامن . ومنه مخطوط بدار الكتب المصرية ٧- المعجم المفهرس : وهو فى الحديث ، رتب فيه الأحاديث على حروف المعجم بعد تجريدتها من الأسانيد . ٨- المجموع المؤسس للمعجم المفهرس : ذكر فيه أسماء شيوخه فى الحديث مرتبة على حروف الهجاء . ٩- أنباء الغمر بأبناء العمر : وهو تاريخ مصر والشام سياسيا وأديبا منذ ولادة المؤلف حتى عام ٨٥٠ هـ مما أدركه أو سمعه ومنه مخطوط بدار الكتب المصرية ١٠- الإعلام فىمن ولى مصر فى الإسلام . ويسمى تاريخ مصر فى ثلاثة مجلدات . ١١- زهرة الألباب فى الألقاب : وهو فى بيان ألقاب المحدثين مرتبة ترتيبا أبجديا . ومنه نسخة مصورة بالتصوير الشمسى ، بدار الكتب المصرية . ١٢- تهذيب الكمال : وهو مختصر فى معرفة رجال الحديث ، والكتاب الاصلى لابن النجار . ١٣- الديباجة : وهو فى الحديث أيضا فى اثني عشر مجلدا . ١٤- ترجمة السيد أحمد البدوى . ١٥- مختصر أساس البلاغة للزمخشري . ١٦- محاسن المساعي فى مناقب الأوزاعى : وفيه ترجمة الأوزاعى

- المحدث ١٧٠ — تقريب التهذيب : وهو في الحديث أيضا . ١٨ — تعجيل المنفعة
برواية رجال الأئمة الأربعة ومنه مخطوط بدار الكتب . ١٩ — الرحمة الغيثية
في الرحمة الليثية : في مناقب الإمام الليثي . ٢٠ — توالي التأسيس بمثنى ابن إدريس :
وهو حديث عن الشافعي الإمام ، ومنه مخطوط بدار الكتب . ٢١ — غبطة الناظر
في ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني . ٢٢ — لسان الميزان : وهو في أسماء
رجال الحديث . ٢٣ — مشتببه النسبة . ٢٤ — تخريج الرافعي : أى تخريج أحاديث
كتاب الرافعي المشهور في فقه الشافعية . ٢٥ — تلخيص مسند الفردوس .
٢٦ — طبقات الحفاظ : في تراجم رجال الحديث . ٢٧ — اللباب في شرح قول
الترمذي ، وفي الباب . ٢٨ — إتحاف المهرة بأطراف العشرة . ٢٩ — أطراف
المسند المعتلى بأطراف المسند الحنبلي . ٣٠ — الاحتفال ببيان أحوال الرجال .
٣١ — الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف . ٣٢ — نصب الراية في
تخريج أحاديث الهداية . ٣٣ — هداية الرواة في تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة .
٣٤ — تخريج أحاديث الإنكار . ٣٥ — الإحكام لبيان ما في القرآن من الإبهام .
٣٦ — نزهة السامعين في رواية الصحابة عن التابعين . ٣٧ — المجموع العام في
آداب الشرب والطعام . ٣٨ — دخول الحمام . ٣٩ — الخصال المكفرة
للذنوب المتقدمة والمتأخرة . ٤٠ — فهرست المرويات . ٤١ — كتاب الأنوار
بخصائص المختار . ٤٢ — قوة الحجاج في عموم المغفرة للحجاج . ٤٣ — الخصال
الموصلة للظلال . ٤٤ — الإمتاع بالأربعين المتباينة بشرط السماع .
٤٥ — مناسك الحج . ٤٦ — الأحاديث العشارية والأربعون العالية لمسلم على
البخارى . ٤٧ — عجب الدهر من فتاوى شهر . ٤٨ — تفحيص الخبير في
تخريج أحاديث الوجيز الكبير . ٤٩ — بذل الماعون في فضل الطاعون (١) .

١ سماه ابن أبياس : بذل الماعون في أخبار الطاعون . ونسبه الكندي في طبقات الحنفية
لأن حجر الميمني الفقيه . وهذا وهم ، فقد ذكره ابن أبياس في بدائمه منسوباً إلى ابن حجر
القسطلاني . راجع الهدايع ١ حوادث ٧٤٩ هـ . ونقل عنه ابن أبياس بعض أخباره .

٥٠ — القول المسدد في الذب عن مسند أحمد . ٥١ — رسالة في تعدد الجمعة ببلد واحد . ٥٢ — نسكت على مقدمة ابن الصلاح .
ومن مؤلفاته المخطوطة بدار الكتب المصرية كذلك — وبعضها بخطه ، مايلي :
٥٣ — الإيثار بمعرفة رواة الآثار : في المصطلح . ٥٤ — تبصير المنتبه وتحرير المشتبه : في المصطلح . ٥٥ — تعريف أهل التمديس بمراتب الموصوفين بالتدليس : في المصطلح . ٥٦ — تعليق من تاريخ ابن عساكر عن دمشق . ٥٧ — تعليق من مغازي الواقدي . ٥٨ — الزهر النضر في نبأ الخضر . ٥٩ — ما ورد من الرواية ، وهو اختصار ، البداية والنهاية ، لابن الأثير . ٦٠ — محاسن المساعي في ترجمة الأوزاعي . ٦١ — تعجيل المنفعة : في الحديث ورجاله . طبع في الهند هذه بعض مؤلفاته الكثيرة . يضاف إليها كثير من خطبه وأماليه ورسائله ، وديوان شعره .

ولنتكلم الآن عن بعض هذه المؤلفات فنقول :

١ — فتح الباري بشرح البخاري :

كتاب مشهور في شرح الحديث ، وهو من أجل كتب ابن حجر . يقع في عشرة أجزاء ضخام ، يبلغ كل منها نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير . وقد قال فيه بعض المؤرخين : « لو وقف عليه ابن خلدون القائل بأن شرح البخاري إلى الآن دين على هذه الأمة ، لقرت عينه بالوفاء والاستيفاء » ، وقال السخاوي في الضوء ، إن هذا الكتاب لم يسبق نظيره ، وكان أمراً عجيباً ، بحيث طلبه ملوك الأطراف بسؤال علماءهم له في طلبه ، ويبيع بنحو ثلثمائة دينار وانتشر في الآفاق .
وموضوعه شرح أحاديث صحيح البخاري . ولكنه شرح مستفيض ، به كثير من المسائل الفقهية ، وذكر الروايات المختلفة ، التي روى بها الحديث . مع استطرادات نافعة في مسائل دينية عدة . وعنى الشارح عناية كبرى بالشرح اللغوي للألفاظ وإعراب الجمل مع بيان وجوه هذا الإعراب بما يعين على استنباط المعاني

قليل في مقدمة طبعه ، نقلا عن كشف الظنون ما ملخصه : « إن هذا الكتاب
امتاز بجمع طرق الحديث التي ربما يتبين من بعضها تراجيح أحد الاحتمالات شرحا
وإعرابا . وطريقته في الأحاديث المكررة أنه يشرح في كل موضع ما يتعلق
بمقصد البخاري بذكره فيه . ويحيل يباقي شرحه على المكان المشروح فيه . وكذا
ربما يقع له ترجيح أحد الأوجه في الإعراب أو غيره من الاحتمالات أو الأقوال
في موضع ، ثم يرجع في موضع آخر غيره ، إلى غير ذلك ، مما لا طعن عليه بسببه ،
وقد بدأ المؤلف تأليف كتابه هذا في أوائل سنة ٨١٧ هـ إملأه ثم كتابة وتحريره
ومراجعة ومقابلة ، وما زال حتى انتهى منه في أول رجب عام ٨٤٢ هـ . وظل
يُلحِق به أمورا حتى قبيل وفاته . فكانه ظل يتعهد تأليفه نحو ربع قرن . ولما تم
تصنيفه أقام وليمة ، حضرها كبار علماء زمانه وأعيان رجاله في يوم السبت ٢ شعبان
سنة ٨٤٢ هـ .

مقدمة هذا الكتاب .

له مقدمة جليلة الشأن عظيمة الأثر سماها « هدى السارى » . وهي عبارة عن
كتاب ضخيم مستقل في جزئين مطبوع على حدة . يقع في نحو أربعمائة صفحة من
القطع الكبير . وهذه المقدمة بالنسبة للكتاب ، تشبه مقدمة ابن خلدون بالنسبة
لكتاب « العبر » من ناحيته الأدبية وتوضيح طريقة الانتفاع بالكتاب . وقد
كتبت في عشرة فصول تمة لكتاب شرح الكبير . وقد قال ابن حجر عنها في
خطبها مبينا غرضه من وضعها : .

« وأقدم بين يدي ذلك كله مقدمة في تبين قواعده وتزيين فرائده ، جامعة
وجيزة ، دون الإسهاب وفوق القصور . سهلة المأخذ ، تفتح المستغلق وتذلل
الصعاب وتشرح الصدور ، .

وهي في الواقع بيان لمميزات الجامع الصحيح للبخاري ، وتوضيح أفضليته على
كتب الحديث الأخرى ، السابقة عليه والإحقة له ، وأنه أصحها جميعا .

وَمِنْ فصول هذه المقدمة : فصل في بيان السبب الباعث للبخارى على تصنيف كتابه . وبه ملخص طريف وجيز عن تاريخ رواية الحديث . ومنها فصل في بيان موضوع كتاب البخارى والكشف عن مغزاه . وهكذا .
فالمقدمة تنظم وتسهل وتزيد الانتفاع بكتاب البخارى وشرحه معا . وتمد الباحث بمسائل تاريخية جلية في موضوع الحديث وروايته وطرق تنظيمها . وهى دليل على رسوخ قدم ابن حجر فى التاريخ واللغة وحفظ الحديث وروايته وفى علوم الدين .

٣- الإصابة فى تمييز الصحابة :

كتاب مطبوع متداول مشهور . يقع فى ثمانية أجزاء من الحجم الكبير . به تراجم صحابة النبى عليه السلام ، وسير حياتهم بين موجزة مقتضبة ، وبين مطولة بعض التطويل . مع الإشارة إلى الأماكن التى ذكروا فيها . ومن مزاياه أنه مرتب على الحروف الأبجدية فهو بنفسه فهرس مائل .

وهو كتاب من كتب التراجم النافعة . ويعين على فهم الحديث ومعرفة رجاله ، ولا سيما رجاله على عهد النبى عليه السلام . وبه آلاف مؤلفة من التراجم . وقد اعتمد المؤلف على مؤلفات عدة لا يستخلص مصنفه النفيس مثل كتاب «أسد الغابة» .

وفى خطبة الكتاب تاريخ طريف للسكتب التى من نوعه والتى ذكرت طبقات الحفاظ ورجال الحديث من أصحاب النبى خاصة .
وقد قسم الكتاب إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : فىمن وردت صحبته للنبى عليه السلام بطريق الرواية عنه . أو عن غيره .

القسم الثانى : فىمن ذكر فى الصحابة من الأطفال الذين ولدوا فى عهد النبى عليه السلام ، لبعض الصحابة من النسياء والرجال ممن مات صلى الله عليه وسلم وهم دون سن التمييز .

القسم الثالث : فيمن ذكر في بعض الكتب من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبي عليه السلام . ولا رأوه ، سواء أسلبوا في حياته أولا . وهم باتفاق ليسوا من أهل العلم والحديث .
القسم الرابع : فيمن ذكر في الكتب المشار إليها على سبيل الوهم والغلط ، وبيان ذلك البيان الظاهر الذي يعول عليه ، على طرائق أهل الحديث .
وفي الكتاب بحوث عن الصحابة المعروفين بالسكنى ، وعن النساء أيضا .
هذا وقد قدم المؤلف بحثه بثلاثة فصول نافعة : الأول : في تعريف الصحابي .
الثاني : في الطريق إلى معرفة كون الشخص صحابيا . الثالث : في بيان حال الصحابة من العدالة .

ومعظم التراجم الواردة في هذا الكتاب سريعة مختصرة . وقليل منها مطول بعض التطويل . كما أشرنا . على أن الكثير منها غير مستوفاة كما تشاء طريقة التراجم الحديثة من البحث والتحليل والمقارنة . ولكن بها استطرادات أدبية ، وتاريخية نافعة ، توضح جوانب كثيرة من الحياة في صدر الإسلام .

٣ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١) .

من أشهر كتب التراجم . تصفحت نسخة منه ، مطبوعة في الهند . وهذا الكتاب أربعة أجزاء ضخام ، بكل جزء مئات التراجم . وقد حصر المؤلف بحثه في أعيان القرن الثامن الهجري ، ولم يقتصر على من عاش منهم في مصر ، بل تناول أيضا من عاش في غيرها . ولم يقتصر على ذكر طبقة خاصة من الرجال بل تناول جميع الطبقات ، ففيه تراجم الأمراء والعلماء والفقهاء والشعراء والوزراء والرجال والنساء على السواء . فهو كتاب حافل ، وقد اعتمد فيه على كتب الصفدي والذهبي والمقريزي وغيرهم ممن تقدمه .

واعتمد الأدباء والمؤرخون على هذا الكتاب ، وخاصة في عصرنا الحديث ،

(١) بدار الكتب المصرية كتاب لا يعلم مؤلفه يسمى (المنتخب من الدرر الكامنة) بالتصوير الشبسي ، ضمن مجموعة .

فهو أحد مراجعهم الهامة في التاريخ والأدب . وقد نسجنا أيضا على هذا المنوال في كتابنا هذا .

ومن ميزاته : أنه مرتب ترتيبا أبجديا ، وبذلك سهل فيه الكشف وتيسر البحث والاطلاع . ولو عني المؤلف بتقسيم تراجمه إلى طوائف حسب التبريز في العلم أو السياسة أو الأدب ، أو حسب الأقطار واختلاف الرجال فيها ، لازداد يسرا وسهولة وإمتاعا . وقد أضاف به حلقة هامة من حلقات سلسلة الكتب التي وضعت في تراجم الأعلام . هذا وقد اقتدى به تلميذه شمس الدين السخاوي ، فألفه كتابه « الضوء » على نسقه ، في تراجم أعيان المائة التاسعة . فكان كتابا هاما حلقتين في سلسلة التراجم .

شعره :

إذا تصفح المرء شعرا ابن حجر ، يحس منه روح الشاعر ، ويلمس نفس الأديب ، ولو كان في هذا العصر ، نصفه للشعر وتقدير للشعراء ، لأنفسه ابن حجر أفق خياله الشعري ، وجرى وراء ما ينمى فيه هذه الموهبة الثمينة ، ولغذاها بوسائل تغذيتها التي تنميتها وتنشطها وتقويها . ولكنه - على ما نرجح - شعر بما يحيق بالشعراء من السكساد والبوار ، ورأى أن حرفة الأدب قد أدركت من سبقه من الشعراء . فقال بمواهبه عن طلب الأدب إلى طلب غيره من العلوم الأخرى . فطلب الحديث والفقه والتاريخ . نقول ذلك ، لأنه كان منذ نشأته ميالا إلى الأدب نظاما للشعر ، فلما اكتمل تفكيره ، واعتدل حسن نظره فيما حوله من الدنيا ، عدل إلى شيء آخر غير الأدب ، ييسر له عيشا رغدا وحياة عالية ومع ذلك ظل يتردد بين الفينة والفينة على موائد الشعر ، فيتفكه بمقطوعة ، أو يتندر ببيتين ، يحلو له فيهما جناس أو تورية أو لغز ، أو يطارح بعض شعراء عصره مثل مجد الدين بن مكناس . أو يمدح بعض من يسدى إليه جميلا ، أو يتغزل تقليدا لغيره ، أو يتشوق إلى وطنه . إذا كان عنه نائبا ، وهكذا لم يقطع ابن حجر صلته بالأدب الخالص ولا بالشعر الرقيق .

وتدور أغراضه حول الإخوانيات والمدح ومدح النبي عليه السلام ، والألغاز والأحاجي والفكاهة ، والوصف والغزل . أما أسلوبه فإنه متوسط الجودة رقيق اللفظ سهل المؤونة خفيف الحمل ، لم تثقله مصطلحات علمية ، ولم تشبه كلمات فقهية ، كما شابت شعر غيره من العلماء . ، نقول ذلك لأن ابن حجر فقيه ، محدث مفسر ، مؤلف في مصطلح الحديث . - وترى له القصائد الطويلة والمقطوعات القصيرة . وتسرى الروح البديعية في شعره ، كما سرت في شعر غيره من أهل عصره . فهو من أهل البديع الذين يهتزون للتورية ويظربون للتضمين ، وينتشون للجناس وهكذا . ويشوب أسلوبه أخطاء لغوية واستعمالات عامية ، كما شابت شعر غيره أيضاً . وسنضرب الأمثلة لذلك كله بعد .

وهو في مدائحه النبوية لم يأت بمعنى جديد ولا بفكرة مبتكرة ، بل يدور حول المعاني الكثيرة الشائعة في السيرة النبوية . وتكلم فيها عن المولد والمعجزات والإسراء والمعراج ، وما شابه مما يتصل بسيرة النبي عليه الصلاة والسلام ، على نسق ما جاء في بركة البوصيري ، التي أصبحت إماماً لشعراء المدائح النبوية في هذا العصر .

ومن مدحهم ابن حجر : الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل العباس بن المجاهد علي صاحب اليمن ، وله فيه قصيدة دالية لا بأس بها ، بدأها بالغزل على سنة القدامى قالها عام ٨٠٠ هـ . وله فيه أمداح أخرى . وفي إحداها وصف رحلته من اليمن إلى مكة ، ووصف ما يقوم به الحجاج عادة من الإحرام والتلبية وشعائر الحج . وهي قصيدة لامية .

ومن مدحهم أيضاً صاحب تونس عبد العزيز . والخليفة المستعين العباس بن محمد العباسي لما ولي السلطنة في عام ٨١٥ هـ . وهي قصيدة سينية مشهورة خصوصاً بمطلعها .

أين نجد شعره :

لابن حجر ديوان شعر صغير فيه بعض شعره وسنكلم عنه قتيلاً بعد . وله

شعر كثير متفرق في كتب عدة، فمنها حسن المحاضرة للسيوطي، وتأهيل الغريب،
وثمار الأوراق، وخزانة الأدب، لتقي الدين بن حجة الحموي.

ديوان شعره^(١):

له ديوان مخطوط، أغلب الظن أنه لم يُطبع حتى اليوم. وهو بدار الكتب
المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٢١ آداب عربية فهرس ج ٣. تصفحته جميعه. ويفهم
منه أنه كُتب في حياة ناظمه. ولكن كاتبه رجل آخر، إذ يقول عن الناظم مثلاً
«قال عمر الله الوجود بوجوده». وقال أبقاه الله. وهكذا. وليس في
الكتاب ما يدل على النسخ صاحب الخط. ويغلب على الظن أن هذه النسخة هي
أولى نسخ هذا الديوان.

وقد ذكر في مقدمته أنه ساق فيه أولاً النبويات ثم الملوكيات ثم الإخوانيات
ثم الغزليات ثم الأغراض المختلفة ثم الموشحات ثم المقاطيع.

وقد كتب ابن حجر - أو أملي - مقدمة هذا الديوان وهي مختصرة.
وفيها يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين. أما بعد حمد الله على إحسانه. والصلاة
والسلام على سيدنا محمد الذي اجتمعت أنواع المحاسن في ديوانه. وعلى آله وصحبه
الذين كان كل منهم نسيج وحده وفريد زمانه. وبعد فقد سئلت غير مرة أن أجرد
من منظومي طرفاً مذهباً. وأن أفرد من مقاطيعي التي تلهي عن المواصيل ما يكون
منها مرقصاً ومطرباً. فكتبت في هذه الأوراق سبعة أنواع، من كل نوع، سبعة
أشياء إلا الأخير، فافتتحت بالنبويات ثم الملوكيات ثم الإخوانيات ثم الغزليات
ثم الأغراض المختلفة ثم الموشحات ثم المقاطيع. وقالت مخاطباً من نظره مضمناً:

١ - قال عنه جميل العظيم إن اسمه (الدرر) وقال فهرس دار الكتب نقلاً عن كشف الظنون أن
لابن حجر ديوان شعر كبيراً انتخب منه جملة ورثها على سبعة أبواب وسماه (الصبعة السبابة) وهي
ديوانه الصغير. فليله هو الذي يتحدث عنه.

الأشرف بن المليك الأفضل بن عيسى بن المؤيد حامى الملك داوود

المانح الفضل صنفوا فيض راحته والغيث إن جاد تعبنا ومكدود

٣ - ومن مطالعه البديعة قوله من قصيدة ، في مدح النبي عليه السلام :

إن كنت تنسکر حبا زادنى كلفا حسبي الذي قد جرى من مدمعى وكفى

وإن شككت فسائل عاذلى شجنى هل بت أشكو الهوى والبين والأسفا

أحبابنا ويد الأسقام قد عبثت بالجسم هل لى منكم بالوصال شفا

كدرت عيشا تقضى فى بعادكم وراق منى نسيب فيكم وصفا

ومنها :

وكنتم أكنتم حبي فى الهوى زمنا حتى تكلم دمع العين فأنكشفا

سألت قلبى عن صبرى فأخبرنى بأنه حين سرتى عنى أنصرفا

وقلت للطرف أن النوم بعدهم فقال : نوى وبحر الدمع قد نزفا

٤ - ومن قصيدة هنا بها الخليفة المستعين العباسى لما تولى السلطنة عام ٨١٥ هـ :

الملك أصبح ثابت الأساس بالمستعين العادل العباسى

رجعت مكانة آل عم المصطفى محلها من بعد طول تناسى

٥ - ومن قصيدة قال يتشوق ويتغزل وهو زقيق :

طيف لمن أهوى ألما يطوى ذيول الليل لما

أهلا به لو أن طر فى المنام يذوق طعما

ونعم لقد أعيت فى طلب الخيال خيال نعى

فأعجب لصب يدعى علما يحاول فيه خصما

ومنها :

قسما بسقم الطرف قد أهدي لجسمى منك قسما

بسلامة الأخط من سحر دعاه الصب سقما

حتم ياريق الحبيب أراك مورودا وأظما

وإلام يا قلب الكئيب بأسهم الأخط ترمى

هلا صحت من الغرا م فلم أراجع فيه عزما
وصبرت عن لا يطا وع ما تشانها وغرما
ومنها يمدح سلطان مصر - ولعله المؤيد شيخ - ويذكر مدرسته التي بناها فيقول :
لله مدرسة سميت ورقمت فيها الحسن رقما
يستوقف الإبصار رؤيتها فتشكر منك عزما

ومنها .

شهد الأنام بأنه ما مثلها عربا وعجما
ويصدق الخبر العيا ندعو واحد يث الظن رجما
فهي الفريدة في الجوا هر لا تذوق الدهر يتما
جمعت فنون العلم والة تحقيق والتوفيق فهما
فيها الشريعة والحقية فمة قد جرت عملا وعلمها
ذات الجمال اليوسفي م حوت جمالا منه حتما
لعله يشير في البيت الأخير، إلى الأمير الجمالي يوسف ناظر الخاص، الذي هيمن
على بناء هذه المدرسة . والقصيدة طويلة .

٦ - وله قصيدة في العتاب والشوق يخاطب بها صاحب اليمن ويعاتبه ويتشوق
إلى أهله . وهي عينية طويلة في نحو ٤٥ بيتا . فليرجع إليها .
٧ - ومن غزله .

أظهر جمالك للعيون وأبدته وصل الوداد لمن رضاك بودة
فسام هذا الجفن من جردته في الناس زاد بضربه عن حده
٨ - وقد رثى شيخه سراج الدين عمر البلقيني المتوفى عام ٨٠٥ هـ بقصيدة طويلة
في نحو ٩٦ بيتا . وقد ضمنها رثاء الخافظ أبي الفضل العراقي لسراج الدين البلقيني .
وهي في ديوانه . وكذلك في حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥١ .
ومنها .

يا عين جودي لفقد البحر بالمطر واجر الدموع ولا تبق ولا تذي

لورد تردد دمع ذاهبا سبقت شهب الدموع بعيني جرية النهر
تسقى الورى فتى لام العذول أقل دعها سماوية تجرى على قدر
ومنها :

من للفضائل أو من للفواضل أو من للقواعد يبنها بلا ضجر
من للفتاوى وحل المشكلات إذا جل الخطاب وظل القوم في فسكر
٩ - وقد رثى شيخه الحافظ العراقي المتوفى عام ٨٠٦ هـ في نحو ٣٦ بيتا ، حسن
المحاضرة ج ١ ص ١٦٨ ، منها :

مصاب لم ينفس للخناق أصار الدمع جارا للمآقى
فروض العلم بعد الزهو زاو وروح الفضل قد بلغ التراقي
وبحر الدمع يجرى با ندلاق وبدر الصبر يسرى فى المحاق
وللأحزان بالقلب اجتماع ينادى الصبر حى على افتراق
١٠ - ومن الغازه فى كلمة ، صباه ، : واللغز فى كلمتى ، اسكت رجع ، إذترادفهما
دعه ، بام ،

يا فاضلا هو فى الأحبا جى ليس يخلو من ولع
ما مثل قولى للذى يشكو الحبيب : اسكت رجع
هذا ولا بن حجر قصائد أخرى كثيرة ، منها واحدة فى رجل خانته فى مال .
وأخرى لما نال الإجازة بالفتوى والتدريس ، وأخرى فى رثاء أخته ، ست الركب ،
المتوفاه عام ٧٩٨ هـ ، وهذه القصائد فى ديوانه .
ومما يذكر أن ابن حجر كان يتخذ حكما أحيانا فى المنازعات الأدبية ، وهذا
دليل على ماله من شهرة فيه ، وعلى ما عرف به من حب الشعر والبصر به . ومن
ذلك ما ذكره تقي الدين بن حجة الحموى فى كتابه ، تأهيل الغريب ، وخلاصته
أن لجمال الدين بن نباتة الشاعر المتوفى عام ٧٦٨ هـ قصيدة تائية فى الغزل ، بذريعة
لا نظير لها ومطلعها :

ملا ابتداء صبا باتى نهايات يا غاية ما لعشقى فيه غايات
ويا غزالا لنا فى لحظ ناظره أسد ومن هدبه للأسد غابات
وقد اختلف أدباء العصر فى التفضيل بين القصيدتين ، وسنذكر تفصيل ذلك
فى باب الشعر بإذن الله . — ثم جاء من بعدهم تقى الدين بن حجة الحموى المتوفى
عام ٨٣٧ هـ . فعارضهما بقصيدة طريفة على مثال قصيدتهما ، مطالعها :
لعجبه ولذيل الهجر شمرات وللقلوب من الأجفان كسرات
وصار فى درب وصلى من عوارضه وأهيف القد دورات وقتلات
وقد احتكم ابن حجة إلى قاضى القضاة ابن حجر العسقلانى ، ليحكم بين قصيدته
وقصيدة القيراطى وابن نباتة ، فكتب إليه ابن حجر الرد التالى ، وهو بمثابة نموذج
هنا لكتابته الأدبية . قال :

« لله الأمر من قبل ومن بعد . الحكم بين النظراء إنما يحسن بمن يماثلهم فيما به
يرتفع الحكم . وفى إقدام من لم يرتق إلى تلك الطبقة نوع من الظلم . ولا يرتاب
لبيب فى أن كلا من الثلاثة رأس هذا الفن فى زمانه . وأنه لا يوازنه أحد من
أقرانه .

وثلاثة كثراته الراح استوى لك لونها ومذاقها وشميمها
ولكن لما كان امثال الأوامر من بعض فنون الأدب . وإجابة الداعى ولا سيما
على من ظنه يأمر أهل هذا الفن ، وانتدب . ومرجع الحكم فى هذه القصة إلى الذوق
السليم ، فأمكن القول ، إن لم أقل وجب . فأقول مستعينا بالله متوكلا عليه ، ملتجئا فى
كل الأمور إليه .

الذى تبنى عليه القواعد ، ويشهد به الذوق السليم الذى هو فى هذا الفن أعدل
شاهد . أن الثالثة أرجح وزنا من الثانية ، ولولا حرمة الكمال ، والحياء من الجمال ،
لقلت إن الثانية فى الرتبة الأخيرة تالية . لأن الأولى وإن كانت من الثانية أكثر
انسجاما . والثانية وإن فضلت على الأولى فى الدقات الأدبية ابتداء واختتاماً . فالثالثة

قد جمعت بين المعنيين ، وفازت بالحسنيين . ونزلت في كل وجه من الأدب منزلة العين . وقال لسان فحوليتها عند لين كلام غيرها : « للذكر مثل حظ الانثيين » . وقد أتت بما غرض من الأزاهر النباتية ، والجواهر القيراطية ، وما فاق بمجموعه كل فريد . وراق مسموعه لكل مجيد . حتى قال من شهد مثلي ببراعته ، وطرب لصريير براعته :
أقصى نهاية وصفي فيه معرفتي بالعجز مني عن إدراك معرفته ،

يتبين من النموذج السالف : أن ابن حجر في كتابته الأدبية ، كان يتبع الطريقة الفاضلية السائدة في عصره . أما كتابته العلمية فهي نادرة القيود سهلة واضحة ، وهي عبارة عن أحاديث مسرودة ، تحتوي على بعض الألفاظ ذات المعاني العامة الشائعة في عصره . وقد يغلبه الأدب في بعض الأحيان فيعود قليلا إلى كتابته الفاضلية . وبعد ، فرحمه الله عالما وحافظا وأديبا .

ترجمته :

نوه السخاوى في الضوء اللامع في ترجمة شيخه عن تصدى من الأئمة لترجمة ابن حجر وذكر منهم جملة كالمقرئى والفاسى والبدر البشكى وابن خطيب الناصرية وابن فهد ، فلتراجم . وترجمته أيضا في : ١ - تاريخ آداب اللغة لجورجى زيدان ج ٣ ص ١٦٥ ، ٢ - حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥١ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ج ٢ ص ١١٦ ، ٣ - التبر المسبوك في ذيل السلوك للحافظ أبى الخير السخاوى . ٤ - الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر ، مؤلفه السخاوى أيضا وهو خاص بترجمه شيخه ابن حجر . ٥ - في مقدمة كتابه « فتح البارى » . ٦ - نظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطى . ٧ - في ذيل كتابه « نخبه الفكر » وهي مطولة في نحو ١٢ صفحة . ٨ - في كتاب الفوائد الهية في تراجم الحنفية للكنوى الهندى ص ١٠٠ . ٩ - بدائع ابن إياس ج ٢ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ١٠ - وذكر السيوطى في حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ أن ابن حجر ترجم لنفسه في كتابه « قضاة مصر » . ١١ - عقود الجواهر لجميل العظم . ١٢ - في دار الكتب الملكية مخطوط رقم ٧٢٦ تاريخ اسمه « جمان الدرر » في ترجمة ابن حجر ، ألفه عبد الله زين الدين الدمشقى ، كان موجودا سنة ١١٦٠ مختصرا عن كتاب السخاوى في ترجمة ابن حجر المسمى « تناسق الدرر » . ١٣ - الضوء اللامع للسخاوى ج ٢ رقم ١٠٤ .

١١- جلال الدين السيوطي ٥٨٤٩-٥٩١١ هـ

هو أحد نابي العصر وأعلامه ، وحمل راية علمه وأقلامه ، الإمام المجتهد ، الضارب في كل علم بسهم ، والآخذ من كل فن بنصيب . أولع بالعلم والتأليف منذ صغره ، حتى لم يكن القول - على حد تعبير العصر الحديث - إنه هاومن الهواة ، أغرم بهما ، واتخذهما شغله الشاغل . وحسبنا برهنة على ما نقول ، أن مؤلفاته أربت على الخمسمائة في فنون متعددة .

اسمه ونسبه :

كتب جلال الدين السيوطي ترجمة حياته في كتابه « حسن المحاضرة » . وقد قال إنه : « عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان ابن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب ابن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الخضيرى الأسيوطى . » وكان جده الأعلى « همام الدين » من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطارق . وكان بعض أجداده من أهل الوجاهة والرياسة ، ومنهم من كان تاجرا ومولا . ولم يخدم العلم منهم إلا أبوه .

والده :

وقد ترجم السيوطي لأبيه في باب فقهاء الشافعية - من حسن المحاضرة - فقال ما ملخصه : إنه ولد بسيوط بعد عام ٨٠٠ هـ وتولى قضاءها زمنا . وتعلم على بعض نابي عصره منهم العلامة القايانى والحافظ ابن حجر . ونبغ في علوم عدة منها فقه الشافعى والأصول والكلام والنحو والمعانى والمنطق والحديث ، وأجيز بالتدريس عام ٨٢٩ هـ . وبرع في الخط المنسوب وصناعة التوقيع ، وبرز في الإنشاء . ودرّس الفقه بالجامع الطولونى ، وكان يخطب من إنشائه . ويستمد بعضهم منه هذا الإنشاء ، وصنف بعض التصانيف النافعة . وتوفى عام ٨٥٥ هـ .

لهذا نقول: إن السيوطي نشأ في أسرة مليئة بأسباب الجاه من مال وعلم. وإن كان أبوه قد توفي عنه وهو صغير وسنه خمس سنين وسبعة أشهر. وتلقب^(١) أسرته إلى الخضيرى، وقد قال: «وأمانسبتنا بالخضيرى فلا أعلم ما تكون إليه هذه النسبة، إلا الخضيرية محلة ببغداد. وقد حدثني من أقرب به أنه سمع والدى رحمه الله تعالى، يذكر أن جده الأعلى كان أعجميا أو من الشرق. فالظاهر أن النسبة إلى المحلة المذكورة،:

طرف من حياته؛

ولد جلال الدين السيوطي بعد المغرب ليلة الأحد مستهل^(٢) رجب سنة ٨٤٩هـ. وعاش قرابة ثنتين وستين سنة. وتوفي في سحر ليلة الجمعة ١٩ جمادى الأولى عام ٩١١هـ.

وأولع من صغره بطلب العلم، حفظ القرآن الكريم وسنه دون ثمانى سنين. ثم حفظ العمدة ومنهاج الفقه والأصول والألفية لابن مالك. وتلمذ لأشهر العلماء في عصره، في الفقه والحديث والعربية، حتى أصبح ممتازا في كثير من العلوم. وبلغت شيوخه نحو مائة وخمسين شيخا ومنهم: شهاب الدين الشارمساحي في الفرائض. وشيخ الإسلام علم الدين البلقيني في الفقه، وقد لازمه السيوطي حتى مات، وأجازه بالتدريس والإفتاء. والعلامة تقي الدين الشبلي الحنفي في الحديث والعربية، ولازمه أربع سنوات، وكتب له تقريرا على شرحه لألفية ابن مالك، وعلى جمع الجوامع في العربية، وشهد له بتقدمه. ومنهم العلامة محي الدين الكافيجي، لازمه أربع عشرة سنة، وقد أخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعاني، وكتب له إجازة. ومنهم سيف الدين الحنفي في علوم البلاغة.

وأولع السيوطي بالرحلة طلبا للعلم والاختبار، والتزود بالرؤية، فخرج وزار

(١) روى السخاوى أن أم السيوطي كانت أمة تركية.

(٢) هذه روايته في حسن الحاضرة. وروى ابن إياس أن ولادته كانت في جمادى الآخرة

الحجاز ، وطوف في بلاد الشام واليمن والهند والمغرب والتكرور ، كما أنه طاف في المدن المصرية نفسها كالفيوم ودمياط والمحطة .
وبما رواه ابن إياس من حوادثه ، أنه اشترك في فتنة ابن الفارض عام ٨٨٧٥ هـ ، التي انقسم فيها العلماء إلى فريقين : فريق يطعن عليه ويشهر به ، وفريق يدافع عنه ويخرج كلامه ويتأوله . وكان السيوطي من المدافعين ، وألف بهذه المناسبة كتاباً في الموضوع اسمه « قمع المعارض في الرد على ابن الفارض » . وفي شهر ربيع الثاني عام ٨٩١ هـ عين شيخاً لمشيخة البيبرسية ، عوضاً عن الجلال البكري بحكم وفاته . وكان الساعي له في هذه الوظيفة الخليفة عبد العزيز .

وفي رجب عام ٨٩٦ هـ ، أشيع بين الناس أن الشيخ جلال الدين الأسيوطي ، أفتى بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة ، لأن الإجماع منعقد على منع البناء في شواطئ الأنهار الجارية ، وأما ما ذكر أن ذلك يجوز في مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ، فباطل ، وليس له صحة في كتب الشافعية قاطبة . —

وقال ابن إياس : « ولما دخلت سنة ٨٩٩ هـ صعد القضاة يهتئون السلطان قايتباي بالقلعة ، بالعام الجديد . وصعد أيضاً الشيخ جلال الدين الأسيوطي . فلما جلس ، سأله السلطان عن أي سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يفعلها . فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك ، بشيء ، مع غزارة علمه وقوة اطلاعه . وكان السلطان عنده كتاب يسمى « حيرة الفقهاء » . ثم أجاب الشيخ جلال الدين بعد ذلك بحجاب حسن كاف في هذه المسألة بأنه قصد بذلك الأذان ، فإنه سنة ولم يفعله . . . وعمل في هذه المسألة كراساً مطولاً . »

ولعل السيوطي كان قد صدر عنه ، أن هناك سنة لم يعملها السلطان . . .

ومن الحوادث الطريفة في حياة السيوطي ، ما ذكره ابن إياس في حوادث صفر عام ٩٠٢ هـ — وكان السلطان الناصر محمد بن قايتباي . وكان الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز — قال « إن الخليفة المتوكل على الله ، عبد العزيز ، عهد للشيخ جلال الدين الأسيوطي بوظيفة لم يسمع بمثلها قط . وهو أنه جعله على جميع

القضاة، قاضيا كبيرا . يولى منهم من يشاء، ويعزل منهم من يشاء، مطلقا في سائر ممالك الإسلام . وهذه الوظيفة لم يلها قط ، سوى القاضى تاج الدين بن بنت الأعز ، فى دولة بنى أيوب . فلما بلغ القضاة ذلك شق عليهم ، واستخفوا عقل الخليفة فى ذلك . وقالوا : ليس للخليفة مع وجود السلطان حل ولا ربط ، ولا ولاية ولا عزل . ولكن الخليفة استخف بالسلطان لكونه صغيرا . فلما قامت الدائرة والألسنة على الخليفة ، رجع عن ذلك . وقال إيش كنت أنا ؟ الشيخ جلال الدين هو الذى حسن لى ذلك . وقال لى : هذه كانت وظيفة قديمة ، وكان الخلفاء يولونها من يختارونه من العلماء . ثم أشهدوا على الخليفة بالرجوع عن ذلك ، وبعث أخذ العهد الذى كان كتبه للشيخ جلال الدين الأسيوطى . وكادت أن تكون فتنة كبيرة بسبب ذلك ، ووقعت أمور بطول شرحها ثم سكن الحال بعد مدة .

ويمكننا أن نستنبط من هذه القصة أن السيوطى هو الذى استخف عقل الخليفة ، وأنه استغل ما كان بينهما من الصداقة ، وأنه كان يتطلع إلى منصب القضاء .

وبهذه المناسبة نذكر أنه لم يصل إلى منصب فى القضاء ، مع علو كعبه ورسوخ قدمه فى العلم والفقه ، ومع فائق شهرة لا تقل عن أنداده من رجال جيله ، إن لم يزد عليهم . ولا نستطيع فى الواقع ، تعليل ذلك تماما ، إلا أن نقول : إن منصب قاضى قضاة الشافعية قد تركز تقريبا ، فى أيامه ، فى بعض كبار رجال المذهب ، الذين سبقوا السيوطى إليه ، كالشيخ زكريا الأنصارى . ثم كان نشاطه فى باب التأليف والتعليم وانشغاله به ، حائلا دون سعيه سعيًا حثيثًا فى سبيل بلوغ القضاء .

ويبدو لنا أن السيوطى اختلف إلى بعض المساجد ، يؤدى فيها الدروس ، من بينها الجامع الطولونى . وقد ذكر ذلك فى مقدمة كتابه « الفاشوش فى أحكام قراقوش » ، فقال : « سئلت فى درس بالجامع الطولونى فى أواخر المحرم سنة ٨٩٩ هـ .. الخ .. » (١)

(١) راجع الفاشوش ، بفهرس دار الكتب ج ٥ حرف الفاء .

ومهما يكن من شيء ، فإن منزلته الأدبية والعلمية كانت دائما ترتفع وتزداد سموا ، حتى أصبح معتبرا من كبار رجالات الدولة ، تجمعهم صلة الدين والمعرفة والعمر ، وتربطهم صداقة وولدت منذ سنين . وكان للسيوطي بسببها هيمنة على بعض الشئون . وقد قيل إنه لما بُويع الخليفة المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب في صفر عام ٥٩٠٣ هـ بالخلافة ، كان السيوطي هو الذي لقبه وكناه بهذا اللقب وتلك الكنية .

وفي شعبان عام ٥٩٠٣ هـ ، اختلف السيوطي مع الصوفية المقيمين بالخانقاه البيبرسية ، وهو شيخها . فثاروا عليه وكادوا أن يقتلوه ، ثم حملوه بأثوابه ورموه في الفسقية . . . وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها . . . قاله ابن أبياس .

وكانت بين السيوطي والأمير طومان باي الدوادار فتن ، حاول طومان باي بسببها أن يبطش به . ثم كان من سوء حظ السيوطي ، أن آلت السلطنة إلى طومان باي ، وهو الملقب بالعدل ، في عام ٥٩٠٦ هـ ، فاضطر حينئذ إلى الاختفاء ، وعدّه السلطان معزولا من مشيخة الخانقاه البيبرسية ، وولى فيها رجلا غيره . وظل محتفيا حتى دالت دولة العدل وآلت السلطنة إلى قانصوه الغوري ، فظهر في مستهل شوال عام ٥٩٠٦ هـ ، وذكر أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وبشره بزوال العدل عن قريب .

هذا ، وقد ظل السيوطي طول حياته عاكفا على الدرس والتحصيل ، يؤلف ويُدرس ، وقد تلمذ له كثيرون من الفطاحل والتابعين ، وقد عبر عنه ابن أبياس في كتابه ، بقوله : « شيخنا » . ومن تلاميذه العلامة شمس الدين محمد العلقمي صاحب المؤلفات العدة في الحديث وغيره . راجع فهرس دار الكتب المصرية ج ١ ص ١٤٤ وغيرها .

عليه وأخلاقه :

كان السيوطي أمة في العلم ونابغة من نوابغه ، أغرم به منذ صغره ، وشغف بتدوين مسائله ، حتى يمكن القول إنه من هواة التأليف كما ذكرنا . وزادته الرحالة علما فوق علم . ويفهم مما كتبه عن نفسه :

١ — أنه أخذ في التأليف ، ولم يكن بلغ السابعة عشرة من عمره . وأجيز في ذلك الحين بتدريس العربية . وهذا يدل على نبوغه فيها . قال : « وأجزت بتدريس العربية في مستهل سنة ست وستين - وثمانمائة - . وقد ألفت في هذه السنة : فكان أول شيء ألفت : شرح الاستعاذة والبسملة . وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقيني فكتب عليه تقریظا . »

٢ — أنه تصدر للتدريس والإفتاء ، ابتداء من سنة ست وسبعين وثمانمائة ، وقد أجيز بذلك في تلك السنة . وكانت سنة نحو السابعة والعشرين ، - وتعتبر هذه - بلا شك - سنا صغيرة مبكرة لمن يتصدى لمثل هذا العمل العام وخاصته الإفتاء . ومع ذلك كان قد أفتى في مستهل سنة إحدى وسبعين وثمانمائة ، وجلس لإملاء الحديث في مستهل سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة .

٣ — أنه نبغ في علوم كثيرة نبوغا يختلف مقداره باختلاف ميله الشخصي إلى هذه العلوم ، ويتبين ذلك من قوله :

« ورزقت التبهر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه ، والنقول التي اطلعت عليها فيها لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي ، فضلا عن هو دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه . بل شيخى فيه أوسع نظراً وأطول باعاً ، ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف . ودونها الإنشاء والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ولم آخذها عن شيخ . ودونها الطب . وأما علم الحساب ، فهو أعسر شيء على ، وأبعده من ذهني ، وإذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله . - وقد كملت عنده الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى . أقول ذلك تحذراً بنعمة الله تعالى ، لا فخراً . وأى شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها في الفخر . وقد أزف الرحيل وبدأ الشيب وذهب أطيب العمر . »

ولوشئت أن أكتب في كل مسألة مصنفًا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرت على ذلك ، من فضل الله ، لا بحولي ولا بقوتي . فلا حول إلا بالله . ما شاء الله لا قوة إلا بالله . وقد كنت في مبادئ الطلب قرأت شيئًا في علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهته في قلبي . وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك . فعوضني الله تعالى عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم .

٤ - نشعر في حديث السيوطي هذا ، أنه كثير التواضع ، وقد برأ نفسه من الزهو وإرادة الفخر . وهو في ذلك صادق بلا شك ، لأنه إنما يصف حقيقة . وقد شعر بما سيتركه في نفوس بعض القراء من زغم الزهو والفخر ، فدفع هذا الزعم والظن بقوله : « أقول ذلك تحدثنا بنعمة الله تعالى لا فخرا » . ودعم هذا الدفع بأنه قد بلغ السكر وأزف رحيله وبدا شيبه وذهب أطيب عمره . فلم يعد في نفسه محل للزهو ، ولا غاية من وراء الفخر .

٥ - وقد قلنا إنه متواضع . لأنه وضع من المؤلفات عددا كبيرا جدا بعضها كفيل بأن يدخل على النفس الزهو والفخر . وكثيرا ما كان تصدى أحد العلماء للتأليف - ولو كتب مؤلفا واحدا - مبعثا لزهوه . وللسيوطي عدة مؤلفات ثمينة كثيرة النفاسة . كل منها جدير بأن يجعله في مصاف المبتكرين وقد أشرنا فيما سبق إلى بعضها .

وقد ألف السيوطي في علوم عدة منها : التفسير والحديث . والفقه والأصول والنحو والصرف . والتاريخ ، والقراءات والأدب . والطب . وعلوم البلاغة . ومن بين مؤلفاته ما يعد مرجعا وسندا .

وقد ذكر السيوطي عن مؤلفاته ، أن عددها بلغ ثلثمائة . وهذا في حسن

١ - ابن الصلاح : هو تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن الكروبي الشيرازي أحد أئمة المسلمين . ولد عام ٥٧٧ هـ وتوفي وطلب الحديث حتى أصبح من كبار أئمة عصره . ولبت زمنا بدمشق يشار إليه : توفي عام ٦٤٢ هـ - ذكره ابن خلكان في الوفيات ، والسبكي في الطبقات .

المحاضرة . وقد قال عنها بعض المؤرخين إنها بلغت خمسمائة . وذكر ابن إياس أنها بلغت ستمائة . وابن إياس أحد تلاميذ السيوطي ، وتوفي بعده بزمان طويل . ومهما يكن من شيء فهذا العدد ضخيم ، وهو يوضح لنا كيف كان السيوطي سيلا عليها غزير المادة كثير الفيض عظيم الأثر ، دائم العمل مستمر الإنتاج . وحقا بين هذه المؤلفات عدد كبير ، من الرسائل الصغيرة يملئ المرء إحداها في ساعات . ولكن أيضا بينها عددا آخر واسع المدى تمتد الأفق ، يحتاج في إملائه إلى شهور بل سنين .

٦ — ومن العجيب أن يعترف السيوطي على نفسه بأنه لم ينبغ النبوغ الكافي في فن الإنشاء والترسل ، مع العلم أن حسبه من الإنشاء هذه المجموعة الضخمة من المؤلفات . ولكن لعله أراد من « الإنشاء والترسل » الكتابة الأدبية لا العلمية . أو كتابة الدواوين ورسائلها . فهو فيها ، حقا ، أقل إنتاجا . ومع ذلك له عدد كبير من المقامات البديعية اللطيفة والافتتاحيات الطريفة . كما أنه ذكر الكثير من مؤلفاته في سياق ترجمته لنفسه ، ولكنه أغفل بعضها ، مثل : كتابه « المزهر » ، فلعله وضعه بعد ذلك . كما أنه لم يعد « التاريخ » ضمن العلوم التي رزق التبحر فيها ، مع أن له فيه مؤلفات هامة جدا ، تشهد له بالتبحر فيه « كحسن المحاضرة » ، و « تاريخ الخلفاء » ، و « طبقات النحويين » . وقد ذكر كثيرا من كتبه التاريخية في سياق ترجمته . فلعل عدم النص على ذلك ، تواضع منه أو نسيان ، أو عدم اعتداد منه بالتاريخ ، كما اعتد بالفقه والنحو . . .

٧ — وبعض مؤلفاته شروح أو مختصرات لمؤلفات أخرى له أو لغيره ممن تقدمه . جرى على ذلك كما جرى علماء العصر الذين تقدموه ، وتلك إحدى الخطط التأليفية التي سادت العصر . ومن ذلك : حاشية على تفسير البيضاوي . وشرح الشاطبية . ومختصر التنبيه . ومختصر الأحكام السلطانية للهاوردي . وشرح ألفية ابن مالك . شرح كتابه جمع الجوامع ، ويسمى معجم الهوامع . وهكذا .

٨ — والسيوطى من أولئك المبتكرين فى اختيار موضوعات كتبهم ، إذ له مؤلفات فى موضوعات غريبة قليلة الخطور بالبال ، مثل : كتابه فىمن عاش من الصحابة مائة وعشرين سنة .

٩ — ومن حسن الحظ أن عددا كبيرا من مؤلفات السيوطى لم يُبَل بالضياع كإبليت مؤلفات غيره . وترى له فى دور السكتب المختلفة ، طوائف من هذه المؤلفات ، منها ما هو مطبوع ، ومنها ما لا يزال مخطوطا فى انتظار الطبع . .

السيوطى بين المدح والقدح :

من أهم ما يؤاخذ به السيوطى ، كثرة نقله من كتب المتقدمين ، دون أن يصرف همه إلى استنباط الجديد ، وابتداع الفكرة المستقلة ، ثم دون أن يبذل فى منقوله ، جهدا يوضحه به ، ويرتبه ويهذب ويستدل له ، ويعلق عليه .

ومع هذا ، فحسبه هذه الكثرة الرائعة من مؤلفاته ، منقولة وغير منقولة ، شهادة بسعة اطلاعه وامتداد أفقه ، وحدة ذهنه ، وحسن تأنيه للمتفرق المشعث ، حتى يلمه فى صعيد واحد .

على أنها هى روح العصر ، وسياق حوادثه . وعلى غرار السيوطى نبغ كثير من أئمة العصر . وأصبحت مؤلفاته هذه - التى نوجه إليها سهام النقد - المرجع والسند فى كثير من العلوم والفنون .

وحسب السيوطى أن له بحوثا يعتبر أبا عذرتها وابن يحدتها . وتحقيقات لا ينكر منصف أنها قيمة جليلة ، لم يتناولها قبله متناول ، فى تجميعها وتسويقها وحسن الربط بينها ، والإدلاء بالرأى فيها ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ، كتبه : الإتيقان والمزهر والاقتراح فى أصول النحو ، وحسن المحاضرة ، والأشباه والنظائر .

وللسيوطى مقامات كثيرة بديعة نافعة ، منها رده على شمس الدين السخاوى المؤرخ وهى مقامته : الكاوى فى الرد على تاريخ السخاوى . . والمؤرخ المذكور

كان كثير النحامل والنجنى على كثير من الأعلام الذين ترجم لهم في كتابه « الضوء اللامع » ، وبخاصة أعلام عصره وشيوخه ، ومنهم السيوطى - وقد أشرنا إلى ذلك في ترجمة المقرئى - ، فأنصفهم السيوطى فى مقامته . وقال فى أولها :
 « إن السخاوى ضمن تاريخه المتقدم أكابر وأعيانا . ونصب لآكل لحومهم خوانا . وجعله مشحونا بذكر المساوىء وتلب الأعراض . وفوق لهم فيه سهاما ، على قدر أغراضه ، وهم من أجلة المشايخ وأركان الإسلام . . الخ .
 حمل السخاوى إذن ، فى كتابه « الضوء » على السيوطى ، حملة شعواء ، وشوه كثيرا من جهوده . وأهم ما رماه به : ١ - التشكيك فيما درسه على شيوخه ، ٢ - وأنه اختلس شيئا مما ألفه - أى ألفه السخاوى - فقدّم فيه وآخر ، وبدّل وغير ، ثم نسب إلى نفسه . وهوّل فى مقدمته بما يتوهم فيه الجاهل شيئا مما لا يوفى ببعضه . وذلك كالحصاى الموجبة للظلال ، وكالآسماء النبوية . ٣ - وأنه لما ولى وظائف التدريس ، لم يكن كفتا لها ، وأنه بذلك « تزيب قبل أن يتحصّر » . وذلك طعن فى علمه وكفايته . ٤ - وادعى السخاوى أن السيوطى أطلق لسانه وقلبه فى شيوخه فمن فوقهم ، ٥ - وتهكم بادعائه أن العلماء يكتبون إليه الأسئلة ألّوفا ، فيرد عليها . ثم يكتب لهم بدوره عددا منها ، فلا ينهضون بالإجابة عنها . ٦ - واتخذ من قوله « إنه لا يعرف الحساب » دليلا على بلادته وعدم فهمه وركود ذهنه ، لأن الحساب فن الذكاء . ٧ - ونسب إليه أنه اختلس كثيرا من مصنفات ابن حجر ، ومن ذلك : لباب النقول ، فى أسباب النزول ، وعين الإصابة فى معرفة الصحابة . والسنتك البديعيات على الموضوعات . والمدرج إلى المدرج ، وتذكرة المؤتى بمن حدث ونسى ، وتحفة النابه بتلخيص المتشابه . ومارواه الواعون فى أخبار الطاعون . والأساس فى مناقب بنى العباس ^(١) وغير ذلك .
 وهذه الاتهامات - كما يرى القارىء - تحتاج إلى تحقيق طويل وموازنة دقيقة ، وسفر مستقل .

١ - هذه كلها فى مؤلفات السيوطى :

غير أنه يتضح فيها التجنى كما ذكرنا . ويبدو لنا أن من بين معاصرنا من لا يستريح إلى السيوطى مؤلفاً ، ويذهب مذهب السخاوى فى نقده . و يرويه كثرة مؤلفاته ، ويتخذها حجة على سطوه على مؤلفات المتقدمين . هذا إلى جانب تفاهة بعض هذه المؤلفات .

ولا رد لنا على ذلك ، إلا بما أشرنا إليه من أن له جملة من المؤلفات يعتبر أبا عذرتها وابن بجدتها ، وهى وحدها كفيلة بالسمو به إلى مصاف الممتازين من المؤلفين . ثم إن السيوطى كان - فى الواقع - يمثل هذا العصر وعقليته التأليفية ، تمثيلاً دقيقاً رائعاً ، فكان يعيش بعقلية موسوعية ، تجتمع فيها المنهولات اجتماعها فى دوائر المعارف . ومثل عقليته فى تلك الناحية ، نادر الوجود . - أما ما ينسب إليه من السطو ، فلعله من خطأ النساخ ، أو من خطأ الطابعين والناشرين فى العصر الحديث . وكلم هؤلاء . وهؤلاء من أخطاء ..

مؤلفاته^(١) :

أولاً : فى التاريخ والأدب :

- ١ - طبقات الحفاظ ، ملخص فى طبقات الذهبى ، منه نسخة بدار الكتب .
- ٢ - طبقات المفسرين . طبع فى ليدن . ٣ - طبقات النحويين واللغويين . وهى ثلاثة كبرى ووسطى وصغرى ، وصغرها هى : بغية الوعاة . ٤ - تاريخ الخلفاء ترجم فيه للخلفاء والسلاطين من عهد أبى بكر إلى الأشرف قايتباى سنة ٩٠١ هـ وهو مرتب على السنين . طبع فى مصر ٥ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة : وهو جزءان فى حوادث مصر من قديم الزمان حتى عهد المؤلف . وبه تراجم كثيرة ، مطبوع متداول ٦ - الدرارى فى أبناء السراى : وبه أسماء أبناء الخلفاء المولودين من الجوارى . فى بضع ورقات ٧ - النفحة المسكية والتحفة المكية . وهى جداول

١ - اعتمدنا فى إبراد هذه المؤلفات على رواه السيوطى فى ترجمة نفسه فى حسن المحاضرة - وقد روى كثيراً منها - وعلى ما رواه جورجى زيدان وسركيس وجبيل المظم ، وما شاهدناه فيها بدور الكتب .

في النحو والبديع والمعاني في ١٦٦ سطراً ٨ - وصف اللآل في وصف الهلال .
 مجموعة من الأشعار في معنى الكتاب السالف الذكر . ٩ - التعظيم والمنة في أن
 أبوى رسول الله في الجنة . ١٠ - مسالك الخنفا في والدى المصطفى . ١١ - مشتهى
 العقول في منتهى النقول : رسالة أدبية في أحسن ما قيل من كل
 شيء . بدار الكتب . ١٢ - اثنتا عشرة مقامة . طبعت بالآسانة عام ١٢٩٨ هـ .
 ١٣ - الوسائل إلى معرفة الأوائل : موضوعه ذكر الأول في كل شيء . كأول
 من خطب ، مرتب على المواضيع . أخذه عن كتاب العسكري وزاد فيه ورتبه .
 ١٤ - الشماريخ في علم التاريخ . منه نسخة بدار الكتب ١٥ - لب اللباب في تحرير
 الأنساب : وهو مختصر في الأنساب هذب فيه اللباب لابن الأثير . واستوفى ضبط
 ألفاظه ، وزاد عليه . وموضوعه ذكر البلاد التي ينسب إليها الأعلام . ١٦ - المنجم
 في المعجم : وهو معجم في أعيان شيوخه مرتب على أحرف الهجاء . بدار الكتب .
 ١٧ - بلبل الروضة : وهي مقامة في وصف جزيرة الروضة . في بضع ورقات .
 بدار الكتب . ١٨ - رفع شأن الحبش : هو شرح تنوير الغبش في فصل السودان
 والحبش لابن الجوزى . ١٩ - أزهار العروش في أخبار الحبش - أى الأحباش .
 ٢٠ - ديوان الحيوان : خلاصة كتاب الدميرى « حياة الحيوان » ٢١ - تبييض
 الصحيفة في مناقب أبى حنيفة . بدار الكتب ٢٢ - نشر العلين المنيفين .
 ٢٣ - إسعاف المبطأ في رجال الموطأ . ٢٤ - السبل الجلية في الآباء العلية : فى آباء
 النبى عليه السلام . ٢٥ - تزيين الممالك فى مناقب مالك . ٢٦ - المقامة السندسية فى
 النسبة المصطفوية . ٢٧ - المنهاج السوى فى ترجمة النووى . ٢٨ - تحفة الظرفاء فى
 أخبار الخلفاء . وهى قصيدة رائية . ٢٩ - در السحابة فىمن دخل مصر من الصحابة ،
 منه مخطوط بدار الكتب .

ثانياً: فى العلوم العربية:

٣٠ - المزهرة : وهو فى جزئين . وموضوعه فقه اللغة العربية ومن أهم الكتب
 فيه . مطبوع متداول . ٣١ - الأشباه والنظائر النحوية : وهو مرتب على سبعة

فنون لكل منها مقدمة خاصة فكأنه سبعة كتب . مطبوع متداول . ٣٢ - جمع الجوامع : وهو في النحو . له مقدمة وسبعة أبواب . ٣٣ - الاقتراح في أصول النحو . ٣٤ - جناس الجناس .

ثالثا : في العلوم الدينية :

٣٥ - الإتيان في علوم القرآن . كتاب سجليل يبحث في تاريخ القرآن ، مطبوع متداول ٣٦ - ترجمان القرآن في تفسير المسند . ٣٧ - إباب العقول في أسباب النزول : طبع على هامش الجلالين . ٣٨ - المذهب فيما وقع في القرآن من المعرب . ٣٩ - تفسير الجلالين وهو شركة بين السيوطي والمحلي . ٤٠ - جمع الجوامع . ويسمى الجامع الكبير أيضاً ، وهو في الحديث . ٤١ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور . ٤٢ - المقدمة : في الألفاظ المعربة في القرآن . ٤٣ - معربات القرآن . ٤٤ - الخصائص النبوية : في معجزات النبي عليه السلام . ٤٥ - شرح الصدور في شرح حال الموتى في القبور . ٤٦ - المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي . ٤٧ - الازدكار فيما عقده الشعراء من الآثار . وهي منظومة بها أحاديث . ٤٨ - الدر المنظم في الاسم المعظم . ٤٩ - الأشباه والنظائر في الفقه . ٥٠ - النقاية : وهي موسوعة في ١٤ علماً تسمى الأصول المهمة في علوم جمعة ، وهي في التفسير والأصول والتشريع والبلاغة والنحو والصرف . والفرائض والحديث والتصوف والطب .

رابعا : ما وجدناه في دار الكتب بالمنصورة :

١ - وصول الأمان بأصول التهانى . ٢ - طى اللسان عن ذم الطيلىسان . ٣ - كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة . ٤ - المصاييح في صلاة التراويح . ٥ - القول الأشبه في حديث «من عرف نفسه فقد عرف ربه» . ٦ - إفادة الخبر بنصه في زيادة العمر ونقصه . ٧ - السكز المدفون والفلك المشحون : في الأدب . ٨ - تحفة الجالس ونزهة المجالس . ٩ - شرح شواهد المغنى : في النحو . ١٠ - الهمع على الجمع . في النحو . ١١ - الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير : في الحديث

والمصطلح . ١٢ - الآلىء المصنوعة : فى الأحاديث الموضوعة : حديث ومصطلح
١٣ - هام الإصابة فى الدعوات المستجابة : حديث ومصطلح . ١٤ - الأرج فى أدعية
الفرج : فى النصوف . ١٥ - الدرج المنيفه فى الآباء الشريفة . ١٦ - تنزيه الأنبياء
عن تشبيه الأغبياء . ١٧ - الباحة فى علم السباحة . ١٨ - الفانيد فى حلاوة الأسانيد .
١٩ - التثبیت عن التبييت : أرجوزة للسيوطى . ٢٠ - إتحاف الفرقة بوصل الخرقه .
٢١ - ربح النسرین فیمن عاش من الصحابة مائة وعشرين ، ومنه نسخة مخطوطة
بدار الكتب المصریة ، ٢٢ - الرحمة فى الطب والحكمة .

وفى دار الكتب المصریة طائفة كبيرة من مؤلفات السيوطى غير مشاهير كتبه ،
وغير ما أشرنا إلى أنه فى الدار . فنذكر منها ما يأتى :

نسب بعض الصحابة والأشراف الأدریسیین وغيرهم من مكوك لمتونة
والموحدین . إتمام الدراية لقراء النقاية . منهل اللطایف فى الكنافة والقطایف .
التبرى من معرة المعرى ، وهى أرجوزة فى أسماء الكلب . الثبوت فى ضبط القنوت
تحفة النجباء فى قولهم هذا بسرا أطيّب منه رطباً . نور الحديقة ونور الطريقة ، وهى
مقتطفات من ديوانه ، حديقة الأديب وطريقة الأريب ، . السماح فى أخبار
الرماح . الشرف المحتم . ذيل طبقات الحفاظ للذهبي طبع . العجالة الزرنية فى
السلالة الزينية . الفاشوش فى أحكام قراقوش . لب الباب فى تحرير الأنساب .
شرح نظم البديع فى مدح خير شفيح ، وهو شرح بديعته . مشتهى العقول ومنتهى
النقول . الأوج فى خبر عوج . تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء . تحفة المهتدين بأسماء
المجودين . منظومة .

وبمكتبة معهد دميّاط الدينى بمحرمات خطية ثمينة من مؤلفات السيوطى منها :
النقل المسطور فى جواز قبض المعلوم من الأوقاف مع عدم الحضور .
الإنصاف فى تميز الأوقاف . كشف الضباب فى مسألة الاستنابة . الكشف عن
مجاورة الأمة الألف الهية السنية فى الهيئة السنية . رسالة فى أسماء أعضاء الإنسان .

درر الكلام في المراعى والحكم . المصايب في صلاة التراوىح . السمات في حسن الصمت . المسارعة إلى المصارعة . الطرثوث في فوائد البرغوث . الباحة في السباحة . إلقاء الحجر على من زكى ساب أبى بكر وعمر . فضل الجلد عند فقد الولد . بشرى الكتيب بلقاء الحبيب . المعانى الدقيقة في إدراك الحقيقة . إحياء الميت في فضل أهل البيت . الحبل الوثيق في نصرة الصديق . الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والأبدال . الإغضاء عن حديث دعاء الأعضاء . فضل القيام بالسلطنة . الإنافة في رتبة الخلافة . الأخبار المروية في سبب وضع العربية . رسالة فيمن غير النبي صلى الله عليه وسلم أسماءهم . أسماء النقباء ليلة العقبة . أسماء من مات في حياته صلى الله عليه وسلم من الصحابة . رسالة في ذم القضاء . رسالة في الاتراح .

الكلام عن بعض مؤلفاته :

١ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة :

كتاب في جزئين ، مشهور لدى المؤرخين والمطلعين ، وبخاصة المعنيون بتاريخ مصر . وهو من أفضل كتب السيوطى . وقد أورد فيه كثيراً من أخبار مصر والقاهرة منذ أقدم العصور حتى عصره . ففيه طُرف كثيرة عن ملوكها وسلاطينها وأمرائها وعظماء رجالها من وزراء وقضاة وكتاب وولاة ، ومن دخلها من الأفاذ . وفيه كذلك أخبار طريفة أخرى عن بعض مبانيها وعمارتها المشهورة ، وعن النيل وعن جغرافية مصر . وعن الفسطاط والفيوم وبرقة والنوبة . وكلام عن الخلافة ، وغير ذلك . وقد ترجم فيه لبعض من عاش حتى سنة ٩٠٣ هـ ، وربما بعدها . وهذا دليل على أنه ليس من كتبه المبكرة .

وبدأه بذكر المواضع التي وقع فيها ذكر مصر في القرآن الكريم ، والأحاديث الثريفة . وذكر من نزلها من أولاد آدم ، ومن ملكها قبل الطوفان وبعده . ومن دخلها من الأنبياء والصديقين . ومن كان بها من الحكماء ووصف عجائبها وأهرامها

ومنارة الإسكندرية ، وفتح العرب لها . وهكذا .
وقد ترجم المؤلف لنفسه في الجزء الأول ترجمة لا بأس بها ، تعتبر من أهم
مراجع المترجمين له من بعد . فذكر ميلاده وأسرته ونسبها وشيوخه وأدواره
العلمية وصلته بالعلوم والتأليف فيها ، وذكر بعض مؤلفاته . وقد اقتدى في
ذلك ببعض من تقدمه ممن ترجموا لأنفسهم ، ومنهم عبد الغافر الفارسي في تاريخ
نيسابور . وياقوت الحموي في معجم الأدباء . ولسان الدين بن الخطيب في تاريخ
غرناطة . والحافظ تقي الدين الفارسي في تاريخ مكة . وابن حجر العسقلاني في
قضاء مصر . وأبو شامة في الروضتين .

وقد صرح في مقدمته بأنه اعتمد في تأليف هذا الكتاب على عدة كتب ،
منها : فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفضائل مصر لابن عمرو الكندي ، وتاريخ
مصر لابن زولاق ، والخطط للقضاة ، وتاريخ مصر لابن ميسر ، وقيل لابن
يونس ، وإيقاظ المتغفل وإيعاظ المتأمل لابن المتوج الزبيرى ، وخطط المقرئى ،
والمسالك لابن فضل ، ومختصره لتقى الدين السكرمانى ، ومباحج التفكير ومناهج
العبر لمحمد بن عبد الله الأنصارى ، وتاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر لابن الربيع
الجيزى ، والتجريد للذهبي ، والإصابة لابن حجر ، وطبقات الحفاظ ، وطبقات
القراء وتاريخ الإسلام وكلها للذهبي شمس الدين أيضاً ، وكذلك كتابه « العبر ،
والبداية والنهاية لابن كثير ، والطالع السعيد للإدقوى ، والسكروان لابن أبي حجلة .
وثمار الأوراق لابن حجة الحموي ، والطبقات الكبرى للسبكي ، وطبقات
الأسنوى ، وطبقات المالكية لابن فرحون ، وطبقات الحنفية لابن دقاق ،
ومرآة الزمان لسبط الجوزي ، وغير ذلك .

أما غرضه من تأليف هذا الكتاب ، فقد ذكره في مقدمته حيث قال : « هذا
كتاب سميت : بحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة . أوردت فيه فوائد سنية
وغرائب مستعذبة مرضية . تصلح لمسامرة الجاليس . وتكون للوحيد نعم
الأنيس » .

والكتاب ذو مزايا متعددة ، منها : ذكر الأعلام الذين نزلوا بمصر ، وترجمتهم تراجم موجزة لا بأس بها في مثل هذا المقام ، مع النص على تواريخ الوفاة . ومنها استطرادات أدبية هامة ، أثبت بها كثيرا من النصوص الشعرية والنثرية ، التي يقل وجودها في غيره من المراجع ، ويذنها قصائد وخطب ورسائل رسمية وغير رسمية . وقد وجدنا في هذا الكتاب وفي استطراداته تلك ، معيننا شافيا وردناه ، ومنهلا عذبا حسونا منه ، ووجدنا فيه عوننا كبيرا على فهم عصر الماليك وتصويره ، وتزويد هذا الفهم والتصوير بما يدعمه من الأدلة التاريخية الماثورة .

ومما يؤاخذ به السيوطي هنا ، أنه غير عميق الاستنباط ، وغير معلل للحوادث إلا ماندر . غير أن هذا قد لا يكون من أغراض المؤلف . - ومما يؤاخذ به كذلك ، عدم تمحيصه للروايات الخرافية ، التي طافت في السكتب التاريخية القديمة ، فهو قد نقلها كما هي بخدافيرها . وإن أسندها إلى رواتها ، ونحشى أن تكون في عداد معتقداته - على جلالة قدره . .

ومنها ذكر النيل وأنه ينبع من الجنة . ومنها ذكر من أذل الأُسُد ، وحملت عرشه الشياطين ، في باب من ملك مصر قبل الطوفان . . ومثل الإسكندرية وأنها بليت في ثلاثمائة سنة ، وسكنت ثلاثمائة سنة ، وخربت ثلاثمائة سنة . ومثل عجائب منارة الإسكندرية والتمثال والمرآة فيها ، تلك المرأة التي كانت تُرى خلالها جوش الأعداء وغير ذلك كثير .

على أن هذا كله لا يغض من قيمة الكتاب ، بل هو من أهم مراجع تاريخ مصر وأعلامها .

٢ - المزهَر .

يُعتبر كتاب المزهَر في مقدمة السكتب النفيسة التي دمجتها براعة السيوطي في علوم العربية وأنواعها وقد طبع طبعة حديثة ، وصححه وراجعها جاد المولى بك وآخرون . - تصفحته وحاولت فهمه تماما ونحطى أبوابه باباً باباً ، فوجدته عبثا فادحا ، لكثرة ما به من المصطلحات ، والعبارات المنطقية ، والأقوال والردود ،

والمباحث المتشعبة المتلاحقة المتشابهة ، في فنون مختلفة ، من نحو وتفسير وفقه ، وحديث وشروح لغوية وغير ذلك .

وفقه اللغة علم حديث في المدارس المصرية ، والقسم النظري ذو بحوث شائقة ممتعة تتضارب فيها الآراء وتعتكز الأفكار ، وتحتاج ، ويقرر بعضها بالحجة بعضها ، وفي ذلك غذاء عقلي قوى ظريف . ومن هذه البحوث : حديث عن معنى اللغة وكيفية وجودها ، أو ضعية هي أم توفيقية . وصلة اللغات بعضها ببعض . وكيف تولدت الحروف ، وما الصلة بين لفظ الحرف ومعناه ، ومتى تكون الاسم ، ومتى تكون الفعل . وكيف تدل هذه الألفاظ على معانيها ، والفروق الدقيقة بين معني لفظين متقاربين في النطق ، وما الوضع الإفرادي وما الوضع المركب ، وكيف تكونت الجملة ، وما التجوز باللفظ ، وماميزات اللغة ، وما الترادف والتضاد والاشتراك . وغير ذلك من البحوث العلمية الدقيقة التي تعتبر في الواقع فلسفة في فهم اللغة وتاريخ وجودها باعتبارها كائنا حيا . وما يتصل بهذا القسم : الحديث عن التعريب من لغة إلى لغة ، ومدى هذا التعريب .

والقسم العملي أقرب إلى أن يكون نوعا من أنواع المعجمات اللغوية ، يعرض الألفاظ المناسبة في ناحية ما ، ويحشد لها في باب واحد . مثل الألفاظ الخاصة بخلق الإنسان ، أو الخاصة بالبناء . أو الخاصة بأحد الأنواع من الحيوان أو النبات أو مثل الألفاظ المترادفة في معنى الأسد أو السيف أو العسل ، أو مثل الألفاظ المتضادة ذات المعنيين المتضادين . أو الجمل المستعملة في معنى واحد ، أو ما جاء على وزن فعالي أو فعنلى مثلا . أو ما جاء بالهاء من صفات المذكر . أو الألفاظ التي تذكر وتؤنث . أو وهكذا .

وهذه البحوث ولا سيما البحوث النظرية ، وجدت لها عند علماء أوروبا في العصور الحديثة رواجاً . فاشتغلوا بها ، وأمعنوا في هذا الاشتغال ، وتحدثوا ونقبوا عن أصل اللغات وكيف تفرعت وما هي الصلات بينها ، وما وجوه

الخلاف فيها . وهكذا . وقد بلغوا من وراء ذلك مبلغا محمودا ، حتى جعلوا من هذه البحوث المشتتة المتفرقة ، علما مستقلا له كيانه الخاص ، وشخصيته الخاصة . وأعتقد أن علماء العربية قد سبقوا علماء أوروبا في هذه الناحية . وتكلموا في مسائل عدة من مسائل هذا العلم . ودلّوا على نظرياتهم فيها . ومنهم ابن جني والشعالبي والزحشرى وابن فارس وإمام الحرمين وابن الحاجب والإسفرائيلي ، وكثيرون غيرهم من النحويين والبلاغيين وواصفى المعجمات والمفسرين وشراح الحديث ، والأدباء .

وغاية أمر هؤلاء أنهم لم يتصد واحد منهم لدراسة هذا الفن كله ، واستيعاب نظرياته ، والتحدث عنها حديثا جامعا منظما مبويا في مؤلف واحد مستقل . بل تكلم هذا في ناحية ، وذلك في ناحية أخرى . فلم يجمع شتات هذا العلم ويلتئم شمله . وقد حاول السيوطي في كتابه المزهري ، أن يجمع هذا الشتات ، ويلائم بين أجزاء الشمل ، ويُقيم من البحوث المتفرقة علما مستقلا له كيانه وشخصيته . وهذا بغير شك جرأة وابتكار ، وقد نجح فيه السيوطي نجاحا يغبط عليه . وعلينا أن نصدقه حين يقول في مقدمة كتابه هذا :

« هذا علم شريف ، ابتكرت ترتيبه ، واخترعت تنويحه وتبويبه . وذلك في علوم اللغة وأنواعها ، وشروط أدائها وسماعها ، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع ، وأتيت فيه بعجائب وغرائب حسنة الإبداع ، وقد كان كثير من تقدم يلم بأشياء من ذلك ، ويعتني في بيانها بتمهيد المسالك ، غير أن هذا المجموع لم يسبقني إليه سابق ، ولا طرق سبيله قبلي طارق . »

ونحن نقول فوق ما تقدم ، إننا في هذا العصر الحديث ، لم نظفر بمؤلف في فقه اللغة العربية وتاريخ وجودها ، وسيرة حياة مفرداتها ، ودلالات ألفاظها ، وغير ذلك من بحوث ، يكون ندا لمؤلف السيوطي ، هذا ، على الرغم من تقدم هذا العلم عند علماء أوروبا ، واشتغال بعض المستشرقين بفقه العربية ، وتقليد بعض علماء

العربية لهم ، في هذا الاشتغال . إلا مذكرات قُدمت للطلاب ، في دور التعليم وإلا بحوثاً منشورة على صفحات المجلات والصحف اليومية ، وإلا كتباً يسيرة غير جامعة ألقت في هذا الموضوع ، أين هي من كتاب السيوطي المعتبر الجامع ، وما منها إلا ماتح من بحره ومتسق من منله ، وقد اشترك في هذه المذكرات والبحوث المنشورة والكتب اليسيرة علماء من مصر والشام والعراق والمغرب . . نقول ذلك لا متحاملين — حاشا لله — بل طامعين في أن تشحذ الهمة ، وتوثب العزيمة ، إلى وضع مؤلف كامل شامل في فقه اللغة وفلسفتها ، بأسلوب جديد سهل المأخذ قريب المورد ، لا يصعب على الناشئة تناوله .

وقد اعتمد السيوطي في كتاب « المزهري » ، على ما كتبه العلماء المتقدمون ممن ذكرنا ، ومن غيرهم ، وقد دأب على أن ينسب القول مباشرة إلى قائله ، فيقول : قال أبو الفتح بن جني في الخصائص ، مثلاً ، وقال أبو الحسين أحمد بن فارس في فقه اللغة ، وقال القالي في أماليه ، وقال الزجاجي في أماليه ، وقال ابن خالويه في كتاب « ليس » ، وقال الجوهري في الصحاح . وحكى ابن الأنباري في كتاب « الأضداد » ، وهلم جرا .

وفي « المزهري » ، بحوث نظرية وعملية ، فمن النظرية : البحث في اللغة ، هل هي توقيف ووحى ، أو اصطلاح وتواطؤ ، وتبعه أبواب استطرادية في ذكر الآثار الواردة ، في أن الله تعالى علم آدم عليه السلام اللغات ، وفي ذكر إيجاء اللغة العربية إلى نبينا عليه السلام ، ومنها البحث في معرفة ما روى من اللغة ولم يصح ولم يثبت ، وغير ذلك .

ومن العملية فصول كثيرة منها : معرفة ماورد بوجهين بحيث إذا قرأه الأليخ لا يعاب ، ومنها معرفة الملاحن والألغاز ، ومنها معرفة ماورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التصحيف ، وغير ذلك كثير جداً . — وبه أبواب عن الألفاظ الإسلامية ومميزات العربية . والاشتقاق ، والحقيقة ، والمجاز ، والقلب ، والإبدال ، والنحو ،

وعلاقة العربية بغيرها من اللغات السامية . وكلام عن السكني والألقاب ، إلى آخره .
ويضيق نطاق الكلام هنا عن أن نفى الكتاب حقه من الوصف ، أو ذكر
عدد من أبوابه وبحوثه ، توقف القارىء . — كما نشتهى — على حقيقته وقيمته ،
وحسبنا أن نقول : إن الكتاب جزءان ، طبعاً في حجم متوسط ، يحتويان على أكثر
من سبعمائة صفحة مليئة علماً وفناً مختلفاً أكلهما ، دانية قطوفهما ، تجد فيها الحديث
والتفسير ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والتاريخ ، والأدب ، كما تتخلله كلمات
اجتماعية موجزة ، وفكاهات علمية غاية في الطرافة ، مع الأمانة في النقل ، والدقة
في الملامة ، وهو جدير بالدراسة الخاصة ، كما أنه دليل على هممة السيوطى وضربه
وغزارة علمه .

٣ — الإتقان في علوم القرآن :

مجلد في جزئين من الحجم الكبير في كل جزء نحو ٢٥٠ صفحة في كل صفحة
نحو ٣٤ سطراً .. مطبوع .
وهو كتاب عجيب في بابيه ، ويعتبر فريداً لا نظير له ، وليس معنى ذلك أن
مسائله لم يتكلم فيها إنسان ، أو لم ترد في كتاب . لا . ولكنها وردت مبثوثة في
كتب عدة ، وفي أبواب كثيرة . وتكلم فيها أناس كثيرون ، ويرجع الفضل للسيوطى
في أنه لم يشملها ، وجمعها منظمة منسقة مبوبة في كتابه هذا ، حتى صارت هيكلاً
مستقلاً متناسق الأجزاء منسجم النواحي ، ذا وحدة متحدة .
وهذه قدرة عجيبة من السيوطى ، تدل على ذهنية متوقدة ، اتجهت به إلى مثل
هذا الموضوع الفريد ، فطاف على مؤلفات كثيرة العدد ، مختلفة المشارب ، كثيرة
الأقوال ، والمذاهب ، فحقق فيها ودقق ، حتى استبانته له وجوه الصواب ، فحشدتها
في كتاب ، بعد أن زودها بماله من ثاقب رأى وصائب فسكر .
وهذا الكتاب في بابيه ، شبيه بالمزهر في بابيه . وكل منهما الغاية التي بلغها العلم
الذي دون فيه . ولئن استطاع علماء اللغة من بعد السيوطى أن يضيفوا شيئاً جديداً
إلى ما كتبه في « المزهر » ، فإن علماء القرآن وتاريخه ، لم يضيفوا جديداً إلى
ما كتبه في « الإتقان » . نظن ذلك غير آثمين .

و موضوع الكتاب: الكلام عن القرآن الكريم كلاماً تاريخياً ، فهو ليس تفسيراً ، وإن كان بين الاثنين ارتباط . هو وصف له ولسوره وآياته وطريقة النطق بها . ويتطرق إلى بحوث تاريخية ، وبحوث في التجويد وعلوم اللغة من نحو وبلاغة ، وبحوث في التوحيد وبيان للإعجاز وهلم جرا .

ومن فصوله : معرفة السور الحضرية وغيرها ، معرفة الصيفي منها والشتائي ، والأرضي والسمائي ، ومعرفة أول ما نزل من سوره وآخر ما نزل ، وأسباب النزول ، ومعرفة ما نزل من القرآن على لسان بعض الصحابة ، وما تكرر نزوله ، وما تأخر نزوله عن حكمه ، وكيفية نزوله . وبحجى الوحي وكيفية ، وجمع القرآن ، وترتيبه ، ومعرفة المتواتر والمشهور والآحاد ، والشاذ والموضوع والمدرج ، وفيه كلام عن علم التجويد ، وبيان أحكامه في الإمالة ، والفتح ، والإدغام ، والإظهار والإخفاء ، والإقلاب ، والمد والقصر ، وغير ذلك ، وفيه فصول لبيان غريبه ، وما نزل منه بغير لغة الحجاز ، وبغير لغة العرب ، وهكذا .

وفي الجزء الثاني منه ، فصول عن المحكم والمتشابه ، والمقدم والمؤخر ، والناسخ والمنسوخ ، والمطلق والمقيد ، وحديث عن مظاهر البلاغة فيه ، من حقيقة وبجاء ، وتشبيه واستعارة وكناية ، وغير ذلك ، وفيه فصل في إعجاز القرآن ، وفصل في العلوم المستنبطة منه ، وفصول في فضائله ومفرداته وخواصه ، وخطه وتأويله . ثم تكلم مؤلفه عن شروط المفسر وآدابه ، وعن غرائب التفسير ، وختم الكتاب بفصل ممتع عن بعض المفسرين الأوائل وما قيل في حقهم ، ثم ثنى بذكر التفاسير المروية عن النبي عليه الصلاة والسلام .

والكتاب — كما انضح — دليل خالد على رسوخ قدم الرجل في علوم العربية والدين ، وإحاطته الشاملة بكثير جداً مما قيل عن القرآن الكريم ، وحفظه التام لحوادث التاريخ ومعرفته برجاله ، وسعة اطلاعه على كتب المتقدمين بعامة ، وهو في مقدمة كتبه النفيسة ، ولا غنى لطالب القرآن عنه ، ولا تزال قصارى المتكلمين

في تاريخ القرآن - حتى اليوم - تنتهي عند هذا المؤلف الثمين .
وقد ذكر المؤلف في خطبة كتابه هذا ما يفيد أن التأليف في موضوعه ، أمنية
جالت في نفسه ، واستشرف له فؤاده منذ أمد ، إذ وجد كثيراً من المؤلفين قد
وضعوا كتباً عدة في علم الحديث ، ولم يهتموا بجمع المسائل الخاصة بالقرآن ، وقد
زاد استشراف فؤاده للكتابة في هذا الموضوع ، حينما سمع من شيخه أبي عبد الله
محى الدين الكافيجي ، أنه دون في علم التفسير كتاباً لم يسبق إليه ، وقد كتبه
السيوطي عنه ، فوجده صغير الحجم ، وبه بابان وخاتمة : الأول في ذكر معنى
التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية ، والثاني في شروط القول فيه بالرأي .
والخاتمة في آداب العالم والمتعلم - فلم يرو للسيوطي غلة ، حتى اطلع على كتاب
آخر أضخم حجماً وأغزر مادة من الأول ، في مثل هذه الموضوعات التي تدور حول
القرآن الكريم ، وهو من تأليف القاضي جلال الدين البلقيني سماه : مواقع
العلوم من مواقع النجوم ، وهو خير من الأول ترتيباً وتبويباً
وتقريراً وتحريراً .

كل ذلك حفز همته إلى وضع كتاب لهذه المسائل ، يكون أشمل وأفضل ،
وأجمع لشمولها ، فوضع كتاباً سماه : التجهيز في علوم التفسير ، اعتمد فيه
على كتاب : مواقع العلوم ، السابق ذكره ، - ثم خطر له أن يضع كتاباً أوفى ،
وأكثر بسطاً وجمعاً ، وأفضل ضبطاً ، وأكثر استقصاءً ، ليكون مقدمة لتفسيره
الكبير المسمى : مجمع البحرين ومطلع البدرين ، الذي شرع في وضعه ، وبينما هو
يتردد في هذا الأمر ، ويقبله على وجوهه ، ظاناً أنه أسبق الناس إليه ، إذ بلغه أن
الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي ، وضع كتاباً على هذا المنوال ،
حافلاً ، وسماه : البرهان في علوم القرآن ، فاطلع عليه السيوطي ، فحمد ما فيه ، وكان
أكثر حفزاً له على وضع كتابه الذي فكر فيه . قال السيوطي :

فوضعت هذا الكتاب العلي الشان ، الجلي البرهان ، الكثير الفوائد والإتقان ،

ورتبت أنواعه ترتيباً أنسب من ترتيب البرهان ، وأدجت بعض الأنواع في بعض ، وفصلت ما حقه أن يبان . وزدته على ما فيه من الفوائد والقوائد والشوارد ، ما يشنف الآذان ، وسميته بالإتقان في علوم القرآن .

ويتبين مما سبق أن السيوطي اعتمد على كتب أربعة في تدوين كتابه ، والإتقان ، الأول . كتاب الكافي . الثاني : كتاب جلال الدين البلقيني . الثالث : كتابه هو المسمى « التحبير » . الرابع : كتاب الزركشي . وكتاب السيوطي أجمع وأوفى ، وبه كلام عن ثمانين مسألة من مسائل علوم القرآن ، أو ثمانين نوعاً كما سماها هو ، وقد ذكرنا بعضها فيما سبق .

وقد بين السيوطي أن ثمت كتباً أخرى تكلمت عن بعض هذه الفنون ، ولسكنها بالنسبة لكتابته كنقطة لبحر ، ومنها : فنون الأفنان في علوم القرآن لابن الجوزي ، وجمال القرآن للسخاوي . والمرشد الوجيز في علوم تتعلق بالقرآن العزيز لأبي شامة ، والبرهان في مشكلات القرآن لأبي المعالي عزیزی بن عبد الله المعروف بشيدلة .

وهناك كتب أخرى اعتمد عليها أيضاً وأعانتها ، ذكرها في مقدمته ، وهي أكثر من أن تحصى هنا ، وهي جملة من الذخائر والنفائس في التفسير واللغة والحديث والتاريخ وعلوم القرآن والرسم .

وقد عني في كل فصل أن يذكر الأقوال المأثورة في المسألة مسندة إلى رواتها وإلى الكتب التي ذكرت فيها ، ويفصل القول في ذلك تفصيلاً منظماً .

ولإليك على سبيل المثال ، موجزاً عما ذكره خاصاً بالمسكن من القرآن والمدني ، قال : هناك ثلاثة أقوال : الأول أن المسكن ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعدها . الثاني : أن المسكن ما نزل في مكة ، والمدني ما نزل بالمدينة . الثالث : أن المسكن ما خوطب به أهل مكة . والمدني ما خوطب به أهل المدينة .

وقد عقد بعد ذلك فصلاً بين فيه السور التي اختلفت في مكيتها ومدنيتها ،

والحجج والبراهين الماثورة على ذلك . — ثم عقد فصلا بين فيه المسكى من السور والمدنى منها ، وسار على نمطه السابق من الاستشهاد بالمأثور ، مستثنيا من المسكى ما فيه من آيات مدنية ، ومن المدنى ما فيه من آيات مكية ، مستشهدا بمن قال بهذه المسكية أو المدنية ، موردا الأقاويل المختلفة ، ولو متناقضة ، بالنسبة للآية الواحدة . وفي الفصول التى تكلم فيها عن بعض المسائل البلاغية موضحا ما جاء منها فى الآيات القرآنية ، سلك مسلك البلغاء لا العلماء ، إذ اعتمد اعتمادا كبيرا على الذوق والروح الأدبية ، فلم يتقيد بأساليب العلماء الجافة . ولهذا أورد كثيرا من الأمثلة فى أسلوب هين لطيف واضح ، ومن ذلك قوله عن النوع الثانى والخمسين فى الجزء الثانى ، وهو فى حقيقة القرآن ومجازه . قال :

« لا خلاف فى وقوع الحقائق فى القرآن ، وهى كل لفظ بقى على موضوعه ، ولا تقديم فيه ولا تأخير ، وهذا أكثر الكلام . وأما المجاز فالجمهور أيضا على وقوعه فيه ، وأنكره جماعة منهم الظاهرية وابن القاص من الشافعية ، وابن خريز منداد من المالكية . وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب ، والقرآن منزّه عنه . وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا صاقت به الحقيقة فيستعير . وذلك محال على الله تعالى . — وهذه شبهة باطلة ، ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن . فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، ولو وجب خلو القرآن من هذا ، وجب خلوه من الحذف والتوكيد ، وتثنية القصص وغيرها . »

هذا . ومن الغريب أن السيوطى كتب فى خاتمة الكتاب ، ذاما أهل عصره فقال : « وإنى فى زمان ملأ الله قلوب أهليه من الحسد ، وغلب عليهم اللؤم ، حتى جرى منهم مجرى الدم من الجسد . » إلخ . . فآله حسبنا وحسبه .

السيوطى الكاتب الأديب :

أليس من العجيب أن يتواضع السيوطى ، ويعترف على نفسه ، أنه فى الإنشاء والترسل ، أقل مقدرة منه فى أشياء غيره ، مع أنه كتب هذه المؤلفات الكثيرة العدد ، ومنها الواسع النطاق البعيد المدى ؟

إن الإنشاء في نظرنا هو قدرة المرم على التعبير عن مراده ، بأسلوب واضح
أخاذ ، وهي صفة يتصف بها السيوطي ، فهو منشئ كسائر كتاب عصره المنشئين .
وأغلب الظن - كما أشرنا فيما تقدم - أن السيوطي ، إنما قصد من الإنشاء
والترسل ، صناعة البديع فحسب ، وقد كانت الكتابة الأدبية في عصره ، تسير
على المنهج الفاضلي ، الذي أصبح ميزانا لكل كتابة ، ومزاجا لكل أديب ، وميدانا
يتسابق فيه فحول المنشئين .

فإذا كان السيوطي يقصد أنه قصر في اتباع النهج البديعي المذكور ، فهذا حق ،
لأنه لا يجارى فيه أمثال ابن عبد الظاهر ، وابن فضل الله ، والقلقشندي ،
وابن نباتة ، والصفدي ، وابن حجة ، فهو بالنسبة إلى هؤلاء ، أقصر باعا وأقل
ذراعا ، ولحياته العلمية - بلا ريب - دخل في هذا ، فإن طول الاشتغال بالعلم ،
وممارسة التأليف ، والانكباب على تحصيل الشوارد ، لا يترك للمرء بالآ إلى بديع ،
ولا ميلا إلى محسنات :

ومع ذلك ، فقد جرى السيوطي في هذا الميدان ، وسابق هؤلاء الفرسان ،
جرى إلى مدى محدود ، وسبقا إلى أفق قريب ، فقد صدرت عنه مقالات ورسائل
تثبت له القدرة على الأسلوب البديعي وغلبت عليه الصناعة في خطب كتبه كلها ،
وفي كثير من فصولها ، وسنورد نماذج توضح ما نقول .

على أنه حرى ، بأن نذكر له هذه المقامات الكثيرة العدد ، التي نخاف فيها منحنى
بديع الزمان والحريري ، فابتدع في بعضها شخصية طريفة ، تدور حولها قصصه هذه ،
هي شخصية هاشم بن القاسم ، وهو المتحدث فيها .

ولسكنه لم يكن جامدا جمود الحريري ، سار في مقاماته على نسق واحد ، ودار
حول معنى عام واحد ، وهو السكدية التي اشتغل بها أبو زيد السروجي ، لا ، وإنما
حرر السيوطي نفسه كما حرر ابن الوردي نفسه من قبله في مقاماته ، فضمّن
السيوطي بعض مقاماته ، مثلا ، موازنات ومنابرات ، وضروبا من الحوار التمثيلي ،

يشعرنا بأن هذه الضرب من الأدب — أعنى الحوار التمثيلي — طاف في أفئدة القوم إذ ذاك . وبدأت بعض مقاماته مقالات وصفية طريفة في موضوعات شتى ، كتبها جميعا بأسلوب بديع سهل التركيب ، لا يتوده ما فيه من السجع ، ولا يثقله ماوعاه من جناس أو تضمين أو اقتباس ، إلا بقدر يسير ، وتخلله الفكاهة والآيات الشعرية .

ومن مقاماته : مجموعة مطبوعة تحتوي على ست مقامات هي : المقامة الوردية والمسكية ، والتفاحية ، وفي وصف أنواع من الفاكهة ، . والزمردية ، وفي وصف أنواع من الخضراوات ، والفستقية ، وفي وصف بعض الثمار كاللوز والبندق والجوز ، . والياقوتية ، وفي وصف أنواع من الأحجار الكريمة ، .

وفي المقامة الوردية : افترض المؤلف أن الأزهار اجتمعت عساكرها ، واتفقت على عقد مجلس حافل ، لاختيار من هو بالملك أحق ، فصعد كل منها المنابر ، ليبدي حجة المناظر . . الخ . .

ثم تكلم الورد ، فالنرجس ، فالياسمين ، فالباين ، فالنسرين ، فالبنفسج ، فالنيلوفر فالآس ، ثم الريحان . وكل منها يرشح نفسه ويذكرها بضروب من البيان ، يذكر فيها أوصافه ومزاياه ، وينحى على غيره باللائمة ويذكر له ما يشفيه . وهكذا . . وفي النهاية أسلم الجميع للريحان ، وخضعوا لسلطانه .

ومن مقاماته : « رشف الزلال من السحرا الحلال » ، وتسمى « مقامة النساء » . وفيها يتحدث عشرون عالما ، مختلفون في فنونهم ، بينهم المقرئ والمفسر والمحدث والفقيه والأصولي . . الخ . . أما موضوع الحديث أو الحوار ، فهو أن يحكى كل منهم ما جرى بينه وبين عرسه ، ليلة دخوله بها . . على شرط أن يورى بمصطلحات علمه وفنه . مع الحث على مخالطة النساء ، وبجانبه الغلمان . . لاغرابة إذن أن تكون هذه المقامة مليئة بالمجون والأدب المكشوف .

وللسيوطي بحوار هذا ، مقامة تسمى « المقامة السندية في النسبة المصطفوية » ،

وموضوعها التدايل على نجاه والدي المصطفى عليه السلام ، من النار ، مع إيراد أقوال العلماء والفقهاء في ذلك ، وتزييف من خالفها ، ودحضه .
وهي شبيهة برسائله « السبل الجلية في الآباء العلية » فموضوعها واحد . وقد ذكر السيوطي في رسالته هذه ، أنها سادس مؤلف له في هذا الموضوع . والواقع أنها تكرر لما سبقها ، ولسكن في ثوب قشيب ، ولفظ خصيب . فيبيناترى « السبل » رسالة علمية ، إذ ترى « المقامة السندية » قطعة أدبية . وسنورد فيما يلي شيئاً منها .
ويضيّق مقام القول ، إذا ذهبنا نتكلم عن كل مقامة على حدة — وهي بذلك حرّية — فنجمل ذكر عدد منها ، لنرى إلى أي حد ، برّز السيوطي وأجاد ، في فن المقامات . وكل منها يكاد عنوانها ينطق بما تحويه .

فن مقاماته : الزهرية . وهي محاورة ومناظرة بين الأزهار . والتفاحية . والجيزية في وصف الجيزة . والاسيوطية في وصف أسيوط . وبلبل الروضة في وصف روضة مصر . وطرز الغمامة في التفرقة بين المقام والمقامة . وطوق الحمامة . والفرج القريب . والمقامة اللؤلؤية . والمقامة اللازوردية . والمقامة المسكية ^(١) .
ولا نترك هذا المجال ، دون أن ننوه بكتاب للسيوطي ، حافل بضروب الأدب وشتى الطرائف . وهو « الكنز المدفون . والفلك المشحون » . ^(٢) وهو مطبوع في نحو ٣٥٨ صفحة ، ويحتوى على شتات من الأدب بمجموع ، وبضائع منه محشودة في صعيد ، ولا يعدو أن يكون مختارات . ولكنها مختارات بارعة مسلية ، فيها الحكم والأمثال والموازنات والقصص واللغويات والاستطرادات التاريخية ، والمقطوعات الشعرية ، وطرز السّير . فهو شبيه بكتاب « العقد الفريد » لابن

(١) راجع فهرس دار الكتب المصرية . « فهرس الآداب العربية » تر هذه المقامات ، وكثير منها مطبوع . وسنعود بعون الله إلى الحديث عنها بإسهاب في الجزء الرابع من هذا الكتاب ، تحت عنوان « فن المقامات » .

١ - روى جميل العظم في « عقود الجواهر » أن من مؤلفات السيوطي : « الفلك المشحون » في خمسين مجلداً . فلعلها خمسون باباً ، أو خمسون مجلدة صغيرة ، أو لعله كتابه « الكنز المدفون » أو أن « الكنز » هو ملخص للفلك . أو كتاب غيره . والله أعلم .

عبد ربه ، غير أن كتاب «العقد» يمتاز عنه بحسن الترتيب والتبويب . وسنورد منه نموذجا .

وعلى نسق من كتاب «السكنز» ألف السيوطي كتاباً أصغر منه ، هو كتابه «تحفة المجالس ونزهة المجالس» . هذا وغيره ، يثبت لنا رسوخ قدم السيوطي في ميدان الأدب ومجال الكتابة والإنشاء .

وإليك نماذج وأمثلة من كتابته الأدبية :

١ — قال في مطلع مقامته السندسية في النسبة المصطفوية ، يمدح المصطفى عليه السلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليه بالمؤمنين رءوف رحيم . — نبى سرى . قدره على ، وبرهانه جلى ، خير الخليفة أما وأبا . وأزكاهم حسبا ونسبا ، خالق الله لأجله الكونين ، وأقر به من كل مؤمن العينين ، وجعله نبى الأنبياء ، وآدم منجدل في طينته ، وكتب اسمه على العرش ، إعلاما بمرتبه عنده وفضيلته ، وتوسل به آدم ، فتاب عليه ، وأخبره أنه لولاه ما خلقه ، وناهيك بها مزية لديه .

نبى خص بالتقديم قدما وآدم بعدد في طين وماء
كريم بالحيا من راحته يجود وفى المحيا بالحيا

ومن خصائصه ، فيما ذكره الغزالي وغيره ، أن الله ملكه الجنة ، وأذن له أن يقطع منها من يشاء ما شاء وأعظم بذلك منة ، وخصه بطهارة النسب تعظيما لشانه . وحفظ آباءه من الدنس ، تسميا لبرهانه ، وجعل كل أصل من أصوله ، خير أهل زمانه . الخ .

٢ — ومن كتابه «السكنز المدفون» :

قال في الحكم : « افرح بمالم تنطق به من الخطاب ، مثل فرحك بما نطقت به من الصواب ، أحزم الناس من وقى نفسه بماله ، ودينه بنفسه ، الإخوان في الله ،

عز وجل ، ذخائر في الشدائد ، ما أنصفك من منعك ماله ، وكلفك إجلاله . ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والتكبر عند الاستغناء .

ومن حكاياته ، قال : جاءت امرأة إلى قاض ، فمالت : مات زوجي ، وترك أبوي ، وولدا وأهلا وامرأة . فقال : لأبويه الثكل ، ولولده اليتيم ، ولامرأته الأليم ، ولأهله القلة والذلة ، والمال يُحمل إلى ههنا لئلا تقع بينكم الخصومة .

ومن لغوياته ، قال : وفائدة : الصيدلاني : هو العطار — النحاس : دلال الرقيق — الجهد : الجاني — ، القسطار : الصيرفي — الحداد : البواب — القرموصي : الفاخرائي — الملاح : رئيس السفينة — القينة : المغنية — القصاب : الجزار — الفرستون : القبان .

٣ — وترجم لشيخه ، الشُّمُتْنِي ، في الجزء الأول من حسن المحاضرة ، فقال : قدوة عين الزمان وإنسانها ، وواحد عصره في العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها ، وشجرة المعارف التي طاب أصلها ، فزكت فروعها وأغصانها ، ورياض الآداب التي فاضت ينابيعها ، وفاحت زهورها ، وتنوعت أفنانها ، إن أخذ في التفسير ، كلُّ عنده الكشف واختفى ، أو الحديث ، كان عن ألفاظه الغربية مزيل الخفا ، أو الفقه ، عُدد للنعمان شقيقا ، أو النحو ، كان للخليل رفيقا . أو الكلام ، فلو رآه النظام اختل نظامه ، ولو أدركه صاحب المواقف ، لقال : أئت في كل موقف ، مقدمه وإمامه . . الخ

كتابته العلمية :

للسيوطي أسلوب علمي ، ديج به مؤلفاته التي لا تحصى ، وقد نوهنا بأوصافه فيما مر . ويغلب عليه روح التحدث والقص والسرد ، في غير غموض أو إبهام ، ولا سيما في حوادث التاريخ ، كما في حسن المحاضرة ، غير مقيد بسجع أو بديع . وهو مع سرده الحديث واسترساله ، لم يسف ، ولم ينزل إلى العامة إلا لماسا . — ويهتم السيوطي بالرواية ، وينقل عن كثيرين ، فينص عليهم ، وعلى مواضع نقله

من مؤلفاتهم . ويخشُن أسلوبه ، عادة ، إذا كان بصدد علم كالنحو . ولهذا ، شتان بين أسلوبه في حسن المحاضرة ، وأسلوبه في المزهر ، مثلاً .

السيوطى الشاعر :

ولم لا يكون شاعراً ؟ أليس أديباً مطلعاً ، ألم نشعر بما له من حساسية الشاعر ؟ هو فى هذه الناحية شبيه بابن حجر العسقلانى ، وجهتهما حيانهما العلمية بعيداً عن الأدب الذى هو مزاج لنفسيهما ، فكانا يعاودانه الفينة بعد الفينة . وتترامى على شعرهما المسحة العلمية . وإن كان ابن حجر أرق وأغزل من السيوطى .

ونظم السيوطى فى الإخوانيات والرائى ، والمدح النبوى ، ووصف الأحداث العامة . غير أنه ذوباع طويل فى نظم العلوم والفنون . ونذكر له فى هذا الغرض الأخير ، القصائد الآتية :

- ١ - التبرى من معرة المعرى : أرجوزة فى أسماء الكلب . ٢ - تحفة الظرفاء فى أخبار الخلفاء : ذكر فيها أسماء الخلفاء وسنوات وفاتهم . ٣ - الخلاصة : وهى نظم كتاب الروضة فى الفقه . ٤ - جواهر العقود : فى الفقه أيضاً . ٥ - الفريدة : ألفية فى النحو والصرف والخط . ٦ - قطف الثمر فى موافقات عمر : أرجوزة فى موافقات سيدنا عمر للتنزيل . ٧ - مختصر ملحة الإعراب للحريرى : فى مائة وعشرين بيتاً . ٨ - موشحة فى النحو . ٩ - النهى : قصيدة رائية فى الفقه . ١٠ - التثيت عند التبييت : وهو مخطوط ، عبارة عن أرجوزة مزدوجة فى سؤال الميت فى القبر وما يتصل بذلك .

هذا ، وله إلى جانب ذلك شعر كثير ، منه : ١ - نظم البديع فى مدح خير شفيع : وهى بديعية عارض بها بديعية ابن حجة الحموى فى مدح الرسول عليه السلام ، وقد وضع لها شرحاً . ٢ - نور الحديقة : مجموعة من نثره وشعره ومنتخبات من ديوان شعره الكبير .

وإليك نماذج من شعره :

١ - روى ابن إياس في البدائع ج ٤ عام ٩١٠ هـ ، أنه لما انتشر الوباء في العام المذكور، وقتك بالناس ، قال : وقال شيخنا السيوطي ، :

يارب بالهادي النبي المجتبي أغمد عن الإسلام أسياف الوباء
يارب لا تشكو أليم عذابه إلا إليك فقد أخاف وأرعبا
كم حل في دار فبدد شمل من فيها فلا يجدون منه مهربا
يارب لطفًا بالعباد فما لهم رب سواك يقيهمو المستصعبا
إنا اعترفنا بالذنوب فكلنا عاص مسمى للعذاب استوجبا
لسكن إذا قرنت عظيم ذنوبنا بعظيم عفوك كان عفوك أغلبا
إن كان لا يرجوك إلا محسن في العالمين فمن يجير المذنب

٢ - وقال من قصيدة في نحو خمسين بيتا ، يرثي شيخه الشمني المتوفى في ذى الحجة عام ٨٧٢ هـ :

رزء عظيم به تستنزل العبر وحادث جل فيه الخطب والغبر
رزء مصاب جميع المسلمين به وقلهم منه مكلوم ومنكسر
ما فقد شيخ شيوخ المسلمين سوى انهدام ركن عظيم ليس ينعمر
رزيتة عظمت بالمسلمين وقد عمت وطمت فما للقلب مصطبر
تبكيه عين أولى الإسلام قاطبة ويضحك الفاجر المسرور والغمر
من قام بالدين في دنياه مجتهدا وقام بالعلم لا بالواو يقتصر
كل العلوم تنساغيه وتنشده لما قضى مهلا يأبها البشر
إذ كان في كل علم آية ظهرت وما العيان كمن قد جاءه الخبر . الخ .

[حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٥]

٣ - وقال في مطلع قصيدته ، « التثبيت عند التثبيت ، وموضوعها :

الكلام عن سؤال الميت في قبره ، وأنه حق ، وأن الإيمان به واجب . وتعتبر من
شعر العلوم والفنون ، قال :

الحمد لله على الإسلام والشكر لله على الإنعام
وأفضل الصلاة والثناء على النبي خاتم الأنبياء
وآله أهل التقى وصحبه وجنده أهل النهى وحزبه
وهذه أرجوزة مفيدة ضمنها فوائد عديدة
في فتنة المقبور حين يسأل وما أتى به النبي المرسل
اعلم هداك الله للرشاد موقفا لطرق السداد
أن الذي عليه أهل السنة لحجج أمضى من الأسنة
أن سؤال الملوك من قبر حق به الإيمان فرض قد شهر
أتى به القرآن بالإشارة ووافقت آياته آثاره
تواترت به الأحاديث التي قد بلغت سبعين عند العدة
والآية السؤال فيها كامن يثبت الله الذين آمنوا .. الخ.

وفاة السيوطي :

كانت مدة حياته نحواً من اثنتين وستين سنة . وافته منيته بعد حياة حافلة
مباركة ، في ٩ جمادى الأولى عام ٩١١ هـ . وقد قال عنه ابن إياس ، في حوادث
اليوم المذكور ، بالجزء الرابع من بدائع ، مانصه :

وكانت وفاة شيخنا الحافظ العلامة ، جلال الدين السيوطي ، . . . وكان
علماً فاضلاً بارعاً في الحديث الشريف وغير ذلك من العلوم ، وكان كثير الاطلاع
نادرة في عصره ، بقية السلف وعمدة الخلف . بلغت عدة مصنفاته نحواً من
ستمائة تأليف ، وكان في درجة المجتهدين في العلم والعمل .

ولما مات ، دفن بجوار خانقة قوصون ، التي هي خارج باب القرافة ،
 قيل : لما غسل أخذ الغاسل قيصه وقبعه ، فاشترى بعض الناس قيصه من الغاسل ،
 بخمسة دنانير ، للتبرك به ، وابتاع قبعه الذي كان على رأسه ، بثلاثة دنانير للتبرك به .
 ولما مات ، رثاه شيخنا عبد الباسط ^(١) بن خليل الحنفى ، بهذه الآيات ،
 وهي قوله :

مات جلال الدين غوث الورى مجتهد العصر إمام الوجود
 وحافظ السنة مهدي الهدى ومرشد الضال ^(٢) لنفع يعود
 فيا عيون انهملى بعده ويا قلوب انفطرى بالوقود
 وأظلى دنيائى إذ حق ذا بل حق ان ترعد فيك الرعود ، إلخ ..

« ترجمته في : (١) كتابه حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ (٢) بدائع ابن عباس ج ٢
 ص ٢٩ ، ١١٩ ، ١٤٢ ، ١٦٩ ، ٢٣٦ ، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٣٠٧ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٩١ —
 ج ٤ حوادث شوال عام ٩٠٦ هـ ، وذى الحجة عام ٩١٠ هـ ، وجهادى الأولى عام ٩١١ هـ ،
 وص ٨٣ ، ٧٩ ، ٦٥ — ج ٣ ص ٦٢ (٣) الضوء اللامع للسخاوى ج ٤ رقم ٢٠٣
 (٤) البدر السافر للبيدروسى . (٥) جورجى زبدات ج ٢ ص ٢٢٩ . (٦) عقود
 الجوهر لجبل العظم ج ١ ص ١٩٤ . (٧) ولتيمور باشا رسالة فى تحقيق قبر السيوطى ، منه
 بدار الكتب ، نسخة مطبوعة (تاريخ رقم ٣٢٥٣) . »

١ — الشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفى كان شاعراً ومؤرخاً وفقهياً ، وتوفى عام ٩٢٠ .
 رواه ابن عباس فى البدائع ج ٣ ص ٦٣
 ٢ — هكذا فى الأصل .

١٢- زين الدين زكريا الأنصارى^(١) ٨٢٤هـ - ٩٢٦هـ

هو خاتمة علماء العصر وأحد أفذاذ الدهر ، وذائد من ذادة الحق والبيان ، وقائد من قادة الدين واللسان . شيخ الإسلام الجليل ، والقاضى العف النزيه . الورع التقى ، العالم الفاضل ، الثبت المناضل ، ذو القول الفاضل . المبارك عمره ، الحافلة حياته .

وهو زين الدين أبو يحيى ، زكريا بن محمد بن محمد الأنصارى ، السنيكى القاهري الأزهرى الشافعى المذهب ، ورأس شافعية زمانه .

مولده ووفاته :

ولد زكريا الأنصارى فى قرية سنيكة من أعمال الشرقية فى عام ٨٢٤هـ ، ومات فى يوم الأربعاء ثالث ذى الحجة عام ٩٢٦هـ ، بعد حياة كريمة مليئة بالعمل الطيب الصالح ، قدرها نحو مائة وستين . فهو أحد المعمرين .
شئ من حياته :

أقام الأنصارى بقريته ردحا من الزمان ، حفظ فيه القرآن ، وعمدة الأحكام ، وبعض مختصر التبريزى فى الفقه . ثم يم شطر القاهرة طلبا للعلم ، فى عام ٨٤١هـ ، فسكن الأزهر . وأتم حفظ المختصر ، كما حفظ عدة كتب أخرى ، هى عدة الطالب وسند الراغب ، ومنها : المنهاج الفرعى ، وألفية النحو ، والشاطبيتان ، وبعض المنهاج الأصلى ، ونحو نصف ألفية الحديث . وبعض كتاب التسهيل ، ثم غاب عن القاهرة ببلده ، فترة من الزمن ، عاد بعدها إليها ، يرتشف رحيق العلم ، وينهل من مناهل الأدب ، ويتردد على مجالس العلماء . من الجلة الفضلاء ، بروج مشغوفة توافقه ، ونفس كلفة مشتاقه . فتلقى دروس الفقه على القاياتى وعلم الدين البلقينى وابن حجر العسقلانى ، وشرف الدين السبكى ، وشرف الدين المناوى وغيرهم . ودرس أصول

١ - كتبنا عنه كلمة فى باب القضاء بالجزء الأول من هذا الكتاب . - وقد ذكر ابن إياس أن مولده كان فى سنة ٨٢٤هـ وروى السخاوى أنه كان فى سنة ٨٢٦هـ .

الفقه على القاياني أيضاً ، والكافيجي ، وعزالدين عبد السلام البغدادي ، وابن الهمام ،
والشمسي وغيرهم . وقرأ على بعض هؤلاء ، دروساً في النحو والبلاغة واللغة
والتفسير . كما درس علم الهيئة والهندسة والميقات والفرائض والحساب والجبر
والمقابلة وشيئاً في الطب والتصوف والقراءات والسيرة والتاريخ . وقد سمع الحديث
النبوي ودرسه في صحيح مسلم وسنن ابن ماجه واللساني ، وغيرهما . وكان من
أساتذته في الحديث ، بعض من تقدم من الشيوخ ، وكذلك المعز بن الفرات ،
والبرهان الصالحى ، وزين الدين رضوان ، وكان ملازماً له .

وقد حج في سنة ٨٥٠ هـ ، وسمع الحديث من بعض الشيوخ بمكة كالشرف
أبي الفتح المراغى ، والتقى بن فهد ، وأبي اليمن النويرى وغيرهم .

وقد أجاز له كثيرون من أساتذته كابن حجر ، بالإفتاء والإقراء . فاستمد من
الله العون ، ونصدي للتدريس ، فنخرج به كثيرون من الأفاضل . وقصده الناس
طلباً للفتوى ، في حياة شيوخه .

وولى مناصب كثيرة جليلة منها مشيخة التصوف بجامع العلم بن الجيعان ،
ومشيخة التصوف بمسجد الطواشي علم دار ، والتدريس بترية الظاهر خشقدم ،
وتدريس الفقه في المدرسة السابقية ، كما تولى الدرس الذى قرره السلطان قايتباي
بجوار مسجد الشافعى ، ووكّل إليه نظر وقفه ، ونظر القرافة ، وفي آخر عمره
تولى التدريس بمشيخة الجمالية .

وكان السلطان خشقدم من قبل ، قد عرض عليه منصب القضاء الأكبر ،
فأبى . أما قايتباي ، فما زال به حتى قبله في ٣ رجب عام ٨٨٦ هـ ؛ بعد تمنع وتأب
وشروط ، قبل قايتباي بعضاً منها . وقد مارس القضاء بنزاهة وكفاية ودراية
ونقوى وحفاظ على العدالة . ورعاية للحق . وسعى إليه الجاه ، وامتد صيته في
الآفاق ، وأصبح شيخ الإسلام في عصره غير منازع . وقد لبث في دست القضاء
مدة طويلة تبلغ زهاء عشرين عاماً متوالية ، وهى ظاهرة فذة في تاريخ القضاء - على

ما نعلم - في هذا العصر ، الذي قصرت فيه آجال القضاة في مناصبهم ، لتنافسهم في سبيل بلوغه ، واستباحة الوساطة ، والرشوة إليه .

ولما ضعف الشيخ في عام ٩٠٦ هـ ، فصل نفسه من القضاء في شهر صفر ، ثم أعادته إليه الملايسات مضطرا ، ثم اعتزله ثانية إلى غير عودة ، في يوم الخميس ثامن ذى الحجة من نفس العام .

وقد كف بصره بأخرة ، وأطال الله عمره ، وبارك له في أجله ، وعاصر جملة من سلاطين الدولة الجركسية ، حتى شهد مصرع دولتهم على يد العثمانيين .

وقد كان الشيخ - رحمه الله - قرابة نصف قرن ، العلم البارز في البلاد والعالم المشار إليه ، والمستهدى به في مدلهات الأمور .

وقد اشترك الشيخ اشتركا كاما ، في فتنة ابن الفارض عام ٨٧٥ هـ ، التي انقسم فيها العلماء فريقين : فريق يكفر ابن الفارض ، لما فرط منه من ألفاظ توهم الحلول ونحوه ، وفريق يؤول كلامه ، ويعتذر له ، ويدافع عنه ويثبت إيمانه ، ومن هذا الفريق شيخ الإسلام الأنصارى . وكانت الفتنة قد استشرى خطرها وتطايير شررها بين العلماء ، وتابعتهم العامة في ذلك . حتى كتبت فتوى في الموضوع ودفعت إلى الشيخ ، فأقنى فيها بإيمان ابن الفارض ، واعتذر له بعجز لفته عن بلوغ معانيه . فهدأت ريح الفتنة ، وسكن أثرها ^(١) .

الأنصارى بين مدح السخاوى وقده :

ترجم السخاوى للشيخ زكريا الأنصارى ، في كتابه « الضوء » ، وقد شاد ببعض صفاته ومميزاته ، غير أنه لم يسلم من خفقات لسانه وضربات نقده ، كما هو شأنه في ترجمة كثير من أعلامه . ونعرض هنا شيئا من مدحه وقده فيه .
فما مدحه به : أنه كان إماما فاضلا ، درس الجرم من العلوم . وأنه ألف في أغلب

١ - فصلنا الحديث عن هذه الفتنة في الجزء الأول من هذا الكتاب - القسم الثاني من ٤١٣ - فراجعها وراجع أيضا حادثة المشالي رقم ١٦ من ٤٠٧ بالقسم الثاني كذلك . وفيها كان للشيخ الأنصارى موقف .

هذه العلوم مؤلفات ثمينة ، منها ما كان يدرس في حياته ، وطار ذكره في الآفاق ، ككتابه « شرح البهجة الوردية » . وأنه قرأ على طلابه كثيرا من مؤلفاته بنفسه . وأنه كان متواضعا حسن العشرة ، في أدب جم ، وعفة تامة ، وانجماع عن بنى الدنيا ، وثقل من ملاذ الحياة ، وسمو في النفس ومزيد من العقل ، وسعة في الإدراك ، وتحمّل للناس ، وتحمل ، ومدارة ومسايرة ، كفا للقليل والقال ، مع تودد وحب للخير ، ومع تهجد وإقبال على العبادة . وأنه خرّج الفضلاء ، وربط بينه وبين الناس بصلة ود ، ورابطة صداقة . ومن أخصهم السخاوى نفسه ، فقد كانا صديقين حميمين . .

ومما قدح فيه به : أنه مع توافد الطلاب عليه ، وأخذ الفضلاء عنه ، كان أقلّ علما من غيره ، وكان هؤلاء الفضلاء يعلمون حقيقة شأنه . . ولكن الحظ أغلب . . — ويرى السخاوى من وراء ذلك ، إلى أن الانصارى كان محظوظا لحسب ، وأن ما رزقه من الصيت ، لا يتكافأ مع منزلته في العلم .

واتهمه السخاوى بأنه أخذ يشرح الحديث — في غيبة السخاوى — بلفظه — أى بلفظ السخاوى . وقال بالنص : « كنت أتوهم أن كتابته أمتن من عبارته ، إلى أن اتضح لى أمره ، حين شرع في غيبتي يشرح أثنية الحديث ، مستمدا من شرحى ، بحيث عجب الفضلاء من ذلك . وقالت لهم من ادعى ما لم يعلم ، كذب فيما علم . » والسخاوى بذلك يطعنه طعنة مصمية ، إذ يصمه بالسرقة من كتبه ، ونسبة كلامها إلى نفسه ، ويتطرق من ذلك إلى التشكيك في بقية علمه . وأعتقد أن السخاوى غير مصيب في هذا الادعاء . وقد يكون الانصارى ، اعتمد على بعض شروحه ، وبخاصة وقت درسه إلى طلابه . وهذا أمر معتاد بين العلماء والمدرسين ، ولا يستحق أن يوصم المرء لذلك بالسرقة والكذب ، وأن يُشكك في علمه .

ومما اتهم به ، أنه كان يعظم ابن الفارض وابن عربى . والسخاوى بذلك يُبهم أن الانصارى يدين بما يدينان به هما وأمثالهما . وكان يرى فيهما حلوليين ، لا يستقيم مذهبهما ، مع مذهب السلف وأهل السنة . ولكننا إذا رجعنا إلى فتوى

الأنصارى الخاصة بابن الفارض ، عند اشتداد الفتنة بين علماء العصر بسببه ، عام ٨٧٥ هـ — كما نوهنا — يرى رأى الأنصارى فى ابن الفارض واضحاً جلياً . وخلاصة هذا رأى ، أن ابن الفارض لم ينحرف ، ولم يقل بالاتحاد أو الحلول — فهو ينفيهما عنه — ويحمل عباراته على قصور اللغة عن أداء حالاته الشعورية ، وعلى التجوز فيها . وقد قال الأنصارى فى مطلع هذه الفتوى : « يُحمل كلام هذا العارف — رحمة الله عليه ، ونفع ببركاته — على اصطلاح أهل طريقته ، بل هو ظاهر فيه عندهم . إذ اللفظ المصطلح عليه ، حقيقة فى معناه الاصطلاحى ، مجاز فى غيره كما هو مقرر فى محله . ولا ينظر إلى ما يوهمه تعبيره فى أبيات فى التائية من القول بالحلول والاتحاد ، فإنه ليس من ذلك فى شيء ، بقرينتى حاله ومقاله ، المنظوم فى تائيته بقوله من أبيات فى القصيدة :

ولى من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأى الحلول عقيدتى . . الخ
ويتضح من هذا أن الأنصارى ينفى اعتقاد الحلولية والاتحاد عن ابن الفارض . ولا يهمنى فى هذا المقام تمحيص رأى بالنسبة لابن الفارض ، بل بالنسبة للأنصارى نفسه ، فأدنى ما يشعر به ، توضيحه أنه هو نفسه لا يدين بالحلول ولا بالاتحاد . وإذن فلا غبار عليه . ثم لا غبار عليه إذا مال إلى ابن الفارض ودافع عنه على هذا الأساس .
وبما اتهم به أيضاً : أنه لما ولى نظر بعض الأوقاف ، كانت ولايته نقمة على المستحقين المسلمين ، ولهذا صرفه السلطان عن نظر القرافتين . . وهو يرميه هنا بسوء تصرفه وجهالته وظلمه للمستحقين . وتأبى لباقة السخاوى ، إلا أن تقحم لفظ « المسلمين » هنا بجوار المستحقين ، ليكون لها أثرها الفعال فى عاقبة نقده . ويُعقب على سوء تصرف الأنصارى بقوله ، ولكن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وكأنى به يدعى عليه بسرقة المال وحرمان المستحقين منه . .

والغريب أن السخاوى الذى يقول هذا القول فى الأنصارى ، يقول إنهما صديقان حيمان ، وأنه ولى القضاء بنزاهة وكفاية . وأنه تعفف عنه زمناً طويلاً . .

مؤلفاته :

كان الأنصارى لا ينى يمارس التأليف ، على الرغم من مشاغله الكثر ، ولم يقتصر تأليفه على علم واحد ، بل امتد أفقه إلى علوم جمة ، فألف فى النحو والصرف والفقه والأصول والقراءات والبلاغة ، والفرائض ، وآداب البحث والمنطق ، والتفسير وشرح الحديث والفلسفة والأدب ، والعروض والقافية والتوحيد - غير أن الملاحظ بصفة عامة ، أن أكثر مؤلفاته مختصرات أو شروح على كتب أخرى من مؤلفات من تقدمه ، أو من مختصراته هو نفسه . كما أن بعضها معقد العبارة يحتاج إلى توقيف . وقد ذكر السخاوى بعض مؤلفاته فمنها :

- ١ - فتح الوهاب بشرح الآداب ، قال السخاوى إنه فى آداب البحث .
- ٢ - غاية الوصول إلى علم الفصول : وهو شرح كتاب « الفصول » لابن الهائم فى الفرائض وقد مزج فيه الشرح بالمتن . ٣ - منهج الوصول إلى تخريج الفصول : وهو شرح آخر للفصول ، غير ممتزج بمتنه ، وهو أسهل الشرحين . ٤ - التحفة الانسية لعلق التحفة القدسية : وهو شرح كتاب « التحفة القدسية » لابن الهائم فى الفرائض كذلك . ٥ - نهاية الهداية فى تحرير الكفاية ، وهو شرح كتاب ابن الهائم المسمى « الكفاية » . ٦ - الغرر البهية فى شرح البهجة الوردية : وهو شرح لبهجة الحاوى . ٧ - تنقيح اللباب لولى الدين العراقى ، وهو فى الفقه والأصول . ٨ - مختصر الروضة لابن المقرئ ، المسمى بالروض . ٩ - حاشية على شرح البهجة للولى العراقى . ١٠ - شرح شذور الذهب لابن هشام المصرى : فى النحو . ١١ - شرح بعض الألفية : فى النحو . ١٢ - شرح مقدمة التجويد لابن الجزرى : فى القراءات . ١٣ - مختصر قرّة العين ، فى الفتح والإمالة بين اللفظين ، لابن الناصح : فى القراءات . ١٤ - أحكام النون الساكنة والتنوين والمد والقصر . ١٥ - شرح إيساغوجى فى المنطق . ١٦ - شرح المنفرجة فى المنطق ، وهو مطول ، وله شرح آخر مختصر .

ومن كتبه بدار السكتب المصرية — وأكثرها مخطوط — ، ومن بينها بعض ما ذكرناه :

- ١ — في القراءات : تحفة نجباء العصر ، في أحكام النون الساكنة والمد والقصر. الدقائق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية. المقصد لتلخيص ما في المارشد.
- ٢ — في التفسير: فتح الرحمن بكشف ما يلبس من آي القرآن. فتح الجليل ببيان خفي أنوار التنزيل : وهو تعليق على تفسير البيضاوي. مقدمة في الكلام على البسملة والحمدلة وعلى الحمد والشكر والمدح لغة وعرفا . ٣ — في مصطلح الحديث : فتح الباقي بشرح ألفية العراقي . ٤ — في الحديث : شرح الأربعين النووية . فتح العلام بشرح الأعلام بأحاديث الأحكام . ٥ — في علم الكلام : لوامع الأفكار في شرح طوابع الأنوار . ٦ — في المنطق : المطالع وهو شرح إيساغوجي لأثير الدين الأبهري . شرح ضابطة إنتاج الأشكال الأربعة لسعد الدين التفتازاني . ٧ — في التصوف والأخلاق : إحكام الدلالة على تحرير الرسالة ، وهو شرح على الرسالة القشيرية . رسالة فيما تداولته الصوفية من الأقوال . فتح الرحمن بشرح رسالة الولي رسلان . الفتوحات الإلهية في نفع أرواح الذرات الإنسانية . ٨ — في أصول الفقه : حاشية على التلويح لسعد التفتازاني ، طبع الهند . حاشية على شرح الجلال المحلى على جمع الجوامع . غاية الوصول إلى شرح لب الأصول . فتح الرحمن بشرح لقطة العجلان وبله الظمان ، للشيخ محمد بن عبد الله الزركشي . لب الأصول : وهو مختصر من جمع الجوامع للسبكي . ٩ — في فقه الشافعية : تحرير^(١) تنقيح اللباب : « لباب الفقه لأبي الحسن المحاملي . والتنقيح لولي الدين العراقي . والتحرير للأنصاري وهو اختصار التنقيح ، فتح الوهاب بشرح تنقيح

(١) تحرير التنقيح غير فتح الوهاب المذكور بعده فالأول مختصر، والتنقيح والثاني شرحه. — وللشيخ عبد الرؤوف المناوي الحدادي شرح على تحرير التنقيح اسمه « احسان التقرير في شرح التحرير » مخطوط رقم ١١٥٩ فقه بدار السكتب المصرية ، ولأنصاري نفسه شرح على التنقيح ، وهو التحفة المذكورة بعده .

الباب . عماد الرضا ببيان آداب القضا^(١) . الفرر البهية في شرح البهجة الوردية :
 في ثلاثة مجلدات . ويبدو أنها شرحها الكبير . فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب .
 فتيا في الرد على من قال بكفر ابن الفارض . منهج الطلاب : طبع ١٠ — في
 الفرائض : غاية الوصول إلى علم الفصول ، وهو شرح على ، الفصول المهمة في علم
 ميراث الأمة ، لابن الهائم . الفتحة الانسية لغلق التحفة القدسية في اختصار
 الرحبية : وهو شرح على كتاب ، التحفة القدسية ، لابن الهائم أيضا . منهج الوصول
 إلى تحرير الفصول : وهو شرح آخر على كتاب الفصول لابن الهائم . نهاية الهداية
 إلى تحرير السكفاية . ، والسكفاية لابن الهائم ، كذلك . ١١ — في التصوف أيضا :
 تلخيص الازهية في أحكام الادعية ، والازهية لبدر الدين الزركشى ، الفتوحات
 الإلهية في نفع أرواح الذوات الإنسانية : وهو مختصر في التصوف فيه عشرة فصول .
 المؤلفون النظم في روم التعلم والتعليم . ١٢ — في اللغة وفنونها : الحدود الانيقة
 والتعريفات الدقيقة . المناهج الكافية في شرح الشافية . بلوغ الأرب بشرح
 شذور الذهب لابن هشام . الدرة السنية على شرح الألفية . أقصى الأمانى في علم
 البيان والبدیع والمعاني . ملخص تلخيص المفتاح ، ، التلخيص للجلال القزويني ، ،
 فتح رب البرية بشرح القصيدة الخزرجية .

هذا وقد شرح الشيخ الأنصارى كتابه ، أقصى الأمانى ، بكتاب آخر اسمه :
 ، فتح منزل المثاني ، وقد طبع ، ومنه نسخة بدار السكتب بالمنصورة .

التعريف ببعض هذه المؤلفات :

١ — منهج الطلاب :

كتاب مطبوع متوسط الحجم ، اختصر فيه مختصر المؤلف الإمام أبي زكريا النووي ،

(١) للشيخ عبد الرؤوف المناوي الحدادي شرح على هذا الكتاب اسمه « فتح الرؤوف
 القادر » مخطوط رقم ٢٢٤ فقه بدار السكتب المصرية .

المسمى : « منهاج الطالبين » ، في فقه الشافعية وأصوله . وضم إليه ما تيسر له من المعلومات ، مع تغيير بعض ألفاظه بأوضح منها .

وقد اجتمع في هذا الكتاب كثير من أبواب الفقه . وعبارته مثقلة مثودة بمصطلحات الفقه وضرورات الاختصار ، وحذف ما يعود عليه الضمير ، أحيانا ، كما هو الشأن المرعى في أساليب الفقهاء ، مما لا يزال له أثره حتى اليوم . وإليك بعضاً من عباراته ، مما قاله في باب الوضوء :

« فروضه نية رفع حدث لغير دائمة ، أو وضوء ، أو استباحة مفتقر إليه . مقرونة بأول غسل الوجه وله تفريقها على أعضائه ، » .

وقال : « وغسل وجهه ، وهو ما بين منابت شعر رأسه وتحت منتهى لحية ، وما بين أذنيه فنه محل غم لا تجذيف ونزعان . ويجب غسل شعره لا باطن كشيف خارج عنه ، ولحية عارض . وبعضها . وتميز من رجل . وغسل يديه بكل مرفق ، » . وهكذا . وهذه النسخة غلطات مطبعية كثيرة .

٢ - فتح الرحمن :

اطلعت على نسخة من هذا الكتاب مطبوعة عام ١٣٢٨ هـ ، ١٣٢٩ هـ في نحو ٧٧ صفحة .

وهذا الكتاب شرح للشيخ الأنصاري على متن « لقطه العجلان وبله الظمآن » ، في فن الأصول للإمام محمد بن عبد الله الزركشي . ولا يعدو الشرح أن يكون تفسيراً للفظ أو توضيحاً للمعنى أو إعراباً للجملة أو تعليقا يسيراً يزيد المعنى بيانا أو استدراكا على ما فات العبارة . ويتخلل ذلك بحوث نفسية وكلامية وبلاغية ، ومنطقية استلزمها السياق .

ومن فصوله : « فصل في مدارك العلوم ، تكلم فيه عن الحواس ومدركاتها ، وأفضلية كل منها وسببها . ومنها : « فصل في مدارك الحق ، تكلم فيه عن الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وما قيل في كل منها باعتبارها مصادر التشريع . ومنها

فصل في : التعريف ، تكلم فيه عن أقسام التعريف وأنواع كل قسم . وبين التام والناقص ، وفرق بين الجنس والفصل . وهكذا مما يعرفه المناطق .

ويتخلل الكتاب فصول أخرى ممتعة على هذا المنسق بأسلوب واضح مشوب بالفاظ اصطلاحية .

ولهذه النسخة شرح مكتوب على هامشها . أى شرح للشرح . وهو حاشية قررها أحدهم ويسمى الشيخ يس . وقد استغرقت جانباً كبيراً من الكتاب .

٣ - فتح منزل المثاني بشرح أقصى الأمانى :

كتاب في نحو ١٢٣ صفحة من الحجم المتوسط . طبع عام ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م بمطبعة الجمالية بمصر .

وموضوعه علوم البلاغة . وهو شرح لمختصر . والمختصر للشيخ زكريا الأنصارى أيضاً ، أخذه عن كتاب تلخيص المفتاح ، للعلامة جلال الدين القزوينى . والمفتاح للسكاكى كما هو معلوم . فالكتاب إذن شرح لمختصر التلخيص . - وقد كتب المتن - وهو مختصر الشيخ زكريا - جملتين قوسين ، ومن بعدهما شرحه . وهكذا .

والمتن هنا غير المتن الذى سنذكره بعد للشيخ زكريا أيضاً ، والمسمى «ملخص تلخيص المفتاح» .

وقد بسط الشارح مسائل البلاغة فى شرحه بعض البسط ، مستبدلاً بكلام القزوينى ، ما تدفع الحاجة إليه ، حاذفاً منه ضروباً كثيرة من ضروب الخلاف والأمثلة .

وقد رتب على مقدمة وثلاثة فنون : المقدمة فى معنى الفصاحة والبلاغة . والفن الأول فى : المعانى . ومن مطالبه : أحوال الإسناد الخبرى ، والمسند إليه ، والمسند ، ومتعلقات الفعل ، والقصر ، والإنشاء ، والوصل ، والوصل والإيجاز والإطناب

والمساواة . — والفن الثاني في : البيان . ومن مطالبه : التشبيه ومقاصد الحقيقة
والمجاز والسكناية . — والفن الثالث في : البديع .

ولم يخرج ، أو لم يكد يخرج ، المؤلف ، في متنه عن عبارة السكاكي في « المفتاح » .
ولم يخرج أو لم يكد يخرج في شرحه عن عبارة سعد الدين التفتازاني في شرح
المفتاح المشهور . وقد نص المؤلف بنفسه على هذا ، حيث قال في المقدمة عن نفسه
« سالك فيه غالباً عبارة السعد التفتازاني ، لسكونها منقحة محررة كثيرة المعاني » .
وعبارة الشارح في الشرح والمتن معاً ، سهلة قريبة التحصيل لمن له صلة بما بعلم
البلاغة ، بخلاف عبارته الفقهية . غير أنه أبى في عبارة المقدمة إلا أن يكون سجّاعاً
ومتكلفاً على نمط مؤلفي عصره . وقد قال مبيناً غرضه من تأليفه : « كنت اختصرت
تلخيص المفتاح في علم المعاني والبيان والبديع ، تأليف العلامة جلال الدين القزويني
— رحمه الله — في كتاب سمّيته « بأقصى الأمان في علم البيان والبديع والمعاني » .
وقد سألتني بعض الأعيان على من الفضلاء المترددين إلى أن أشرحه شرحاً يحل
ألفاظه ، ويفك شظائره ، ويبين مراده ، ويتم مفاده . فأجبتني إلى ذلك ، بعون
القادر والمالك » .

٤ — ملخص تلخيص المفتاح :

كتاب صغير الحجم في نحو ٢٣ صفحة طبع طبعته الأولى عام ١٣٢٢ هـ . وهو
في علوم البلاغة ، مختصر عن تلخيص مفتاح السكاكي . والتلخيص للقزويني ،
فهو شبيه بكتابه « فتح منزل المثاني » ، ولا يكاد مؤلفه يخرج عن عباراته إلا شكلاً ،
لا موضوعاً . . فهو مقسم كذلك إلى مقدمة وثلاثة فنون كسابقه تماماً . وأهم
الفروق بينها أن « فتح منزل المثاني » ، أكثر بسطاً ، ومزود بالأمثلة والشواهد
الضرورية . أما ، ملخص التلخيص ، فأقل بسطاً ، وهو خال من الشواهد والأمثلة ،
رصدت فيه القواعد العلمية رصداً ، جافة عارية عما يُعينها من النماذج .

٥ - المطلع :

كتاب متوسط الحجم طبع طبعته الأولى بمطبعة الجمالية بمصر عام ١٣٢٩ هـ ويقع في نحو ٢٥ صفحة . شرح به متن إيساغوجي في المنطق . ألفه الشيخ الأنصاري ، وقال في مقدمته : « هذا شرح لطيف لكتاب العلامة أثير الدين الأبهري — رحمه الله — المسمى بإيساغوجي في علم المنطق . يحل ألفاظه ويبين مراده ويفتح مغلقه ويقيّد مطلقه ، على وجه لطيف ومنهج منيف ، وسميته « المطلع » .

هذا ، وكتاب إيساغوجي في علم المنطق ، كتاب صغير في وريقات ، ألفه أثير الدين الأبهري متنا في هذا العلم . وهو معروف متداول في الدوائر التعليمية الأزهرية وله شروح كثيرة . منها شرح الشيخ زكريا « المطلع » ، المذكور . وقد تضمن المتن عدة أبواب منها : الدلالة الوضعية للفظ . والفرق بين اللفظ المفرد والمؤلف ، والكلّي والجزئي . والذاتي والعرضي . ثم تكلم عن القول الشارح ، وشرح معنى الحد والرسم التام والناقص . ثم تكلم عن القضايا وأنواعها وأركانها ، ثم التناقض والعكس . ثم القياس . وأنواع كل منها ، ثم تحدث عن البرهان وأنواعه . كل هذا في لفظ موجز جداً .

وقد شرح الشيخ زكريا هذا المتن في لفظ أطول قليلاً من لفظه . ولا بأس به : فهو أكثر إفهاماً من المتن ، وأسهل تعبيراً وأيسر بياناً . وبه بعض الاستطرادات والأمثلة النافعة .

٦ - الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة :

كتاب مخطوط يقع في نحو ٢٤ ورقة ، وهو في الأدب لأنه شرح للقصيدة المنفرجة المشهورة ، ومطلعها :

اشتدى أزمة تنفرجي قد آذن ليلى بالبلج

قال الشيخ زكريا في مقدمة شرحها ما يفهم منه وجود خلاف فيمن نظمها ، فقال : « قال أبو العباس أحمد بن أبي زيد البجائي أحد شراحها : إنها من نظم

الرباني أبي الفضل يوسف التوزري الأصل، المعروف بابن النحوي . - وقال العلامة تاج الدين السبكي في طبقاته : إنها من نظم أبي عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الأندلسي القرشي .

والقصيدة في العقائد والتصوف والتوكل ، لا في الأدب بمعناه المعروف . وقد سماها تاج الدين السبكي : « الفرج بعد الشدة » .

وقد شرحها الشيخ زكريا في هذا الكتاب المخطوط شرحاً ممتعاً نافعاً بلفظ سهل وعبرة لطيفة ، فقرأت تناولها وسهل فهمها في غير إبهام ولا معازلة .

٧ - شرح البسملة والحمدلة :

رسالة صغيرة مطبوعة في نحو ١٤ صفحة من القطع الصغير ، طبعت عام ١٣٠٨ هـ بالمطبعة البهية . فسر فيها الشارح البسملة والحمدلة شرحاً لطيفاً خفيف الوقع يسير المثونة . وتعرض بصفة خاصة لاشتقاق ألفاظهما والفوارق بينهما ، والفوارق بينهما وبين ما يرادفها من الألفاظ الأخرى . وتعرض لإعرابها وما قيل فيه .

وتكلم عن رسم « بسم الله » وهكذا . وهي رسالة نافعة طريفة .

٨ - فتح الرحمن بشرح رسالة الولي رسلان :

هي رسالة صغيرة للشيخ زكريا ، تقع في نحو ١٥ صفحة ، تصفحت نسخة منها مطبوعة عام ١٣١٧ هـ بمطبعة جريدة الإسلام ، ومجلدة في مجلد واحد مع كتاب للشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وهو كتاب « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » ، بدار كتب المنصورة رقم ١٨٤ ، تصوف .

وهذه الرسالة شرح لمتن في علم التوحيد وفي التصوف للإمام رسلان الدمشقي ، والمتن موجز يعتور عبارته الغموض والإلغاز والروح الصوفية . والشرح جلي ذلك بعض التجلية وأماط عنه اللثام بعض الإماطة .

وقد جرى على وضع ألفاظ المتن مجزأة بين قوسين وإتباع كل جزء بشرحه .
ومثال ذلك قوله : « واعلم ، أن علم التوحيد مطلوب . » قال ، الله تعالى فاعلم أنه
لا إله إلا الله . وهو مستلزم لانتفاء الشرك . والشرك نوعان : ظاهر جلي ، وقد ذكره
مع أقسامه ، الغزالي وغيره . وباطن خفي ، وهو ما استولت عليه النفوس من
الأكوان ، فنجبت بها عن تلقي المدد من عالم الغيب ، فصار ذلك شركا خفيا لم يده
عن حضرة القدس بشواهد الحس ، وقد ذكره المؤلف بقوله « كأك ، أيها العبد
ذاتا وصفاتا وفعلا » شرك خفي ، منشأ الوهم والخيال فإنهما يثبتان الغير كالمراتب
والمقامات الزائلة ، فإذا أفنيت عنك الغير بأن العلم الإلهي توحيدك النافي للشرك
بنوعيه المستلزم لنفي الوهم والخيال « وما يبين لك ، أي يظهر لك » توحيدك إلا
إذا خرجت ، أي فنيت أنت « عنك ، وعن سائر الأغيار بأن تراها كلها من الله .
والله خلقكم وما تعملون . ونسبة أعمالك إليك نسبة كسبية ، وإلى الله تعالى خلقية .
فالله تعالى خالق ، وأنت كاسب ، لتثاب أو تعاقب . « فكلما أخاصت ، بالخروج
عن ذلك » يكشف لك أنه ، تعالى « هو ، الفاعل الموجود » لا أنت .
وفاة الأنصاري :

قال ابن إياس في بدائع — ج ٣ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ما نصه :
« وفي يوم الأربعاء ثالث شهر ذي الحجة ، توفي الإمام العالم العامل ، شيخ
الإسلام والمسلمين ، مفتي الأنام في العالمين ، بقیة السلف وعمدة الخلف ، عالم
الوجود على الإطلاق ، ومن ذكره قد شاع في الآفاق . فهو آخر علماء الشافعية ،
بالديار المصرية . وانتهت إليه رئاسة الشافعية . فهو شيخ الإسلام زين الدين زكريا
ابن محمد بن محمد الأنصاري السنيكي الشافعي رحمة الله عليه . كان مولده في سنة
أربع وعشرين وثمانمائة ، ومات وله من العمر مائة سنة وستين بعدهما . وكان
رئيسا حشما في سعة من المال . وولى قضاء الشافعية في دولة الأشرف قايتباي ،
وأقام بها نحو عشرين سنة . ومات وهو معزول من القضاء . وقد كف بعمره قبل
وفاته بمدة طويلة . وحضر مبايعة خمسة من السلاطين وهم : الناصر محمد بن قايتباي

وخاله الظاهر قانصوه ، والأشرف جان بلاط ، والعاذل طومان باي ، والأشرف الغوري .

وولى تدريس قبة الإمام الشافعى رحمة الله عليه . وولى فى أواخر عمره مشيخة مدرسة الجمالية . وكان بيده عدة تداريس . وألف السكتب الجميلة فى العلوم المفيدة . وأفتى ودرس بالقاهرة نحو ثمانين سنة . وانتفع منه غالب الناس ، وخلف ولدا ذكرا من جارية سوداء .

فلما بلغ ملك الأمراء (١) وفاته ، أرسل إليه ثوبا بعلبكيا وخمسين دينارا ، على يد الأمير جانم الحزاوى . وحضر غسله وتكفينه والصلاة عليه . وأخرجت جنازته من عند المدرسة السابقة ، ومشى فى جنازته قضاة القضاة ، وأعيان الناس وصلوا عليه فى سبيل المؤمنين . ونزل ملك الأمراء ، وصلى عليه ، وحمل نعشه من سبيل المؤمنين ، أول ما طلوعوا . وكانت جنازته حافلة . فلما صلوا عليه ، توجهوا به إلى مقام الإمام الشافعى ، رحمة الله عليه . ودفن عند الشيخ محمد الحشبانى ، تجاه قبر الإمام الشافعى ، رضى الله عنه . فكان أحق بقول القائل حيث قال :

لقد عظمت رزيتنا فنبه لها عمرا ونم جنح الليالى
فلا زالت ذوو الأقدار تلقى من الأيام أنواع النكال .. الخ

ترجمته فى بدائع ابن ايس ج ٢ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٦٦ ، ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٢٩١ ، ٣٢١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٧ — ج ٤ : حوادث ذى الحجة عام ٩٠٦ هـ ، شوال عام ٩١٩ هـ — ج ٣ ص ٢١٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ — الضوء اللامع للسخاوى ج ٣ رقم ٨٩٢

والله سبحانه وتعالى أعلم



١ — ملك الأمراء هو الأمير خير بك . الذى ضلع مع العثمانيين ، فعينوه ملكا على الأمراء بمصر — كأنه سلطان — يحكمها واليا بالنيابة عن ملك العثمانيين .

الحمد لله

تم المجلد الثالث

وهو القسم الأول من الجزء الثاني من كتاب

« عصر سلاطين المماليك »

ونتاجه العلمي والأدبي

وقد تم طبعه في شعبان سنة ١٣٦٨ هـ - يونيو سنة ١٩٤٩ م

ويليه المجلد الرابع

وهو القسم الثاني من الجزء الثاني

وأوله

الباب الخامس : تراجم موجزة

كشاف

بأعلام المجلد الثالث

وهو القسم الأول من الجزء الثاني

(١)

آق سنقر السلارى : ٥٧

آق سنقر و شاد العائر : ٣٣٣

آق سنقر و شمس الدين الفارقانى

السلحدار : ٤٦

آل ملك الجوكندار و الأمير سيف

الدين : ٧٠، ٥٠

ابجيج و المهندس : ٢١

ابراهيم بن عمر و برهان الدين : ٣٣

ابراهيم بن فلاح الاسكندراني : ٧٨

ابراهيم بن مفلح الحنبلى و برهان

الدين : ١٠٥

ابراهيم بن وصيفشاه المصرى : ١٠٨

ابراهيم بن هبة الله و نور الدين

الاسنانى : ١٣٣

ابراهيم المرادى و أبو اسحق : ١٩٩

ابراهيم ، المقر الصارمى : ٢٤

ابراهيم النابلسى : ١١٨

ابن الألوسمى و السيد نعمان خير

الدين : ٢٦٠

ابن أبى أصيبعة و موفق الدين : ١٠٢

ابن أبى حجلة المغربى : ١٨

ابن أبى حليقة و مذهب الدين : ٥١

ابن أبى الفتح : ٢٠٠

ابن أبى الفضائل : ١١٣، ١١٧

ابن الأثير الجزرى : ٢٥٣

ابن الأستاذ و كمال الدين : ١٨

ابن الأنبارى : ٢٧٤

ابن الأنصارى : ٢٧٩

ابن إياس الحنفى المؤرخ : ١٠، ٢٤

٨٠، ٩٤، ١١٠، ١٦١، ١٧١

٢١١، ٢٥٣، ٣٢٨، ٣٣٠، ٣٣٥

٣٤٠، ٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٨٦

٣٨٧، ٣٨٨

ابن أيبك الجاشكنير . و عز الدين

الملك : ٤٠، ٧٤

ابن البركات الحموى : ١١٥

ابن البقرى و شمس الدين شاكركر

ابن غزير : ٥٠

ابن بنت الأعز و تاج الدين : انظر

عبد الوهاب

ابن بنت الأعز و تقي الدين : ٢٣، ٧١

ابن تغرى بردى و أبو المحاسن

يوسف : ٨٠، ٩٩، ١٠٩، ١١٣

١١٦، ١٧٢، ٣١٨، ٣٢١

ابن خالويه : ٣٧٤
 ابن خرداذبة : ٢٥٦
 ابن خطيب الناصرية : ٢٥٤
 ابن خلدون و عبد الرحمن : ٧ :
 ١١٦ ، ٩٣ ، ٨٦ ، ٧٤ ، ١٨ ، ١٣
 ٢٩٠ ، ٢٥٣ ، ١٦٧ ، ١٦٣ ، ١٥٣
 إلى ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢
 ابن خللكان و شمس الدين : ١٨ :
 ٨٠ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٢٥٣
 ٢٥٧
 ابن داود و الخطيب الجوهري : ١١٠
 ابن درباس و صدر الدين : ٣٥ :
 ابن دقاق و صارم الدين : ٢٩ :
 ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٨ ، ٧٤ ، ٨٠
 ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٢١ ، ٣٧٠
 ابن دقيق العيد القشيري و تقي
 الدين : ٢٣ : ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧
 ٧٨ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٣
 ١٤٩ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٩
 إلى ٢١٩ ، ٢٣٤ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٨
 ابن الدهان الطيب و صلاح الدين : ٧٩
 ابن الربيع الجيزي : ٣٧٠
 ابن رجب : و أبو الفرج عبد الرحمن :
 ٢٦٠ ، ٢٦٢
 ابن رزين ، تقي الدين : في محمد
 ابن الرفعة و نجم الدين : في أحمد
 ابن رواح : ٢١٠

٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤
 ابن التركماني و . نحر الدين المارديني :
 في عثمان
 ابن تيمية الحراني و تقي الدين : في أحمد
 ابن جماعة و بدر الدين : ٣٤ ، ٦١
 ٧١ ، ١٤٤ ، ٢٢٩ ، ٢٤٤
 ابن جماعة و برهان الدين : ٧١
 ابن جماعة و عز الدين : ٣٤ ، ٧٨
 ١٠٦ ، ١٤٤ ، ١٦٠ ، ٣٣٧
 ابن الجيزي : ٢١٠
 ابن جني : ٣٧٣ ، ٣٧٤
 ابن الجوزي و يحيى الدين : ١٧ ، ٣٧٨
 ابن الحاج و أبو عبد الله محمد بن محمد :
 ١٦٨
 ابن الحاجب : ٣٧٣
 ابن حبيب الحلبي و بدر الدين : ٩٩
 ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٩
 ابن حجر العسقلاني : في أحمد
 ابن حجر الهيثمي : ٣٤٠
 ابن حجة الحموي و تقي الدين : ٨٣
 ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ٢٤٤ ، ٣٣٦
 ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٧٠ ، ٣٨٠
 ابن حزم : ٣٠٥
 ابن الحصري : ٢٣٣
 ابن حنبل : ١٠٢ ، ١٨٠ ، ٢٢٣
 ٢٣٥ ، ٢٦٣
 ابن حوقل : ٢٥٦

ابن زولاق : ٣٧٠

ابن سبعين : ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

ابن السبكي « تاج الدين » : ١٠ ، ٢٩ ،

٨٩ ، ٧١ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٧١ ،

١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

١٩٩ ، إلى ٢٠٢ ، ٢١٠ ، إلى ٢١٤ ،

٢٢٣ ، ٢٧٩ ، إلى ٢٨١ ، ٢٨٦ ،

٢٨٧ ، ٣٧٠ ، ٤٠١

ابن السبكي « تقي الدين » : ٢٣ ، ٧٧ ،

٧٨ ، ٨٩ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ،

١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ،

٢٦٢ ، ٢٧٧ ، إلى ٢٨٩

ابن السقطي « جمال الدين » : ٧٤ ،

ابن سيد الناس « فتح الدين أبو عمر

اليعمري » : ٧١ ، ٧٨ ، ١٠٦ ،

١٠٧ ، ١٤٤ ، ٢١٠

ابن شانس « تقي الدين » : ٣٨

ابن الشاطر المؤقت : ١٦٤

ابن شاكر السبكي : ٨ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٧ ،

ابن الشحنة « زين الدين » : ١١٥

ابن الشيرازي : ٢٦٢

ابن صغير الطبيب « علاء الدين » :

٧٩ ، ١٦٠ ، ١٦١

ابن الصلاح : ٣٦١

ابن طولون : ٣٣

ابن عبد الحكم : ٣٧٠

ابن عبد الدايم : ٢١٠

ابن عبد ربّه : ٣٨٢

ابن عبد السلام « عز الدين

عبد العزيز » : ٢٢ ، ٢٣ ، ٧٧ ، ١٢٩ ،

١٣١ ، ١٧٦ ، إلى ١٩٥ ، ٢١٠ ، ٢٧٨

٤٠١

ابن عبد الظاهر « محي الدين » : ١٧٢

٣٨٠

ابن عبد القوي : ٢٢٣

ابن عدلان : ٢٧٩

ابن العديم « جمال الدين » : ٦٣

ابن العديم « كمال الدين » : ١٨ ، ١١١

ابن عربشاه « شهاب الدين » : في أحمد

ابن عربي : ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٩٢

ابن عرفة المالكي : ٣٠٠

ابن عطاء الله الاسكندراني ، في أحمد

ابن العطار : ٥٧ ، ٢٠٠

ابن عقيل العقيلي : ٧٨

ابن العماد « شهاب الدين الاقفهي » :

١٣٤

ابن العماد « وجيه الدين » : ٧٨ ،

١٠٣ ، ١١٢

ابن عمرو السكندی : ٣٧٠

ابن المنير الإسكندراني و ناصر
الدين : ٧٧ ، ١٤٠
ابن ميسر : ٣٧٠
ابن ناهض الفقاعي و محمد : ١٢٠
ابن النديم : ٣٠٥
ابن النفيس الطيب و علام الدين : ٧٩
ابن هشام المصري و جمال الدين :
٧٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤
ابن الهمام : انظر كمال الدين
ابن وثيق : ٧٨
ابن الوكيل و صدر الدين : في محمد
ابو اسحق الحفصي : ٢٩٣
ابو اسحق الشيرازي : ١٣١ ، ٢٠٢ ،
٢٨٥
ابو البركات البلقيني : ٢٩٢
ابو البركات المتطبب : ٧٤
ابو البقاء بن الجيعان : ١١٩ ، ١٦٧
ابو البقاء السبكي : ٣١٧
ابو بكر بن أبيك : ١١٤
ابو بكر بن أيوب و الملك العادل : ٣٨
ابو بكر بن عبد الدايم : ٢٦٣
ابو الثناء محمود الأصفهاني : ١٦١
ابو جعفر المنصور : ٦
ابو حامد القدسي : ١٢٤
ابو الحسن الدهان : ٧٨
ابو الحسن الشاذلي : ١٢٠ ، ١٩٤
ابو الحسين الجزار و الشاعر : ٤٠ ، ٤١

ابن فارس : ٣٧٣ ، ٣٧٤
ابن الفارض : ٣٥٧
ابن فرحون : ٣٧٠
ابن فضل الله العمري و شهاب الدين :
٨٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٧١
٢٣٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٣٢٧
٣٧٠ ، ٣٨٠
ابن قاضي شعبة الأسدي و تقى الدين :
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٧ ، ١١٩
٢٠٣
ابن قطلوبغا و أبو الفضل : ٩٨
ابن القفطي : ١٠٥
ابن القيم و شمس الدين : في محمد
ابن كثير : انظر اسماعيل
ابن مالك الأندلسي و جمال الدين :
١٨ ، ١٩٩
ابن المتوج : ٨٠
ابن مخلوف : في علي
ابن مسكويه : ٢٥٣
ابن المطهر الرافضي : ٢٨٨
ابن المغربي الطيب : ٧٩ ، ١٦١ ،
٢٥١
ابن المقير : ٢١٠
ابن مكيين المالكي و شمس الدين : ٧٣
ابن الملقن ، سراج الدين : في عمر
ابن منظور الإفريقي : ١٨ ، ٧٨ ،
١١٢ ، ١٢٥ ، ١٥٨ ، ١٧٠

أبو حمود سلطان تلبسان : ٢٩٥
 أبو حيان وابن السراج : ٧٩
 أبو داود : ٢٠٧
 أبو سالم المزيني : ٢٩٤
 أبو السعادات بن أبي الجود السملوني :
 ١١٦
 أبو السعود الجارحي : ١٤٨
 أبو سعيد البراذعي : ٢٩٢
 أبو سعيد : ٨
 أبو العباس الحفصي : ٢٩٦ ، ٢٩٧
 أبو العباس الشاطر الدمنهوري : ١٤٧
 أبو العباس المبرد : ٣٠٥
 أبو العباس المرسى : ١٢٠ ، ١٨٥ ،
 ١٩٤
 أبو عبد الله الوادياشي : ٢٩٢
 أبو العلاء السلامي : ٧٩
 أبو عمرو بن الحاجب : ١٧٩ ، ٣٣٧
 أبو عنان المريني : ٢٩٣ ، ٢٩٤
 أبو الفتح بن صدقة السرميني : ١١٥
 أبو القاسم الرافعي : ٢٨٦ ، ٢٨٧
 أبو القاسم القزويني : ١٣١
 أبو محمد القاسم بن عساكر : ١٧٧
 أبو محمد المقدسي الجماعلي : ١٠٠
 أبو هريرة : ٢٤٠
 أبو يزيد البسطامي : ١٨٩
 أبو اليمن العليمي : ١٠٢ ، ١١٢
 أبو اليمن النويري : ٣٩٠
 الأبيوردي : ٧٨
 أثير الدين أبو حيان الأندلسي : ٧٨
 ١٤١ ، ١٥٣ ، ٢٣٣ ، ٢٧٨
 أثير الدين الأبهري : ٢٥٠ ، ٤٠٠
 أحمد بن أحمد الهكاري : شهاب
 الدين : ١٠٣
 أحمد بن أقوش العزيزي : الأمير
 شهاب الدين : ٥١
 أحمد بن أيوبك الحسامي الدمياطي :
 ٧٨
 أحمد بن حمدان ونجم الدين الحراني :
 ١٣٧
 أحمد بن عبد الحلیم : تقي الدين بن
 تيمية : ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٧٨ ، ٨٩
 ٩١ ، ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٤١ ، ١٤٥
 ١٤٩ ، ١٦٥ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٠
 إلى ٢٤٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ إلى ٢٦٣ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨
 أحمد بن عبد ربه : ٣٠٥
 أحمد بن عبد الرحمن : جلال الدين
 الدشناوي : ١٣٢
 أحمد بن عبد القادر بن مكتوم وتاج
 الدين : ١٠٤
 أحمد بن علي بن حجر وشهاب الدين
 العسقلاني : ٢٤ ، ٣٠ ، ٧١
 ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٩
 ٩١ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٤ ، ١١٠

أبو حمود سلطان تلبسان : ٢٩٥
 أبو حيان وابن السراج : ٧٩
 أبو داود : ٢٠٧
 أبو سالم المزيني : ٢٩٤
 أبو السعادات بن أبي الجود السملوني :
 ١١٦
 أبو السعود الجارحي : ١٤٨
 أبو سعيد البراذعي : ٢٩٢
 أبو سعيد : ٨
 أبو العباس الحفصي : ٢٩٦ ، ٢٩٧
 أبو العباس الشاطر الدمنهوري : ١٤٧
 أبو العباس المبرد : ٣٠٥
 أبو العباس المرسى : ١٢٠ ، ١٨٥ ،
 ١٩٤
 أبو عبد الله الوادياشي : ٢٩٢
 أبو العلاء السلامي : ٧٩
 أبو عمرو بن الحاجب : ١٧٩ ، ٣٣٧
 أبو عنان المريني : ٢٩٣ ، ٢٩٤
 أبو الفتح بن صدقة السرميني : ١١٥
 أبو القاسم الرافعي : ٢٨٦ ، ٢٨٧
 أبو القاسم القزويني : ١٣١
 أبو محمد القاسم بن عساكر : ١٧٧
 أبو محمد المقدسي الجماعلي : ١٠٠
 أبو هريرة : ٢٤٠
 أبو يزيد البسطامي : ١٨٩
 أبو اليمن العليمي : ١٠٢ ، ١١٢
 أبو اليمن النويري : ٣٩٠

١٥١
أحمد الاسكندري : ٣٠١، ٣٠٠
٣١١، ٣٠٤
أحمد تيمور باشا : ٣٨٨
أحمد زادة العجمي : ٧٣
أحمد زكي باشا : ١٧٢
أحمد السيد البدوي : ١١٩
أحمد الشمي وتقي الدين : ١٣٦، ٢٨٤
٣٩٠، ٣٨٦
أحمد القراني وشهاب الدين : ١٣٧
أحمد وكمال الدين الشافعي : ١٣٣
أحمد المصري : ١٩٩
أحمد والملك الأفضل قطب الدين : ٤٥
أحمد ونجم الدين بن الرفعة : ٤٠
١٦٦، ١٣١، ٧٧، ٧٥، ٧٤
٢٧٨، ٢٢٩
الأدريسي والشريف : ٢٥٦
الأدفي وكمال الدين : في جعفر
أرخان بك : ٨
أرغون والأمير : ٢٤، ٤٢، ٤٣
٢٨٠
أرنبا الزردكاش : ١٦٥
استدمر ونائب حماة : ٢٤٥، ٢٤٧
إسحق المعري : ١٩٩
أسد الدين والشيخ : ١٦٣
إلا سعادى : ٧٨

١١٩، ١٢٠، ١٣٤، ١٤٤، ١٤٥
١٨٥، ١٧١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٨٩
٢٩٧، ٣٠٠، ٣٣٤، ٣٣٥
إلى ٣٥٥، ٣٧٠، ٣٨٥، ٣٨٩
٣٩٠
أحمد بن علي بن محمد السبكي وبهاء
الدين : ٥٥، ٦٢، ٧١، ١٣٤
٢٨٩
أحمد بن علي بن منصور الدمشقي : ١٣٦
أحمد بن علي المقرئ الفيومي : ١٥٧
أحمد بن علي وأبو عيسى المنجم : ٤٥٣
أحمد بن علي بن عنبه : ١٠٢
أحمد بن عيسى بن رضوان وكمال
القليوبي : ١٣٣
أحمد بن عيسى و عماد الدين
الركراكي : ٧١
أحمد بن لؤلؤ وشهاب الدين بن
النقيب : ١٢٩، ١٣٤، ٢٨٠، ٢٨٢
أحمد بن محمد عطاء الله الاسكندرائي :
١٢٠، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٩، ٢٧٨
أحمد بن محمد الدردير : ١٨٨
أحمد بن محمد وزين الدين بن حناء : ٧٢
أحمد بن محمد وشهاب الدين بن عربشاه :
٨، ٧٢، ١٥٨
أحمد بن محمد ، محي الدين بن حناء : ٧٢
أحمد بن يوسف بن عبد الدايم وشهاب
الدين الحلبي السمين : ٧٨، ١٤٢

الاشرف قانصوه الغورى : فى
قانصوه

الاشرف قايتباى : فى قايتباى
الاصهبانى ، عماد الدين ، : ٧٩
الافضل ، ملك حماة ، : ٢٤٦ ، ٢٥١
اقباى السيفى : ١١٨

اقبجا ، الامير ، : ٢١
اقبغا الخاصكى : ١٢٤
اقوش ، الامير جمال الدين ، : ٣٩
اكمل الدين البارتى : فى محمد
امام الدين الشافعى . ٢٢٧ ،
امير كاتب ، قوام الدين الاتفانى ، .
١٣٦ ، ٧٣ ، ٥٦

امين الدين الاهرى : ٢٥٠
امين الدين المحلى ، ٧٨ ، ١٥٥ ، ١٥٨
امين سامى باشا : ٣٢
أنوك بن الناصر محمد : ٦٥
أوحد الدين الرومى : ٧٣
الأوحدى ، شهاب الدين ، : ٨٠ ،
٣٢٧

أولوغ بك : ٨
أيتمش ، الامير سيف الدين ، : ٢٤
٥٢
أيدمر الخطيرى ، عز الدين ، : ٥٧ ،
٦٨

الابناسى : ٣٣٧
إينال اليوسفى ، الامير سيف الدين ،
٥٣

الإسفرائينى : ٣٧٣

الإسكندر المقدونى : ٢٤٢ ، ٢٥٤ ،
إسماعيل بن الأحمر : ٢٩٤
إسماعيل بن كثير ، أبو الفداء ، : ١٠١ ،
١١٤ ، ١٢٩ ، ١٤٢ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ،
٣٧٠ ، ٢٦٢

إسماعيل بن مكتوم : ٢٦٢
إسماعيل بن هبة الله الموصلى : ٢٥٦
إسماعيل ، خديو مصر ، : ٩١
إسماعيل الذهبي : ١٠٠
إسماعيل ، الصالح بن الناصر ، : ٤٢ ،
٤٣

إسماعيل ، الصالح عماد الدين ، : ٢١
إسماعيل ، المؤيد صاحب حماة ، : ١١٤ ،
١٢٤ ، ١٣٥ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٨ ،
٢٤٣ إلى ٢٥٨

إسماعيل ، الملك الاشرف بن
الافضل ، : ٣٤٦ ، ٣٤٩
اسماعيل ، الملك الصالح أبو جيبش ، :
١٧٨ ، ١٧٩

اسلبغا ، سيف الدين ، : ٥٠
الإسنوى ، جمال الدين ، : فى
عبدالرحيم

الاشرف برسباى : فى برسباى
الاشرف خليل : فى خليل
الاشرف شعبان : فى شعبان
الاشرف طومان باى : فى طومان

أيوب ، الملك الصالح نجم الدين ، :

٣٩ ، ٦٥ ، ٧٦ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ،

١٨٤

« ب »

باكير ، زين الدين السكختاوى ، : ٧٩

بايزيد بن مراد ، سلطان بن عثمان ، :

١٦١

البخارى : ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٤٣

بختنصر : ٢٥٤

بدر الدين بن جماعة : في ابن

بدر الدين بن حبيب الحلبي : في ابن

بدر الدين البشتكي : ٣٢٧ ، ٣٥٤

بدر الدين بكتوت ، الرماح

الخانندارى ، : ١٦٥

بدر الدين الخروبي : ٤٦

بدر الدين الدمشقي : ٧٨ ، ١٤٦ ،

١٥٥ ، ١٥٨

بدر الدين الدمشقي ، محمد بن الشهيد ، :

١١٨

بدر الدين زاده الخرزىانى ، محمود

ابن محمد ، ٧٣٠

بدر الدين الزركشى : في محمد

بدر الدين السبكي ، محمد بن محمد

ابن عبد البر ، : ٧١

بدر الدين العيىنتافى ، محمود بن أحمد ، :

٧٤

بدر الدين الغزى : ٢٠٣

بدر الدين الكلىستانى : ٦٢

بدر الدين محمود العيىنى : في محمود

بدر الدين المرادى ، ابن أم قاسم ،

١٥٤

بديع الزمان الهمذانى : ٣٨٠

البرزالى ، علم الدين ، : ٩٦ ، ١١١ ، ٩٩

برسبای ، الملك الأشرف ، : ٣٨ ،

١٠٩ ، ١٦٢ ، ٣٣٥

برقوق ، الملك الظاهر ، : ٢٣ ، ٢٤ ،

٣٦ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١١٨ ،

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ٢٩٧ ،

٣١٨

بركات بن ابراهيم الخشوعى : ١٧٧

بركة أم شعبان : ٥٢

برهان الدين الآمدى : ٣١٧

برهان الدين بن جماعة : في ابن

برهان الدين البقاعى : ٩٨ ، ١٠٦ ،

برهان الدين الحنبلى ، ابراهيم بن

مفلح ، : في ابراهيم

برهان الدين الزرعى : ٢٦١

برهان الدين السنجارى : في الخضر

برهان الدين الفزارى : ١١٢ ، ١٦٧ ،

برهان الدين القسیر اطلی : ٢٨٠ ،

٣١٥ ، ٣٥٢

برهان الدين الدشائى : ٣١٧

برهان الدين الواسطى : ١٣٥ ، ١٤٥

بشیر الجمدار الناصرى ، الامير

بيبرس و الملك المظفر: ٣٧، ٦١،
٦٢، ٦٥، ٦٦، ٨٣، ١٦٦،
٢٢٨، ٢٣٠
بيدرو (ملك قشتالة): ٢٩٤

(ت)

تاج الدين بن بنت الأعز: في
عبد الوهاب
تاج الدين بن الخروبي: ٤٦، ٦٥
تاج الدين بن السبكي: في ابن
تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري:
في أحمد
تاج الدين بن مكتوم: في أحمد
تاج الدين الفاكهي: ١٤٨، ١٤٩
تاج الدين محمد المراكشي: ٨٩
تتر بنت الناصر محمد: ٦٦
تحتمس: ٢٤٣
الترمذي: ٢٠٧
تغري برمش الفقيه: ٣٣٨
تقي الدين بن بنت الأعز: في ابن
تقي الدين بن تيميه: في أحمد
تقي الدين بن حجة الحموي: في ابن
تقي الدين بن دقيق العيد: في ابن
تقي الدين بن رزين: في محمد
تقي الدين بن السبكي: في ابن

سعد الدين: ٣٦، ٥١، ٦٤، ٦٩
بطرس بن الراهب و أبو شكر: ١١٣
بطليموس: ٢٥٧، ٣٠٤
بكتمر الحجازي: ٤٧
البكري النيسابوري و أبو علي الحسن:

١٨

بهاء الدين بن أبي منصور: ٧٥
بهاء الدين بن عقيل و عبد الله بن عبد
الرحمن: ٧١، ١٥٥
بهاء الدين الباعوني و محمد بن يوسف:

١٦٧

بهاء الدين السبكي و أبو البقاء محمد بن
عبد البر: ٧١، ١٧٥
بهاء الدين السبكي و أبو حامد: في
أحمد

بهاء الدين علي بن حنا: في علي
بهاء الدين القفطي و هبة الله بن عبد
الله: ١٤٠

بهرام بن عبد الله: ١٣٧

البواب: ٦٩

بيبرس الدوادار: ٨٠، ١٠٩، ١١٤
بيبرس الفارقاني و الأمير ركن الدين:

٤٦

بيبرس و الملك الظاهر: ٢٣، ٢٤،
٣٦، ٤٠، ٥٥، ٥٧، ١١٨،
١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٦، ٢٩٧

٣١٨

الإدقوى : ٨٠ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ،
١٣٥
جعفر بن يحيى و ظهير الدين
الفرمقي : ١٣٢
جعفر البرمكي : ٣٠٤
چشمق العلائي و الملك الظاهر : ٨٣
١١٨ ، ١٦٣ ، ١٦٦
جلال الدين البكري : ٣٥٧
جلال الدين البلقيني و عبد الرحمن :
٣٧٧ ، ٧٣
جلال الدين الحنفي : ٢٢٧
جلال الدين الدشناوي ، في أحمد
جلال الدين السيوطي ، ١٠ ، ٢٣ ،
٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ،
٥٨ ، ٦٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٠ ،
٩١ ، ٩٧ ، ١٠١ ، إلى ١٠٤ ،
١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ،
إلى ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،
١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ،
١٧٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ،
٣٤٧ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، إلى ٣٨٨
جلال الدين القزويني و محمد بن
عبد الرحمن : ١٥٦ ، ٢٧٩ ، ٣٩٨ ،
٣٩٩
جلال الدين المحلي : ١٥٤ ، ١٦٩ ،
١٨٨
جمال الدين بن أبي المنصور : ٧٤

تقي الدين بن شاس : ٣٨
تقي الدين بن الصائغ : ٧٩ ، ٢٧٨ ،
٢١١
تقي الدين بن قاضي شهاب الأسدي :
في ابن
تقي الدين بن فهد : ٢٥٤ ، ٢٩٠ ،
تقي الدين سليمان : ٢٦٢
تقي الدين الشبلي : ٣٥٦
تقي الدين شبيب بن حمدان الطبيب :
٧٩
تقي الدين الشمني : في أحمد
تقي الدين الفارسي : ٢٧٠
تقي الدين السكرماني : ٣٧٠
تقي الدين المقرزي ، انظر المقرزي
تيمور لك : ٨ ، ٢٩٨
(ث)
الثعالي : ٣٧٣
(ج)
جاء المولى بك : ٣٧١
جانم الخزاوي : ٤٠٣
الجاهي سيف الدين و الأمير : ٥٢
الجاهي اليوسفي و الأمير : ٢٤ ، ٦٩
٣٥١
الجراندي : ٧٨
جرجيس المسكين بن العميد : ١١٣ ،
١١٧
جعفر بن ثعلب و كمال الدين

جمال الدين بن التركمانى : عبد الله بن
على بن عثمان : ٧١ ، ٧٢
جمال الدين بن الحاجب : ١٨٦
جمال الدين بن السقلى : ٧٤
جمال الدين بن العجمى : ٦٢
جمال الدين بن العديم : فى ابن
جمال الدين بن مالك الأندلسى : ١٥٣ ،
١٥٤ ، ١٥٧ ، ٢٢١
جمال الدين بن الملقن : أبو عبد الله
محمد الباخى : ١٤١
جمال الدين بن نبانة المصرى : فى محمد
جمال الدين بن هشام المصرى :
فى ابن
جمال الدين بن واصل : ١١٠
جمال الدين الأستاذ دار : الأمير
محمود : ٣٢
جمال الدين الأسنوى : ١٥٥ ، ٣١٧
جمال الدين أقوش : فى أقوش
جمال الدين البشبيشى : ٣٠٠
جمال الدين الخضيرى : ١٨١
جمال الدين الزرعى : ٤ ، ٧٤ ، ٢٨٠
جمال الدين الزيلعى : ٧٨ ، ١٤٤
جمال الدين الغزاوى : ٣٩
جمال الدين المالكى : عبد الله بن
المقداد : ٧٤
جمال الدين محمد الشيال : الأستاذ.

١٦٨ ، ٣٢٩
جمال الدين المزى : أبو الحاج : ١٠٠
جمال الدين الوطواط : محمد بن
ابراهيم : ١٢٥ ، ١٦٩
جمال الدين يوسف بن الحشاب :
٤١ ، ٤٠
جمال الدين يوسف بن عبد الهادى :
١٠٣ ، ١٣٩
جميل العظم : ٢٣٦ ، ٢٨٩ ، ٢٣٩
٢٥٤ ، ٣٦٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨
جشكين خان : ٨
جورجى زيدان : ١٨ ، ٨٢ ، ٩٠
٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٨٠ ، ٣١٩
٢٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٥٤
٣٦٥ ، ٣٨٨
جوهر الصقلى : ٣٤ ، ٣٥
الجوهري : ١٥٨
(ح)
حاجى بن شعبان : الملك الصالح ،
٥٣ ، ٥٩
الحاكم بأمر الله الفاطمى : ٢٧
حرمى بن قاسم : مجد الدين الفانوسى :
٧١
الحريرى : ٣٨
حسام الدين بن مهنا : ٢٢٩
حسام الدين طرناوى : نائب
السلطنة : ٤٨

حسام الدين لاجين و الملك المنصور :
في لاجين

حسن بن عبد الله العباس ، ٨٣ ،
١٦٦

الحسن بن عمر : ٢٩٤

الحسن بن محمد بن خلدون : ٢٩١
حسن بن محمد بن قلاوون و الملك
الناصر ، ٣٦ ، ٥٤ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٩ ،
٨٢

حسين بن محمد الحسيني : ٨٢ ، ١٦٨

حميد الدين حماد : ٧٢

حنبل بن عبد الله الرصافي : ١٧٧

(خ)

خالد الأزهرى : ١٥٥

خير بيك و ملك الأمراء ، : ٤٠٣

خرستوف كولمب : ١٢٣

خشقدم و الملك الظاهر : ٨٣ ، ١١٦

١١٨ ، ١٦٦ ، ٣٩٠

الخضر السنجاري و برهان الدين ، :

٤٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤

خلدون بن عثمان الخطاب : ٢٩١

خليل بن إسحق الجندى : ١٣٧

خليل ابن أبيك الصفدى و صلاح

الدين ، : ٨٠ ، ٩٤ إلى ٩٧ ، ١٠٣ ،

١٥٨ ، ١٧٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،

٣٨٠ ، ٣٤٤

خليل بن شاهين الظاهري : ١٦٦

خليل بن قلاوون و الملك الأشرف :

٢٤٦ ، ١١٨ ، ٤٥ ، ٣٣

خوارزمشاه « محمد بن تسكش » : ٨

خوند تهر الحجازية : ٤٧

(د)

الدشوطى : ١٤٨

(ر)

الراشدى : ٧٨

الرافعى : ٢٠٢

رسلان الدمشقى : ٤٠١

رشيد الدين العطار : ٧٨

رشيد الدين التنايسى : ١٨

رشيد رضا « محمد » : ٢٦١ ، ٢٦٦

الرشيد « هرون » : ٨ ، ٣٠٤

الرضى بن البرهان : ١٩٩

رضى الدين الشاطبي : ٧٨

ركن الدين التونسى « ابن القوبع » :

٢١١

ركن الدين بيبرس الدوادار

المنصورى : فى بيبرس

ركن الدين « الظاهر بيبرس » : فى

بيبرس

ركن الدين « المظفر بيبرس » . في

بيبرس

رينود « المستشرق » : ٢٥٥

(ز)

ذكرى الانصارى « زيد الدين » : ١٣٤

١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ،

١٩٠ ، ٣٣٨ ، ٣٥٨ ، ٣٨٩ إلى

٤٠٣

الزكى الخروبي : ٣٣٥

الزخشرى : ٣٧٣

زين بن على : ٢٨٨

زين الدين بن تيمية : ٢٢٩

زين الدين بن حنا : في أحمد

زين الدين بن الشحنة : في ابن

زين الدين بن عبد الدايم : ١٩٩

زين الدين بن المنجا : ٢٢٣

زين الدين الانصارى : في ذكرى

زين الدين البغدادى « عبد الرحمن

بن رجب » : ١٠٥

زين الدين البوشى « أبو الحسن على » :

٧٥

زين الدين التفهني : ٦٢

زين الدين الدمشقي : ٣٥٤

زين الدين رضوان : ٣٩٠

زين الدين الرومى « الأمير مقبل

الطواشى » : ٥٠

زين الدين العراقى ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٧١ ،

٧٦ ، ٧٨ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ٣١٨ ،

٣٣٧ ، ٣٥٢

زين الدين السختاوى : في باكير

زين الدين المالكى « على بن

مخلف » : في على

زين الدين المنذرى : ٢١٠

زين الدين النحوى « أبو بكر » : ٧٢

زين الدين بن الوردى : في عمر

(س)

سابق الدين مثقال : ٦٨ ، ٥٠

ست الركب : ٣٥٢

سحنون : ٧٨

السخاوى « شمس الدين » : ٨ ، ٢٤ ،

٧٦ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٢ ،

١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٩ ، ١٥٩ ، ٣٠٠ ،

٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٧ ،

٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ،

٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٥ ،

٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ ، إلى ٣٩٤

السبكى « تاج الدين » : في ابن

سراج الدين الآمدى : ١٧٧

سراج الدين بن الملقن : في عمر

ابن على

السكاكي ، أبو يعقوب يوسف بن
أبي بكر ، : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٣٩٨ ،
٣٩٩
سلار ، الأمير سيف الدين نائب
السلطنة ، : ٣٣ ، ٣٦
سلوقلس : ٢٤٣
سليم الأول ، ملك بني عثمان ، : ١٦٢
سليم سر كيس : ٣٢١ ، ٣٦٥
السمعاني : ٢٥٦
سنجر الجاولي ، علم الدين ، ٥١
سنجر الزيني العادلي ، الأمير علم
الدين ، : ٣٤
سنجر الشجاعى ، علم الدين ، ٤٢
سنطباى ، الشيخ ، : ١٤٨
سودون الشيخونى ، نائب السلطنة ، :
٦١
سليويه : ١٥٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٣
سيف الدين آل ملك الجوكندار :
في آل ملك
سيف الدين أسنبغا : في أسنبغا
سيف الدين إيتمش : في إيتمش
سيف الدين إينال اليوسفى : في إينال
سيف الدين الجاى : في الجاى
سيف الدين الحنفى : ٣٥٦
سيف الدين سلار : في سلار
سيف الدين السيرامى : ٦٢
سيف الدين شيخو العمرى : ٦٢

سراج الدين بن موسى بن دقيق
العيد : ١٣٢
سراج الدين بن الوردى : ١٢٤ ،
١٦٨
سراج الدين الأرمنى ، يونس بن
عبد المجيد ، : ١٣٣
سراج الدين الأرموى : ١٦٤
سراج الدين البلقينى : ٧١ ، ٧٣ ،
٧٧ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٤٤ ، ٣١٨
٣٥١ ، ٣٣٧
سراج الدين الحمصى : ٧١
سراج الدين الماردبني : ١٦٥
سراج الدين الهندى الغزنوى ، عمر
ابن إسحق ، : ١٣٦
سراج الدين الوراق : ٤٠ ، ٤١
سعد بن أبي وقاص : ٢٤٠
سعد الدين بشير الجمدار ، الأمير ، :
في بشير
سعد الدين التفتازانى : ٣٩٩
سعد الدين الحارثى : ٢٧٨
سعد الدين العراقى ، مسعود بن
أحمد ، : ١٨ ، ١٤٤
سعيد السعداء ، قنبر ، : ٦٠
السعيد ، الملك ناصر الدين محمد
بركة خان ، : ٣٩ ، ٦٥
السفطى : ٧١
سفيان الثورى : ٢٨٢

سيف الدين صرغتمش الناصري :

٥٦، ٣٤

سيف الدين المارديني : ٨٣

سيف الدين منكوتمر الحسامي : في
منكوتمر

السيوطي : انظر جلال الدين :

« ش »

شاكر بن غزير « شمس الدين بن
البقرى » : في ابن

شرف الدين بن تيمية : ٢٢٢، ٢٢٩

شرف الدين بن الجيعان : في يحيى

شرف الدين البغدادي : ٢٧٨

شرف الدين البوصيري : ٤٢، ٣٤٦

شرف الدين التيفاشي : ١٢٥

شرف الدين الحرافى « عبد الغنى » :

٧٢

شرف الدين الدمياطي : ٧١، ٧٨

٢٧٨

شرف الدين السبكي : ٣٨٩

شرف الدين « قاضى السكر » : ٧٤

شرف الدين المناوى : في يحيى

شعبان « الملك الأشرف » : ٥٣ ،

١٦٨ ، ١٦٥ ، ٥٩

شمس الدين آق سنقر : في آق

شمس الدين أبو البركات « محمد بن

هبة الله » : ٦٦

شمس الدين بن حنا « محمد بن أحمد » :

٧٢

شمس الدين بن حنا « محمد بن على » :

في محمد

شمس الدين بن خلكان : في ابن

شمس الدين بن الصائغ الحنفى « محمد

ابن عبد الرحمن » : ٥٦ ، ١٥٤ ،

٣١٧

شمس الدين بن الطولونى : ١٥٩ ،

١٦٠

شمس الدين بن عدلان : ٢٢٨ ،

٢٢٩

شمس الدين بن الفخر الحنبلى : ٢٠٠

شمس الدين بن قدامة : ٢٢٣

شمس الدين بن القلاح : ٧١

شمس الدين بن القيم : في محمد

شمس الدين بن اللبان : ٧١

شمس الدين بن مفلح : ١٣٨

شمس الدين بن مكين المالكي :

في ابن

شمس الدين بن ناهض الفقاعى :

٨٣

شمس الدين بن النقيب : ٢٨٠

شمس الدين الأرموى : ٤٥

شمس الدين الأسوانى « عمر بن

عبد العزيز » : ١٩٤

عبدالله الطيب : ٣٤ ، ٧٩ ، ١٦٠
شمس الدين النابلسي و محمد بن
عبد القادر : ٢٦٣

شمس الدين الهواري : ١٥٥
الشمي ، تقى الدين : في أحمد
شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي :
في ابن

شهاب الدين بن تيمية : ٢٢٢ ، ٢٢١
شهاب الدين بن جعوان و أحمد :
٢٠٠

شهاب الدين بن طيبوغا : ١٦٤
شهاب الدين بن عرشاه : في أحمد
شهاب الدين بن العطار : ٣١٥
شهاب الدين بن فضل الله العمري :
في ابن

شهاب الدين بن محمد العسقلاني :
في أحمد

شهاب الدين بن النقيب : في أحمد
شهاب الدين أبو شامة و عبد الرحمن :
١١٠

شهاب الدين أحمد بن أقوش : في
أحمد

شهاب الدين الأذري : ٣١٨

شهاب الدين الأشرفي : ٨٣

شهاب الدين الأقفهسي و ابن العماد :
في ابن

شمس الدين الأسيوطي : ٧٨

شمس الدين الأصمباني و محمد بن
محمود : ١٦٨

شمس الدين البرماوي و محمد بن
عبد الدايم : ٧٣ ، ١٣٥ ، ١٤٩

شمس الدين البساطي و محمد : ٧٣
شمس الدين الجزري : ٧٤ ، ٤٠

١٥١ ، ١٠٥

شمس الدين الدمشقي : ٧١ ، ١٢٤

١٦٧

شمس الدين الديري : ٢٤ ، ٧٣
٧٤

شمس الدين الذهبي : ١٠٠ ، ١٠٢

١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٧

١٢٩ ، ١٥٧ ، ١٨٥ ، ١٩٧

١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٤

٢٨١ ، ٣٤٤ ، ٣٧٠

شمس الدين الركاكي : ٧٤

شمس الدين السخاوي : انظر
السخاوي

شمس الدين الشجاعى : ١١٨

شمس الدين الشطنوفى : ٧٨

شمس الدين الغمارى : ٧٨

شمس الدين قراسنقر المنصورى :
في قراسنقر

شمس الدين محمد بن يحيى : ٧٤

شمس الدين المصرى و محمد بن

الصلاح اسماعيل و الملك : في اسماعيل
صلاح البلقيني و علم الدين : ١٤٠ ،
٣٦٠ ، ٣٥٦

الصلاح حاجي بن شعبان و الملك :
في حاجي

الصلاح نجم الدين الايوبى و الملك ،
في ايوب

صدر الدين بن درباس : في ابن
صدر الدين بن المرحل و محمد
ابن الوكيل ، : في محمد
صدر الدين الجعفرى و سليمان ، :
١٩٩

صدر الدين الجوينى : في محمد
صرغتمش الناصرى و الأمير
سيف الدين ، : ٣٤ ، ٥٦ ، ٦٦
صفى الدين التركمانى و ادريس بن
بيدكن ، : ١٦٥

صفى الدين الحلى و عبدالعزيز بن سرايا ،
٢٥٠ ، ٢٥١

صفى الدين الهندى : ٧٩ ، ٢٢٨ ،
٢٦٢

صلاح الدين بن الاعمى : ٧٣
صلاح الدين بن المغربى و يوسف ، :
٥٨

صلاح الدين الايوبى : في يوسف
صلاح الدين الصفدى : في خليل

شهاب الدين الأوحدى : انظر
الأوحدى

شهاب الدين الحجازى الانصارى :
١٦٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨

شهاب الدين الخوينى : ١٤٦
شهاب الدين السمين و أحمد الحلبي ، :
في أحمد

شهاب الدين الشارمساحى : ٣٥٦
شهاب الدين الطولونى و أحمد ، : ١٥٩
شهاب الدين القدسى : ١٢٥
شهاب الدين القسطلانى : انظر
القسطلانى

شهاب الدين القلقشندى : ٨٠ ، ١٢٢
شهاب الدين محمود الحلبي : ٢١١
شهاب الدين المنصورى و الشاعر ، :
٣٣٨ ، ٣٣٦

شهاب الدين نوغان المحمدى : ١٦٦
شهاب الدين النويرى : انظر النويرى
شهاب الدين الهكارى : في أحمد
الشهرستانى : ٣٠٥

شيخ المحمودى و الملك المؤيد ، :
٢٤ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٨٣ ، ١١٩ ،

١٢ ، ٣٢٦ ، ٣٥١
شيدلة و عزيزى بن عبد الله ،
أبو المعالى ، : ٣٧٨

و ص ،

صارم الدين بن دقاق : في ابن

«ع»
 العادل أبو بكر بن أيوب «الملك» :
 انظر أبو بكر
 العادل كتبغا المنصوري : انظر كتبغا
 العباس بن محمد «الخليفة المستعين» :
 ٢٤٦ ، ٢٥٠
 العباسية : ٣٠٤
 عبد الرؤف المناوي الحدادي :
 ٣٩٦ ، ٣٩٥
 عبد الباسط بن خليل الحنفي : ٣٨٨
 عبد الرحمن بن رجب «زين الدين
 البغدادي» : ١٠٥
 عبد الرحمن بن الكمال بن العديم
 «محب الدين» : ٧١
 عبد الرحمن بن محمد العليمي : ١١٦
 عبد الرحمن الأربلي : ١٩٩
 عبد الرحمن البسطامي : ١٠٤ ، ١١٦
 ١٤٩
 عبد الرحيم بن الحسن بن علي «جمال
 الدين الإسفندي» : ٩٦ ، ٩٨
 ١٠٤ ، ١٣٣ ، ١٥٥ ، ٣١٧
 ٣٧٠
 عبد الرحيم بن علي البيهقي والقاضي
 الفاضل : ٣٨
 عبد الصمد بن محمد الحرستاني : ١٧٧
 عبد الصمد بن يحيى الصالحى : ١٦٧
 عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدرديني :
 ١٤٢

«ض»
 ضياء الدين أبو عبد الله الخزوي
 الأندلسي : ١٥٧
 ضياء الدين القوي : ٧٩
 ضياء الدين المناوي «محمد بن ابراهيم» :
 ١٣٣ ، ٧١
 ضياء الدين الشافعي «عبد الله بن
 أحمد بن منصور» : ٧١
 «ط»
 طه حسين بك «الدكتور» : ٣٠٠
 ٣١٦
 طر نطاي المنصوري : نائب السلطنة :
 انظر حسام الدين
 طغاي «الأمير» : ٢٥
 طغتكين : ٢٤٤
 طومان باي «الملك الأشرف» :
 ١٤٨
 طوماي باي «الملك العادل» : ٣٥٩
 طيبرس الخازنداري «الأمير
 علاء الدين» : ٣٠ ، ٤٧ ، ٤٨
 «ظ»
 الظاهر برقوق «الملك» : في برقوق
 الظاهر بيبرس «الملك» : في بيبرس
 الظاهر جقمق العلائي «الملك» : في
 جقمق
 الظاهر خشقدم «الملك» : في
 خشقدم
 ظهير الدين التزمتي : في جعفر

عبد العزيز الأنصاري و شيخ شيوخ
حماة ، : ١٦٦ ، ٢٤٤
عبد العزيز الخليلي الداري و محي
الدين أبو محمد ، : ٥٢
عبد العزيز و المتوكل على الله أبو العز
الخليفة ، : ٨٢ ، ٣٥٧
عبد العزيز المربني : ٢٩٥
عبد العظيم المنذري : ١٠ ، ٧٨ ،
١٨٥
عبد الغافر الفارسي : ٣٧٠
عبد الغني بن عبد الرزاق و الأمير
نجر الدين ، : ٥٨
عبد الغني الجماعلي : ٢١٢
عبد الغني الحراني و شرف الدين ، :
٧٢
عبد القادر بن محمد بن أبي الوفاء
القرشي : ١٠٣ ، ١٤٥
عبد القادر الجيلاني : ١١٩
عبد القاهر الجرجاني : ١٥٥
عبد الكريم بن عبد النور و قطب
الدين الحلبي ، : ٧٨ ، ١١٠ ، ١٤٤
عبد الله بن محمد الإسكندراني : ٧٨
عبد الله بن محمد بن عبد الله التركي
الغزي : ١١٨
عبد الله بن المقداد و جمال الدين
المالكي ، : ٧٤
عبد الله الغماري المالكي : ٢٧٨

عبد الله اليافعي و أبو محمد ، : ١١٦
عبد اللطيف بن اسماعيل البغدادي :
١٧٧
عبد اللطيف بن عز الدين بن
عبد السلام : ١٩٥
عبد الواحد بن شرف الدين و ابن
المنير ، : ١٤٢
عبد الوهاب بن بنت الأعز و تاج
الدين ، : ٣٣ ، ٦١ ، ٧١ ، ٧٧ ،
٣٥٨
عبد الوهاب عزام بك و الدكتور ، :
١٦٨
عثمان بن إبراهيم و نجر الدين المارديني
ابن التركماني ، : ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٤٥
عثمان بن عبد الرحمن المخزومي
البليسي : ٧٩
عثمان بن علي بن محجن و نجر الدين
البارعي الزيلعي ، : ١٣٦ ، ١٤٤
عز الدين بن أيبك الجاشنكير و الملك
المعز ، : في ابن
عز الدين بن عبد السلام : في ابن
عز الدين بن السكويك : ٣١٧
عز الدين بن مسكن و محمد بن محمد
بن الحرث ، : ٧١
عز الدين إيدمر الحلبي : في إيدمر
عز الدين إيدمر الخطيري : في إيدمر

علم الدين البلقيني : في صالح
علم الدين سنجر الجاولي : في سنجر
علم الدين سنجر الشجاعى : في سنجر
علم الدين العراقى : ٢٧٨
علم الدين القمى : ٢٩
على بن أبى طالب : ٣٠٤
على بن عبد الكافى « تقي الدين » : انظر
ابن السبكي
على بن محمد بن حنا « بهاء الدين » :
٤٣
على بن محمد بن الناصح « نور الدين
المقرى » : ١٥١
على بن مخلوف « زين الدين المالكي » :
٢٣٠ ، ٢٢٨ ، ٧٢ ، ٥٥
على بن يعقوب بن جديل « نور الدين » :
٢٥ ، ٢٤
على بن يلىان « علاء الدين الفارسى
المصرى » : ١٣٥
على مبارك باشا : ١٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ،
٣٣٦
عماد الدين بن الاثير الحلبى : ٢١٣
عماد الدين بن عبد الكريم : ١٩٩
عماد الدين اسماعيل « الملك الصالح » :
فى اسماعيل
عماد الدين الحنبلى « أبو بكر
ابن أبى المجد » : ١٣٨
عماد الدين الحنفى : ١٢٤

عز الدين البغدادى « عبد العزيز
البغدادى » : ٧٤ ، ٣٩٠
عز الدين الخروبى « محمد بن صلاح
الدين » : ٤٦
عز الدين الرازى : ٦٢
عز الدين النمرأوى : ٢٢٩
العزى بالله الفاطمى : ٣٧
عصمة الدين مؤنسة خاتون : ٤٥ ،
٦٥
علاء الدين بن خطيب الناصرية :
١١١
علاء الدين بن العطار : ٢٠٠
علاء الدين بن النفيس : ١٢٤
علاء الدين الباجى : ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٧٨
علاء الدين التركمانى « على بن عثمان » :
٧٢
علاء الدين السعدى « على بن سليمان » :
١٣٩
علاء الدين السيرامى : ٢٣ ، ٥٧ ، ٧٣
علاء الدين طيبرس « الأمير » : فى
طيبرس
علاء الدين القونوى : ٦١
علاء الدين على بن أحمد
علاء الدين الماردبى : ١٣٦
علاء الدين مغلطاي الجمالى : انظر
مغلطاي
علم الدين البرزالى : انظر البرزالى

« ف »

فتح الدين بن سيد الناس : في ابن
فتح الدين الباهلي ، محمد بن محمد ، :

٧٣

فتح الدين فتح الله : ٥٤

نفر الدين بن بنت أبي فهد : ٢٢٩

نفر الدين بن تيمية : ٢٢١

نفر الدين بن حنا : في محمد

نفر الدين بن الصقلي ، محمد بن محمد ، :

١٣٣

نفر الدين بن عساكر : ١٧٧

نفر الدين بن مكانس : ٣١٥

نفر الدين الزيلعي : في عثمان

نفر الدين الضرير : ٧٣

نفر الدين وعبد الغني بن عبد الرزاق ، :

انظر عبد الغني

نفر الدين عثمان الاستادار : ١٨٤

نفر الدين المارويني : في عثمان

الفخر الرازي : ٣٠١ ، ٣٠٢

فرج بن برقوق ، الملك الناصر ، :

٣٦ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٧٠ ، ٢٩٨ ،

٣١٨ ، ٣٢٥

الفيروز آبادي ، مجد الدين ، : ٣٣٥

٣٣٧

عماد الدين الدمياطي : ٧١

عماد الدين السكركي ، أحمد بن عيسى ،

في أحمد

عماد الدين موسى المصري : ٨٢ ،

١٦٥

عمارة النيني : ٢٥٣

العماري : ٣٣٧

عمر بن أبي الحمراء السكتاني : ٢٧٩

عمر بن إسحاق ، سراج الدين الهندي

الغزنوي ، : ١٣٦

عمر بن الخطاب : ١٩٣

عمرو بن العاص : ٣٣

عمر بن علي الأنصاري ، سراج الدين

ابن الملقن ، : ٧١ ، ٧٢ ، ١٣٤ ،

١٤٥ ، ١٤٩ ، ٣٣٧

عمر بن الفارض : ١٤٨ ، ٣٩١ ،

٣٩٢ ، ٣٩٣

عمر بن محمد بن طبرزد : ١٧٧

عمر بن الوردی ، زين الدين ، :

٨٠ ، ١١٤ ، ٣٨٠

عمر ، نفر الدين الوزير ، : ٥٥

عيسى بن مسعود أبو الروح

الزواوي : ١١٩ ، ١٣٧ ، ١٤٥

« غ »

غازان : ٨ ، ٢٣٣

الغزالي : ١٨٦ ، ٢٦٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٣٠٠

« د »

قانسوه بن قانسوه و الملك الظاهر :

٤٠٣

قانسوه الغورى و الملك الأشرف :

١٤٨ ، ١٢٤ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٣٦

٣٥٩ ، ١٦٨ ، ١٦٤ ، ١٦٢

القاياني : انظر نجم الدين .

قايتباي و الملك الأشرف : ٢٣ ،

٣٩٠ ، ١٤٨ ، ١١٩ ، ١٠١ ، ٣٦

قبحق و الأمير سيف الدين : ٢٤٥

قراستقر المنصورى و الأمير

شمس الدين : ٤٩

قراستقر و نائب حماة : ٢٤٧

القسطلاني و شهاب الدين : ٧٨ ،

١٧١ ، ١٥٢ ، ١٤٥ ، ١٠٦

قضيب البان : ١٩١ ، ١٩٠

قطب الدين الحلبي : انظر عبد الكريم

قطب الدين السنباطي و محمد بن

عبد الصمد : ١٣٣

قطز و الملك المظفر : ٢٤٥

قطلوبغا الصفوى : ٣٤

قلاوون و الملك المنصور : ٢٣ ،

١١٩ ، ٦٨ ، ٤٨ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٢

٢٤٥ ، ١٦٠

القلقشندى و شهاب الدين : ١٧١ ،

٣٨٠

قنبر بن عبد الله الشروانى : ٧٩

قنبر و سعيد السعداء : ٦٠

قوام الدين الإيتقانى و أمير كاتب ،

انظر أمير

القونوى : ٢٢٩

ك .

الكافيجي و محي الدين محمد بن سليمان :

٣٩٠ ، ٢٧٧ ، ٣٥٦ ، ١٤١ ، ٧٩

الكامل محمد و الملك ناصر الدين بن

العاذل : انظر محمدا

كتبة المنصورى و الملك العادل :

٧٢ ، ٦٨ ، ٥٢ ، ٤٥ ، ٣٨

كثير عزة : ١٧٧

كريم الدين الآملى : ٢٣٠

كريم الدين الصغير ناظر النظار :

٢٤

كريم الدين ناظر الخاص : ٢٤

كال الدين بن أحمد : ١٩٨

كال الدين بن الأستاذ : فى ابن

كال الدين بن العديم : فى ابن

كال الدين بن الهمام و محمد بن

عبد الواحد : ١٣٦ ، ٣٩٠

كال الدين الدميرى : ٧٢ ، ١٣٤ ،

١٦٤ ، ١٣٥

كال الدين الزملكاني : ٢٢٨ ، ٢٢٤

كال الدين السيوطى : ٢٣٨ ، ٣٥٥

كال الدين الضرير : ٧٨

مجد الدين الحراني : ٢٦٢
مجد الدين عبد الرحمن العليمي : ١٤٢
محب الدين بن الشحنة : ٨٣ ، ١٠٦ ،
١١١ ، ١١٧

محب الدين بن دقيق العيد : ٢١٢
محب الدين الحلبي ، محمد بن يوسف
ابن عبد الدايم : ١٥٤
محب الدين عبد الرحمن بن الكمال
بن العديم : في عبد

محمد بن أبي بكر ، شمس الدين بن
القيم : ٧٨ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ،
١٤١ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٦٧ ، ٢٥٩
إلى ٢٧٦

محمد بن أبي بكر الموصلي ، ابن حماد :
١١٥
محمد بن أحمد ، همام الدين الخوارزمي :
٧٣

محمد بن الأحمر ، أبو عبد الله :
٢٩٤ ، ٣٠٢
محمد بن البارزي ، ناصر الدين :
٦٨

محمد بن الحسن البليبي : ١٠٩
محمد بن الحسن ، تقي الدين بن رزين ،
٦٦ ، ٧١ ، ٧٣
محمد بن حمويه الجويني ، صدر الدين
أبو الحسن : ٧١

محمد بن سعد ، شمس الدين الديري : ٧٤

كمال الدين القرشي : ٧١
كمال الدين القليوبي : في أحمد
كمال الدين النشائي : في أحمد

« ل »

لاجين بن عبد الله الذهبي : ١٦٥
لاجين ، الملك المنصور حسام الدين :
٢٣ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ،
١٦٠ ، ٢١١ ، ٢٤٦

اللبودي : ١١٥
لسان الدين بن الخطيب : ٢٩٤ ،
٢٩٥ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ ،
٣١٩ ، ٣٧٠

السكنوي الهندي : ٣٤٠ ، ٣٥٤

« م »

ماك كولين دي سلان ، البارون :
٢٥٥

مالك ، الإمام : ١١٩ ، ٢٠٩
المأمون ، الخليفة العباسي : ٦
المؤيد شيخ محمودي : انظر شيخ
مؤيد الدين العلقمي : ٩ ، ١٠

مجد الدين بن تيمية : ٢٢١
مجد الدين بن دقيق العيد : ٢٠٩
مجد الدين بن عساكر : ٢٢٣
مجد الدين أبو بكر إسماعيل الزنكلوني :
١٣٣

مجد الدين التونسي : ٢٦٢

محمد بن سعيد بن زال و أبو عبد الله
الأنصاري : ٢٩٢
محمد بن صرصره : ١١٨
محمد بن العادل الأيوبي و الملك الكامل
ناصر الدين : ٤٠
محمد بن عبد السلام و أبو عبد الله :
٢٩٢
محمد بن عبد الصمد و قطب الدين
السنباطي : ١٣٣
محمد بن عبد القادر الدميري : ١٦٤
محمد بن عبد الله الأنصاري : ٣٧٠
محمد بن عبد الله بهادر و بدر الدين
الزركشي : ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،
١٤٥
محمد بن عبد الله الحياتي و أبو عبد الله :
٢٩٢
محمد بن عقيل و نجم الدين : ١١٨ ،
١٣٣
محمد بن علي بن حنا و شمس الدين :
٤٣
محمد بن علي بن حنا و نخر الدين :
٧١ ، ٤٣
محمد بن علي بن وهب بن مطيع
« تقي الدين بن دقيق العيد » :
٢٣ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ،
١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٩ ، إلى ٢١٩

محمد بن القصير « أبو القاسم » : ٢٩٢
محمد بن قلاوون « الناصر » : ١٨ ،
٢٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٨ ،
٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٨٢ ،
١١٧ ، ١١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
٢٤٥ ، إلى ٢٤٩ ، ٢٧٩ ، ٣٣٣
محمد بن لاشين الحسامي الطرابلسي :
٨٢ ، ١٦٥
محمد بن محمد بن عيسى القوصي :
٢١١
محمد بن محمد و فتح الدين الباهلي :
٧٣
محمد بن محمود البارق « أكمل الدين »
٦٢ ، ١٣٦ ، ١٥٤ ، ١٥٧
محمد بن المرحل « صدر الدين بن
الوكيل » : ٥٢ ، ٧٢
محمد بن مسلم البالسي ناصر الدين :
٥٣
محمد بن منكلي : ١٦٥
محمد بن نباتة المصري « جمال الدين » :
١٠٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٨٠ ، ٣٥٢
٣٨٠ ، ٣٥٣
محمد بن نصر « أبو عبد الله المروزي » :
١٢٥
محمد البلالي : ٦١
محمد جميل الشطي : ٩٠ ، ٢٣٩

محمد بن سعيد بن زال و أبو عبد الله
الأنصاري : ٢٩٢
محمد بن صرصره : ١١٨
محمد بن العادل الأيوبي و الملك الكامل
ناصر الدين : ٤٠
محمد بن عبد السلام و أبو عبد الله :
٢٩٢
محمد بن عبد الصمد و قطب الدين
السنباطي : ١٣٣
محمد بن عبد القادر الدميري : ١٦٤
محمد بن عبد الله الأنصاري : ٣٧٠
محمد بن عبد الله بهادر و بدر الدين
الزركشي : ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ،
١٤٥
محمد بن عبد الله الحياتي و أبو عبد الله :
٢٩٢
محمد بن عقيل و نجم الدين : ١١٨ ،
١٣٣
محمد بن علي بن حنا و شمس الدين :
٤٣
محمد بن علي بن حنا و نخر الدين :
٧١ ، ٤٣
محمد بن علي بن وهب بن مطيع
« تقي الدين بن دقيق العيد » :
٢٣ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ،
١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ،
١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٩ ، إلى ٢١٩

محمد الحلبي « محي الدين ناظر
الجيش » : ٧٨

محمد الخضر حسين : ٣١٩ ، ٣٠٠

محمد الشطبي : ١١٦

محمد عبد الله عثان « الأستاذ » :

١٢٠ ، ٧ ، ٣١٩ ، ٣١٦ ، ٣٠٠

٢٣٤

محمد القوصي الطيب : ٨٢ ، ١٢٤

محمد مصطفى زيادة : « الأستاذ » :

١٦٨ ، ٣٢٩

محمد منير عبده أغا النقل الأزهرى :

٢١٣

محمود بن أبي القاسم « أبو الشام

الأصفهاني » : ١٢٣

محمود بن الأثير الحلبي : ٢٣٣

محمود بن أحمد بن موسى « بدر الدين

العينتابي » : ٧٤

محمود بن اسماعيل الجيزي : ١٦٦ ، ٨٣

محمود جمال الدين الأستاذار : ٣٢

٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠

محمود عكوش : ٣٣

محمود العيني « بدر الدين » : ١٠٤

١١٥ ، ١١٩ ، ١٣٦ ، ١٤٥ ، ٣٠٠

محي الدين بن الجوزي : في ابن

محي الدين بن حنا : في أحمد

محي الدين الفرضي : انظر يحيى

محي الدين النووي : في يحيى

المزي : ٢٠٠ ، ٢٨٠

المستعصم بالله العباسي : ٩ ، ١٠ ، ١٩

المسعودي المؤرخ : ٣٠٣

مسلم بن الحجاج : ٢٠٤ ، ٢٠٧

المظفر عمر « ملك حماة » : ٢٤٣ ، ٢٤٤

المظفر قطز « ملك مصر » : انظر قطز

المظفر محمود « ملك حماة » : ٢٤٥ ،

٢٤٦

المعز بن الفرات : ٢٩٠

المعز لدين الله الفاطمي : ٣٤ ، ٣٥

معين الدين الأسكندراني : ١٥١

مغلطاي الجمالي « الأمير علام الدين » :

٤٩ ، ١٠٦ ، ١٤٤

المفضل بن هبة الله الحميري الإسفرائي :

١٦٨

المقريزي « تقي الدين أحمد بن علي » :

٢١ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٧ إلى

٦٦ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٩٣

٨٨ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٢

١١٤ ، ١١٦ ، ١١٩ إلى ١٢٢ ، ١٣٥

١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦٨ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠

٣٠١ ، ٣١٧ إلى ٣٣٤ ، ٣٣٤

٣٤٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠

المنصور « أبو جعفر » : في أبو جعفر

المنصور قلاوون : في قلاوون

المنصور لاجين « حسام الدين

الملك » : في لاجين

الناصر فرج بن برقوق : في فرج
الناصر محمد بن قلاوون : في محمد

نجم الدين بن رزين : ٣١٧
نجم الدين بن الرفعة : في أحمد
نجم الدين بن عقيل : في محمد
نجم الدين أبو العباس أحمد القمولى :
١٣٣

نجم الدين الأيوبي : الملك الصالح ،
في أيوب

نجم الدين البالسي : ٧٥
نجم الدين الحارثي : أحمد بن
حمدان ، ١٣٧

نجم الدين القاياتي : ٧١ ، ٧٥ ، ٣٥٥ ،
٣٩٠ ، ٣٨٩

النسائي : ٢٠٧

النسفي : ١٣٦ ، ١٤٩

نصر الدين الجعفرى : ١١٥

نصر الدين المنبجى : ٢٢٨ ، ٢٦٠

نور الدين الإسناي : في إبراهيم

نور الدين : علي بن يعقوب ، :
في علي

نور الدين محمود بن زنكى : ٤٠ ،
٤٤ ، ١١٠ ، ١١٨ ، ٢٤٤

نور الدين المقرئ : في علي

النويري : شهاب الدين أحمد ، :
٨٠ ، ١٢٥ ، ١٧٢

المنصور محمد بن عمر : ملك حماة ،
٢٤٥

المنصور محمود بن عمر : ملك حماة ،
منكوتمر الحسامي : الأمير سيف
الدين ، : ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٦
مذهب الدين بن أبي الوحش : في
ابن

موسى بن محمد اليوسقى المصرى :
في عماد الدين

موسى الملك الأشرف الأيوبي :
١٨٧٠ ، ١٨٠ ، ١٧٩

موفق الدين بن أبي أصيبعة : في ابن
موفق الدين الحنبلى : ٦٢

« ن »

الناشرى : ٧٨

الناصر بن قايتباي : ٢٥٧ ، ٤٠٢

الناصر حسن بن محمد بن قلاوون :
في حسن

الناصر الحريرى : ٣١٧

ناصر الدين بن الفرات : ١١٥

ناصر الدين الجندامى الإسكندري :
انظر ابن المنير

ناصر الدين محمد بن البارزى : في محمد
ناصر الدين محمد بن مسلم البالسي :

في محمد

ناصر الدين محمد بركة : الملك السعيد ، :
في السعيد

، هـ

هبة الله بن عبد الله و بهاء الدين
القفطي، : ١٤٠
الهروى و أبو اسماعيل، : ١٥٠،
٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٦
همام الدين الخوازمى و فى محمد
هولاكو : ٨، ٩، ١٧، ٢٤٥

، و

وائل بن حجر : ٢٩٠، ٢٩١
وحدى و فريد، : ١٠
وجيه الدين بن العماد : فى ابن
ولى الدين بن خلدون : فى ابن
ولى الدين أبو زرعة العراقى : ٧٨،
١٣٥

، دى

ياقوت الحموى : ٢٥٦، ٢٧
ياقوت و الخطاط، : ٦٩
يحيى بن الجيعان و شرف الدين، :
١٢٤، ١٦٨
يحيى بن عبد الرحيم و يحيى الدين
الفرضى، : ١٣٣
يحيى بن محمد بن أحمد العجيسى
البجائى المغربى : ٧٤

يحيى بن محمد و نجم الدين، : ٦٧
يحيى الأقرانى : ٧٨
يحيى المناوى و شرف الدين، : ١٣٤،
٣٨٩
يحيى النووى و يحيى الدين أبوزكريا، :
١٠٣، ١٣١، ١٣٢، ١٤٦، ١٩٦
إلى ٢٠٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧
يشبك الناصرى : ٢٤
يعقوب و المستمسك بالله العباسى، :

٣٥٩

يوسف بن عبد الهادى و جمال
الدين، : ١٠٣، ١٣٩
يوسف بن المغربى : فى صلاح الدين
يوسف البجاسى و الأمير جمال
الدين، : ٧٤، ٥٢
يوسف و صلاح الدين الأيوبى، :
٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤٥، ٦٠، ٨٦
١١٠، ٢٤٤، ٣١٧، ٣٢٨

انتهى فهرس الأعلام، وهو من
وضع المؤلف

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
إنصراف العناية إلى اللغة العربية	٢٦	المقدمة	٣
إنشاء دور التعليم ونظامها .	٢٧	الباب الأول	٥
جامع عمرو . جامع ابن طولون .	٢٣	تمهيد	٥
الجامع الأزهر .	٢٤	مدينة بغداد ومركزها العلمي	٥
جامع الحاكم . المدرسة الصلاحية .	٢٧	والأدبي .	
القمحية .		كلية موجزة عن التتار .	٧
مدرسة ابن شاس . السيوفية .	٣٨	سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ .	٩
الفاضلية		انتقال النشاط العلمي إلى مصر	١٠
الصلاحية . الكاملية . المعزية .	٣٩	والقاهرة	
الظاهرية		خاتمة .	١٣
المدرسة المنصورية	٤٢	الباب الثاني	١٦
المدرسة الصاحبية البهائية . القبة	٤٣	عوامل نشاط الحركة العلمية :	١٦
المنصورية		العوامل الخارجية :	١٧
المارستان المنصوري	٤٤	وقوع كثير من البلاد الإسلامية	١٧
المدرسة الناصرية . القبطية	٤٥	في يد المغول	
الخروية . الفارقانية .	٤٦	قتل العلماء وإتلاف الكتب	١٧
الحجازية . الطبرسية	٤٧	العلمية .	
الحسامية . المنكوتمرية	٤٨	وفود العلماء والأدباء إلى مصر	١٨
الجمالية . القراسنقرية	٤٩	والشام .	
البوبكرية . البقرية . الملكية	٥٠	زوال الخلافة العباسية	١٩
السابقية . الزمامية		العوامل الداخلية :	٢٠
المحمودية . المهذبية . الجاولية	٥١	غيره السلاطين والأمراء .	٢٠
البشيرية . المهمندارية .		تعظيمهم لأهل العلم .	٢١
مدرسة الجاي .		شعور العلماء بواجبهم وتنافسهم	٢٥
مدرسة أم السلطان . الأيتخشية .	٥٢	في أدائه	

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الباب الثالث	٨٧	المجدية . الخليلية . الناصرية	
نتائج نشاط الحركة العلمية		بالفراقة .	
وفود الطلاب إلى دور التعليم .	٨٧	المسلمية . مدرسة إينال . مدرسة	٥٣
كثرة العلماء والأدباء .	٨٨	الأمير جمال الدين الاسنادار	
نشاط الحركة التأليفية .	٨٩	مدرسة السلطان حسن .	٥٤
المؤلفات	٩٠	المدرسة الصرغتمشية	٥٥
كتب التاريخ ،	٩٢	المدرسة الظاهرية	٥٦
كتب تراجم الأعلام .	٩٥	جامع آق سنقر . جامع الخطيرى .	٥٧
كتب السيرة النبوية .	١٠٥	جامع القلعة . جامع ابن المغربى .	٥٨
كتب تاريخ مصر والقاهرة .	١٠٧	جامع الفخرى . المدرسة	
كتب تاريخ المدن والأحصار	١١١	المؤيدية .	
الأخرى		الخواتق والراط والزوايا .	٥٩
كتب التاريخ العام .	١١٣	خانقاه سعيد السعداء .	٦٠
كتب السير .	١١٧	الخانقاه البيبرسية .	٦١
تاريخ الحطط والآثار .	١٢٠	خانقاه شيخو	٦٢
كتب تاريخية أخرى في	١٢٢	رصد الأوقاف على المدارس	٦٣
موضوعات شتى .		والإحسان إلى أهلها .	
تقويم البلدان وما يتصل به .	١٢٣	إنشاء دور الكتب .	٦٧
المؤلفات الدينية ،	١٢٦	العناية باختيار العلماء .	٧٠
كتب الشافعية في الفقه والأصول	١٣١	الدروس المقررة وأثرها .	٧٥
كتب الحنفية في الفقه والأصول	١٣٥	تشجيع المؤلفين .	١١
كتب المالكية في الفقه والأصول	١٣٧	تنافس العلماء .	٨٤
كتب الحنابلة في الفقه والأصول	١٣٧	تجديد الخلافة .	٨٥
تفسير القرآن الكريم	١٣٩	خاتمة	٨٦
وما يتصل به .			

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
مؤلفاته ورسائله	١٨٦	الحديث ومعه مصلحه وشرحه	١٤٢
التعريف ببعض مؤلفاته .	١٨٧	ونقده .	
—		التصوف والعقائد .	١٤٦
٢ — محي الدين النوى	١٩٦	القرارات .	١٥٠
اسمه . مولده ووفاته . طرف من	١٩٦	« مؤلفات العربية »	١٥٢
حياته .		كتب النحو والصرف .	١٥٢
بعض صفاته وعلمه .	١٩٨	بقية فنون العربية .	١٥٥
بعض شيوخه وبعض تلاميذه .	١٩٩	العلوم السكونية ومؤلفاتها .	١٥٨
أقوال المؤرخين فيه .	٢٠٠	الكتب الجامعة .	١٦٩
استدراك على السبكي .	٢٠٠	خاتمة .	١٧٣
مؤلفاته .	٢٠١	الباب الرابع	١٧٥
التعريف ببعض مؤلفاته .	٢٠٣	« تراجم تفصيلية »	١٧٥
—		١ — عز الدين بن عبد السلام	١٧٦
٣ — تقي الدين بن دقيق العيد	٢٠٩	بعض شيوخه . طرف من حياته .	١٧٧
طرف من حياته :	٢٠٩	حادثة خروجه من دمشق إلى	١٧٨
أقوال المؤرخين فيه .	٢١٠	مصر .	
مؤلفاته . التعريف ببعض	٢١٢	النزاع بينه وبين مبتدعة الحنابلة	١٧٩
مؤلفاته .		موقفه من السلطان الظاهر	١٨٢
شعره	٢١٦	بيبرس .	
—		أمثلة من قسوته في الحق .	١٨٢
٤ — تقي الدين بن تيمية	٢٢٠	بيع الأمراء .	١٨٢
الحراني		إسقاط الاستادار نجر الدين	١٨٤
التعرف به	٢٢٠	عثمان	
اسمه ونسبه . مولده ووفاته .	٢٢١	عظته للسلطان	١٨٤
أسرته .		آثاره وأقوال المؤرخين فيه	١٨٥

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٢٢	كلية تيمية .	٢٧٧	٧ - تقي الدين السبكي
٢٢٢	عصره وبيئته ، وطرف من حياته .	٢٧٧	اسمه . مولده ووفاته . طرف من حياته .
٢٢٥	صور من كفاحه .	٢٧٨	أستأذنته .
٢٣٢	وفاته . بعض أخلاقه .	٢٨١	أقوال المؤرخين فيه
٢٣٤	أقوال بعض العلماء فيه .	٢٨٢	بحوثه ومؤلفاته .
٢٣٥	بعض فتاواه وآرائه ومؤلفاته .	٢٨٤	التعريف ببعض مؤلفاته .
٢٣٨	التعريف ببعض مؤلفاته .	٢٨٨	أدبه
٢٤٣	٥ - أبو الفداء «الملك المؤبد»	٢٩٠	٨ - ولي الدين بن خلدون
٢٤٣	مدينة حماة		التعريف به . اسمه . مولده ووفاته . أسرته
٢٤٤	التعريف بأبي الفداء	٢٩٢	تعلبه وشيوخه .
٢٤٦	بعض أخباره	٢٩٣	طرف من حياته .
٢٤٩	علمه وأخلاقه .	٢٩٩	أخلاقه وعلمه .
٢٥١	شعره	٣٠٠	غاية المؤرخين به .
٢٥٢	مؤلفاته والتعريف ببعضها .	٣٠٢	مؤلفاته . التعريف بتاريخه
٢٥٩	٦ - شمس الدين بن قيم الجوزية	٣١٥	وبمقدمته .
٢٥٩	التعريف به .		أدبه : نشره وشعره .
٢٦٠	اسمه وشيء من حياته .	٣١٧	٩ - تقي الدين المقرئ
٢٦٢	شيوخه . علمه وتلاميذه .	٣١٧	التعريف به . مولده ووفاته . شيء من حياته
٢٦٣	مولده ووفاته .	٣١٨	المقرئ في ميزان السخاوي .
٢٦٣	مؤلفاته .	٣٢٠	مؤلفاته
٢٦٥	التعريف ببعض كتبه .		

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
عليه وأخلاقه .	٣٥٩	التعريف ببعض مؤلفاته	٣٢٣
السيوطي بين المدح والقدح	٣٦٣	المقريزي الكاتب — والشاعر .	٣٢٢
مؤلفاته .	٣٦٥	—	
الكلام عن بعض مؤلفاته .	٣٦٩	١٠ — شهاب الدين بن حجر	٣٣٥
السيوطي الكاتب الأديب .	٣٧٩	العسقلاني	
نماذج من كتابته الأدبية	٣٨٣	طرف من حياته .	٣٣٥
كتايته العلمية .	٣٨٤	صفاته وعلمه .	٣٣٧
السيوطي الشاعر .	٣٨٥	مؤلفاته .	٣٣٩
وفاة السيوطي	٣٨٦	التعريف ببعض مؤلفاته .	٣٤١
—		شعره .	٣٤٥
١٢ — زين الدين زكريا	٣٨٩	أين تجد شعره .	٣٤٦
الأنصاري		ديوان شعره .	٣٤٧
مولده ووفاته . شيء من حياته	٣٨٩	أمثلة من شعره ومن كتابته .	٣٤٨
الأنصاري بين مدح السخاوي	٣٩١	—	
وقدحه .		١١ — جلال الدين السيوطي	٣٥٥
مؤلفاته .	٣٩٤	اسمه . ونسبه . والده .	٣٥٥
التعريف ببعض مؤلفاته	٣٩٦	طرف من حياته	٣٥٦

انتهى

مصادر هذا المجلد

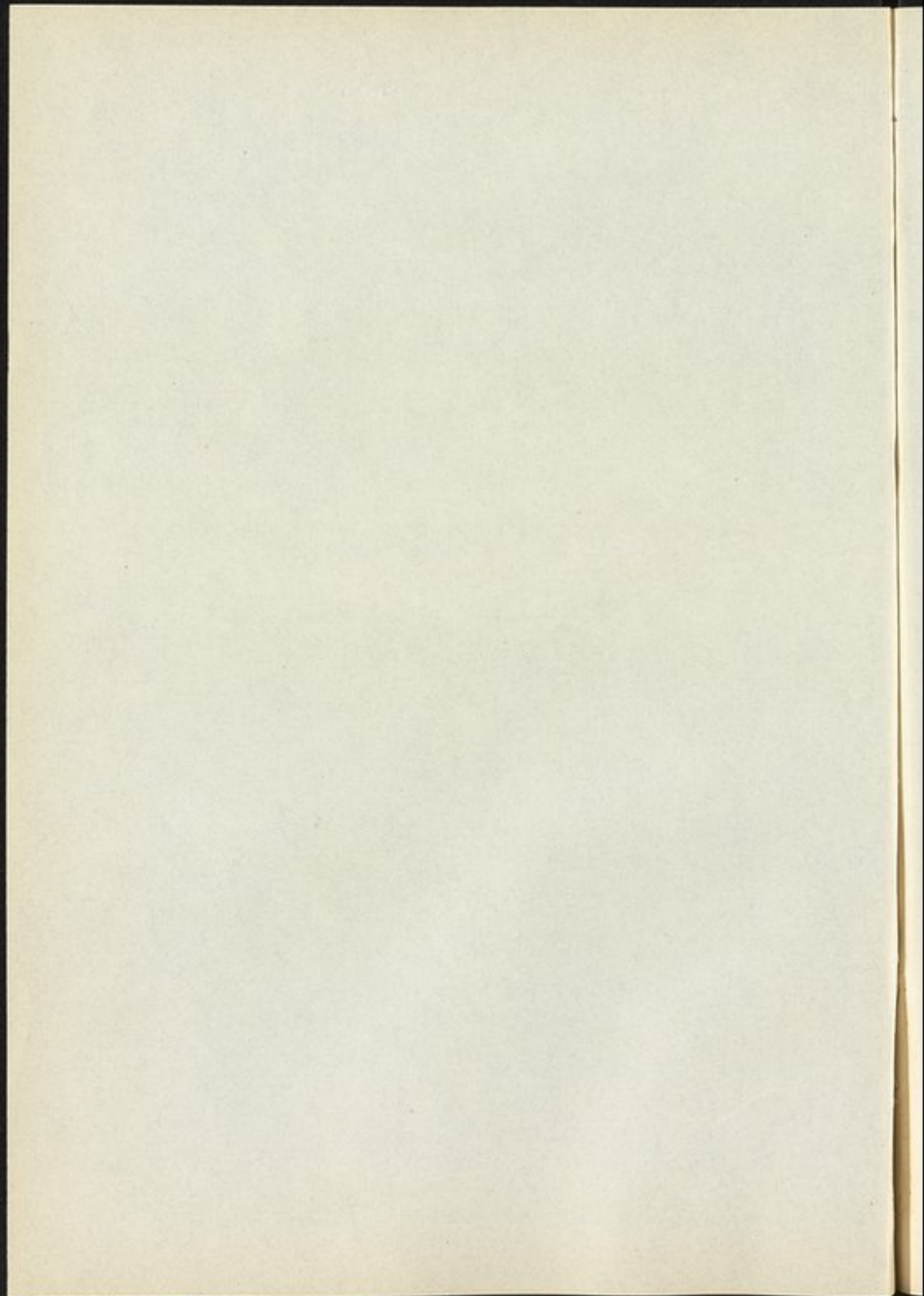
نوهنا في الجزء الأول من هذا الكتاب ، بقسميه ، بالمصادر التي اعتمدنا عليها ،
وتقول هنا إنها هي نفس المصادر التي اعتمدنا عليها في هذا المجلد أيضا ، فلا حاجة
إلى تكرار ذكرها . هذا ، فضلا عن أننا ذكرنا كل مصدر في مناسبه .

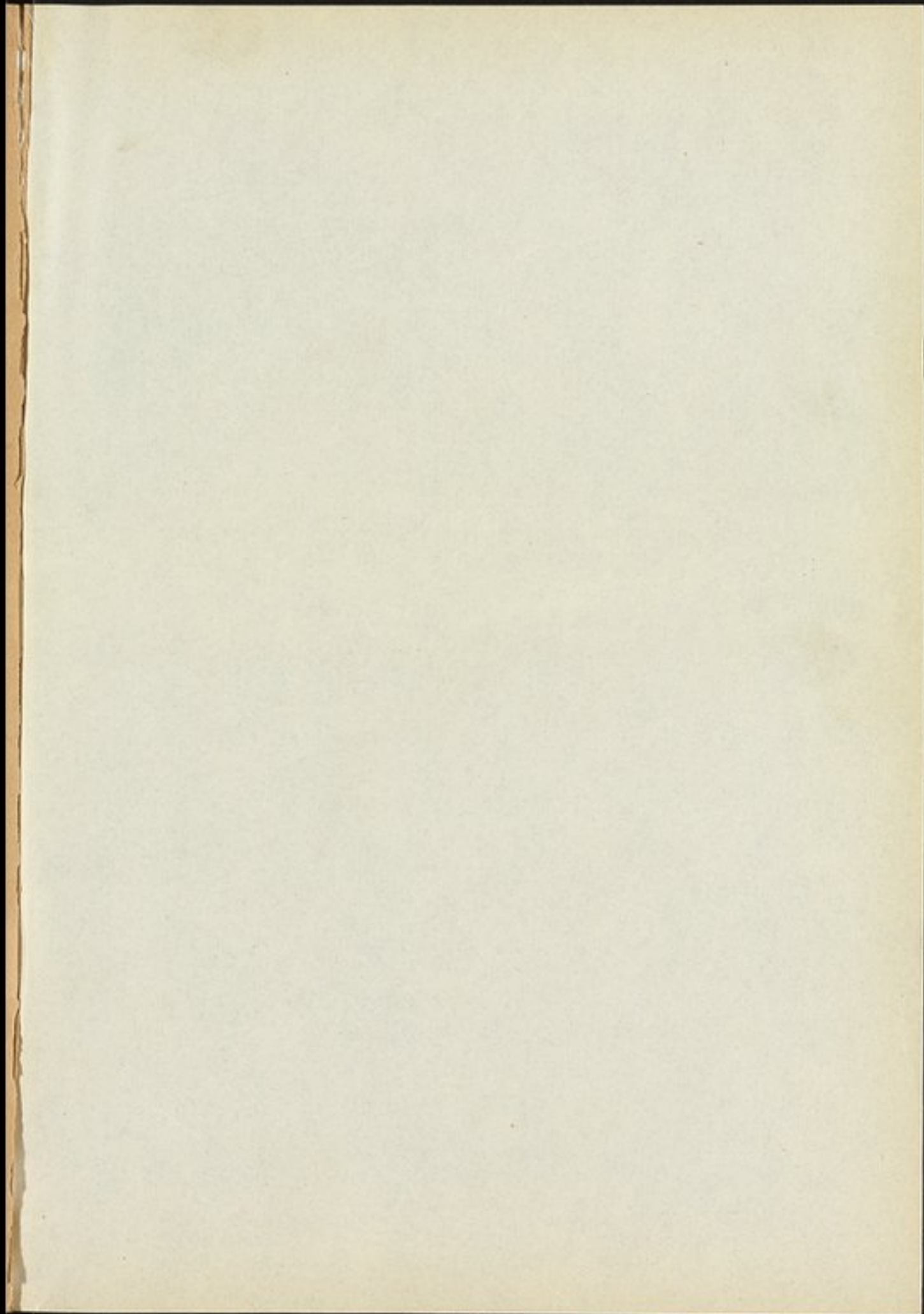
استدراك

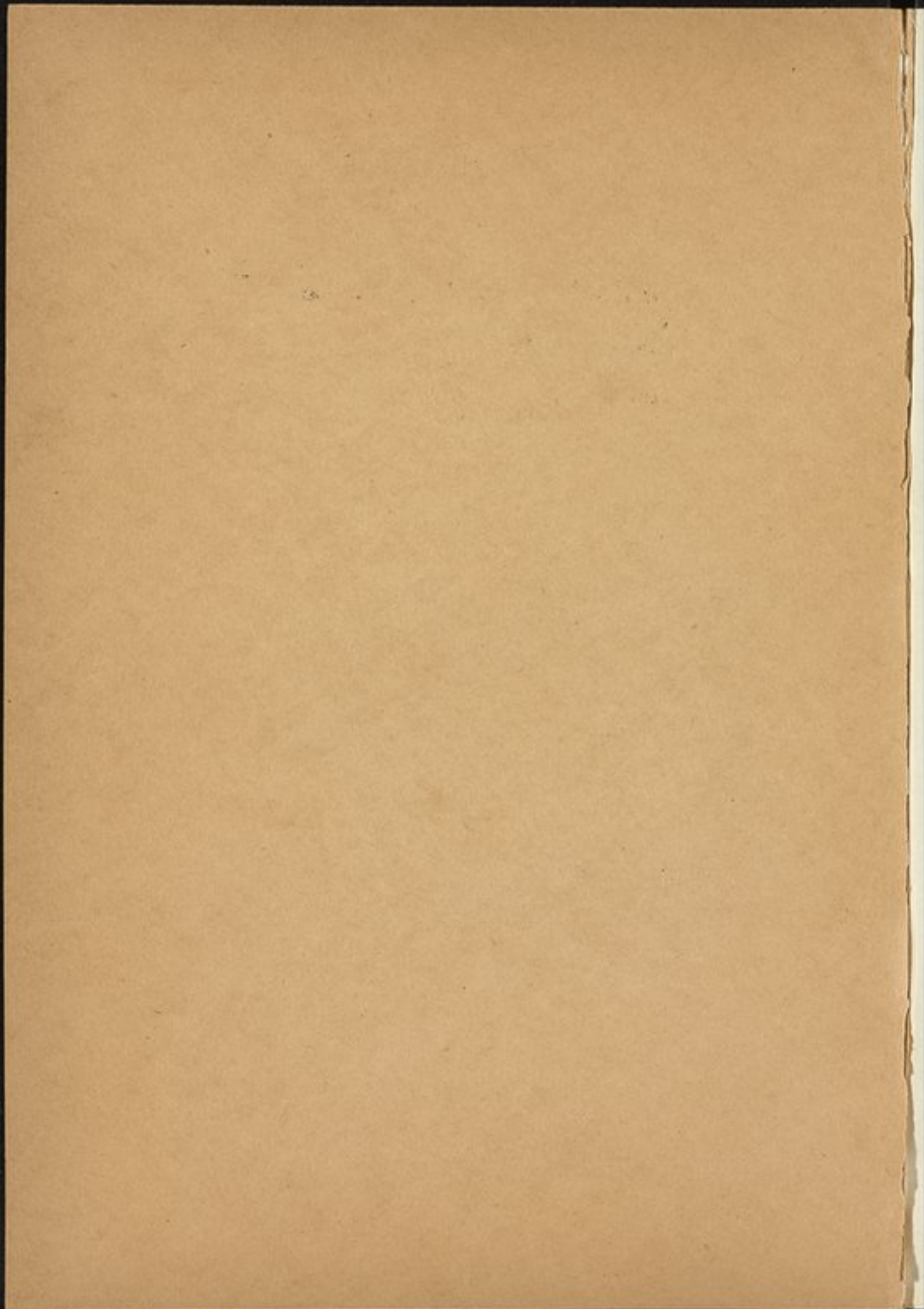
وقع في أثناء الطبع . نقص أو سهو أو خطأ لا يند عن فطنة القارئ الكريم . ونذكر هنا بعضه . والله الموفق للصواب - وله السكال وحده :

الصفحة	الخطأ	الصواب	الصفحة	الخطأ	الصواب
١٠	أنحوا	نحو	٢٦	الفنية	الفنية
٣٠	٨١٦ هـ	٨٠٦ هـ	٣	العضو	العضد
٦٤	المجدار	المجدار	٨١	للمصر إنصافاً	إنصافاً للمصر
٨٣	خشقم	خشقدم	٨٨	ومن كل	ومن كل بلد
٨٨	وطلايه بلد وقد	وطلايه وقد	٩٢	وهي	وهو
٩٥	الصليبيين	بالصليبيين	٩٧	العبد	الصعيد
٩٨	تحتوى على	يحتوى كل منها على	٩٩	٧٢٩ هـ	٧٣٩ هـ
٩٩	العبيدين	العبيدين	١٠١	لاقدم	لاقوم
١١١	علم الرين	علم الدين	١١٣	السحاوي	السحاوي
١١٩	القيني	العيني	١٣٠	لجديراً	لجدير
١٣١	لرافعى	لشيرازى	١٣٢	الفضة	الفضة
١٣٤	الاقفسى	الاقفسى	١٣٥	٧٢٥ هـ	٨٠٦ هـ
١٣٥	٨٠٦ هـ	٨٢٦ هـ	١٣٨	للعباد	العباد
١٤٢	أحمد	ابن أحمد	١٤٣	مصطلحه	ومصطلحه
١٤٣	أعظم	أعظم منه	١٤٤	مقاطاي	مقطاي
١٤٥	لاحاديث	الاحاديث	١٤٦	التصرف	التصرف
١٤٨	الدولة	في الدولة	١٥٠	تعارض	تعارض
١٥٦	حازفا	حاذفا	٦٠	مهندس	مهندس
١٦٣	جلال	جلال الدين	١٦٨	حسين بن محمد	حسين بن محمد
١٦٨	زين الدين	سراج الدين	١٦٨	٧٤٩ هـ	٨٥٠ هـ
١٧٠	أمة	أمة	١٧٢	التنفيذ	التفسير
١٧٢	التصرف	التصوف	١٧٥	الفصل	الباب
١٧٩	عليها	عليهما	١٩٠	لولى	الولى
٢٠٢	تهذيب الرافعى	مذهب الشيرازى	٢٦٢	علمه	علمه
٢٧٢	في أمر تسار	في أمر تسار ومصر	٣٠٦	الصراع	الصريح
٣٠٦	للموحشين	للمتوحشين	٣٠٦	والمشابهة	المشابهة
٣١٨	الفرانى	العراقى	٣٣١	ليكتاب	ككتاب
٣٤٢	نراجيح	ترجيح	٣٤٥	فألفه	فألف
٢٤٦	ومن	ومن	٣٤٧	العظيم	العظم
٣٧٠	ابن فضل	ابن فضل الله	٣٧٠	نمار	نمرات

والله أعلم



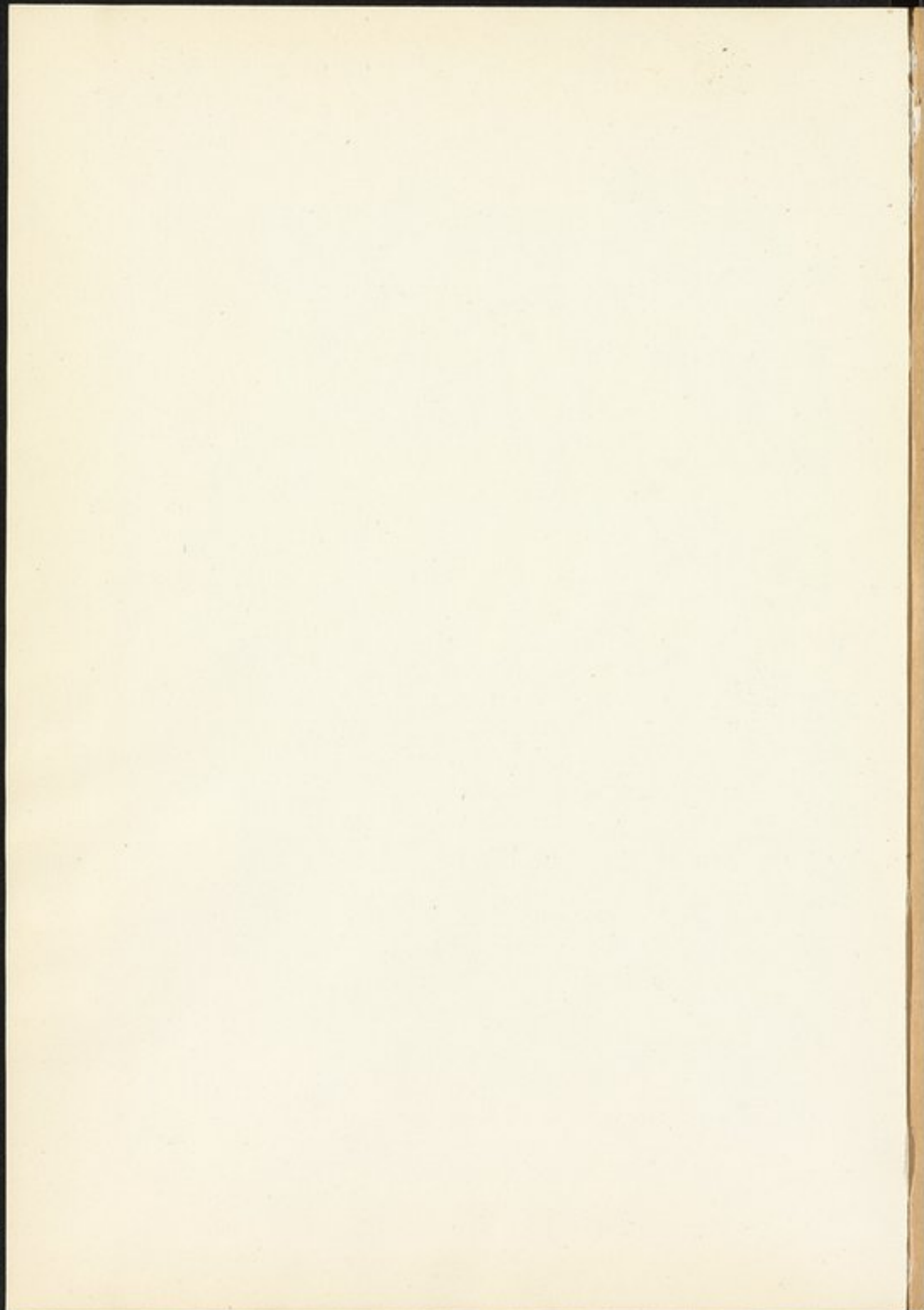


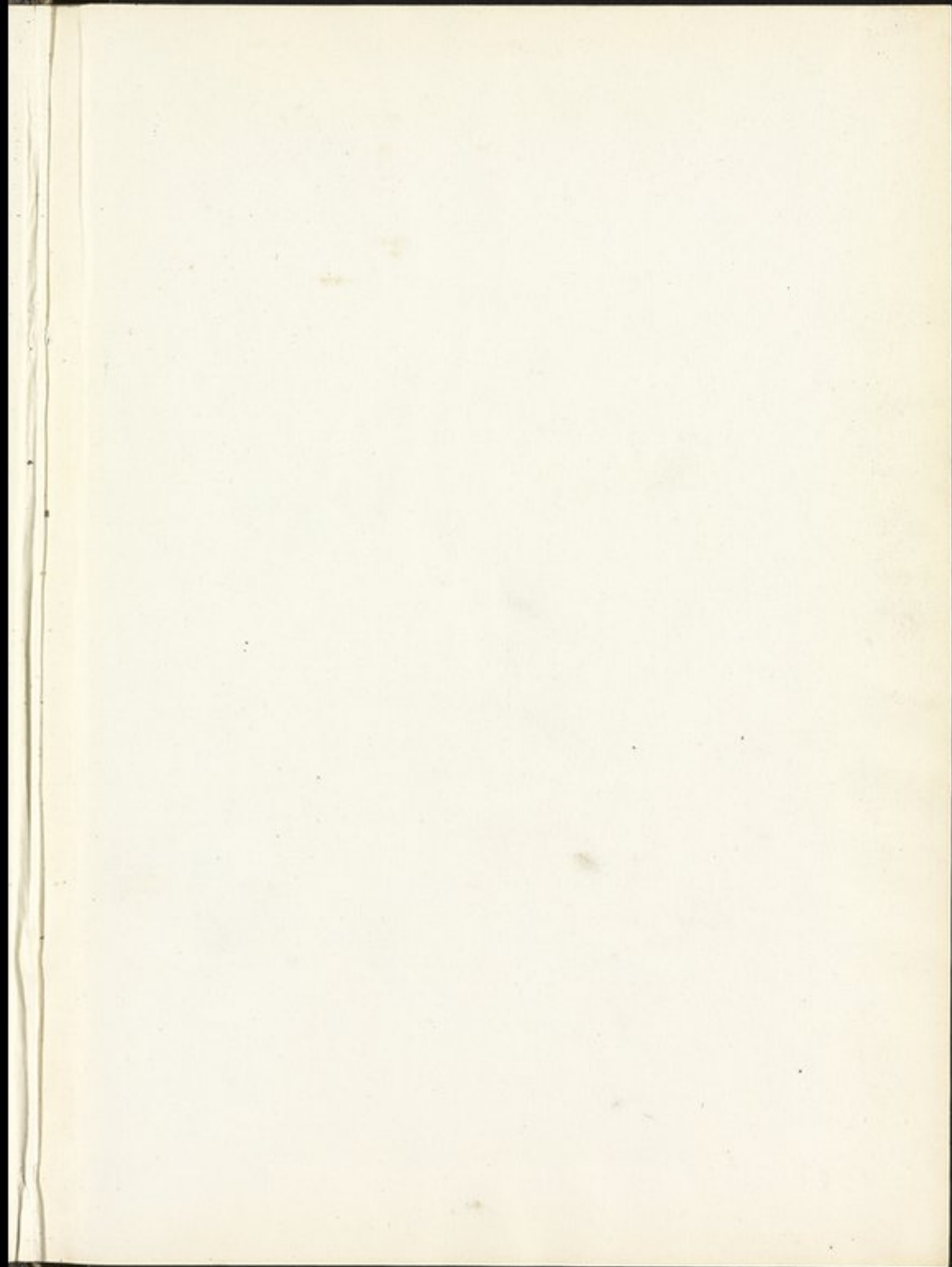


عصر سلاطين المماليك . . . المجلد الأول

، ، ، . . . الثاني

، ، ، . . . الثالث





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036762121

PJ
8206
.S3
v.3

SEP 20 1972

